السيرة مستمرة

تقاطعات وتوازيات المرحلة المكية مع نزول القرآن الكريم

أحمد خيري العمري

الإسراء
قريش
القلم
الإيلاف
العقبة
مكة
يثرب
الوحي
المزمل
الأحلاف
الطائف
بنو سعد
دار الأرقم
الحبشة
أبو طالب
المدثر
المطيبون
خديجة (رض)
حراء

عصير الكتب
للنشر و التوزيع



السيرة مستمرة

الكتـــــاب :السيرة مستمرة

المـــــؤلــــف : أحمد خيري العمري

الطبعة الأولى: ينـــايــر 2018

رقـــم الإيـــداع : 2017/28433

978-977-6541-54-2 :I.S.B.N

تـدقيـق لغـوي: عبد الله أسامة، مريم المير

تنسيــق داخلي : سمر محمد

مدير التوزيع: عمر عباس 01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com



السيرة مستمرة

تقاطعات وتوازيات السيرة المكية مع نزول القرآن الكريم

د. أحمد خيري العمري



المحتويات

إهداء ٩
بضع مقدمات لسيرة لا تحتاج لتقديم ١١
مفاتيح لفهم السيرة ٢٣
مخطط لتوضيح مفاتيح فهم السيرة والعلاقة بين بطون قريش.... ٢٨
فيل في جزيرة العرب ٣١
لم يحدث ذات مولد........ ٣٩
رضيع لكن مهاجر........ ٤٧
يتيم... عدة مرات........ ٥٥
أشخاص في حياتنا ٦٣
حفيد سيد مكة.. وأمي؟ ٧١
الحرب والسلام.. .... ٧٥
الراهب والصبي ٨١
كاريزما النبوة ٨٧
قدر اسمه خديجة ٩٩

الهدم، ثم «إعادة» البناء ١١٥
اللامنتمي؟ ١٢١
أطول ليلة في التاريخ ١٢٩
الأوائل: سايكولوجيا وسوسولوجيا ١٤١
القلم والمزمل والمدثر ١٥٧
حديث المدينة ١٧٧
زلزال في مكة ١٨٥
على رؤوس الجبال... .... ١٩٥
قريش على سطح صفيح ساخن ٢٠٩
غرانيق لا تجيد التحليق ٢١٩
لا أخدود في مكة ٢٢٥
المعجزات لا تحدث سرًا ٢٣٥
الإ يمان على الضفة الأخرى ٢٤٩
أنياب قريش ٢٦٩
إسلام بيضة القبّان ٢٨٣
كل شيء هادئ في شعب أبي طالب ٢٩٥
سأعيش وأموت في جلباب أبي! ٣١١
يتيم مجددًا.. .... ٣١٩
أحداث غير مرئية ٣٢٧

ذات ليلة مختلفة جدًا... .... ٣٣٩
الطريق إلى الخطة «ب» ٣٥٥
صقور وحمائم عاد وثمود ٣٦٩
قاب قوسين أو أدنى... من نقطة التحول ٣٨٩
عقبتان ونقطة تحول ٣٩٧
تذكرة مرجعة من فضلك! ٤٠٩
أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ ٤١٥
«سبلنا» ٤٢٣
عنكبوت ما... حمامة ما.. وأوان الرحيل عنهما... .... ٤٣٣
مطلوب حيًا أو ميتًا ٤٣٩
البداية ٤٤٣
ترتيب نزول القرآن المكي بالتسلسل بالتوازي مع أحداث في السيرة... ٤٤٧

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى نهلة الشابندر...

هذا أول كتاب يصدر لي وأنا أعرف أني لن أتمكن من إهدائه لكِ "شخصيًّا"... لذا فضلت أن أهديكِ إياه على هذا النحو... على الملأ.

منذ أن دخلتُ عائلتكِ صهرًا لك، وأنتِ خير أم وخير سند لي ولكتبي.. كنتِ الأم والصديقة والمستشارة الناصحة الصادقة الأمينة، وكنتِ أيضًا القارئة الناقدة التي تقرأ قبل الجميع وتلاحظ قبلهم... وكنتِ قبل كل ذلك الطبيبة الإنسانة – الحقيقية، مع الجميع.

يوم بدأت كتابة هذا الكتاب، تواصلت معكِ مرارًا لأعرف رؤيتكِ عن قضايا معينة لم تكن تقنعني النظرة السائدة لها، وكنتُ دومًا أجد عندكِ ما أتوقعه من عمق واختلاف.

لم أكن أعرف أنكِ ستكونين قد رحلتِ عندما يصدر الكتاب.

ولم أكن أتخيل أن خطة القدر لرحيلكِ ستتناسق على نحو يجعلك تُدْفَنين بالقرب ممن يتحدث الكتاب عن سيرته، عليه الصلاة والسلام.

صدور الكتاب اليوم يجدد شهقة غيابكِ الموجعة... غيابكِ الذي لا يزال يبدو غريبًا وعصيًّا على التصديق رغم أنه سنة الأولين والآخرين.

آمل أن ينال الكتاب رضاكِ، بطريقة ما...

أحمد

بضع مقدمات
لسيرة لا تحتاج لتقديم

مقدمة ١

كنت قد قررت سابقًا أن أؤجل الكتابة في السيرة النبوية الشريفة «حتى حين».

لكن الحياة تعلمنا دومًا أن نتخلى عن قراراتنا «الغبية» عندما يحين أوان ذلك، وبدلًا من انتظار ذلك الـ «حين» ، الذي قد لا أتمكن من الكتابة فيه عندما يأتي، وجدت نفسي أبدأ الكتابة في السيرة.

بدأ الأمر بمحاولة كتابة برنامج تلفزيوني مختلف عن السيرة النبوية الشريفة في المرحلة المكية، وتم الاتفاق مع قناة والإعداد للبدء في التصوير، ثم تراجعت عن الأمر قبل أيام من بدء التصوير، ولم يصل فريق العمل إلى أي قناة يمكن إقناعها بإنتاج البرنامج.

ما أزعجني يومها من عدم إنجاز العمل، بدا لي لاحقًا نعمة تستحق سجدة شكر، إذ أتيح لي التعمق في البحث على نحو قد لا يكون متوافقًا مع إمكانات العمل التلفزيوني، ودون التقيد بعدد حلقات أو حجمها أو وقتها وما إلى ذلك من تفاصيل، ناهيك عن اختلافات أكثر عمقًا تتعلق بطبيعة اللغة المستخدمة وحتى الجمهور المستهدف.

مقدمة ٢

يعتقد الكثيرون أن السيرة النبوية قد قدمت على نحو لا يمكن أن نتوقع فيه جديدًا من كتاب يتحدث عنها.

وهذا صحيح فيما يتعلق بسطح السيرة النبوية. أي أحداثها العامة الظاهرية جدًا.

لكن لو حفرنا قليلًا، لو نقبنا قليلًا خلف السطح، لوجدنا الكثير مما هو غير مستكشف وغير مطروق.

ثمة منجم تحت السطح، بلا مبالغة.

وهذه السيرة محاولة للتنقيب في هذا المنجم.

ولأن المنجم كبير، ورحلتنا في بدايتها، وأدواتنا «المصرح بها» قليلة، فهي مجرد بداية..

والسيرة مستمرة...

مقدمة ٣

كان التسييس واحدة من أهم الكوارث التي مُنِيَت بها السيرة في نسختها المعاصرة السائدة.

فقد حدث توظيف واسع لصالح توجه سياسي أو آيديولوجي معين، وبغض النظر عن نجاح هذا التوجه في مآربه أو فشله في ذلك، كانت السيرة هي الخاسر الأكبر لأنها تعرضت في خضم عملية التوظيف هذه إلى عملية اجتزاء خارج سياقها، وأحيانًا عملية افتراء وتشويه.

بكل الأحوال، وبمعزل عن نوايا من فعل ذلك فلم تكن النتيجة لصالح السيرة.

حسب هذه النسخة المسيسة، يبدو الرسول عليه الصلاة والسلام مؤسسًا لحزب أو حركة سياسية سرية في المرحلة المكية ورئيسًا لدولة في المرحلة المدنية.

هذه النظرة لا تختزل دور الرسول عليه الصلاة والسلام أو الإسلام نفسه فحسب، بل هي تقدم فهمًا مغلوطًا لدور الرسول الكريم ومعنى الرسالة، فأي تشابه بين ما قام به عليه الصلاة والسلام وأي دور سياسي أو حزبي هو تشابهٌ في السطح فقط، وأي عملية تنقيب في العمق ستكشف ذلك بسهولة.

عملية التغيير الاجتماعي التي صاحبت انتشار الإسلام هي أكبر وأعمق بكثير من أن تُقَزَّم في مصطلحات السياسة، بل وحتى «بناء الدولة».

مقدمة ٤

هذه النظرة «المسيسة» للسيرة النبوية، من شدة انتشارها، غسلت أدمغة حتى غير المسيسين.. أو حتى غير القريبين من أفكار التيارات المسيسة.

بمجرد أن قلت أني سأكتب في المرحلة المكية كان رد فعل صديق لي: «أها.. السلمية! »

وآخر قال: «مممم، الدعوة السرية.. »

لقد تم تعويدنا على النظر إلى السيرة من ثقب السياسة..

بينما علينا أن ننظر إليها من داخلها، وليس من أي ثقب أصلًا..

فلنتذكر أن «تسييس السيرة» قد جعلها عند كثيرين «منطقة لا يمكن الاستفادة منها»، فليس الجميع مهتمين بالحركات السياسية وأغلب الناس لا يرغبون في الانضمام إليها، ولا يرغبون في انضمام أولادهم لها بالذات! وهذا قد زاد طبعًا بسبب ما فعلته هذه الحركات في العقود الأخيرة وفشلها في الارتقاء بمستوى ما تستخدمه من شعارات.

آن لنا أن نزيل هذه النظرة، وأن نكف عن النظر إلى السيرة من ثقب السياسة الضيق.

فلعل ذلك يرجعها إلى أن تكون منطقة إلهامٍ وفاعليةٍ واقتداءٍ..

مقدمة ٥

اعتقادنا أن الجميع يعرفون الكثير عن السيرة -بخطوطها العامة على الأقل- ليس دقيقًا تمامًا.

ربما الأمر أقرب إلى الصحة بالنسبة للأجيال السابقة، لكن ثمة جيلًا جديدًا اليوم، بالكاد يعرف شيئًا عن السيرة..

للتوضيح أكثر: الأجيال السابقة نشأت أغلبها ضمن مدارس الحكومة أو منهج حكومي في مادة الديانة حتى ضمن المدارس الخاصة.

كذلك نشأت أغلب الأجيال السابقة أيام كانت هناك قناتان فقط في التلفزيون الرسمي، لذا لم يكن هناك مفر من مشاهدة فيلم «الرسالة» مثلًا، أو برامج تتحدث عن السيرة النبوية.

لكن هناك جيلًا جديدًا لاحقًا؛ نشأ في ظل انفجار القنوات الفضائية والتعليم الخاص والمناهج الأجنبية في نفس الوقت تقريبًا، وكبر هذا الجيل وهو بعيد نسبيًا عن معرفة السيرة النبوية، صحيح أن أغلب المناهج الأجنبية تدرج مادة الدين ضمن موادها، ولكن ذلك يحدث على نحو بدائي جدًا، وبمعزل عن السيرة النبوية غالبًا.

وهكذا فإن الكثير من «بَدَهيَّات السيرة النبوية» بالنسبة للأجيال السابقة، قد تبدو مثل ألغاز تحتاج إلى محرك البحث غوغل بالنسبة للكثيرين من الأجيال الجديدة، أشياء بسيطة مثل اسم أم النبي عليه الصلاة والسلام أو اسم عمه أو جده، أو مثلا مع أي جهة من المواجهة كان أبو سفيان في غزوة أحد، مع المسلمين أم المشركين؟

أسئلة عن أمور بسيطة كهذه كان جوابها بَدَهيًّا أو من «المعلوم بالضرورة» بالنسبة للأجيال السابقة، لكنها قد لا تكون مفهومة أبدًا بالنسبة للجيل الجديد.

لا أقول الآن إن هذه التفاصيل مهمة أو مؤثرة على جوهر السيرة، ليس هذا هو الموضوع.. بل الفكرة هي أن الكثير من الجيل الجديد يجهل أشياء كانت تعد من المعلوم بالضرورة في الأجيال السابقة.. ومن باب أولى أنهم قد يجهلون أمورًا أهم من اسم الأم أو العم أو في أي جهة حارب أبو سفيان.

مقدمة ٦

أهم ما يجب فعله للتنقيب في السيرة تحت سطحها، هو أن نحاول النظر إليها من داخلها. وليس من كرسي المشاهد الذي ينظر إليها بينما أحداثها تدور أمامه على شاشة مسطحة ببعدين.

المشاهدة بثلاثة أبعاد تحتاج إلى أن نفهم السياقات الاجتماعية والتاريخية التي حدثت فيها أحداث السيرة، وهذا سيمنحنا فهمًا أكبر وأعمق لأحداث بدت لنا من البدَهيَّات دون تفسير، لماذا اسْتُفِزَّت قريش جدًا بكلمة معينة؟ لأن هذه الكلمة ذكرتها بأحداث معينة سبق أن مرت بها قريش.. لماذا أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام فلانًا تحديدًا إلى فلان تحديدًا؟ لأن لكل منهما سياقًا معقدًا يستحضره عليه الصلاة والسلام في فحوى ما أرسله إلى فلان.. لماذا ذكر اسم صنم معين في هذه الواقعة؟ وليس أيًا من الأصنام الأخرى؟ لأن هذا الصنم تحديدًا كان يمثل شيئًا معينًا له أهمية في سياق الحدث.

مقدمة ٧

محاولة مشاهدة السيرة من داخلها أمر مهمٌ.

ولكن مشاهدتها من داخل «عينه» عليه الصلاة والسلام أمرٌ أكثر أهمية وأكثر ثراءً وخصوبة.

كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ كيف يمكن لنا أن نرى بعينيه الكريمتين ونعرف دواخله؟

يمكن لهذا أن يحدث -بحدود- من خلال آيات قرآنية كثيرة خاطبته عليه الصلاة والسلام مباشرةً وكشفت عما كان يدور داخل نفسه الشريفة.

كذلك هناك أكثر من حديث يتحدث الرسول عليه الصلاة والسلام عن دواخله بشفافية بالغة الصدق.

عليّ أن أسجل هنا أن الكتاب يتضمن «احتمالات» أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قد فكر بهذا، أو تذكر هذا، أو ربط بين هذه الواقعة وبين آية قرآنية يمكن أن يكون معناها قريبًا مما حدث، أقول «احتمالات» وغالبًا تقال هذه الاحتمالات بصيغة واضحة تفيد أنني لا أجزم بشيء بل أقترح فحسب، مثل أن أطرحها بصيغة تساؤل أو أقول «لعله فكر عليه الصلاة والسلام».. إلخ.

ولأني أعرف كيف يفكر البعض، فإني أستبق الأمر وأقول أن هذا ليس كذبًا على الرسول عليه الصلاة والسلام، لأني لا أزعم أنه فكر هكذا فعلًا بل أقترح فحسب ولا أدّعي أن اقتراحي هذا صحيح أو أكيد، وهو أمر مختلف تمامًا عن القول بأنه قال شيئًا محددًا.

كذلك بالنسبة لنفس البعض: غالبًا أسماء الصحابة تأتي بدون دعاء الترضي عنهم، وهذا أمر يثير حساسية هذا البعض ويسهل عليهم شحذ نظرية المؤامرة وسيف الاتهامات في أذهانهم، لذا أستبق كل الحدث وأقول، في المقدمة، رضي الله عن جميع الصحابة الذين وردت أسماؤهم في الكتاب. وفي كل مرة يأتي فيها اسم أي منهم.

مقدمة ٨

التنقيب في السيرة تحت السطح يحتاج على نحو تلقائي إلى أدوات تحليل وربط واستنتاج.

مخرجات هذه الأدوات لا تكون يقينية بطبيعة الحال، بل تكون «ظنية».

لدينا -في تفكيرنا السائد- مشاكل مع كل هذا.

مع التحليل والربط والاستنتاج! باعتبارها أدوات عقلية، وهناك من لديه تحفظات على العقل وإعماله في النصوص ومن باب أولى أن يخص الأمر الأدوات العقلية.

أيضًا هناك مشكلة مع الطبيعة الظنية للمخرجات، الظن عمومًا سمعته سيئة ويعامل كما لو كان إثمًا رغم أن سياق الآية القرآنية «إن بعض الظن إثم» لا يمكن أن يشمل هذا النوع من الظن، عدا أن الآية لا تشمل كل الظن. بل بعضه فقط.

هناك من يعتقد أن كل ما يتعلق بالدين أو بالسيرة يجب أن يكون يقينيًا لا مجال للظن أو الاحتمال فيه، وهذا أمر غير منطقي وغير حاصل أصلًا، اليقينيات تكون في أمور عقائدية محددة، لكن هناك الكثير مما لا يقين فيه بل له احتمالاتٌ متعددة علينا أن نتقبلها، وأعتقد أن «السيرة» هي من المجالات التي علينا أن نتقبل فيها وجود الاحتمالات إذ إن اليقيني فيها قليل بطبيعته.

مقدمة ٩

النظر إلى السيرة من داخلها ومن خلال عينه عليه الصلاة والسلام يحتم أن نقرأها من خلال ترتيب نزول القرآن الكريم.

أي عبر ربط أحداث السيرة بتتابع نزول السور وملاحظة أثرها على أحداث السيرة.

هذا الأمر ليس جديدًا تمامًا، وقد سبقني له أساتذة كبار مثل الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه «سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صورة مقتبسة من القرآن الكريم»، والدكتور عبد الصبور مرزوق «السيرة النبوية في القرآن الكريم»، والدكتور عمر يوسف حمزة «العرض القرآني لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام».

المشكلة التي ستذكر هنا، أن «ترتيب النزول» وصل بأسانيد مختلفة عن الصحابة والتابعين، وبعض هذه الأسانيد غير صحيحة وهناك اختلافات يسيرة بينها، وهذا يجعلها غير يقينية، ولكن هذا طبيعي تمامًا فلا يفترض بكل شيء أن يكون يقينيًا بلا مراجعة ولا احتمال.

يمكن مراجعة المزيد عن الأمر في دراسة بعنوان «أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره» للأستاذين أحمد خالد شكري وعمران سميح نزال[١].

---

(١) صادر عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

أما عن الأسانيد التي أوصلت الترتيب فقد ذكرت في الكثير من كتب علوم القرآن (مثل فضائل القرآن لابن الضريس، جمال القراء وإكمال الإقراء للسخاوي، ودلائل النبوة للبيهقي وغيرها).. وهناك خلافات يسيرة في بعضها، كذلك هناك ما أرى أنه لا يناسب الوقائع المحيطة وسأشير إلى احتمالية وجود خطأ في هذا التسلسل، ولكنها مواضع بسيطة جدًا وأغلب السور حسب الترتيب مناسبة لوقائع السيرة.

مقدمة ١٠

وهذا يقودنا إلى موضوع الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة في وقائع السيرة النبوية.

الجزء المكي (خاصة المبكر) من السيرة لم يغط بالكثير من الأحاديث، وذلك لأن أغلب من حضر الأحداث من الصحابة توفي قبل وقت انتشار رواية الحديث، وأكثر الصحابة الذين رووا الحديث كانوا صغارًا وقت بداية البعثة وبعضهم لم يكن قد ولد أصلًا؛ لذا فأحداث بداية البعثة قليلةٌ، ومحاولتنا تطبيق معايير الحديث الصحيح على كل أخبار السيرة سيترك بعض الفترات بلا أي خبر تمامًا، لذا ينبغي (في رأيي) التساهل في بعض الأخبار التي قد لا تصنف بالصحة وفق معايير الحديث الصحيح.. كي يبقى هناك سيرة «مبكرة» يمكن الحديث عنها، وهذا هو منهج كل كتاب السير الأوائل مثل ابن إسحاق وابن هشام، ويمكن الاطّلاع في هذا المجال على كتاب الدكتور أكرم ضياء العمري «السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد الحديث في مرويات السيرة النبوية».

ولكن هذا ينبغي أن يكون ضمن عدة شروط، مثل عدم معارضتها لأخبار صحيحة، واتساقها مع عموم الأحداث الأخرى والخطوط العامة للسيرة النبوية كما نعرفها من ثوابتها، وعدم وجود ما هو «غريب» و«خارق للعادة» فيها، إذ هذا يحتاج في رأيي إلى سند قوي وشهود عديدين.

فلنتذكر هنا أن هذه «سيرة حياة» وليست «تشريعًا» ينبغي التشدد في صحة مصادره، أو حتى فضائل أعمال تستحضر نص حديث نبوي بأحرفه..

المعايير هنا يجب أن تكون مختلفة، وتتعامل مع الأمور بمنظار أكثر شمولية.

مقدمة II

أحب أن أشكر هنا مجموعة من الإخوة الذين كان لهم يد العون في مختلف مراحل إنجاز هذا الكتاب.

أشكر أولًا الدكتور أحمد قطشة، فكل ما في الكتاب مر عليه بالتدريج فور كتابته، وحواراتنا حول ما قرأ كانت تجعلني أحيانًا أعيد الكتابة، فقد جعلت مقترحاته العمل أكثر ثراءً فيما أحسب.

أشكر كذلك الأستاذ سامي الزين الذي أمدني بالكثير من الملاحظات عن مفاتيح الشخصيات، والأستاذ عمير الحبال الذي تفاعل مع أجزاء تربوية دقيقة.

أشكر أيضًا شقيقتي الدكتورة صبوح العمري التي سألتها عن أمور دقيقة في تخصصها الطبي بما يغني فهمي لبعض التفاصيل في السيرة، وكذلك صديقي الدكتور علاء أحمد شيرازي أخصائي الطب النفسي.

وأشكر على نحو خاص الأستاذ المخرج عمرو الليثي، الذي كان من المفترض أن يخرج البرنامج أول مرة، حماسه في قراءة نصوص «ما كان يومها حلقات» وتفاعله مع المكتوب كان من أجمل ما حدث وقتها، علمًا أن الكتاب حاليًا مختلف كثيرًا عن نسخته الأولى، كذلك أشكر الأستاذ المخرج منقذ الدباغ على محاولته وإصراره تقديم العمل تلفازيًا.

أشكر أيضًا الأخ الأستاذ محمد شوقي من دار عصير الكتب على حماسه لدفع العمل إلى النور.

الشكر موصول أولًا وآخرًا لزوجتي عائشة العاني على دعمها المستمر وتفاعلها الدائم ورأيها الصريح عندما لا يعجبها شيء، أنزعج قليلًا عادةً ثم آخذ بما قالت!

أشكر الأخوات رنا حسن ونوف الراجحي وهيا العصيمي (حسب التسلسل الأبجدي)، على المساهمة في تصميم الخريطة الذهنية لمفاتيح السيرة، وجدول ترتيب نزول القرآن مع الأحداث.

والأخت الأستاذة غدير علي في التدقيق والملاحظات، وعموم فريق «قيام»، خاصة الأخت فاتن قعقاع والأخ قاسم محمد خلف.

وأشكر كل من سقط اسمه سهوًا في هذا الشكر، وله كل الاعتذار.

مقدمة ١٢

كنت أرغب في إهداء الكتاب إلى أفضل كاتب سيرةٍ معاصر، المخرج الراحل مصطفى العقاد.

صاحب فيلم «الرسالة» الذي ترك فيّ كطفلٍ أثرًا عميقًا ظل معي حتى اليوم.

لكني أهديه إلى والدة زوجتي، الدكتورة نهلة الشابندر رحمها الله، الطبيبة العملاقة صاحبة المواقف الإنسانية والفكر النير، والتي كنت أتواصل معها وأستشيرها أثناء كتابة الكتاب، ثم توفيت أثناء أداء مناسك العمرة، توفيت بالضبط وهي في الميقات وبعد أن أحرمت، ودفنت في البقيع، على بُعد أمتار من مقابر الصحابة، عاشت حياتها تسدد وتقارب لتكون على سنته عليه الصلاة والسلام، وماتت لتدفن بالقرب منه، بطريقة لا أشك أنها كانت تتمناها.

كل من عرفها عن قرب، أو حتى عن بعد، وعرف أعمال الخير التي كانت تؤديها، لا بد أنه يتفق معي...

كتاب عن سيرته عليه الصلاة والسلام، لا بد أن يُهدى لها.. رحمها الله.

مقدمة ١٣

أكثر ما يصدمنا عندما ننقب تحت السطح في سيرته عليه الصلاة والسلام أمران..

الأول بُعد الفهم السائد عند البعض لسنته عليه الصلاة والسلام، عن سنته عليه الصلاة والسلام! أو على الأقل اختزالها إلى أمور محددة، وبعض الاختزال تشويه. بل بعضه قتلٌ.

كيف تحولت سنته عليه الصلاة والسلام عند البعض إلى كلمات تقال أو هيئة على المظهر، وتم نسيان أمور أكثر عمقًا وأهمية؟ كيف لم نعتبر بُعد النظر من السنة؟ كيف لم نعتبر عمق التفكير من السنة؟ كيف لم نعتبر طريقة تفكيره من السنة؟ لماذا يَعُدُّ البعض ثيابه وطريقة تناوله الطعام من السنة ولكن ليس طريقة تفكيره؟ كيف لم نعتبر عدم وجود مشكلة عنده في التعامل مع المشركين حتى في هجرته سنة من سننه عليه الصلاة والسلام؟

لا أقول هنا أن ما يُعَدُّ من السنة ليس منها وأنها غير مهمة.. أو.. أو... لا، ليس هذا ما أقول، لكن بعض الاختزال قاتل، اختزال شخص ما إلى «جلده» ونسيان كل ما هو تحت الجلد من أعضاء حيوية هو أمر قاتل (حرفيًا). الجلد مهم وسيبقى مهمًا ولا يمكن لإنسان أن يحيا من دونه. لكنَّ هذا يجب أن يبقى ضمن بقية الأعضاء ودورها الحيوي.

الأمر الآخر الذي يصدم عندما ننقب في السيرة بعيدًا عن السطح هو ذلك البعد الإنساني؛ شديد العمق، شديد الصدق، شديد الإحساس.

يمكننا أن نستشعره، أن نشعر كم كان إنسانًا حقيقيًا طبيعيًا حتى النخاع، نكاد نلمس لحمه ودمه، نكاد نتحسس مشاعره ونلمسها باليد...

لا أريد أن أتحدث كثيرًا عن تجربتي الشخصية مع هذا البعد الإنساني أثناء عملية التنقيب والكتابة.. وسأترك للقارئ أن يمر بتجربته الخاصة.. لكن أريد فقط أن أقول إنه من الصعب أن تكون طريقة نطقك وفهمك للصلاة عليه نفسها قبل وبعد أن تمر بهذه التجربة.

سيكون هناك فرق.. أو هذا ما آمل أن يحدث، على الأقل.

مقدمة ٤

اختيار العرب لهذا اللفظ للتعبير عن قصة حياته الكريمة له دلالات مهمة.

«السيرة» تعني ضمن ما تعني: المشي، السير..

وهذا يمنح إشارةً حركيةً، ديناميكيةً، للموضوع..

القصة ليست قصة أخبار وحوادث «جامدة»، حدثت وانتهى الأمر...

بل قصة متحركة، ربما قصة تحركه عليه الصلاة والسلام في الواقع، قصة تشكيله له ومساهمته في صنعه..

وربما قصة تحركك أنت أيضًا، تحركك نحو قصص مشابهة، نحو أحداث تساهم في صنعها كما ساهم عليه الصلاة والسلام في صنع أحداث في مسيرته..

ربما تعني السيرة أنها «تسير» إليك.. تخترق حياتك..

أو أنك أنت من يجب أن يسير لها، لتُدْخِلها في حياتك..

* * *

حاولت أن أجد عنوانًا آخر، لكن لم أجد صفة تناسب السيرة أكثر من كونها مستمرةً..

مستمرةٌ كما لو أنها لا تزال تَحْدُث بطريقة ما، مستمرةٌ كما لو أن عُمْقها لم يَكْفِ زمانًا واحدًا ففاضت عبر الأزمان والأماكن..

مستمرةٌ لأننا لا نزال نجد فيها ما يستمر فينا.. وما يجعلنا نستمر أيضًا...

هي مستمرةٌ.. بأبعادٍ كثيرة، ومتعددة.

وهذه محاولةٌ للتنقيب داخل منجمها.

مفاتيح لفهم السيرة

من المهم فهم الخلفية الاجتماعية لقريش، لأنها لعبت دورًا مهمًا في أحداث السيرة وبعض هذه المفاتيح تم استخدامها وتوظيفها من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أن مشركي قريش استخدموا نفس المفاتيح في حربهم ضد الرسول عليه الصلاة والسلام.

من المهم أن نضع هذا في الحسبان عندما نحاول تفحص سيرته الكريمة من «داخلها» قدر الإمكان، وليس من داخل قوالب الأبيض والأسود التي تتحكم في رؤيتنا لكثيرٍ من الأمور خاصة تلك المتعلقة بالإيمان.

هذه المفاتيح مهمةٌ لفهم السيرة وما حدث فيها، وسيكون هناك إشارات متكررة لها على نحو يسهل الرجوع لها باستمرار، وذلك لوجود بعض التداخلات التي قد تُصَعِّب الفهم دون الرجوع للمفاتيح.

المفتاح الأول: النضر بن كنانة، هو الجد الأكبر لقريش ويَعُدُّه كثيرون المؤسس الأصلي للقبيلة، بل ويعتبرون أن اسم قريش جاء منه. ويسمى أيضًا «قريش الأكبر». وهو الجد الثاني عشر للرسول عليه الصلاة والسلام.

آخرون يعدون حفيده، فهر بن مالك بن النضر، المؤسس الحقيقي لقريش، ويسمى أيضا قريش الوسطى، وإليه يعود نسب كل العشائر المكونة لقريش، وهو الجد العاشر للرسول عليه الصلاة والسلام.

المفتاح الثاني: كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (وهو الجد السابع للرسول عليه الصلاة والسلام) تنسب له أغلب العشائر المكونة لقريش، وقد عاش تقريبًا من أواخر القرن الميلادي الأول إلى القرن الميلادي الثاني، وهو الجد الذي تلتقي عنده كل عشائر قريش عدا بني حارث وعامر ومحارب الذين يلتقون مع قريش في جد أعلى ؛ (لؤي بن غالب بن فهر بالنسبة لبني عامر، وفهر بالنسبة لبني الحارث ومحارب).

المفتاح الثالث: **انقسام قبيلة قريش إلى عدة عشائر وبطون**

انقسمت قريش إلى عدة عشائر، وانقسمت بعض العشائر إلى عدة بطون، واستمر هذا الانقسام إلى أن أوقفه الإسلام، وكان معيار الانقسام كثرة العدد وتراكم الثروة، الشيء الذي قد يجعل أحد البطون مستقلة عن سواها من أبناء العمومة الذين يمكن أن يستمروا متحدين إلى أن يحدث تراكم عددٍ وثروةٍ ليحدث انقسامٌ جديد.

على سبيل المثال: عُدي ومُرّة وهصيص هم أبناء كعب بن لؤي (راجع المخطط المرفق).

أبناء عدي لم يحدث فيهم تراكم في العدد أو الثروة على نحو يجعلهم ينقسمون، فظلوا كـ «بني عدي» إلى ظهور الإسلام.. لكن أبناء عمهم مرّة انقسموا عدة انقسامات فكان منهم عند ظهور الإسلام؛ بنو زهرة وبنو قصي وبنو تيم وبنو مخزوم، وانقسم بنو قصي بدورهم إلى بني عبد الدار وبني عبد مناف.

أما هصيص فقد تفرع منهم بنو سهم وبنو جمح.

ويذكر كمثال على أهمية العدد بالنسبة للعرب، نذر عبد المطلب بأن يذبح واحدًا من أبنائه لو بلغ عددهم عشرة ذكور وبلغوا مبلغ القدرة على حمايته[1]. فكلما زاد عدد أولاده القادرين على حمل السلاح زادت قوته وهيبته، علمًا بأن الكثير منهم كانوا يموتون صغارًا بسبب طبيعة الحياة آنذاك، لذا فما يعول عليه هنا ليس العدد بالمطلق، بل عدد من كبر وبلغ عمر القدرة على حمل السلاح.

ويمكن فهم فكرة تعدد الزوجات وأهميتها من خلال علاقتها بمفهوم (القوة تأتي من العدد)، فكل زوجة إضافية تمنح المزيد من الذكور للعشيرة ستزيد من قوتها بين العشائر، والتعدد نفسه لا يأتي إلا بتراكم ثروة يسمح بذلك.

يمكن كذلك فهم أهمية التبني عند العرب قبل الإسلام، خاصة أن الأمر كان مقتصرًا على الذكور فيما نعرف، وكان يزيد من قوة العشيرة الجديدة التي انتمى لها المتبنَى.

المفتاح الرابع: **قصي بن كلاب بن مرة بن كعب** (٤٠٠م – ٤٨٠م): ويسمونه قريش الأصغر، وهو الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام ويمكن اعتبار أنه هو المؤسس الحقيقي لقريش، تمكن من التحالف مع قبيلة كنانة (وهي القبيلة الكبرى التي تنتسب لها قريش) لطرد قبيلة **خزاعة وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة** من مكة.

وأبقى عشائر قريش (المنحدرة من النضر بن كنانة) وحدها في مكة، أخذ قصي سدانة الكعبة والرفادة والسقاية، ويمكن اعتبار قصي مُؤسسًا لمكة كمدينة، حيث أعاد بناء الكعبة وبنى دار الندوة الذي كان بمثابة دار للمشورة والسيادة في مكة، وكذلك قام بتقسيم مكة إلى رباع (أحياء) وأسكن فيها العشائر.

---

(١) سيرة ابن هشام تحقيق السقا الجزء الأول صفحة ١٥١.

المفتاح الخامس: **<u>أولاد قصي</u>**: أنجب قصي أربعة ذكور هم عبد الدار، عبد مناف، عبد العزى وعبد قصي، وقد انحدر من ثلاثة منهم؛ (عبد الدار، عبد مناف، عبد العزى)، ثلاثة بطون من أهم بطون قريش، (راجع المخطط المرفق) كما أن النزاع بين اثنين منهم (عبد الدار وعبد مناف) قد قسم قريش كلها إلى معسكرين تحالف كل منهما لنصرة هذا الطرف أو ذاك.

المفتاح السادس: **<u>الصراع بين بني عبد الدار وبني عبد مناف</u>**:

كان عبد الدار أكبر أبناء قصي، ولكن عبد مناف تفوق عليه في الثروة وعدد الأولاد، فأحب قصي أن يعوضه عن ذلك بإسناد دار الندوة واللواء وحجابة الكعبة والسقاية والرفادة له.

وبعد موت قصي، قرر بنو عبد مناف أن يأخذوا «الرفادة» و«السقاية» من بني عبد الدار، وأدى ذلك إلى انقسام عشائر قريش الأخرى في حلف وحلف مُضادٍ.

المفتاح السابع: **<u>حلف المطيبين وحلف الأحلاف</u>**

أدى الصراع بين بني عبد الدار وبني عبد مناف إلى اصطفاف عشائر قريش مع هذا الطرف أو ذاك.

فكان حلف المطيبين هو الحلف المؤيد **<u>لبني عبد مناف</u>** والمكون من عشائر:

١- بنو زهرة بن كلاب.
٢- تيم بن مرة.
٣- بنو أسد بن عبد العزى بن قصي.
٤- بنو الحارث بن فهر.

وحلف الأحلاف (المسمى أيضًا لعقة الدم) والمؤيد **<u>لبني عبد الدار</u>** والمكون من عشائر:

١- بنو مخزوم بن يقظة.
٢- بنو سهم بن عمرو.
٣- بنو جمح بن عمرو.
٤- بنو عدي بن كعب.

بقيت عشيرتان على الحياد في هذا الصراع وهما بنو محارب بن فهر وبنو عامر بن لؤي، لم تدخلا أي حلف.

انتهى الصراع بين الحلفين إلى بقاء حجابة الكعبة واللواء ودار الندوة في بني عبد الدار وانتقال السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف.

المفتاح الثامن: هاشم/ الإيلاف/ تراكم الثروة

هاشم بن عبد مناف (٤٦٥م - ٤٩٧م) هو واحدٌ من أولاد عبد مناف الأربعة إلى جانب (المطلب، نوفل، وعبد شمس) وهو الجد الثاني للرسول عليه الصلاة والسلام، ويعده الإخباريون أول من سن رحلتي الصيف والشتاء التجاريتين، كما يعتبر مؤسس معاهدات «الإيلاف»، التي استندت عليها تجارة قريش، حيث قام هاشم بتحويل مكة من سوق يأتيه التجار لعرض بضاعتهم ويقصده العرب للتبضع إلى مركز تجاري لنقل البضائع بين الشام واليمن مستفيدًا من كتاب أمان حصل عليه من البيزنطيين، واستخدم هذا الكتاب مع كل عشائر العرب في طرق التجارة التي تمر بها القوافل لضمان حمايتها مقابل إشراكهم في التجارة[1]. وعرفت هذه الاتفاقيات بمجملها بالإيلاف، وكانت مصدرًا من أهم مصادر تراكم الثروة الذي شهدته قريش في مطلع القرن السادس الميلادي، علمًا بأن أهلها كان يغلب عليهم الفقر قبل ذلك.

بعد عقد معاهدات الإيلاف بسنوات قليلة وفي عام ٥٠٢ ميلادية نشبت الحرب مجددًا بين الساسانيين والبيزنطيين بعد سلام قرابة ٦٢ عامًا منذ ٤٤٠ ميلادية، وأدت هذه الحرب إلى تعطل طرق التجارة في البحر الأحمر، وبالتالي ازدهار طرق التجارة البديلة والتي يملك المكيون مفاتيحها عبر إيلافهم، وكان ذلك سببًا في تعاظم ثروة القريشيين على نحو غير مسبوق وغير مفكر به.

المفتاح التاسع: التنافس داخل بني عبد مناف/ بين هاشم وابن أخيه أمية بن عبد شمس:

كان هاشم وعبد شمس أخوَيْن شقيقيْن ويقال أنهما كانا توأمًا، عُرف هاشم بخدمة الحجيج وإطعام الناس وبتنظيمه الإداري (الإيلاف)، بينما عرف عبد شمس بالتجارة.

بعد وفاة عبد شمس، حاول ابنه أمية (الذي انتسب له الأمويون لاحقًا) أن يأخذ مكانة عمه هاشم في إطعام الناس، فتحول الأمر بينهما إلى مفاخرة ومنافرة ثم احتكما إلى كاهن من خزاعة فقضى بتغريب أمية في الشام لمدة عشر سنوات[2].

يعتقد بعض المؤرخين أن هذا الحادث ترك أثرًا بين بني أمية بن عبد شمس، وأولاد عمهم هاشم بن عبد مناف.

وربما تعمق الأمر بمشكلة لاحقة بين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية بن عبد شمس، حيث اختلفا على دية لرجل يهودي كان جارًا لعبد المطلب، وكان هذا الأخير يرى أن على حرب بن أمية أن يدفعها لأنه ألّب على قتله، ورفض حرب ذلك وانتهى الأمر بتحكيم رفض حرب نتائجه[3].

---

(١) مفصل تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السابع صفحة ٦٧.

(٢) المنمق في أخبار قريش صفحة ٩٧- ٩٨.

(٣) المنمق في أخبار قريش ٩٠-٩٣.

المفتاح العاشر: **عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف** واسمه الأصلي شيبة، وهو الجد الأول للرسول عليه الصلاة والسلام، أمه هي سلمى بنت عمرو من بني النجار في يثرب، تربى عند أخواله نظرا لوفاة والده وهو مايزال صغيرًا، ثم كفله عمه المطلب فعُرف باسم عبد المطلب، تمكن من سيادة مكة لفترة، وحقق منجزات ومآثر تتعلق بخدمة الحجيج ومكانة مكة والكعبة.

المفتاح الحادي عشر: **خزاعة وتحالفها مع عبد المطلب؛** خزاعة هي القبيلة التي كانت تسيطر على مكة قبل أن يطردها قصي، وهي القبيلة التي أدخلت الأوثان في الكعبة على يد سيدها عمرو بن لحي[1] الذي جاء بالأصنام من الشام.

تحالف عبد المطلب مع القبيلة ضد سائر قريش لتثبيت زعامته، وذلك بعد أن تعرض إلى ظلم من قِبَل عمه نوفل بن عبد مناف الذي اغتصب بعض الساحات التي يملكها عبد المطلب، فنصره أخواله من بني النجار، ثم رأت خزاعة أنها أحق بأن تنصره من سواها لأن جدته حبى بنت حليلٍ (أم عبد مناف بن قصي) كانت من خزاعة، فعقدوا معه حلفًا بأن ينصروه على سائر قريش. وقد عُلِّقَ الحِلف في الكعبة[2]، وحضره بنو هاشم والمطلب دون بني نوفل وعبد شمس.

وقد ثبّت الحلف سيادة وزعامة عبد المطلب على مكة.

وكان لهذا آثارٌ لاحقةٌ كثيرةٌ امتد بعضها حتى فتح مكة.

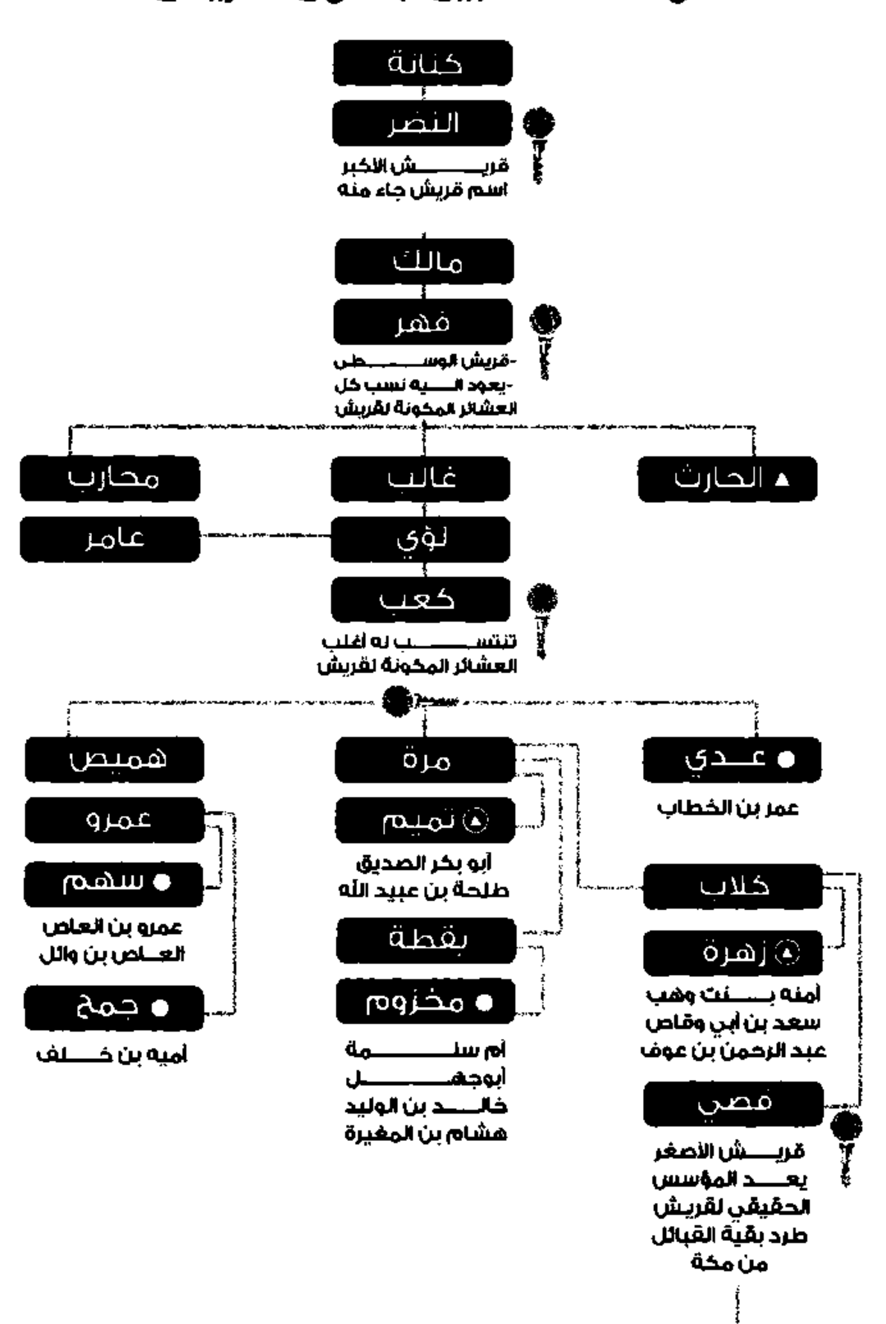
المفتاح الثاني عشر: **حلف الأحابيش:** بعد موت قصي الذي سبق له أن أخرج بني بكرِ بن عبد مناة بن كنانة من مكة، كثرت اعتداءات بني بكر على قريش، فعقد عبد مناف بن قصي حلفًا مع بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة (وهم أخوة بني بكر) وبني الهون من خزيمة، وبني المصطلق وحي من قبيلة خزاعة، وبني نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. واخْتُلف في سبب تسمية الأحابيش، فقيل أن الحلف عُقدَ أسفل جبلِ أحبش في مكة، وقيل لأنهم كانوا قدَ اختلطوا بالأحباش وتزاوجوا منهم، كما قيل أنهمَ كانوا خليطًا من العبيد والمرتزقة.

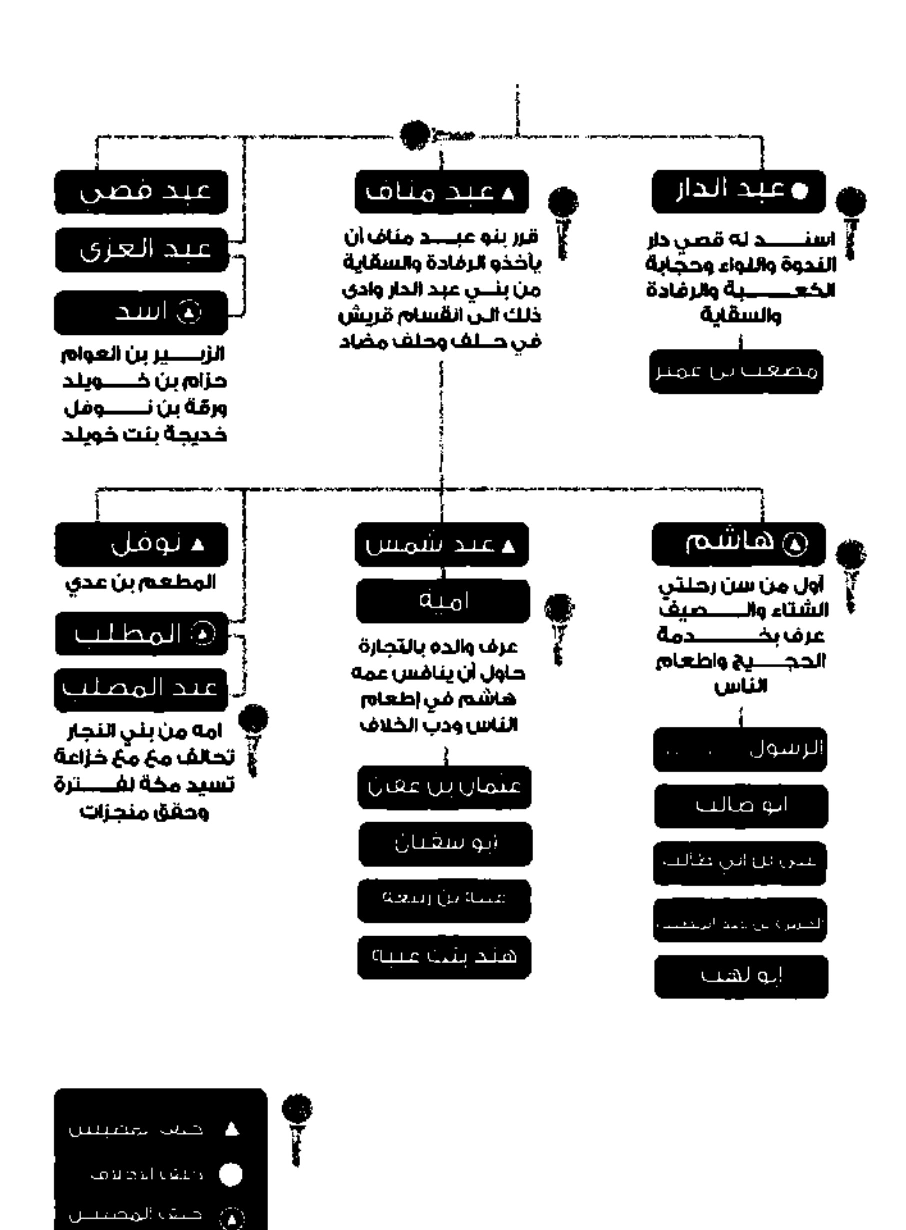
---

(١) مفصل تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السابع صفحة ١٤.

(٢) المنمق في أخبار قريش صفحة ٨٦-٨٧.

مخطط لتوضيح مفاتيح فهم السيرة والعلاقة بين بطون قريش




عبد الدار
اسند له قصي دار الندوة واللواء وحجابة الكعبة والرفادة والسقاية
مصعب بن عمير
عبد مناف
قرر بنو عبد مناف أن يأخذو الرفادة والسقاية من بني عبد الدار وادى ذلك الى انقسام قريش في حلف وحلف مضاد
عبد قصي
عبد العزى
اسد
الزبير بن العوام
حزام بن خويلد
ورقة بن نوفل
خديجة بنت خويلد
هاشم
أول من سن رحلتي الشتاء والصيف عرف بخدمة الحجيج واطعام الناس
الرسول
ابو طالب
ابو لهب
عبد شمس
امية
عرف والده بالتجارة حاول أن ينافس عمه هاشم في إطعام الناس ودب الخلاف
عثمان بن عفان
ابو سفيان
هند بنت عتبة
نوفل
المطعم بن عدي
المطلب
عبد المطلب
امه من بني النجار تحالف مع خزاعة تسيد مكة لفترة وحقق منجزات

فيل في جزيرة العرب

شهد العام الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام حدثًا تاريخيًا مهمًا، ظل العرب يؤرخون به الأحداث لفترة طويلة.

عام ولادته شهد حدثًا فاصلًا جعل بني قومه، الذين كانوا بلا تقويم، يستخدمونه كدلالة على الزمان..

فصاروا يقولون حدث بعد عام من هذا العام، أو قبل عامين، أو بعد خمسة أعوام..

***

كان العالم آنذاك على أبواب حرب كبيرة بين القوتين اللتين تتنازعان السيطرة على العالم...

ففي عام ٥٦٢ ميلادية عقد الساسانيون بقيادة خرسو الأول، والبيزنطيون بقيادة جوستنيان الأول، معاهدة سلام لخمسين عامًا، تخلى فيها الساسانيون عن مدينة لازيكا (جنوب تركيا الحالية) مقابل مبلغ مالي كل سنة، على أن لا يفتح الطرفان أي جبهات جديدة، لكن هذا السلام الذي كان من المفترض أن يستمر حتى ٦١٢ ميلادية، ما لبث أن انهار بعد هذا العام الذي نتحدث فيه بالتحديد، وقبل أن تمضي عشر سنوات من المعاهدة.

***

كانت جزيرة العرب تقع بالضبط بين المناطق التي تقع تقليديًا تحت سيطرة الطرفين المتنازعين، اللذين تعاهدا على السلم فيما كان كل طرف يمكر للآخر..

كانت جزيرة العرب موضع تنافس على النفوذ وليس الاحتلال، إذ لم يكن فيها ما يغري على الاحتلال، ولم تحدث أي محاولة جدية من الساسانيين أو البيزنطيين للتوغل فيها.. لكن كان فيها دومًا أطراف محسوبةٌ على هذه الجهة أو تلك تخوض حروبًا بالنيابة عنها.

تميزت جزيرة العرب بموقعها المركزي في العالم القديم، الذي جعلها تتحكم بطرق التجارة أو على الأقل تشكل طريقًا مهمًا من طرقها... وكان هذا مهمًا بالنسبة للطرفين، أن لا تتأثر التجارة بسبب سيطرة طرف أو آخر على الجزيرة..

***

كان الصراع طبعًا على المصالح والنفوذ والمال...

لكن كما دائمًا، وكما يحدث اليوم، كانت تُرفع بعض الشعارات التي تُجَمِّل دوافع الصراع..

وكان الدين أيضًا يُستخدم كمَطِيَّة لتمرير المصالح.. يُرفع شعار نشر الدين (الصحيح).. أما الهدف الحقيقي فيكون التوسع وتزايد الثروة..

كما اليوم بالضبط...

وهكذا كان هناك ثلاثة أطراف في موضوع الصراع..

البيزنطيون، والساسانيون، والعرب..

البيزنطيون كانوا يدينون بالنصرانية، ويعملون على نشرها لزيادة حلفائهم.. فكل من يدين بدينهم سيكون حليفًا لهم... وهكذا كان الغساسنة من قبائل العرب في شمال الجزيرة.. وكذلك في نجران ومناطق أخرى في اليمن.

الفرس- الساسانيون، يدينون بالمجوسية.. وكان هناك انتشار ضعيف لها في بعض مناطق نفوذهم لكنهم لم يكونوا مهتمين بنشرها لكونها تحولت إلى ديانة عرقية خاصة بالفرس[1]، ولذلك لم يكترثوا لكونهم يحكمون مناطق تنتشر فيها النصرانية دون أن يحاولوا تغيير ذلك..

وكان هناك العرب، وثنيون في الغالب، ويعتنقون النصرانية أو اليهودية في أطراف الجزيرة العربية.

الروم في شمال الجزيرة.

الفرس في شرقها وشمالها الشرقي.

أما جنوب الجزيرة، فقد كان موضعًا لمواجهة معقدة..

اليمن...

* * *

كان اليمن تحت حكم الحميريين الذين حكموا من (١١ قبل الميلاد - لغاية ٥٢٥ ميلادية).. وكانوا حلفاء تقليديين للفرس، علمًا أنهم تهودوا منذ القرن الثالث للميلاد، وكان هذا متسقًا مع حلفهم للفرس الذين كانوا يفضلون اليهودية على النصرانية خوفًا من التحالف مع البيزنطيين.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ١٢ صفحة ١٧١.

وعندما قام الملك اليهودي (ذو نواس) حوالي ٥٢٣ ميلادية بمجزرة نصارى نجران[١] (وهي الحادثة المعروفة بأصحاب الأخدود)، فإن البيزنطيين، قاموا بتحريض مملكة أكسوم -المعروفة بالحبشة عندنا- للقضاء على حكم الحميريين.

وتحت شعار التدخل من أجل إنقاذ النصارى، قامت مملكة أكسوم (التي تدين بالنصرانية، حليفة البيزنطيين) باحتلال اليمن؛ أي أن سيطرة الأحباش على اليمن، كانت ضربة موجعة للفرس، ذلك أنها جعلت الجنوب حليفًا مع بيزنطة.. وأطاحت بالحميريين، حلفاء الفرس..

وقعت اليمن تحت سيطرة مملكة أكسوم منذ حوالي ٥٢٥ ميلادية، أي قبل حوالي خمسين سنة من مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان هذا الواقع قائمًا عندما عقدت اتفاقية السلام لمدة خمسين عامًا بين الفرس والروم.. أي أنه ضمن الأمور التي وافق الفرس على بقائها..

مسار الأحداث في اليمن كان مختلفًا، فعندما وقعت تحت حكم أكسوم، عُين القائد أرياط حاكمًا عليها، لكن أحد قادة الجيش قام بالانقلاب على أرياط، واستقل عن مملكة أكسوم، دون أن يقطع صلته بها تمامًا أو يحاربها[٢].

حكم قائد الجيش المنقلب هذا لمدة طويلة، وكان له منجزاتٌ إدارية وإصلاحيةٌ كبيرةٌ من ضمنها إعادة ترميم سد مأرب في اليمن الذي تعرضَ لانهيار في بعض أجزائه[٣].

بعض الوثائق تذكر أن اسم هذا القائد هو إبراموس.

نعرفه نحن باسم أبرهة..

* * *

فلنرتب الأمر الآن..

قام أبرهة ببناء كنيسة ضخمة جدًا في صنعاء، ظل بناؤها مرتفعًا حتى عهد أبي جعفر المنصور[٤]..

وكان يريد ببنائها الفخم أن يجذب العرب لها، وينشر النصرانية بينهم لكي يكرس سيطرته وسيطرة حلفائه.

الشعارات دينية، لكن الأهداف سياسية واضحةٌ...

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء الرابع صفحة ٢٤٦.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السادس صفحة ١٧١.

(٣) https: //en.wikipedia.org/wiki/Kingdom_of_Aksum
https: //www.britannica.com/biography/Abraha

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السادس صفحة ١٩٢.

الحملة التي قادها أبرهة إلى مكة كان هدفها المعلن دينيًا..

لكنه عمليًا كان يتوسع على حساب النفوذ الساساني / الفارسي[1]..

إذ بهذا يقتحم قلب الجزيرة العربية ويقطع عليهم طريق البحر الأحمر...

أبرهة في الحقيقة، يُضَيِّق على الفرس وتضييقه هذا لصالح البيزنطيين، شركاء الدين، صحيح أنه لم يثبت أنه كان حليفًا مباشرًا لهم، لكنه كان أقرب لهم حتمًا.. ومملكة أكسوم -الحبشة- كانت لا تزال حليفة للبيزنطيين.

* * *

ماذا إذن عن الأسباب المباشرة المعلنة خلف الحملة؟

قيل في الأخبار أن أحد العرب، ذهب إلى كنيسة القليس، وقام عامدًا بترك «فضلاته» هناك في إهانة للكنيسة ولأبرهة ولمشروعه...

ولذلك قرر أبرهة أن يشن حملته لهدم الكعبة..

كما أن هناك سببًا مباشرًا آخر يذكره الإخباريون في هذا الصدد، هو أن بني كنانة قتلت عامل أبرهة على مضر، أي ممثل أبرهة أو حاكمه عليهم، فشن أبرهة الحملة تأديبًا للعرب بتهديم أقدس ما عندهم[2] وربما كان هذا السبب أكثر منطقية في دوافع شن الحملة إذ إن قتل عامل أبرهة أو ممثله الرسمي يعد تمردًا سياسيًا واضحًا أكثر أهمية من الفضلات في القليس.

ليس هناك ما يدعو إلى إنكار حدوث الواقعة أو ما يشابهها، ولكن الحروب والصراعات الكبرى أعقد من أن تختزل بحادثة فردية، يمكن أن يكون أبرهة قد استغل هذه الحادثة أو تلك كحجة لكي تُشَنَّ الحملة، لكن من المستبعد جدًا أن تكون هناك حرب في التاريخ كله قد نشبت بسبب «حدث أصغر».

كان أبرهة بكل الأحوال يتحرك من أجل أجندة أوسع بكثير من مجرد حوادث ومشاغبات فردية.

ومن خلال هذه الأجندة يمكن فهم حملة أبرهة على مكة لهدم الكعبة، واستعراضيتها خاصة عبر اصطحاب الفيلة الغريبة على جو الصحراء، لم يكن الأمر متعلقًا بحرب قبائل العرب، بل كان متعلقًا برسالة واضحة إلى الفرس، وكانت الأجندة تتضمن ربط جنوب الجزيرة العربية (اليمن)، بالجزء الغربي منها (الشام) لصالح حلف البيزنطيين- الأحباش.

* * *

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ٧ صفحة ١٧٢.

(٢) تاريخ الطبري الجزء الثاني صفحة ١٣١.

فلننتبه هنا إلى استعراضية الحملة عبر اصطحاب الفيلة (قيل أنه فيل واحد وقيل عدة فيلة).

لم يكن العرب بحاجة إلى إبهار من هذا النوع لكي يرضخوا أو يخضعوا، إذ لم يكن لديهم جيش منظمٌ سيربكه وجود جيش آخر، بل كانت حروبهم عمومًا حروبَ كر وفر.. لكن الفيل كان رسالةً لمن كان يستخدمه أيضا دون أن يفكر في جلبه للصحراء، إنه رسالة للفرس الذين عرفوا باستخدامهم للفيلة..

في الغالب لم يكن ذلك الفيل الذي أتى به أبرهة من النوع الذي يعتمد عليه الفرس، بل هو نوع إفريقي يتأقلم مع الصحراء وظروفها، على عكس الأنواع المستخدمة من قبل الفرس.

* * *

أهل مكة لم يكونوا أهل حرب، وعلموا أن لا قبل لهم بأبرهة وفيلته وجيشه، لهذا أخلوا مكة إلى جبالها لكي لا يصيبهم ضرر من هدم الكعبة، وقد نُقلت أخبارٌ عن لقاء عبد المطلب لأبرهة ومطالبته له بمئتين من الإبل كان الجيش قد اغتصبها، وعندماً استغرب أبرهة من اهتمام عبد المطلب بالإبل وعدم اكتراثه بالكعبة، أجابه: (**إنما أكلمك في مالي، ولهذا البيت رب هو يمنعه، لست أنا منه في شيء**)[1] - ورغم عدم ثبوت الواقعة لكن يبدو أنه من الثابت أن العرب قرروا أن لا يفعلوا شيئًا تجاه ما ينوي أبرهة فعله.

ما الذي حدث بعدها؟

* * *

يخبرنا القرآن أن الله عز وجل أرسل على «أصحاب الفيل» طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول..

التفسيرات في كلمة «أبابيل» متنوعة ومختلفة، بين نوع من الطيور البحرية، إلى طيور تأتي في مجاميع متفرقة واحدة تلو الأخرى.

ومن الواضح أنه متعلقٌ بنوع من الطيور لم تعرفه الجزيرة من قبل، وأنه نقل الوباء للجيش، قد يكون شيئًا يشبه الجدري كما تناقل الإخباريون، وقد يكون نوعًا من الجدري غير النوع المعروف اليوم؛ لأن الأخير لا ينتقل عبر الطيور ولا يمكن نقله إلا عبر العدوى المباشرة من البشر.

لكنه على الأغلب نوعٌ قريبٌ من الجدري، ذلك أنه كان وباءً مميتًا يمكن تخيل أثره القاتل على الجيش، كما أن من ينجو من الموت قد يصاب بتشوهات دائمة، من ضمنها «العمى».

---

(١) سيرة ابن إسحاق صفحة ٦٣.

وهذا يذكرنا بما نقل عن أن السيدة عائشة رضي الله عنها رأت في طفولتها قائد الفيل وسائسه «أعميين» وهما يطلبان الطعام من الناس في مكة[1].

* * *

انتهى جيش أبرهة إلى أن يكون كعصف مأكول، وذكرت الوثائق إصابة الجيش بوباء شديد وعودته إلى اليمن دون تحقيق مآربه.

انهيار جيش أبرهة في مكة شجع الفرس على الهجوم على اليمن واحتلاله مجددًا وطرد الأحباش منه، وهو ما عده البيزنطيّون نقضًا لمعاهدة الخمسين عامًا [2]، بالإضافة إلى أحداث أخرى متفرقة.

كان ذلك مؤشرًا لاندلاع حرب دامت قرابة العشرين عامًا بين الإمبراطوريتين بين عامي ٥٧٢ و٥٩١ ميلادية...

وقد مهدت هذه الحرب لحرب أخرى لاحقة، ستنهك الطرفين على نحو يسهل لقوة جديدة ثالثة أن تكسرهما معًا..

* * *

كان من نتائج ما حدث أن أهمية الكعبة ومكة تضاعفت وتعاظمت عن ما قبل الحملة.

كانت مكة مهمة بالتأكيد ضمن مجالها لكن نظرة العرب لها تغيرت بعد ما حدث لأبرهة.

صار هناك شعور بوجود حماية ربانية لمكة، حمايةٌ لم تقدم لأحد من قبل.

وقد عملت قريش على استغلال هذا الحدث وهذه النظرة لصالح المزيد من الأرباح، ولذلك فإن طبقية جديدة وُلِدَت من نتائج عام الفيل، الطبقية التي جعلت قريش ومن معها من كنانة وخزاعة تعزل نفسها عن بقيةِ العرب وتسمي نفسها «الحمس»[3]، وتجعل شعائرها مختلفةً بحيث لا يخرجون من الحرم، بل وفرضت ما هو أشبه بالضرائب على بقية العرب ممن صار اسمهم «الحل»، حيث إن عليهم أثناء الحج أن لا يجلبوا معهم الطعام، بل يأكلوا مما يبيعه لهم «الحمس»، وكذلك لا يطوفون البيت إلا بعد أن يبتاعوا أو يستعيروا ملابسهم من «الحمس» أيضا، أو يطوفون عرايا..

أي أن هذه الطبقية العنصرية الجديدة، كانت تزيد في أرباح قريش وتُدار لصالح منافع تُجارها.

* * *

(١) مسند البزار ٣٠٠.

(٢) https: //en.wikipedia.org/wiki/ByzantineXE٩٢XA٠X٢Sasanian_War_of_X٥٧٢E#٩٣٥٩١XA٠X٢Outbreak_of_war

(٣) أخبار مكة للأزرقي صفحة ١٧٦.

هذا هو العالم الذي ولد فيه الرسول الكريم.. وهذا هو العام الذي ولد فيه تحديدًا..

صراع القوى المتجدد دومًا، الدين يتخذ كذريعة لهذا الصراع، والدين يُتَّخذ كذريعة أيضًا للمزيد من الطبقية والعنصرية.

السنن الكونية تشارك في صراع القوى وميزانها..

وسلبية العرب... استسلامهم لكل ما يحدث...

* * *

كان نقش أبرهة المستخدم في مراسلاته يستخدم العبارة التالية:

«بحول الرحمن ومسيحه الملك أبرهة ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن»[1]...

بحول الرحمن، كان يكتب أبرهة.

لكن كان للرحمن قدر آخر..

سيبدأ في نفس هذه السنة.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ٦ صفحة ١٨٤.

لم يحدث ذات مولد...

العريس الشاب ماتَ ولم يمضِ على عرسه أشهر.

والعروس الشابة، أرملة حبلى بعد أشهر من العرس.

هو عبد الله، ابن سيد مكة، عبد المطلب.

وهي، آمنة بنت وهب، من بني زهرة، كبرت يتيمةً في حجر عمها[1] وهيب بن عبد مناف*

وعندما خطبها عبد الله بن عبد المطلب، ابن سيد مكة، لا بد أنها حلمت بحياة أفضل، بزوج ينسيها اليتم، بكل ما تحلمه فتاة عند زواجها، منذ أن أصبح هناك زواج في التاريخ، حتى اليوم.

وربما حدث ذلك فعلًا، ربما تحققت أحلامها.. لكن كان كل شيء قصيرًا كحلم.

ذهب في تجارة إلى غزة، وفي طريق العودة مرت القافلة بيثرب، وكان عبد الله مريضًا، فبقي عند أخوال أبيه من بني النجار، وأكملت القافلة طريقها إلى مكة، ولما عرف عبد المطلب ببقاء عبد الله مريضًا في يثرب، أرسل له أخوه الحارث..

لكن سيد مكة لا يمكن له أن يدفع الموت عن ابنه، فعبد الله مات ودُفن قبل أن يصل الحارث إلى يثرب...

كان عمر العريس ثمانية عشر عامًا حين مات[2].

ولا بد أن آمنة فكرت بالذي في بطنها، سيكبر يتيمًا في حجر جد أو عم، كما كبرت هي.. مهما كان حنونًا... لن يعوض عن الأب...

تراها فكرت بأن المشكلة ربما كانت بها هي؟ وأنها منذورة لنحس مستمر منذ ولادتها؟

هل خفف عنها ذلك المنام الذي رأته؟

رأت نورًا يخرج منها حتى أضاءت له قصور الشام[3]..

لا بد أنه خفف عنها بالفعل. لكن...

لكن طفلها سيولد يتيمًا..

---

(1) المستدرك على الصحيحين ٤٨٧٧.

* وهيب هو جد سعد بن أبي وقاص وابنته هالة هي أم حمزة عم النبي وصفية عمة النبي.

(2) عيون الأثر ص ٣٢.

(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٩٢٥.

هكذا فكرت آمنة ولا بد.. مهما تفاءلت بالنور الذي رأته... مهما غمرها بالراحة والطمأنينة..

فمن الصعب أن تكون قد تخيلت أي شيء سيكون...

عليه الصلاة والسلام...

* * *

ليلة مولده كانت ليلة عادية، حزينة إلى حد ما.. حزنٌ على العريس الذي قضى شابًا.. والأرملة التي حرمت منه.. واليتيم الذي ولد دون أن يرى أباه أو يراه أبوه...

لا بد أن هناك من فرح بذكرى تبقى من عبد الله... عبد المطلب أو أشقاؤه أو شقيقاته... فرحة مغمسة بالحزن... لكنها فرحة على أي حال...

ولا بد أن آمنة فرحت عندما ضمته بين ذراعيها.. كأي أم ستفعل بعد رحلة الحمل والوضع المرهقة...

ربما كانت هناك دمعةٌ خفيةٌ في عينها وهي تقول لنفسها: «اليتيمة ولدت يتيمًا»..

لكن لعل نظرة إلى وجهه كانت كفيلة بدفع هذه الدموع جانبًا...

كانت غالبًا ليلة عادية، اختلط فيها الحزن على الأب الشاب بالفرح لقدوم الوليد الجديد..

* * *

عادية؟!

كيف تكون عادية وقد حدث فيها ما حدث من تلك الأحداث التي يسمونها إرهاصات النبوة مثل انطفاء نار المجوس، وسقوط شرفات إيوان كسرى، وسقوط أصنام مكة، وجفاف بحيرة ساوة والرؤيا التي رآها موبذان[1] الفرس عن خيول العرب تجتاح فارس..

بل كيف تكون عادية وقد ولد عليه الصلاة والسلام في وضعية السجود؟! وكيف تكون عادية وقد ولد مختونًا؟!

* * *

في الحقيقة كانت ليلة عادية لأنه لم يحدث فيها شيء مما ذكر.

لم يحدث. ببساطة لم يحدث.

لم تنطفئ نار المجوس المقدسة.. لم ينشق إيوان كسرى ولم تسقط شرفاته... لا نعرف شيئًا عن منامات وكوابيس الموبذان.. بحيرة ساوة لم ينخفض منسوبها ولا نعرف شيئًا عن ذلك على الأقل.. أصنام مكة بقيت ثابتة في مكانها..

---

(١) قاضي القضاة عند الفرس.

ولا.. لم يولد عليه الصلاة والسلام ساجدًا، لم يولد مختونًا، ولم يختنه جبريل... بل ختنه جده عبد المطلب كما سيحدث مع كل من ولد يتيمًا وكفله جده..

لم يحدث عند ولادته، ولكن حدث لاحقًا في حياته وعلى يديه.. انتكست الأصنام في مكة، وسقط عرش كسرى.. حدث بعمله وجهده ورسالته التي أبلغها لقومه ممن أكملوا طريقه...

وهذا هو ما يجب أن نركز عليه في سيرته الشريفة...

* * *

في كل مرة تأتي مناسبة المولد يتم ذكر هذه القصص -التي لم تحدث- كما لو كانت حقائق مطلقة بديهية لا شك فيها، بل ويتم معاملتها كما لو كانت معجزات من معجزاته عليه الصلاة والسلام... الكثيرون يعتبرونها من الدلائل على نبوته والبراهين على كون رسالته حقيقية... لقد اهتز إيوان كسرى يوم ولد، لا بُدَّ إذن أنه رسول حقًا... شيء كهذا...

وعندما تؤمن طيلة حياتك بأن هذه الحوادث كانت معجزات ودلائل على نبوته عليه الصلاة والسلام، ثم تكتشف أنها لم تحدث أصلًا، فإن إيمانك بنبوته، بكل ما جاء في رسالته، بل بصدقها.. سيتزعزع.

هذا ما جناه من روَّج لهذه القصص وجعلها جزءًا من الدين..

حبل الكذب قصير..

لكن حبل الخرافات أشد ضررًا...

إنه يلتف حول عنق إيمانك.. ويخنقه..

هذا ما يحدث عندما يُبنى الإيمان على أسس «لا أساس لها»..

يكون معلقًا في الهواء.. ولا يصمد لأول حقيقة..

* * *

فلنحاول أن نتفحص هذه الخرافات التي عوملت معاملة البَدَهيات والتي جعلوها (بحسن نية) دلائل للنبوة..

فلنحاول أن نتفحصها باستخدام «الحس المنطقي»، وهو -لمن لا يعرفه- شيءٌ مهمٌ وأساسيٌ في عمليات التفكير، ويمكن أن يتعرض للعطب في حالة عدم الاستخدام لفترة طويلة، لذا فلا بأس في استخدامه بين فترة وأخرى..

الأخبار التي تقول إن كل هذه الأحداث حصلت في يوم واحد، هو يوم ولادته عليه الصلاة والسلام، تفترض أن من نقل هذا الأمر قد علم بها كلها وهو في مكة، وهذا يفترض أن الأخبار كانت تنتقل في العالم في ذلك الوقت فورًا، كما يحدث اليوم في عالم الميديا.

بعبارة أخرى، علينا لكي نستوعب صعوبة الأمر من ناحية الحس المنطقي، أن ندرك أن الخبر لكي ينتقل من مكان الأحداث في العراق (الإيوان في مدينة المدائن وسط العراق، بحيرة ساوة في مدينة السماوة في جنوب العراق) كان يتطلب مدةً لا تقل عن الشهر إذا انتقل عبر قافلة جمال عادية، وقرابة الأسبوع إذا كان ينتقل عبر فرس مُسرعةٍ في الصحراء.

وهذا يعني، أنه لو حدث، فإن الأخبار ستنتقل بعد مدة تتراوح بين أسبوع إلى شهر (على فرض بدء رحلة الانتقال فورًا بعد الحدث)، وهكذا يصل الخبر إلى مكة، حدث كذا وكذا في مدائن كسرى في ليلة مغادرتنا، فيفكر أحدهم في مكة ويحك رأسه ويقول: نفس الليلة التي وضعت فيها آمنة بنت وهب حفيد عبد المطلب؟

فلنفترض أن ذلك حدث، فلنفترض أن من نقل الخبر قال أيضًا أن كل هذه الأحداث قد حصلت في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول، فيتذكر السامعون أن آمنة بنت وهب قد وضعت ابنها في نفس الليلة، ويستغربون من سر هذه المصادفات وعلاقتها بمحمد بن عبد الله، ولا يتمكنون من الفهم إلى أن يبعث النبي بعد أربعين عامًا، فيفهمون ما حدث ليلة مولده بأثر رجعي (كم كانوا يبلغون من العمر آنذاك، وكم بلغوا منه عند انتشار دعوته وانتصاره؟)...

لكن هذا الافتراض قائم على أن ولادته عليه الصلاة والسلام كانت في ١٢ من ربيع الأول، كأمر محسوم وثابت في سجلات الولادات في مكة في تلك السنة..

لم يكن الاهتمام بهذا من تقاليد العرب، وحتى في عموم العالم، لم تكن تُوثق الولادات وتواريخها ولا يحفظ تاريخ إلا من ولد ابنًا لملك أو حاكم..

ولهذا فنحن لا نعلم على وجه اليقين والثبوت إلا أمرين: ولادته في عام الفيل[١]، وولادته يوم الإثنين[٢].

لكن الشهر نفسه، ربيع الأول، أو اليوم المحدد من هذا الشهر... الأمر ليس محددًا أبدًا...

(١) المستدرك على الصحيحين ٤١٨٠.

(٢) صحيح مسلم ١١٦٢.

بعض الأخبار تشير إلى الثاني عشر*، وبعضها تشير إلى العاشر، وبعضها تشير إلى الثاني من شهر ربيع الأول.

كما أن بعض الأخبار تشير إلى ولادته في شهر رمضان[1].. أو صفر[2]...

فإذا كان يوم الولادة غير محدد، وهو أمر طبيعي في ذلك الوقت، فهل انهيار إيوان كسرى أو خمود نار المجوس يمكن أن يكون في كل هذه الاحتمالات أيضًا، أن يكون في الثاني أو العاشر أو الثاني عشر أو السابع عشر من ربيع الأول... أو أن يكون في رمضان أو صفر..

كيف يمكن لأحداث مهمة كهذه (على فرض حدوثها أصلًا) أن لا تُحَدَّدَ بيوم معين..

كذلك بالعقل أيضًا، بالحس المنطقي الذي نخشى استخدامه، إذا كان أمر انشقاق إيوان كسرى أو خمود النار المقدسة أمرٌ لا يمكن إخفاؤه عن العامة، وسينتقل إلى الجزيرة وسواها، فهل الأمر كذلك بالنسبة لرؤيا رآها قاضي قضاة الفرس، الموبذان، هل يمكن أن يتخيل أحد أنه سينشر المنام المزعج الذي رآه عن زوال عرش كسرى على يد العرب؟ ولماذا لا يوجد خبر عن مقتله على يد كسرى في اليوم التالي لهذا المنام؟

بالعقل، الذي نخشى استخدامه أكثر مما يجب، كيف يمكن أن نتخيل **تجمع هذه الأخبار لتُرْبَط بالليلة التي ولد فيها عليه الصلاة والسلام؟ مع كل ما سبق من صعوبة وصول المعلومة ومع عدم معرفتنا أصلا بيوم ولادته عليه الصلاة والسلام..**

بالعقل، هذا لم ولن ولا يمكن أن يحدث...



وبالعقل أيضًا...

لو كانت هذه الأمور من البَدَهيات التي يعرفها أهل مكة عن تزامن ولادته عليه الصلاة والسلام مع هذه الحوادث المهمة، أما كان ذلك مما سيستذكر عند نزول الوحي وبدء دعوته؟ أما كان أنصار الدعوة الجديدة سيستخدمون هذا الأمر في جعل الناس يؤمنون برسالته عليه الصلاة والسلام؟ أما كانوا سيقولون لهم: **«تذكرون، إيوان كسرى ونار المجوس وبحيرة ساوة وأصنامكم التي سقطت يوم مولده؟ هل يمكن أن يكون ذلك صدفة؟ لا بد أنه برهان على نبوته التي تنكرونها... »**

---

* ذهب ابن إسحاق إلى الثاني عشر من ربيع الأول، الواقدي ذهب إلى العاشر من ربيع الأول وقال أبو معشر السندي أنه ولد في الثاني من ربيع الأول.

(١) نقله ابن كثير في السيرة النبوية صفحة ٢٠٠.

(٢) إمتاع الأسماع صفحة ٧.

لكن هذا لم يحدث قط...

غريب، بالعقل غريب جدًا...

لكن بما أن هذه الحوادث لم تحدث، فلا غرابة في ذلك..

* * *

وبالعقل أيضًا..

كيف يمكن أن يكون راوي الواقعة هذه، واقعة حدوث هذه الوقائع (إيوان كسرى ونار المجوس وبحيرة ساوة) في يوم ميلاده، هو شخص لا نعرف عنه شيئًا، اسمه مخزوم بن هانئ المخزومي*، ويرويها عن والده، الذي يفترض أن عمره قد بلغ ١٢٠ عامًا ولكننا لا نعرفه أيضًا..

مخزوم هذا، هو الوحيد الذي روى وقوع كل هذه الحوادث الكونية.

لكننا لا نعرف شيئًا عنه.. لم يرد اسمه في أي من أسماء الصحابة، أو حتى من المشركين.. أو أي جهة...

شخص لا وجود له في أي مكان..

كذلك لا وجود لأبيه.. الذي يفترض أن يكون عاصر الواقعة..

مجهول يروي عن مجهول حدوث وقائع مهمة كان يفترض أن يتحدث بها الجميع لو أنها حصلت.. لا أحد سواهما يروي القصة..

ويأتي بعد ذلك بأكثر من ألف سنة، من يصدق حدوث ذلك، ويدافع عنه كما لو أنه يدافع عن ثابت من ثوابت الدين..

* * *

ولو تركنا العقل جانبًا، وتحدثنا عن هذه الوقائع كلها من ناحية الأسانيد، فإنها ستكون إما موضوعة (مثل انشقاق إيوان كسرى وخمود نار المجوس وبحيرة ساوة، وهواتف الجان وارتكاس الأصنام أو قصة وجود نور عند أبيه عبد الله وزوال النور بعد زواجه من آمنة... إلخ) أو تكون ضعيفة (مثل ولادته عليه الصلاة والسلام مختونًا، أو ختنه من قبل جبريل، أو أنه ناغى القمر وهو في المهد أو ولادته ساجدًا.. إلخ)[1].

كلها بين الوضع، أي الكذب..

---

* مجهول تمامًا، لم يُرْوَ أي حديث آخر، وقال الدكتور أكرم ضياء العمري: لم أقف على ترجمة له.

(١) للمزيد من التفصيل في هذا يمكن مراجعة كتاب «السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين نقد روايات السيرة النبوية» للدكتور أكرم ضياء العمري صفحة ٩٩-١٠٠.

أو الضعف الذي لم يثبت ولا داعي لنسبته إلى حياته وسيرته الكريمة..

لا شيء مما ذكر قد حدث فعلًا... في مولده عليه الصلاة والسلام.

* * *

فلماذا إذن تسربت كل هذه الحكايات التي يعرف أصغر طالب علم أنها لم تصح ولكن مع ذلك نسمع الكثيرين حتى من المستنيرين يذكرونها في قصص المولد؟

بدأ الأمر غالبًا بشخص من رواة الحكايات يريد أن يضع بعض توابل الإثارة على حكاية المولد، شخص ربما كانت نيته حسنة، وهاله أن يكون في قصص أهل الكتاب عن مولد موسى والسيد المسيح قصص مماثلة، دون أن يكون هناك ما يشبهها في سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام..

فأضاف هذه القصة هنا وهناك.. وهو لا يدرك أن جوهر وعمق الرسالة المحمدية كان يتطلب خطابًا آخر على نحو يتعارض أصلًا مع حدوث قصص كهذه.. مما سنعرف تفصيله في مواقع أخرى..

وشيئًا فشيئًا، كلما بعد الناس عن المنهج النبوي الحق ودلائله الحقيقية، كلما تكرست هذه القصص أكثر، إلى أن أصبح الناس يعتبرون هذه الأشياء التي لم تحدث، معجزاتٍ ودلائل نبوةٍ...

* * *

لا بد أن آمنة قد فكرت بدرب ابنها الطويل بلا أب، وبتعامل أهل مكة* مع «اليتيم» وفق عاداتهم...

ولا ريب أن شقيقات عبد الله، بنات عبد المطلب، قد فكرن بالشيء ذاته..

ولا ريب أنهن قد قلن لها أن جده، سيد قريش، لن يقصر معه في شيء..

ولعلها فكرت بتقدم عبد المطلب في السن وهي تسمع هذه التطمينات... كان قرابة التسعين..

نعم، كانت ليلة فيها حزن... وكان فيها ولا بد فرح أيضًا بالقادم الجديد...

لعلها تذكرت النور الذي رأته يخرج منها، وفكرت أنه يمكن أن يكون له شأن عظيمٌ يوم يكبر.. كما تتمنى أي أم..

كانت تلك بشارة لها، عن دور كبير لابنها..

---

* كانت عادات الجاهلية تقضي بأن لا يرث اليتيم، ولكن تتم كفالته من قبل أقاربه، هذا عدا عن أن عبد الله ربما لم يكن يمتلك أصلًا مالًا خاصًا به.

تعويضًا عن حقيقة مؤلمة لم تكن آمنة تعرفها بعد..

هي أنها لن تكون موجودة معه، عندما يستحيل النور حقيقة ويأخذ دوره الكبير..

وأنها سرعان ما سترحل عنه... ليكون يتيمًا مرتين..

رضيع لكن مهاجر

طفولة كل منا، هي المرحلة التي تحدد فيها الكثير من خياراتنا لاحقًا..

الكثير من نقاط قوتنا وضعفنا توجد في داخل السنوات الأولى من حياتنا...

كما لو أن هذه المرحلة، هي مخزنٌ كبيرٌ، نأخذ فيه أشياءَ محددةً، ونمضي بها في سائر حياتنا..

البعض منا يتمكن من أن يهزم بنقاط قوته، نقاط ضعفه..

والبعض يهزم نفسه، يتحالف مع نقاط ضعفه ضد مكامن قوته.. حتى لا يعود هناك قوة..

نخرج من طفولتنا وفينا ما فينا من أوسمة وميداليات وهدايا.. وكدمات وجروح أيضًا.. بعض الميداليات يمكن أن يساء استعمالها لتصبح عوامل تعطيل ومعوقات.. وبعض الكدمات يمكن أن يُعمل عليها وتُستثمر لتصبح أعلى نقاط قوتنا... الأمر دومًا هنًا، كيف تستعمل ما أخذته من طفولتك؟ كيف تستثمره؟ كيف تمحو بهذا ذاك؟ أو على الأقل، كيف تزيلُ سلبياته وتستثمر إيجابياته؟

أو على الأقل، تقلل من التأثير السلبي لما حصلت عليه من طفولتك..

في حياة كل منا، صندوق أسود، يضم حكايات طفولتنا..

نحتاج دومًا إلى الرجوع له واستكشافه.. لكي نفهم أنفسنا وواقعنا أكثر...

* * *

من هذا الباب، فإن طفولة الرسول عليه الصلاة والسلام مهمة لفهم الكثير من جوانب شخصيته الكريمة، التي أهَّلته لاحقًا لكي يُكلَّف بالدور الذي كُلِّف به وهو في الأربعين من العمر.

نعم، سيقال الآن أن ذلك كان مقدرًا من البداية وندخل في جدل القدر والتسيير والتخيير.. لكن لا داعي لذلك، القرآن الكريم وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالخُلق العظيم، وكان هذا في بدايات الوحي، ونحن نعرف من سيرته قبل الوحي ذلك، وهذا الأمر (أخلاقه وسيرته الشخصية) له دخلٌ حتمًا في اصطفائه للنبوة..

بعبارة أخرى: **لقد عمل الرسول الكريم على نفسه، وسلوكه وأخلاقه، على نحو جعله يكون مؤهلًا لاحقًا لأعظم أمانة تحمَّلها بشر على الإطلاق؛ أمانةُ الرسالة الأخيرة..**

وظل يعمل على نفسه حتى بعد نزول الوحي، بقي يتفاعل مع الوحي تباعًا ليصل إلى أعلى قمة وصلها إنسان..

وهذا بالتأكيد لا يتنافى مع مفهوم العصمة، فالعصمة هي عن الكبائر والآثام وليس عن الخطأ في خيارات شخصية يمكن أن تصبح دروسًا مفيدة لاحقًا..

المهم هنا هو أنه علينا الوعي بأن طفولة الرسول الكريم، على قلة التفاصيل التي نعرفها عنها، ستحمل لنا الكثير من المفاتيح عن خُلقه الذي وصفه القرآن بالعظيم...

وهذا قد يجعلنا نفهمه هو، ما مر به في مسيرة حياته، على نحو أفضل...

وهذا كله قد يجعل علاقتنا به أحسن وأكثر متانة..

وعندما يحدث هذا.. لا مفر، سنصبح نحن أيضًا أفضل..

* * *

كان ثمة حزن في طفولته عليه الصلاة والسلام.

بلا شك كانت حزينةً.. وأية محاولة لإخفاء ذلك ورسم صورة وردية ستكون محاولة فاشلة ولا معنى لها..

ربما لم تكن قاسية جدًا، لكنها كانت حزينة.. وهل يمكن إلا أن تكون كذلك، وهو الذي ولد يتيمًا، وأبعد عن أمه، ثم ما لبث أن تيتم مجددًا وهو في السادسة؟

حزينةٌ بالتأكيد...

لكنها كانت مفيدة أيضًا.. في مسيرته، بالتأكيد...

* * *

ما إن يُذكر خبر ولادته في السِّيَر، حتى تذكر أسماء مرضعاته.

أولهن ثويبة مولاة عمه أبي لهب، والخبر يشير إلى أن ثويبة أعتقت لكي ترضعه، الأخبار المنتشرة من أن أبا لهب قد أعتقها عندما أخبرته بولادة محمد ليست صحيحة رغم انتشارها الكبير، الخبر الصحيح هو أن أبا لهب أعتق ثويبة[1]، فأرضعته عليه الصلاة والسلام، بهذا الترتيب: عتق، ثم إرضاع.

لماذا يا ترى لم يأمرها أبو لهب بأن ترضعه وينتهي الأمر، وهو «يملكها»؟

---

(١) صحيح البخاري ٥١٠١.

أولًا، لأن العرب كانت تستنكف أن تكون أم واحد من أبنائها بالرضاعة عبدة مملوكة.

لذا فقد أعتقها، وبعد أن أُعتقت أرضعت النبي عليه الصلاة والسلام والحمزة وأبا سلمة، علمًا أن الحمزة كان يكبره عليه الصلاة والسلام، لكنه لم يرضع منها إلا بعد أن أعتقت.

ثانيًا، عندما تعتق أمةٌ، ثم بعدها تبدأ بإرضاع مولود جديد في العائلة، فهذا يعني أن الأمر لم يكن عابرًا، ليس مرة أو مرتين أو يومًا أو يومين، بل هذا قد يشير إلى أن آمنة لم تتمكن أصلًا من إرضاعه مما تطلب ثويبة لكي تقوم بذلك.

لم يأت أي خبر يفيد بأن السيدة آمنة قد أرضعت وليدها.

* * *

لكن ثويبة لا يبدو أنها استمرت طويلًا في إرضاع النبي عليه الصلاة والسلام، إذ سرعان ما أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر، المعروفة بحليمة السعدية، وأخذته معها إلى بادية بني سعد.

خبر قدوم السيدة حليمة السعدية إلى مكة خبرٌ منتشر[1]، وفيه أنها جاءت مكة ومعها نسوة من بني سعد بحثًا عن فرص للتكسب عبر إرضاع الأطفال في سنة قحط وجفاف مرت على بني سعد، وفي الخبر أيضًا تردد الجميع بمن فيهن حليمة في القبول بالرسول الكريم لكونه يتيم الأب ومن ثم رجوعها لأخذه، وحلول البركة عليها وعلى راحلتها ومرعاها بسببه، هذا الخبر رغم انتشاره فهو ضعيف جدًا[*] من ناحية السند، وهو في الوقت نفسه يصور حياة الرسول عليه الصلاة والسلام كما لو أنها مختلفة عن حياة البشر خاليةً من المشقة والمعاناة، وهذا أمر غير صحيح، ونعرف من سيرته تعرضه للجوع والخوف والفقر كما يتعرض الجميع لذلك، بل نعرف أنه حرص على تأكيد ذلك.

الأكثر من هذا أن الواقعة كما يرويها هذا الخبر فيها مشاكل منطقية، ففي الخبر أن حليمة كانت قدمت على راحلة عجفاء وأنها كانت فقيرة ضعيفة البنية لدرجة أنها لم تجد من يمكن أن يقبل بها هي كمرضعة لابنه، بل أنها تذكر أنها كانت سنة قحط وجفاف على بني سعد، وفي الوقت نفسه رفضت هي أولًا أن تأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه كان «يتيمًا» فقيرًا..

والسؤال هنا هو أن هذا اليتيم قد كفله سيد قريش عبد المطلب بن هاشم، فكيف يمكن أن يغيب هذا عن حليمة؟ وكيف يمكن أن يعد فقيرًا بالنسبة لها وكفيله سيد قريش؟

(١) مسند أبو يعلى٧١٦٣، سيرة ابن إسحاق صفحة ٤٩.

(*) يرويه جهم بن أبي جهم (وهو مجهول) عمن سمع (مجهول آخر) عن عبد الله بن أبي جعفر بن أبي طالب عن حليمة السعدية، ويشكك الألباني في أن يكون عبد الله قد سمع من حليمة شيئًا إذ إنه كان بعمر ١٠ سنوات عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فكم عمّرت حليمة السعدية بعد الرسول وهي مرضعته؟ هذا إذا تجاهلنا خبرًا ضعيفًا ذكره الواقدي عن أن الرسول عليه الصلاة والسلام سأل عن حليمة وقيل له أنها توفيت في الزمان. بكل الأحوال سند حديث حليمة لا يصح.

بل إن السؤال هنا لمَ يقبل عبد المطلب بها -وهي تقول أنها كانت ضعيفة البنية-؟ بل لمَ يقبل هو أصلًا أو يقبل سواه بمراضع من بني سعد في تلك السنة وهي سنة قحط وجدب كما تقولَ حليمة؟

حديث حليمة إذن ضعيفٌ سندًا وغير منطقي متنًا، وإذا كانت حليمة قد التقت عبد الله بن جعفر (راوي الواقعة) حقًا وسمع منها ما قالت فربما تكون تجاوزت التسعين من العمر إن لم يكن أكثر، ولعل ذهنها كان قد اختلط فأنتجت هذه القصة التي اختلطت فيها الوقائع، هذا مع التشديد على ضعف سند القصة من أكثر من موضع، ولعل أهم هذه المواضع هو أن لقاءها بعبد الله بن جعفر لم يثبت، بل حتى إسلامها لم يثبت حيث اختلف فيه العلماء ونقل ابن القيم الجوزية في زاد المعاد هذا الاختلاف، وقال ابن كثير أنها لم تدرك البعثة أصلًا، بينما عدها آخرون من الصحابيات، وإن لم يثبت بسند صحيح لا إسلامها ولا لقاؤها الرسول بعد البعثة، ولكن لا شيء أيضًا ينفي حدوث ذلك.

بكل الأحوال، ذهاب النبي عليه الصلاة والسلام إلى بادية بني سعد ورضاعته عند السيدة حليمة أمرٌ ثابتٌ[1]، تفاصيل هذا الأمر كما رويت عن السيدة حليمة هي التي لم تثبت.

* * *

لكن لماذا اعتاد العرب إرسال أبنائهم إلى البادية وقضاء فترة الطفولة الأولى هناك؟

يسود القول بأن ذلك كان لما في «**هواء البادية من الصفاء، وفي أخلاق البادية من السلامة والاعتدال، والبعد عن مفاسد المدنية، ولأنّ لغة البادية سليمة أصيلة**»[2].

فلنشدد أولًا على أن الأمر كان موجودًا فعلًا لكنه لم يكن الأساس كما قد يتخيل من حديث حليمة وكما رسخ في أذهاننا، هنالك شواهد على وجود حالات إرسال الصغار للبادية للرضاعة، فقد ثبت مثلًا أن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام) كان مسترضعًا في بني سعد أيضًا قبل فتح مكة[3] كما أن إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام كان مسترضعًا في «عوالي المدينة»[4].

لكن هذا لم يكن القاعدة دومًا. ليس هناك ما يكفي من شواهد للتصور بأن هذه هي عادة قريش مع كل وليد لها. الحمزة، عم النبي مثلًا كان أكبر من النبي عليه الصلاة والسلام وكان لا يزال في عمر الرضاعة عندما ولد النبي ورضع معه من ثويبة كما تقدم، أي أنه كان في مكة ولم يكن في البادية كما يفترض حسب الفهم السائد من أن كل العرب كانوا يفعلون ذلك.

من المهم أيضًا هنا أن نؤكد أن تبرير الأمر بفصاحة أهل البادية غير منطقي، فالطفل كان يرسل وهو رضيع ويعود بعد انتهاء الرضاعة بقليل، أي في الفترة الأولى لتعلمه النطق، وتصور أنه سيتعلم

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٧٣.

(٢) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي صفحة ١٦٠.

(٣) صحيح مسلم ١٤٧.

(٤) صحيح مسلم ٦٣.

الفصاحة اللغوية في هذه الفترة أمر غير وارد، علمًا بأن الحديث الذي يفسر فصاحة الرسول بنشأته في بني سعد (أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر)[1] هو حديث موضوع.

يبقى أمر سلامة الهواء والبعد عن الأمراض واردًا جدًا. كان العرب يؤمنون بالعدوى ويتخذون تدابير وقائية مثل إخراج بعض المرضى من بينهم[2] والحجر عليهم أو الخروج من منطقة العدوى، كما أنه يجب الأخذ بنظر الاعتبار أن مكة باعتبارها مركزًا للحج والتجارة، كانت تتعرض لدخول الكثير من الأمراض عبر القوافل التجارية القادمة من مناطق مختلفة وفي ظروف سيئة، لذا فإنه من المنطقي أن يتخذ أهل مكة بعض الإجراءات التي تحمي أبناءهم من العدوى.

لكن هذا لم يكن الأمر الذي يحدث مع الجميع، كان الاستثناء الذي يجب أن يتخذ عند الاضطرار. كذلك من غير الممكن تصور أن عاطفة الأمومة كانت ضعيفة عند نسوة قريش لدرجة التنازل عن أولادهن لسنوات دون وجود عذر مشدد، نستهول الآن كيف تترك بعض الأمهات صغارهن للخادمات الأجنبيات، ونعتبر ذلك من علامات الساعة، فكيف نعتقد أن ذلك كان المعتاد من نسوة قريش وأشراف العرب؟

كما أن القول بأن ذلك كان من «أجل تفرغ النساء لأزواجهن»[3] مخالف لما ألفناه من الفطرة الإنسانية التي تؤثر الأمومة كما أنه غير وارد في الواقعة هنا لأن آمنة كانت أرملة أصلًا، وتفرغ النساء لأزواجهن -على فرض حصوله- يمكن أن يتم باستئجار مرضعة في مكة نفسها وليس في البادية.

أكرر هنا، ثبت أن الرسول الكريم قد ذهب إلى مضارب بني سعد، جنوب الطائف بحوالي ٧٥ كيلومترًا، حوالي ١٥٠ كيلومترًا عن مكة، وأنه رضع عند حليمة السعدية، وبقي عندها إلى سن الرابعة في أشهر الأقوال.

لكن سياق قصة ذهابه (من أنها عادة العرب) لا يبدو صحيحًا لا من ناحية الأخبار ولا من ناحية المنطق، وتفاصيل قصة حليمة السعدية لم تصح، لكن ثبت أن عليه الصلاة والسلام كان قد أرسل فعلًا إلى بني سعد عند حليمة السعدية وبقي لسنوات عندها.

إرساله إلى هناك لم يكن ضمن المعتاد إذن، بل ضمن الحالات الاضطرارية التي يُخشى فيها على حياة الوليد...

ما هي هذه الحالات؟

هناك احتمالان واردان هنا.

---

(١) ضعيف الجامع الصغير وزيادته ١٣٠٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جزء ١٦ ص ٤١.

(٣) نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز / رفاعة الطهطاوي/ ص ٥٤.

الأول: أن السيدة آمنة كانت معتلة الصحة، ويعزز ذلك عدم ورود أي خبر عن إرضاعها لوليدها عليه الصلاة والسلام. ولعل الأمر بدا لعبد المطلب أنه أكثر من مجرد حُمّى نفاس تعطل عن الإرضاع أو توقف إمكانيته إن طالت (كما يحدث كثيرًا بالفعل)، ولذلك ربما تصور أن مرضها يمكن أن يكون معديًا وخطرًا على الطفل (وهو وحيد ابنه المتوفي عبد الله، وكل ما بقي منه بالنسبة لعبد المطلب) فآثر أن يبعده عنها حرصًا على سلامته.

فلننتبه هنا أيضًا إلى أن السيدة آمنة لم تتزوج بعد وفاة زوجها، علمًا أن المجتمع آنذاك لم يكن يفرض أي قيود على ذلك كما تفعل بعض مجتمعاتنا اليوم بشكل أو بآخر، بل إن وجود أخوة لزوجها مع إمكانية التعدد كان يتيح لها أن تبقى ضمن نطاق آل عبد المطلب ويُنشأ محمد في كنف أعمامه.

لكن هذا لم يحدث، وهو أمر غريب، أرملة شابة ذات حسب ونسب، لم لا تتزوج؟

لعل هذا يمكن أن يكون منطقيًا أكثر باعتلال صحتها الذي جعل عبد المطلب يسترضع سواها.

الاحتمال الثاني: ولد الرسول عليه الصلاة والسلام في عام الفيل كما تقدم، أي السنة التي تعرض فيها جيش أبرهة للوباء (قيل الجدري وقيل الحصبة)[1]، أي أن مكة كانت في هذه السنة تحديدًا معرضة أكثر من السنوات الأخرى إلى خطر الأمراض، ولعل عبد المطلب فضل أن يسرع بإخراج الطفل الوليد منها بعيدًا إلى حيث يكون في مأمن من الخطر. ولعل هذا يفسر اختيار بادية بني سعد ليس ببعدها حوالي ١٥٠ كيلومترًا عن مكة، بل أيضًا بكونها محاطة بسلسلة جبال السروات التي تفصل بينها وبين مكة والتي يصل ارتفاعها في بعض المناطق إلى ألفي متر، مما يصعب انتقال الناس وبالتالي الأوبئة من مكة إليها.

ولعل الأمرين واردان معًا، فلا شيء يمنع من أن يكون خطر وباء عام الفيل قد عجل في إخراجه عليه الصلاة والسلام من مكة، ولكن اعتلال صحة آمنة قد عطل عودته إليها.

* * *

مضارب بني سعد إذن لم تكن مدرسة داخلية يرسل إليها كبار أهل مكة أبناءهم، كما قد يتوهم من سياق الكلام العام المعتاد عن الأمر.

كانت أقرب إلى الملجأ الصحي، الذي يوفر ببعده وعزلته بيئة مناسبة لطفل يريد له أهله البقاء على قيد الحياة بعيدًا عن أمراض المدن وأوبئتها.

لا تزال هذه البادية حتى يومنا هذا تمثل مركزًا لقضاء الإجازات في المنطقة بسبب مناخها المعتدل، كما أن انتشار العسل وزراعة العنب فيها يخبرنا المزيد عن طبيعة المناخ فيها، وهو أمر يجعل اختيار عبد المطلب (وربما اختيار أهل مكة عمومًا) لبني سعد مفهومًا جدًا.

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ص ١٤٨.

مع حليمة، وزوجها الحارث بن عبد العزى، عاش محمد عليه الصلاة والسلام سنوات طفولته الأولى، وكان له في هذه العائلة أخ هو عبد الله بن الحارث، وأختان، هما أنيسة، والشيماء، التي كانت تحضنه مع أمها[1].

من المؤكد هنا أن محمدًا عليه الصلاة والسلام لم يكن يشعر في سنواته الأولى إلا أنه ابن هذه العائلة، فمن المستبعد أن تكون هناك وسيلة لإفهام أي طفل يعيش ضمن محيط أسرة نشأ فيها، أنه ليس ابنًا لها. ليس قبل أن يصل إلى الأربع أو الخمس سنوات على أقل تقدير. ولم يَرِد أن آمنة بنت وهب كانت تزور بني سعد لرؤية ابنها أو أن ثمة فترة كان محمد يقضيها في مكة.

ولعل بعد الطريق، ووعورته، كانا يشكلان عائقًا أمام حدوث ذلك. سواء لآمنة -إن كانت فعلًا معتلة الصحة- أو بالنسبة له عليه الصلاة والسلام لصغر سنه.

في تلك الفترة المبكرة، لم يكن عليه الصلاة والسلام يعي يتمه. كان يعيش كطفل عادي ضمن عائلة عادية. أم.. أب.. أشقاء.

بكل الأحوال، البادية والطبيعة الجبلية المحيطة بها تعلم القوة والصلابة والاعتماد على النفس والصبر، كما تعلم أيضًا الخلو إلى الذات والانسحاب لها..

ولعل مضارب بني سعد قد تركت أثرًا أعمق مما نتصور في توحيده لله، وهو أمر سنرجع له لاحقًا..

* * *

لكن كان لا بد لمرحلة بني سعد أن تنتهي....

في النهاية: الأمر هو استرضاع، ولا بد أن هذا قد انتهى في عمر الرابعة، بل وربما قبل ذلك بكثير.

العودة إلى مكة إذن..

بالنسبة له، هو الذي لم يعِ مكة في ذاكرته، كان ذلك مغادرة لبيته وموطنه في بني سعد...

تلك كانت هجرته الأولى جدًا...

هذه المرة إلى مكة...

---

(١) شعب الإيمان: ١٣٢٥.

يتيم... عدة مرات...

تلك الرحلة من مضارب بني سعد إلى مكة جعلته يتعرف على أمه الحقيقية لأول مرةٍ.

لكن تلك الرحلة أيضًا، جعلته يفقد أمه التي عرفها طيلة تلك السنوات، حليمة.

جعلته يفترق عن أبيه الذي لم يعرف سواه.

ويفارق إخوته.

لا نعرف إن كان الطفل محمد يعي تمامًا خلال الرحلة أنه مفارق الحضن الذي أشعره بالحنان.

لكنه أدرك ذلك حتمًا بينما حليمة تودعه، الأطفال حساسون عادةً ويفهمون تحديدًا الأشياء التي يحاول الكبار إخفاءها...

لا نعرف تفاصيل ما حدث، لكن غالبًا كانت هناك الكثير من الدموع، من الطرفين، منه عليه الصلاة والسلام، وهو يرى حليمة تغادر، ويعي بومضة أنها مفارقته إلى الأبد، وأنه لن يرى مرة أخرى إخوته أو من كان يتصور أنه أبوه...

الأطفال يفهمون أكثر مما نتوقع.

ولعل دموعه وقتها كانت تعبيرًا عن فهمه لما يدور، وليس عن حزن وجزع الفراق فحسب.

حليمة كانت تبكي بلا شك، أي أم يأتيها طفل رضيع ويبقى على صدرها أربع سنوات وتراه وهو يكبر ويحبو ويمشي ويتكلم، لا بد أن تشعر أنه ابنها بالضبط، ولا بد أن تجزع لفراقه كما تجزع لفراق ابنها بالضبط.

وآمنة، بكت غالبًا في لقائه وعندما رأته يبكي لوداع حليمة، بكت فرحًا وحزنًا وبكل المشاعر التي تحملها أم أجبرتها الظروف على فراق ابنها في أجمل سنوات طفولته..

وبكت أيضًا حتمًا لبكائه وهو يودع حليمة... أولًا كأي أم تتأثر لدموع ابنها.. وثانيًا لأنها كانت ترى مشاعر ابنها وقد ذهبت لأم أخرى...

لا نعرف شيئًا مما حدث..

إنما هو منطق المشاعر الإنسانية في كل زمان ومكان...

طفل يبكي لفراق من عرفها أنها أمه.. وأم كانت مرضعةً مستأجرة فقط في البداية، لكن مشاعرها جعلتها أمًا فعلًا..

وأم تبكي لكل ذلك...

* * *

لا نعرف ماذا حدث بعد ذلك.

لا نعرف إن كان عليه الصلاة والسلام قد التقى حليمة السعدية لاحقًا.

هناك أكثر من خبر عن لقائها به، مرة بعد زواجه من السيدة خديجة[1] ومرة بعد البعثة[2]، ولكنها أخبار لم تثبت.

وهناك خبر آخر[3] عن لقاء الرسول عليه الصلاة والسلام بإحدى نساء بني سعد عند فتح مكة، فلما شرحت له نسبها عرفها وسألها عن حليمة، فقالت له أنها توفيت في الزمان، فذرفت عينا الرسول عليه الصلاة والسلام وسألها «من بقي منهم؟» فأخبرته ببقاء أخوته.

حتى خبر لقائه بالشيماء، أخته من الرضاعة، رغم اشتهاره، لم يثبت[4].

كل ما ثبت هو أنه رضع هناك في بني سعد وعاش في كنف أم وأب تبين لاحقًا له أنهما ليسا أبويه...

وربما يكون وداعه لحليمة، يوم أرجعته إلى مكة، هو آخر لقاءٍ له معها..

* * *

فلنتذكر هنا أن جرح فراق حليمة السعدية كان مؤهلًا للتعويض بآمنة، أمه الحقيقية التي لا بد أن حنانها كان واضحًا عليه منذ اللقاء الأول.

لكن جرح فراق أبيه من الرضاعة، الحارث بن عبد العزى لم يحظ بهذه الفرصة.

ذلك أن فراقه كشف له عن أنّ أباه الحقيقي كان قد مات قبل أن يولد...

ألم الفراق جاء هنا مضاعفًا، كما لو أن أباه مات مرتين. مرة عندما غادر بني سعد، ومرة عندما عرف حقيقة وفاة عبد الله..

لا شيء يمكن أن يعوض هذا..

---

(١) الطبقات الكبرى ابن سعد طبعة دار صادر الجزء الأول ص ١١٣.

(٢) سنن أبي داوود ١٥٤٥ وضعفه الألباني.

(٣) مغازي الواقدي/ شأن غزوة الفتح/ الجزء الثاني ٨٦٩.

(٤) مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ٢٤٦، وضعفه المحدثون.

لا معرفته أن جده هو سيد مكة. ولا كثرة الأعمام حوله.

لا شيء يمكن أن يعوض فقدان أب.

لا شيء.

* * *

حدث هذا كله في الفترة التي يمكن للطفل فيها أن يتذكر الأحداث التي يمر بها.

الكثير من الدراسات تؤكد أن أبعد الذكريات التي يمكن استخراجها من الذاكرة تكون في هذه الفترة، بين الثالثة والرابعة من العمر تحديدًا.

لماذا إذن لم يتحدث الرسول عليه الصلاة والسلام بأي شيء عن هذا الذي حدث في طفولته؟

ببساطة لأن هذا هو الذي يحدث بالضبط كرد فعل شائع عند كثير من الأطفال لتفادي ألم التجربة.

الكثير من الأطفال يعمدون إلى نسيان شبه متعمد، لأحداث مؤلمةٍ مروا بها لأن مجرد تذكرها يثير عندهم الألم.

يضعون حظرًا على ذاكرتهم في تلك المنطقة. فيذهب الألم، ويذهب معه الكثير مما حدث في تلك الفترة، على الأقل لا يتذكرونه بشكل واعٍ.

لا يتحدثون عنه، لا يحدثهم أحد عنه، وبالتالي تنطفئ الذكرى بالتدريج.

هل هذا ما حدث معه عليه الصلاة والسلام؟

لا نعرف يقينًا..

لكن نعرف شيئًا واحدًا على وجه اليقين: لم يصح عنه أنه قال كلمةً واحدةً عن الأمر.

ولا كلمة.

* * *

مكة إذن.

في الرابعة من العمر.

مكة الصاخبة المزدحمة مقارنة بمضارب بني سعد.

القوافل والأسواق والحجاج والكعبة والأوثان حولها.

وسيد مكة، جده عبد المطلب.

كل شيء مختلف عن مضارب بني سعد، ولا بد أنه كان يجهد عقله بالملاحظات والمقارنة.

أي طفل ذكي كان سيفعل ذلك.

ولا بد أنه كان يلاحظ اختلاف أمّه آمنة عن أمّه حليمة.

حليمة كانت امرأة عاملة بمصطلحاتنا المعاصرة، تعيش في البادية.

والسيدة آمنة بنت وهب كانت بنت حسب ونسب في مكة. أسلوب حياتها كان مختلفًا حتمًا عن أسلوب حياة حليمة، وكذلك تعاملها مع محمد، لا بد أنها كانت ألطف وأرق، وهذا ما سيذكره عليه الصلاة والسلام لاحقًا.

في الحقيقة، لن يقول أي شيء آخر عنها، فقط رقتها.

* * *

عامان إذن في مكة في حضن آمنة بنت وهب.

عامان كانا كَافِيَيْن بالنسبة له ولوعيه لكي يستوعب معنى كلمة «يتيم»، قبل أن يعرف معنى الكلمة عندما تكون كاملةً، عندما يكون يتيم الأب والأم هذه المرة.

وكان في السادسة من العمر...

كان ذلك هو العام الأخير في طفولته...

* * *

ذهبت آمنة به عليه الصلاة والسلام إلى أخوال أبيه بني عدي بن النجار، في يثرب.. (هل كانت تزور قبر أبيه الذي دفن هناك يا ترى؟)... وماتت في طريق العودة إلى مكة[1]؛ في الأبواء[*] في منتصف المسافة بين مكة ويثرب.. ودفنت هناك..

كان طفل السادسة معها، غالبًا رآها تموت وتدفن هناك..

رجع عليه الصلاة والسلام وحيدًا، مع القافلة بالتأكيد، لكنه كان وحيدًا، ذهب إلى يثرب مع أمه وعاد إلى مكة وقد أصبحت تحت التراب...

لا بد أن ذلك كان صعبًا جدًا عليه...

ستة أعوام فقط...

كما لو أنه عز وجل يريد أن يمرره في أقسى الظروف، كي يستعد لمهمة أكبر..

---

(١) دلائل النبوة الجزء الأول صفحة ١٨٨.

(*) وتسمى أيضًا ودّان.

كما لو أنه عز وجل يقول له: أنت وحيد الآن، سيسهل ذلك أن تعرفني حقًا، أن تقترب مني.. ليس لك إلا أنا الآن...

لا أب ولا أم..

كانت رحلةً صعبةً بين الأبواء ومكة، على الطفل ابن السادسة الذي دفن أمه -وطفولته- ورجع إلى مكة وحيدًا..

تخيلوا الرحلة. تخيلوه وحده*. لا بد أنه كان هناك وصيفةٌ أو خادمةٌ أو مولى معهما، غالبًا كانت هناك أم أيمن! التي كانت وصيفةً لأبيه عبد الله بن عبد المطلب[1]، ولعل هذا الموقف هو الذي جعلها تأخذه معها وتصير حاضنته إلى أن شب..

لكن.. تخيلوه... وهو يفكر وقد وجد نفسه هذه المرة أمام حقيقة الموت وجهًا لوجه. قبلها كان الموت فعلًا ماضيًا. اليوم هو فعل حاضرٌ.. وقد أخذها منه.

تخيلوه وهو يستوعب أنها لن ترد عليه بعد الآن، لن تحتضنه، يستوعب أن حضنها الذي كان مضمونًا لسنتين فقط لم يعد موجودًا بعد الآن.

تخيلوه وهو يستوعب حقيقة أنها ذهبت، كما أبوه. وكما اختفت حليمة من حياته قبلها.

كم كبر يومها! كم سنة كبر يومها!

ربما الكثير من الجلد والصبر الذي امتلكه في رحلة حياته اللاحقة، كان من نتاج تلك الرحلة الصعبة...

ربما كان الموقف أكبر حتى من البكاء.

ربما لم يذرف دمعةً واحدةً.

انتظر أعوامًا طويلة كي ينفجر بالبكاء عليها.

* * *

ذات يوم، بعد عقود طويلة، بالتحديد في غزوة الفتح، بينما رحلته تشارف على الوصول إلى نهايتها... مر عليه الصلاة والسلام بالأبواء..

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم غَزَا غَزْوَةَ الْفَتْحِ، فَخَرَجَ يَمْشِي إِلَى الْقُبُورِ حَتَّى إِذَا أَتَى أَدْنَاهَا جَلَسَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ يُكَلِّمُ إِنْسَانًا جَالِسًا يَبْكِي[2]

* هناك قول ذكر في معجم البلدان دون أي سند مفاده أن أبا طالب كان معهما.

! بركة بنت ثعلبة الحبشية، أعتقها لاحقًا عند زواجه من خديجة، وتزوجت من زيد بن حارثة وأنجبت أسامة.

(١) صحيح مسلم ٧٠.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١١٨٠٨ وصححه الألباني في صحيح السيرة مسند الإمام أحمد ٢٣٠٣٨.

جلس يكلمها وهي في القبر، بعد أكثر من خمسين عامًا على رحيلها.

تراه كان يحكي لها كل ما حدث في تلك السنوات، منذ أن افترقا وهو طفل؟ تراه كان يبكي لها وأمامها بدلًا عن دموع حرمها في طفولته وكان يتمنى لو يذرفها آنذاك بينما هو يحتضنها؟

فَاسْتَقْبَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ[1]

قَالَ: «هَذَا قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ، اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، ...، وَأَدْرَكَتْنِي رِقَّتُهَا فَبَكَيْتُ»[2]

وقال: فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ الْوَلَدَ لِوَالِدِهِ مِنَ الرِّقَّةِ[3]

استأذن ربه أن يزورها... وأدركته رقتها.. تذكر كم كانت رقيقة معه، كم كانت عطوفة وحنونة، وكم كانت حياته قاسية بعد ذهابها... فبكى...

لا، لم يبكِ فقط، بل بكى وأبكى من حوله[4]، بل لقد ارتفع نحيبه[5].

بل سيقول راوي الحديث أنه لم يرَ النبي عليه الصلاة والسلام باكيًا مثل تلك الساعة[6].

بعد أكثر من خمسين عامًا، بكى عليها كما لم يبكِ على أحدٍ من قبل.

نعرف كم كانت الرحلة صعبة على ابن السادسة عندما نعرف أنه بكى هكذا وهو قد تجاوز الستين.

كما لو كان يبكي نيابة عن كل تلك السنوات.

ونيابة عن كل طفل فقد أمه.

عن كل دمعة محبوسة بدواعي التصبر والرجولة واللياقة الاجتماعية.

* * *

تلك الزيارة، وتلك الدموع التي ذرفها عليه الصلاة والسلام بينما هو يكلم أمه في القبر كانت السبب والمناسبة التي تغير فيها أمر شرعي.

---

(١) مسند أحمد ٢٣٠٣٨.

(٢) دلائل النبوة الجزء الأول ص ١٨٩ وصححه الألباني في صحيح السيرة.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣٢٩٢ وضعفه الألباني بهذا اللفظ ولكن صحح بقية الألفاظ.

(٤) صحيح مسلم ١٣٨.

(٥) المستدرك على الصحيحين٣٢٩٢.

(٦) دلائل النبوة الجزء الأول ص ١٨٩.

قبل هذه الزيارة، كان هناك نهي عن زيارة القبور، غالبًا لما يحدث فيها من أعمال وأفعال تتنافى مع الكثير من القيم الإسلامية، خاصة والقوم كانوا حديثي عهد بالإسلام.

بعد زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، سحب هذا النهي وأُلْغِي... بل أمر بزيارة القبور..

«عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمّد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكر الآخرة»[1]

وفي لفظ آخر **«فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة»**[2]

تصالح عليه الصلاة والسلام مع أحزانه المكبوتة، مع دموعه في الداخل، مع النحيب الذي كان مكبوتًا في صدره، مع الطفل الذي وجد نفسه مسؤولًا عن دفن أمه في الطريق.

وجد عليه الصلاة والسلام الراحة في تلك الدموع ... ربما وجد أنه أصبح أقرب إلى نفسه وإلى ربه بعد أن أصبح أقرب لهذا الجانب من ذاكرته... بعد أن سمح للطفل ابن السادسة أن يتجاوز تعاليه على دموعه..

أشار إلينا أن نفعل الشيء ذاته، أن نتصالح مع أحزاننا، أن لا نتعالى على دموعنا وآلام فراقنا وأشواقنا...

أن نربت على كتفي الطفل المذعور الذي فينا..

أن نتركه يبكي وينتحب، ونحتضنه إذ يفعل ذلك، نبكي معه، ونعطيه منديلًا يمسح به دموعه لكي يترك المجال لنزول المزيد..

نعم، ذلك كله يجعلنا أقرب لأنفسنا..

وبالتالي أقرب لكل ما هو حقيقي وصادق في هذا الكون..

وبالتالي لآخرتنا... أكثر الأشياء الملتصقة بحقيقتنا...

---

(١) سنن الترمذي ١٠٥٤ وصححه الألباني.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٤٥٨٤.

أشخاص في حياتنا

الأشخاص الذين يلعبون دورًا في حياتنا، يقومون دون أن يشعروا بمنحنا دروسًا في علم النفس...

وربما دون أن نشعر نحن أيضًا..

لكن التعامل مع بعض الأشخاص بوعي، ومراقبة سلوكهم وتصرفاتهم يفتح لنا نوافذ مهمةً لفهم السلوك البشري ودوافعه ومحفزاته..

ربما هذا بالتحديد، يتحفز عندما نكون قريبين من أشخاص شديدي الاختلاف في الطباع الشخصية حد التناقض، سيكون ذلك دافعًا لنا كي نتفحص سلوك كل منهم، نقترب منهم أكثر عبر فهمهم أكثر.. ربما سنحبهم بكل الأحوال، لكن المعرفة شيء آخر، الفهم شيء آخر، المعرفة قوة، أن تعرف أكثر يعني أن تكون أقوى، ومعرفة النفسيات والسلوكيات البشرية قوة مهمة بالتأكيد.. بل ربما لا يمكن لقائد أو زعيم أو مؤثر في الناس أن يتشكل دون أن يمتلك هذه القوة ابتداءً..



مر في حياته عليه الصلاة والسلام رجلان، تكفلا به، بعد موت أمّه آمنة بنت وهب وهو في السادسة..

الرجل الأول كان جده عبد المطلب، بقي معه عامين ثم توفي..

ومن ثم كفله عمه أبو طالب، وجده عبد المطلب هو الذي أوصى بذلك ربما لحنانه على محمد عليه الصلاة والسلام وربما لأنه الشقيق الوحيد لعبد الله والد النبي، وبقي معه عليه الصلاة والسلام إلى أن شبّ.

الفرق بين الرجلين كان كبيرًا جدًا من ناحية الشخصية، كبيرًا على نحو لا بد أن استفز الطفل الذكي محمد عليه الصلاة والسلام إلى المقارنة، وإلى محاولة تفحص الفروقات وأسبابها.

كان عبد المطلب سيد قومه بلا منازع، وسيرته الشخصية كانت حافلة ومليئة، سار على خطى أبيه هاشم بن عبد مناف، الذي كان سيد قومه أيضًا، وهو الذي سن رحلتي قريش التجاريتين رحلة الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن[1]، والذي سمّي هاشمًا لأنه كان يثرد الطعام للحجيج[2].. أي

---

(١) سيرة ابن هشام الجزء الأول صفحة ١٢٥.

(٢) أخبار مكة للأزرقي صفحة ١١٢.

أن هاشمًا، لم يكن مجرد زعيم عشيرة، بل كان قائدًا مؤسسًا يتمتع بمواهب إدارية فذة.. فقريش الثرية التي تغيرت أحوالها بعد الإيلاف تدين بالكثير لهاشم.

عبد المطلب سار على خطى أبيه، وأضاف الكثير، عبد المطلب هو الذي حفر بئر زمزم[١] بعد أن كانت قد ردمت وضاع أثرها، وصنع بابًا من أسياف للكعبة استخدم فيه الذهب[٢]، ووضع غزالًا ذهبيًا في الكعبة[٣]، وكانت هذه الإضافات مما لم يعرفه العرب في قلب الجزيرة، تزيد من مكانة وهيبة الكعبة عند العرب.

كما أنه وفد على ملك اليمن سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الأحباش بمساعدة الفرس[٤].. وقد دخلت على هذه الأخبار الكثير من المبالغات التي حاولت جعل عبد المطلب شخصية أسطورية. يرى منامات تدله على مكان زمزم أو مكان الغزالة.. إلخ، رغم أن الأمر في النهاية منجزات لا تحتاج إلى تفسيرات غيبية.

في الغالب، لم يكن هناك «سيد لمكة» بل كان هناك سادة لعشائر قريش المهمة يجتمعون في دار الندوة ويتوافقون في قراراتهم...

لكن عبد المطلب كان من الحالات النادرة التي أصبح فيها هو، ولفترة على الأقل (في مواجهة تحدي الأحباش) سيدًا لمكة.

لكنّ أبا طالب لم يكن يشبه والده.

أبو طالب كان رقيقًا حنونًا عطوفًا ولعل هذا هو سبب وصية عبد المطلب بأن يكفل هو النبي عليه الصلاة والسلام عند وفاته.

لكنه كان أيضًا من نوع الرجال الذين يعيشون في ظل أب كبير.

يحدث هذا كثيرًا مع الزعماء والقادة والشخصيات فائقة النجاح، أن يعيش أولادهم في ظلهم ولا يتمكنون بل لا يفكرون في الخروج من هذا الظل.. مجد الأب ونجاحه يعطل بطريقة ما نجاح الأولاد، إنهم يعرفون أنهم مهما فعلوا لن يتمكنوا من تجاوز مجد الأب، لذا فهم يفضلون العيش في ظلاله، بالضبط، يفضلون العيش في جلباب أبيهم...

وهكذا كان أبو طالب، كان شخصًا محترمًا بلا شك لكنه لم يكن عبد المطلب قط.. لم يكن لديه شيء كبير في رصيد منجزاته، وبمقاييس قريش التي تركز على الثروة لم يكن ذا مال مثلًا، كانت له مكانته، لكن الجزء الأكبر من مكانته كان قادمًا من أبيه عبد المطلب.

---

(١) أخبار مكة للفاكهي ١٠٦٠.
(٢) أخبار مكة للفاكهي ١٠٦٣.
(٣) أخبار مكة للفاكهي ١٠٦٣.
(٤) أخبار مكة للأزرقي الجزء الأول صفحة ١٤٩.

ورث أبو طالب مهمة سقاية الحاج من عبد المطلب، ومن ثم تنازل عنها لاحقًا لأخيه العباس لسداد ديون عليه.

باختصار كان أبو طالب سيدًا من سادات مكة لأنه سيد قومه: في بني هاشم، ولكن أبدًا ليس مثل أبيه..

وكان هذا الضعف واللين هو السبب الذي جعله أعجز من أن يتخذ موقفًا من الإيمان برسالة ابن أخيه عليه الصلاة والسلام، كان موقفه بين بين، يحمي محمدًا عليه الصلاة والسلام، ولكن لا يؤمن به، لا يترك دين عبد المطلب، رغم أن عبد المطلب لو كان على قيد الحياة لربما آمن.

لا بد أن هذه الفروق بين الجد والعم قد جعلته عليه الصلاة والسلام يفكر على نحو عميق في السلوك البشري وفي دوافعه واختلافاته، ولا ريب أنه كان يميل إلى قوة عبد المطلب على رقة أبي طالب، وهو الذي صاح يوم حنين حين انكسر المسلمون **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**.

لكن أمام رقة أبي طالب كان هناك نموذج آخر مناقض أيضًا، عمه أبو لهب، الذي كان ثريًا وناجحًا بمقاييس مادية، ولكن أثبتت التجارب لاحقًا افتقاره لكثير من المبادئ والقيم.

لا بد أن هذه الشخصيات الثلاثة -عبد المطلب وأبو طالب وأبو لهب وعموم أعمامه عليه الصلاة والسلام- قد ساهمت في منح درس مهم جدًا للرسول عليه الصلاة والسلام؛ هذا التنوع في الدوافع في السلوك البشري، يحقق أعلى نقاط قوته في التوازن بين مختلف الصفات والنوازع.

لقد فهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن الحصول على التوازن هو الذي يمكن أن يحقق النجاح حقًا، وأن الميل تجاه طرف واحد (القوة أو الرقة)، سيؤدي حتمًا إلى نموذج مثل أبي لهب أو نموذج مثل أبي طالب، ولكن ليس مثل عبد المطلب.

وكما أن الشخصية القوية لعمته عاتكة، كبرى بنات عبد المطلب، قد قدمت له نموذجًا مختلفًا عن المرأة الرقيقة ممثلة في أمه آمنة (التي لم يذكر عنها سوى رقتها) وزوجة عمه أبي طالب فاطمة بنت أسد.

كانت عاتكة قوية، شاعرة، متحدثة، يقال أنها لعبت دورًا في حلف المطيبين في الجاهلية[1]، ولاحقًا لعب ابنها دورًا في فك الحصار عن بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب[2]، كما لعبت هي دورًا معروفًا في يوم بدر (وهي على دين قومها) حيث أشاعت أنها رأت منامًا ترى فيه قريش في مصيبة وزعزع ذلك الوضع النفسي لقريش عشية المعركة[3].

---

(١) أخبار مكة للفاكهي الجزء الخامس صفحة ١٥٩.

(٢) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٦٥.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤٢٩٧.

عمته صفية -شقيقة الحمزة وأم الزبير بن العوام- كانت أيضًا قوية الشخصية، ولكن من الصعب التصور أنها أثرت فيه لتقاربهما في العمر.

وعلى الأغلب كانت حاضنته أم أيمن هي الأقرب له ولقلبه، حضنته منذ أن توفيت والدته إلى أن شبّ[1]... وهذا يعني أنه بقي معها أكثر مما بقي مع أي أحد في طفولته.. ومن الواضح أن موقفها «الحاضن» كان يتجاوز علاقة الجارية بالسيد، خاصة أنها لازمته بعد أن أعتقها أيضًا... وهناك لاحقًا ما يدل على قوة هذه السيدة وصلابتها[2]، كذلك فإن تزويج النبي لاحقًا لها من زيد بن حارثة، وهو الذي كان يعد ابنًا للرسول عليه الصلاة والسلام بالتبني يدل على مقدار حبه لها وتأثره بموقفها منه.

هذا التنوع في شخصيات النساء اللواتي عرفهن من حوله كان له حتمًا تأثير على فهمه لدور المرأة ونفسيتها... وأدوار ممكنة لها.



كان «بنو عبد المطلب»، و«بنو هاشم» عمومًا، مثل مدرسة مهمة نشأ فيها محمد منذ أن رجع إلى مكة.

وكان يعي حتمًا أن مجد بني هاشم بدأ ينحسر مع موت عبد المطلب، وأن مَن خلفه من أولاده لم يمتلكوا التوازنات التي حققها عبد المطلب.

مكة نفسها كانت مدرسة بطريقة ما، التوازنات، التحالفات، الصراعات، الأوثان، التجارة، تداخل كل ذلك مع بعضه البعض وتأثيره على كل شيء.

كل ذلك حتمًا كان له تأثير على ذلك اليتيم الهادئ، الذي سيغير كل شيء.

* * *

ربما كان ثمة شيءٌ إيجابيٌ في «عدم قوة» أبي طالب، في عدم تمكنه من أن يكون كأبيه عبد المطلب.

ربما ذلك منح مساحة من الحرية للنبي عليه الصلاة والسلام.

مساحة من الحرية ضرورية لكي يعمل عقله، ويتخذ قراراته بنفسه بمعزل عن الإرغام على السير والتفكير بنفس الطريقة التي يفكر بها الجميع..

---

(١) صحيح مسلم ٧٠.

(٢) صحيح البخاري ٤١٢٠ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَجْعَلُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم النَّخَلاَتِ، حَتَّى افْتَتَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ، وَإِنَّ أَهْلِي أَمَرُونِي أَنْ آتِيَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَأَسْأَلَهُ الَّذِي كَانُوا أَعْطَوْهُ أَوْ بَعْضَهُ، وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَدْ أَعْطَاهُ أُمَّ أَيْمَنَ، فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ فَجَعَلَتِ الثَّوْبَ فِي عُنُقِي، تَقُولُ: كَلاَّ وَالَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لاَ يُعْطِيكَهُمْ وَقَدْ أَعْطَانِيهَا، أَوْ كَمَا قَالَتْ: وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لَكِ كَذَا» وَتَقُولُ: كَلاَّ وَاللهِ، حَتَّى أَعْطَاهَا - حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ - عَشَرَةَ أَمْثَالِهِ، أَوْ كَمَا قَالَ.

لو كان أبو طالب متسلطًا يميل إلى فرض رأيه على من حوله، ومن ضمنهم محمد، لربما لم يرق له أن يرى محمدًا منصرفًا عن تقاليد قومه في عبادة الأوثان، ما كان ذلك سيكون واضحًا في الفترة التي كان النبي عليه الصلاة والسلام تحت كفالة عبد المطلب، لأن النبي كان صغيرًا وما كان من المتوقع منه أن يكون مهتمًا بعبادة الأوثان أو طقوسها..

لكن لاحقًا، وعندما بلغ مبلغ الصبا وهو تحت كفالة أبي طالب، لا بد أنه قد ظهر عليه عزوف عن الأوثان، ولكن بسبب طبيعة شخصية أبي طالب المسالمة، فإنه على ما يبدو لم يشأ أن يحول ذلك لصدام مع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.. ولا نعرف كيف كان الصدام -لو حصل- سيؤثر على العلاقة بينهما، وهي علاقة كانت لها أهميتها لاحقًا في بدايات الدعوة..

* * *

في هذه النشأة المبكرة في كفالة أبي طالب قام عليه الصلاة والسلام برعي الغنم.

فقد صح عنه أنه قال أنه كان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط[١] (عملة نقدية صغيرة).. عمله هنا أفاده حتمًا في الاعتماد على النفس والقوة والصبر، لكنه كان أيضًا يساعد عمه أبا طالب بشكل أساسي، أبو طالب كان أكبر أبنائه الذكور بعمر الرسول تقريبًا (وهو طالب)[٢]، ولا نعرف إن كانت بناته أسن من الذكور أم لا، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان بعمر أكبر الذكور تقريبًا، وكان يفصل طالب عن عقيل (ثاني الذكور من أولاد أبي طالب) عشر سنوات، أي أن عقيل، لم يكن قد ولد أصلًا، عندما تكفل أبو طالب بالرسول، كان هناك طالب فقط.

ولأن أبا طالب ورث السقاية عن أبيه، فقد كان يتحمل أعباء مادية كبيرة، ولم يكن أبو طالب ذا مال حتى إنه تنازل لاحقًا عن السقاية لأخيه العباس لعدم قدرته على سداد ديونه له[٣]، والعباس يصغر النبي بثلاث سنوات أي لم يكن له دور مهم في هذه المرحلة.

وكان يقال في فقر أبي طالب «لم يَسُد -أي يصبح سيدًا في قومه- من قريش مملق -أي فقير- إلا عتبة بن ربيعة* وأبو طالب فإنهما سادا بغير مال»[٤]

كان عليه الصلاة والسلام يعمل في الرعي، بأن يرعى لأهل مكة أغنامهم مقابل أجر بسيط يساهم فيه لمساعدة عمه في أعبائه.

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٦٢.

(٢) الروض الأنف الجزء الأول صفحة ٢٩١.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير الجزء الأول صفحة ١٧٣.

* والد هند بنت عتبة وسيأتي ذكره لاحقًا في حرب الفجار.

(٤) الروض الأنف تحقيق السلامي الجزء الثاني ص ١٥٠.

ولا ريب أن العمل المبكر يساهم في صياغة الشخصية وتقويتها وتعليم الفرد الاعتماد على الذات والتعامل مع الناس.

لكن يبدو أن هناك شيئًا آخر بالإضافة لكل ذلك مع الرعي.

فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»[1]

فما هذا الذي في رعي الغنم يجعل الأنبياء يمرون به وهم في الطريق إلى النبوة؟

هل هو الهدوء الذي يجعل الإنسان أقرب لنفسه وللطبيعة من حوله وبالتالي لله؟

هل هو الاعتماد على الطبيعة، على المرعى الذي ينشأ دون تدخل من الإنسان، هل يجعل هذا الراعي أقرب لله؟

هل التعود على الرعاية والتنشئة والحماية، الذي يجعل الراعي حريصًا على البشر من باب أولى؟

هل هو الرعي الذي يجعل كل الأمور في النهاية تشبهه؟ هل الاقتراب من حقيقة الأشياء هو الذي يجعل كل عمل يمكن أن يكون رعيًا، وكل إنسان مهما كان عمله يمكن أن يكون راعيًا؟ كما سيعبر لاحقًا عليه الصلاة والسلام في الحديث المعروف «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته...»[2]

أم هل التعامل مع قطيع الأغنام هو الذي ينبه الراعي إلى أن البشر أيضًا يسلكون في أحيان كثيرة، بل في مفترقات طرق هامة في حياتهم، سلوك القطيع، يسيرون كما يسير الجميع دون أن ينتبهوا إلى خطأ الاتجاه أو خطورته..

ربما يجعل الرعي العاملين فيه أقرب لفهم السلوك البشري من زاوية بعيدة، من زاوية المجموع ككل، وليس من زاوية الأفراد.. ربما جعله الرعي يفهم دور الشخصيات المؤثرة -مثل جده عبد المطلب- في الآخرين.. ربما جعله هذا يفهم أكثر أن وجود الراعي ليس هو الحل دومًا، لأن غيابه سيؤدي حتمًا إلى غياب دوره، بالضبط كما حدث مع عبد المطلب، ذهب فلم يتمكن أبو طالب من سد دوره..

ربما جعله الرعي متيقنًا من ضرورة إحداث تغييرٍ في عقلية القطيع أساسًا، بحيث يَكُفُّ عن أن يكون قطيعًا يسير دون تفكير..

وربما كل هذا سوية، وأشياء أخرى لا نعلمها..

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٦٢.

(٢) صحيح البخاري ٨٩٣

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يتشكل..

بعيدًا عن الضجيج وعن كل التوقعات، كان ثمة شخصٌ يتشكل، سيكون مؤهلًا ليستلم أصعب مهمةٍ وأعظم مسؤوليةٍ في التاريخ..

سيستلم مهمةَ آخر رسالةٍ من الله إلى البشر..

من كفيل لآخر، كان اليتيم ينتقل ليمارس دراسةً في النفس البشرية والسلوك البشري.. كان يدرس القوة ويفهم الضعف..

كان يتأهل بالتدريج للحصول على الكاريزما التي ستؤهله للنبوة الخاتمة..

سنرى كيف..

حفيد سيد مكة.. وأمي؟

لعل مفاهيمنا المعاصرة، وتَعَوُّدَنا عليها وتصورنا أنها بَدَهيات عابرة للأزمان والأماكن، يجعلنا نستغرب بعض الأمور في السيرة النبوية الشريفة، رغم أنها كانت طبيعية تمامًا في سياقها التاريخي والجغرافي ومنسجمة مع ما يحيط بها ولم تثر أي استغراب آنذاك.

هذا الإسقاط التاريخي يُعَد مغالطةً منطقيةً[1]، ويمكن أن يكون السبب في رفض البعض للكثير مما في السيرة، أو الأحداث المتعلقة بحياته عليه الصلاة والسلام.

مما يستغرب منه البعض وينظر له بعين الريبة والتشكيك، هو أن يكون عليه الصلاة والسلام أُمّيًا لا يعرف القراءة والكتابة.

المنطق هنا يخلط بين مفاهيمنا المعاصرة التي تعتبر معرفة القراءة والكتابة من البَدَهيات والمسلمات، وبين حياة تعود لأكثر من ألف سنة مضت، وكان نمطها مختلفًا تمامًا في الكثير من جوانبه.

بالنسبة للمشككين: «كيف يمكن لحفيد سيد مكة أن يُتْرك دون تعليم؟ هل يُعقل هذا؟ لا بد أن ثمة شيئًا خطأً في هذا الموضوع.. لا بد أنه كان يعرف القراءة والكتابة حتمًا وأن ثمة محاولات لتغطية ذلك».

حسنًا، على فرض ذلك، لماذا يكون هناك محاولات لتغطية الأمر؟ ما المشكلة في أن يكون عليه الصلاة والسلام يعرف القراءة والكتابة*؟ لماذا يحاول أي أحد تغطية ذلك؟

القفزة الكبيرة تأتي هنا، في الجواب على هذا السؤال، حيث يستسهل البعض مسألة الوحي والقرآن، ويجد في مسألة معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام للقراءة والكتابة تناقضًا وتكذيبًا لمسألة نزول الوحي عليه.

بعبارة أخرى أكثر مباشرة: يجد في معرفته القراءة والكتابة «تفسيرًا» لتمكنه من تأليف القرآن!

كما لو أن معرفة القراءة والكتابة كفيلة بذلك!

كما لو أن معجزة القرآن هي في أنه جاء على رجل أمي، ولو لم يكن كذلك لما كانت هناك معجزة.

---

(1) historian's fallacy مغالطة المؤرخ.

* لا يعد هذا تكذيبًا للقرآن الذي وصف الرسول فعلًا بالأمية حيث يرى البعض أن كلمة أمي التي وردت في القرآن لا تعني أمية الحرف بل أمية عدم معرفة بالكتب السماوية.

من ناحية أخرى: بالنسبة للبعض، معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام للقراءة والكتابة (قد) تعني إمكانية اطّلاعه على ما جاء في الكتب السماوية السابقة، وهذا «يسهل» -برأي هؤلاء- إمكانية اقتباس محمد -حاشاه- من هذه الكتب السماوية ووضع الاقتباسات في القرآن..

لكن القرآن نفسه يقول في أكثر من موضع ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾الأعلى (١٩)، أي أنه لا يتحرج أبدًا من وجود تشابهات أو أمور مشتركة مع الكتب السابقة، فما يعده غير المؤمنين اقتباسًا اقترفه محمد عليه الصلاة والسلام -حاشاه- هو في حقيقته وحي إلهي يشكل المنبع الأصل لكل الكتب السماوية.

المعجزة القرآنية أعمق وأعقد من أن تسطح وتُقَدَّم على أنها معجزة، لمجرد أن رجلًا أميًا قد جاء بها... لذا فإن فرضية أن محمدًا عليه الصلاة والسلام ليس أميًّا لن تناقض المعجزة بكل الأحوال.

وكذلك فإن الكتب السماوية كان لها أتباعها ممن يمكن أن ينقلوا أخبارها شَفهيًّا، وليس هناك داع لأن يكون محمد على علم بالقراءة والكتابة، هذا لو افترضنا أنه دَعِيٌّ -حاشاه- وأراد أن يقتبس منَّ الكتب السماوية.

* * *

الفكرة وراء هذا الاستغراب من أُمية الرسول عليه الصلاة والسلام، هي التصور أن التعليم كان شائعًا في مكة آنذاك أو أن ثمة قانونًا بإلزامية التعليم في مكة كان يجبر الجميع على التعلم.

في الحقيقة، هذا أمر مختلف تمامًا عما كان سائدًا في الواقع آنذاك.

لم تكن الكتابة منتشرة في مكة، بل كانت محدودة جدًا، وينقل رواة الأخبار أن من أدخل الكتابة إلى مكة حرب بن أمية، والد أبي سفيان بن حرب وجَدُّ معاوية، أي أننا نتحدث هنا عن الجيل الذي سبق الإسلام مباشرةً، حيث إن حرب بن أمية توفي قبل الهجرة بستة وثلاثين عامًا، أي أنه توفي في حوالي السنة الرابعة عشرة بعد عام الفيل. وحرب بن أمية هو سيد مكة أثناء حرب الفجار ضد قبائل قيس عيلان، والتي سنأتي على ذكرها لاحقًا.

روى ابن الكلبي والهيثم بن عدي أن الناقل للكتابة هو حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة، وقالا: «قيل لأبي سفيان بن حرب: ممن أخذ أبوك هذه الكتابة؟ فقال: من أسلم بن سدرة (من الحيرة)، وقال: سألت أسلم: ممن أخذت هذه الكتابة فقال: من واضعها مرامر بن مرة (من الأنبار)»[1].

وقيل أيضًا أن أول من نقل الكتابة إلى مكة هو أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة[2].

---

(١) وفيات الأعيان ابن البواب الكاتب الجزء الثالث صفحة ٣٤٤.

(٢) الفهرست الجزء الأول صفحة ١٤.

ويذهب الدكتور جواد علي إلى أن بني أمية بن عبد شمس هم أول من أدخل الكتابة إلى مكة، وذلك في عهد غير بعيد عن الإسلام[1].

وحسب البلاذري؛ فإن الإسلام دخل مكة وفيها سبعة عشر رجلًا فقط يجيدون القراءة والكتابة*.

ولو راجعنا قائمة السبعة عشر هذه، لوجدنا أن بني عبد شمس لهم حصة الأسد فيها من بين كل بطون قريش، فالقائمة تحتوي على سبعة منهم (عثمان بن عفان، يزيد بن أبي سفيان، أبو سفيان بن حرب، معاوية بن أبي سفيان، أبان بن سعيد بن أبان، خالد بن سعيد بن أبان، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة)[2].

بنو عامر بن لؤي لهم ثلاثة رجال في القائمة (حويطب بن عبد العزى العامري، حاطب بن عمرو وعبد الله بن سعد بن أبي سرح).

كل المتبقين من السبعة عشر رجلًا كانوا ينتمون لبطون مختلفة (عمر بن الخطاب من بني عدي، أبو عبيدة من بني الحارث بن فهر، طلحة من بني تيم بن مرة، أبو سلمة بن عبد الأسد من بني مخزوم، وجهيم بن الصلت بن المخرمة بن المطلب من بني المطلب).

الهاشمي الوحيد في القائمة هو علي بن أبي طالب، والذي كان طفلًا في كفالة الرسول عليه الصلاة والسلام، مما يعني أنه تعلم الكتابة غالبًا بعد الوحي وبتوجيه منه عليه الصلاة والسلام.

ورغم أنه لا يمكن اعتبار أن كل واحد من السبعة عشر رجلًا قد تعلم الكتابة بدوافع عشائرية غير شخصية، فإن وجود هذا العدد من بني أمية بن عبد شمس لا يمكن أن يكون محض صدفة خاصة مع ما يتداول من أنهم أول من أدخلوا الكتابة إلى مكة، فلعل الأمر كان بالنسبة لهم يتعلق بما عرف عنهم من اهتمامهم بالتجارة، فكانت الكتابة تعينهم على كتابة معاملاتهم أو تسجيلها.

كما أن عدم وجود أي هاشمي ضمن السبعة عشر رجلًا، سيجعلنا نعرف أن الأمر لم يكن في ذهن أبي طالب على الإطلاق عندما كفل محمدًا عليه الصلاة والسلام في فترة صباه، فهو لم يوجه أولاده (الأكبر سنًا) طالب وعقيل وجعفر كذلك للكتابة، وهذا يوضح أكثر لِم لَم يتعلم عليه الصلاة والسلام الكتابة.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب الجزء ١٥ صفحة ١١٨.

(*) مما لا شك فيه أن القائمة ليست كاملة، فنحن نعرف مثلًا أن ورقة بن نوفل كان يعرف القراءة والكتابة ورغم ذلك فهو غير موجود في القائمة، وربما كانت القائمة تتحدث عمن كان في مكة أثناء انتشار الدعوة وليس في بدايتها المبكرة. بكل الأحوال مجرد إمكانية عد من يقرأ ويكتب في مكة يدل على قلة الأمر وندرته.

(٢) فتوح البلدان الجزء الأول صفحة ٤٥٣.

كان الأمر لا يزال نادرًا جدًا في مكة بين أبناء جيله عليه الصلاة والسلام، وكان أندر تحديدًا في بني هاشم، غالبًا لعدم حاجتهم إليها ضمن المهام المسندة إليهم في السقاية مثلًا.

كانت معرفة القراءة والكتابة آنذاك مثل مهارة لا يحتاجها الجميع كما هو الأمر اليوم، فلنقل مثل مهارةً في استخدام برنامج متطور على الحاسوب للتصميم، هناك حتمًا من يعرف استخدامه ضمن محيطك.

لكنه بالتأكيد ليس مثل استخدام برنامج الأوفيس، حيث يعرف استخدامه الجميع تقريبًا.

الحرب والسلام..

لم يكن أهل مكة أهل حرب، بل كانوا أهل تجارة بشكل أساسي، لذلك لو استعرضنا أشهر أيام العرب في الجاهلية، أي معاركهم، لوجدناها بعيدة عن قريش، وهذا منطقي تمامًا لعدم إمكانية تعايش التجارة مع الحرب، حيث تتطلب التجارة حتمًا وجود حد معين من الاستقرار يسمح بمرور القوافل وانتقال البضائع.

لكن أحيانًا لم يكن الأمر خيارًا ممكنًا.

فقد شهدت مكة في سنوات صبا الرسول عليه الصلاة والسلام، واحدًا من أهم أيام العرب في الجاهلية، ففي سنة ٥٨٤ تقريبًا، نشبت حرب الفجار في سوق عكاظ خارج مكة واستمرت هذه الحرب على مدار أربع سنوات.

أسباب نشوب الحرب مختلف عليها في المصادر، ولا شيء يمنع حدوثها جميعًا، فحرب الفجار كانت أيامًا مختلفة عبر أربع سنوات متتالية، وربما كانت هناك أسباب متراكمة لحصولها، ولكن من المهم أن نشير هنا إلى أن الأسباب المحلية الموضعية المباشرة لنشوب الحرب لا تغنينا عن رؤية أكبر للوضع في الجزيرة يمكن أن تجعلنا نفهم أسباب نشوب هذه الحرب.

ففي عام ٥٨٢ ميلادية، قام النعمان بن المنذر الغساني[1]، آخر ملوك الغساسنة، بتمرد ضد البيزنطيين ثأرًا لأبيه الذي كان قد أُعتقل من قبلهم، وبعد عامين من التمرد، زار النعمان الإمبراطور موريس لتسوية الأمر، ولكن الأخير طالبه بالتخلي عن مذهبه المسيحي الشرقي الذي يؤمن بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح لصالح ما كانت تبنته بيزنطة من الإيمان بطبيعتين، لكن النعمان رفض فتم نفيه إلى صقلية، وكان هذا سببًا في انهيار دولة الغساسنة في شمال الجزيرة العربية التي لعبت دومًا دور الحليف الاستراتيجي للروم والبيزنطيين ومصدًا ضد غزوات القبائل باتجاه حدود الدولة البيزنطية[2].

ولا يمكن تصور أن انهيار دولة الغساسنة في شمال الجزيرة في الفترة ذاتها لا علاقة له بنشوب حرب الفجار، إذ إن الفراغ الذي يتركه سقوط دولة سيؤدي حتمًا إلى محاولات القبائل العربية الحصول على المزيد من القوة والنفوذ أو على الأقل تثبيت وضعها في الوضع الجديد.

---

(١) وهو غير النعمان بن المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، ملك المناذرة الذي حكم الحيرة من ٥٨٢ إلى ٥٠٩.

(٢) https: //en.wikipedia.org/wiki/Al-Nu٢٧%man_VI_ibn_al-Mundhir

ضمن هذا المنظور، يمكن اعتبار حرب الفجار صراعًا بين قبيلة كنانة (وتضم قريشًا) من جهة، وقبائل قيس عيلان (وتضم قبائل هوازن وغطفان) من جهة ثانية.

أما الأسباب المحلية المباشرة، التي غالبًا ما يشار لها في كتب التاريخ وأيام العرب فالمشترك فيها هو أنها:

أولًا: كانت غالبًا أسبابًا شخصية فردية، يقوم فيه فرد واحد بعمل ضد قبيلة أخرى، فتنجر القبيلتان إلى الحرب.

ثانيًا: أنها كانت بين قبيلة كنانة وقبيلة قيس عيلان في كل الأيام التي سميت بأيام الفجار.

ثالثًا: أنها حدثت في الأشهر الحرم، ومن هنا جاءت تسمية «الفجار» وذلك لعدم مراعاة حرمة هذه الأشهر.

أحد أشهر أسباب نشوب الحرب كان، أن ملك الحيرة النعمان بن المنذر -وهو غير النعمان بن المنذر الغساني- بعث بقافلة تجارة له إلى سوق عكاظ، وكان يرغب بمن يقدم لها الحماية بين القبائل التي تمر في طريقها فلا تتعرض لسلب أو نهب، وكان عنده البرّاض بن قيس الكناني -وكنانة التي تعد قريش جزءًا منها- فعرض البراض أن يجيرها له من (كنانة)، قبيلته، أي أنه يقدم له الحماية من قبيلة كنانة تحديدًا.

فقال النعمان بن المنذر أنه يريد من يجيرها له من العرب كلهم، وليس من كنانة فحسب.

فقال عروة بن عتبة الرحال (من قبيلة هوازن، أحد أهم فروع قيس عيلان) -وكان عنده أيضًا- أنه يجيرها له من العرب كلهم.

فسأله البراض الكناني: «تجيرها من كنانة أيضًا؟»

فرد عليه عروة: «نعم ومن العرب كلهم»

فأسرّها له البراض، وما إن خرج عتبة بقافلة الملك حتى قام البراض بقتل عروة وسلب القافلة.

قريش (وهي من كنانة، أي أن البراض المعتدي محسوب عليها) كانت في سوق عكاظ كجزء من نشاطها التجاري السنوي، وسوق عكاظ يقع تحت سيطرة قبيلة هوازن القبيلة المعتدى عليها، وقد وصل قريشًا خبر ما حدث قبل أن تعلم هوازن بالأمر، فآثرت الانسحاب وترك السوق قبل أن تعلم هوازن بالأمر، فارتحلت تجاه مكة، وما لبث هوازن أن علمت بما حدث من البراض الكناني تجاه عروة والقافلة التي كان يجيرها، فارتحلت خلف قريش تريد الانتقام، وأدركتها قبل أن تدخل الحرم، فاقتتل الفريقان حتى تمكنت قريش من أن تلوذ بالحرم، ولم تدخل هوازن مكة ولكن توعدتها موسم عكاظ القادم[1].

---

(١) سيرة ابن هشام الجزء الأول صفحة ١٨٤.

فلنتنبه هنا إلى أن هذا السبب المباشر يرتبط بالملك النعمان بن المنذر، الذي كان قد تولى الملك حديثًا (٥٨٢ ميلادية) ولعل الحرب تمثل جزءًا من التنافس على التحالف معه، أو إثبات أي القبائل هي الأجدر بالتحالف معها.

من الأسباب الأخرى، حدوث تحرش لشباب من كنانة بامرأة من بني عامر (من قيس عيلان) في سوق عكاظ[1]، ووجود دَين لرجلٍ من كنانة على رجل من بني نصر بن معاوية (من هوازن كبرى قبائل قيس عيلان) فلما طالبه به عاب قومه، واقتتلا وسرعان ما انتشر الأمر ليكون حربًا بين القبيلتين[2]، ويذكر في الأسباب معايرة شعرية في سوق عكاظ بين رجل من كنانة وآخر من بني نصر بن معاوية انتهت باستخدام السيف بينهما، ومن ثم تطور الأمر ليصبح حربًا بين القبيلتين[3].

استمرت هذه الحرب مدة غير محددة، ربما بين عامين إلى أربعة أعوام، كانت أشبه بحرب استنزاف أنهكت الطرفين بلا حسم لصالح أي منهما، مناوشات مستمرة أثرت حتمًا على قريش أكثر مما أثرت على هوازن التي كانت قبيلة محاربة أصلًا وكانت الكفة العسكرية تميل لصالحها في أغلب هذه الأيام بسبب خبرتها العسكرية[4]، أما قريش لديها تجارتها وأرباحها وقوافلها وخطوطها التي تريد المحافظة عليها والتي أثرت عليها الحرب حتمًا، كما أن الحرب شكلت خرقًا لمعاهدات الإيلاف التي شكلت العصب الأساسي لحركة التجارة عبر مكة.

انتهت الحرب بصلح لا غالب ولا مغلوب فيه، اقترحه عتبة بن ربيعة (وهو والد هند بنت عتبة التي نعرفها كزوج أبي سفيان بن حرب ووالدة معاوية)، وكان الاقتراح يتضمن إحصاء القتلى من الطرفين ودفع الدية للطرف الذي تكبد قتلى أكثر بفارق عدد القتلى.

وقد كان عتبة يتيمًا في حجر واحد من سادات مكة المهمين آنذاك، وقائدها في الحرب حرب بن أمية، أي أنه كان محسوبًا على علية القوم ولكنه كان فقيرًا.. وهو الذي جُمِعَ مع أبي طالب في القول الذي مر سابقًا «لم يسد مملقٌ في قريش إلا عتبة وأبو طالب»[5].

المهم أن حرب الفجار انتهت بهذه الطريقة التي لا غالب فيها ولا مغلوب.

ورغم أن رواية مشاركة الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه الحرب بالنبل*(جمع النبال أو رميها) هي رواية ضعيفة سندًا ويرفضها أغلب محققي السيرة، فإنها منطقية جدًا في سياقها، إذ من

(١) مرآة الأزمان في تواريخ الأعيان الجزء الثالث صفحة ٧٣.

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان الجزء الثالث صفحة ٧٣.

(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان الجزء الثالث صفحة ٧٢.

(٤) المفصل في تاريخ العرب الجزء السابع صفحة ٨٥.

(٥) الروض الأنف تحقيق السلامي الجزء الثاني صفحة ١٥٠.

* في طبقات ابن سعد أنه عليه الصلاة والسلام قال «قَدْ حَضَرْتُهُ مَعَ عُمُومَتِي، وَرَمَيْتُ فِيهِ بِأَسْهُمٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَعَلْتُ» وفي السند الواقدي وهو متروك.

المستبعد أن تتعرض مكة لهجوم من قبل قبائل معادية دون أن يشارك الرسول عليه الصلاة والسلام في الدفاع عنها، وهو من أهم بطونها وحفيد أحد أهم ساداتها.

بكل الأحوال فإن عُمْرَ النبي عليه الصلاة والسلام في بداية هذه الحرب كان مناسبًا لأن يكون دوره مقتصرًا على جمع النبال، ومناسبًا لأن يساهم في النبل، أو رد النبال في آخرها.

أما ما يقال عن أن مشاركته تعني اختراق حرمة الأشهر وهو أمر ننزهه عنه، فالحقيقة أن مكة كانت أقرب إلى أن تكون في حالة دفاع عن النفس في هذه الحرب.

ومما لا ريب فيه، أن قريش قد استشعرت بالخطر من إمكانية تكرار هذه الحروب وتأثيرها مجددًا على اقتصادها وتجارتها، ولعل هذا الشعور كان ممهدًا لما عرف بحلف الفضول الذي حدث بعد أشهر فقط من انتهاء حرب الفجار.

السبب المباشر لحلف الفضول كان أن أحد الرجال من زبيد في اليمن قد قدم ببضاعة إلى مكة، فاشتراها منه أحد سادة مكة من بني سهم وهو العاص بن وائل السهمي (وهو والد عمرو بن العاص)، ولكنه ماطل في تسديد ثمنها وتهرب من اليماني[١] (وفي قول آخر بخسه ثمنها)[٢]، فذهب الرجل إلى سادات مكة يطلب منهم العون، فنهروه ووقفوا إلى جانب العاص. فوقف الرجل في وسط مكة وناشد أهلها العون في رد الظلم الذي وقع عليه، وهنا تحركت بعض بطون قريش المهمة (بنو هاشم، بنو عبد المطلب، بنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو تيم بن مرة)[٣] بقيادة الزبير بن عبد المطلب (عم النبي الذي توفي قبل الإسلام) وعقدت ما عرف بحلف الفضول، تعاهدوا فيه في دار عبد الله بن جدعان (سيد تيم بن مرة) على «**أن لَا يظلم أحد بِمَكَّة إلا كُنَّا جَمِيعًا مَعَ الْمَظْلُوم على الظَّالِم حَتَّى نَأْخُذ لَهُ مظلمته مِمَّن ظلمه شريفًا أو وضيعًا منا أَو من غَيرنَا**»[٤] ويمكن أن يعتبر حلف الفضول امتدادًا جزئيًا لحلف المطيبين.[I]

ورغم أن السبب المباشر هو ما حدث للرجل اليماني، فإن ظل حرب الفجار كان واضحًا على الحلف، فقد كان من الممكن تطور الأمر مع أي مظلمة ليصبح نزاعًا مع قريش، لذا كان الحلف واشتهار أمره بين العرب بمثابة ضمان لهم أن يأتوا بتجارتهم وبضاعتهم إلى مكة، دون أن يخشوا أكل حقوقهم وتعرضهم للظلم، وكان هذا يصب بالتأكيد في صالح تجارة مكة كتحصيل حاصل.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب الجزء السابع صفحة ٨٧.
(٢) أخبار مكة للفاكهي ص ١٣٣.
(٣) السنن الكبرى للبيهقي ١٣٠٨٠.
(٤) أخبار مكة للفاكهي ١٢٧.
[I] راجع المفاتيح/ المفتاح السابع / حلف المطيبين وحلف الأحلاف.

ولقد شارك عليه الصلاة والسلام في هذا الحلف فقد صح عنه أنه قال «شَهِدْتُ مَعَ عُمُومَتِي حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَإِنِّي أَنْكُثُهُ»[١] وأغلب الشراح هنا على أنه يقصد حلف الفضول لأنه لم يدرك حلف المطيبين.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن الحلف، بما يمثل من قيم العدالة والتناصر بين الناس لرد الظلم، كان بمثابة انتقال بالضد من مفهوم التناصر العشائري إلى مفهوم التناصر على أساس الحق والعدل بمعزل عن الانتماء العشائري.

وإشارته عليه الصلاة والسلام إلى استمراره في هذا الحلف حتى بعد الدعوة، يشير حتمًا إلى أن ما هو حق وخير يستحق دومًا الدعم والتأييد بمعزل عن معتقدات أصحابه.

* * *

هل كان لهذه الأحداث دور في تشكيله عليه الصلاة والسلام؟

بالتأكيد...

حرب الفجار جعلته أكثر استشعارًا بالتأكيد لهشاشة الوضع في الجزيرة العربية وسهولة انهيار كل شيء بخطأ شخصي يرتكبه أحدهم فينهار كل شيء..

جعلته أيضًا يدرك أن النظام العشائري غير صالح للعمل على نطاق واسع، وأن عيوبه قد لا تكون شديدة الوضوح في مناطق محددة أو مدن بتجمعات عشائرية محددة، لكنَّه سيكون معرضًا للعطب والانهيار إذا ما توسع وصار يشمل ما هو أكبر من ذلك..

حرب الفجار أيضًا، وحدوثها في الأشهر الحرم تحديدًا، جعلته عليه الصلاة والسلام يدرك هشاشة الحرمات عند العرب وسهولة اختراقها عند تعارضها مع مصالحهم، أو قيم الثأر والانتقام التي يحملونها..

حلف الفضول، من جهة أخرى، كان محاولة للإصلاح من داخل المنظومة العشائرية، تتعاهد مجموعة عشائر على مساعدة المظلومين فيما لو حصل لهم الظلم في مكة، ماذا لو حصل الظلم من داخل هذه العشائر نفسها؟ هل سيصمد أم أنه سينهار أمام أول ضربة؟

وسنرى لاحقًا كيف أن هذا الحِلف كان له أثر كبير لاحقًا على بدايات الدعوة..

(١) صحيح ابن حبان ٤٣٧٣ وصححه الألباني.

حرب الفجار وحلف الفضول، كانا مثل درس عميق لا بد أنه عليه الصلاة والسلام استوعبه عن الحرب والسلام.. الحرب ليست أول الحلول حتمًا، لكن السلام عندما يأتي يجب أن يكون عادلًا.. بَدَهيات ربما لا يمكن الوصول لها إلا بعد أن تمر بتجربتي الحرب والسلام...

لا بد أنه عليه الصلاة والسلام يتفاعل مع كل ما يدور بعقل يحلل ويفهم.. ما كان يمكن للوحي أن يتنزل على شخص لم يخبر الواقع ولم يدرسه.. ما كان يمكن للوحي أن يتفاعل مع شخص لم يتفاعل مع واقعه، وما كان يمكن لرسالة التغيير أن تحمل لشخص لم يهتم لما يحدث في مجتمعه...

الراهب والصبي

أغلب الأمهات يشعرن أن أولادهن سيكبرون ليكونوا شيئًا مهمًّا، شيئًا عظيمًا.

ليس الأمهات فقط، الآباء أيضًا.. أي حركة أو لفظ أو سؤال جديد يفعله الطفل، خاصة الطفل الأول، سيعدونه على أنه علامة لا تخطئ على نبوغ ساحق سيبهر بنتائجه الجميع.

يحدث هذا كثيرًا جدًا، ربما الملايين من الأمهات والآباء ينتابهم هذا الشعور وهم يتعاملون مع طفلهم الأول.

في كل جيل، هناك عدد محدود جدًا ممن تصدق توقعاتهم هذه.



على العكس من ذلك، في سيرته عليه الصلاة والسلام، هناك هذا الأمر ولكن بطريقة معاكسة تمامًا.

يأتي غريب ما، ليقول لأهل محمد أو لمن كان كفله آنذاك، أن هذا الصبي سيكون له شأنٌ عظيم.. وأنه وأنه...

وبدلًا من أن تعامل هذه النبوءة بحفاوة، وتستذكر لاحقًا عندما يأتي وقت تحقيقها.. فإنها كادت أن تندرس.. ولم يأخذها الشخص الذي قيلت له على نحو كافٍ من الجدية.

للأسف الشديد.



ملخص ما جرى..

يذهب الرسول عليه الصلاة والسلام مع عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، بصحبة رجال من قريش كعادة القوافل التجارية.

في الطريق، يمرون براهب* منعزل في الصحراء، ويسألهم عن بعض ما يخص الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يقول لهم ما معناه أنه سيكون له «شأن عظيم» وينصحهم بأن يعودوا به إلى مكة خوفًا من اليهود والروم.

---

* يعرف عند الناس باسم الراهب بحيرا أو بحيرى، ولكن لم يثبت اسم الراهب بأي سند صحيح.

هذا هو المحور الأساسي لما حدث في تلك الرحلة، الراهب يرى فيه عليه الصلاة والسلام شيئًا ما، ويقول بناءً على ما رأى..

هل نستكثر ذلك؟ يحدث أن نتوسم في طالب متفوق ما أن يكون له شأن ما نتيجة لإمكانات واضحة فيه.. نتقبل حدوث ذلك.. فلماذا لا يكون الأمر مشابهًا بطريقة ما مع ما حدث بين الراهب والرسول عليه الصلاة والسلام في تلك الرحلة؟

هل هناك من يتوهم أنه عليه الصلاة والسلام كان عاديًا تمامًا دون أي تميز أثناء صباه؟ وأن راهبًا يمتلك ما يكفي من أدوات معرفة أهل الكتاب سيمر عليه النبي دون أن يميز أنه يرى أمامه الحلقة الأخيرة من أنبياء الكتب السماوية؟

أتحدث هنا عن الأمر على نحو عام، عن التوسم، عن رؤية الراهب لما يميز هذا الصبي اليتيم.. وليس عن التفاصيل الدقيقة.

عندما يطرح الأمر على هذا النحو العام.. هل هناك مشكلة؟

لا أعتقد.

* * *

المشكلة دومًا في التفاصيل.

وهذه القصة رغم شهرتها، في تفاصيلها مشاكل كبيرة، وهناك من يرفضها من علماء الحديث.

وهناك من يقبلها بعد أن يحذف ما يعده منكرًا في تفاصيلها.

عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلاَ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَلْتَفِتُ. قَالَ: فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ العَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟

فَقَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ العَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلاَ حَجَرٌ إِلاَّ خَرَّ سَاجِدًا وَلاَ يَسْجُدَانِ إِلاَّ لِنَبِيٍّ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ، ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الإِبِلِ، قَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ القَوْمِ وَجَدَهُمْ قَد

سَبَقُوهُ إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ، فَإِنَّ الرُّومَ إِنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: جِئْنَا، إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ إِلَيْهِ بِأُنَاسٍ وَإِنَّا قَدْ أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ فَبُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا، فَقَالَ: هَلْ خَلْفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بِطَرِيقِكَ هَذَا. قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَبَايَعُوهُ وَأَقَامُوا مَعَهُ قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟ قَالُوا: أَبُو طَالِبٍ، فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الكَعْكِ وَالزَّيْتِ»[1]

قال الترمذي بعد أن أورده: هذا حديث حسن غريب*، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

من أهم المعترضين على هذا النص الإمام الذهبي الذي أسوق ما قاله كاملًا:

هُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ جِدًّا، وَأَيْنَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ؟ كَانَ ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ، فَإِنَّهُ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- بِسَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ، وَأَيْنَ كَانَ بِلَالٌ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟

فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَشْتَرِهِ إِلَّا بَعْدَ الْمَبْعَثِ، وَلَمْ يَكُنْ وُلِدَ بَعْدُ.

وَأَيْضًا، فَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَمِيلَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ؟ لِأَنَّ ظِلَّ الْغَمَامَةِ يُعْدِمُ فَيْءَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَزَلَ تَحْتَهَا، وَلَمْ نَرَ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – ذَكَرَ أَبَا طَالِبٍ قَطُّ بِقَوْلِ الرَّاهِبِ، وَلَا تَذَاكَرَتْهُ قُرَيْشٌ، وَلَا حَكَتْهُ أُولَئِكَ الْأَشْيَاخُ، مَعَ تَوَفُّرِ هِمَمِهِمْ وَدَوَاعِيهِمْ عَلَى حِكَايَةِ مِثْلِ ذَلِكَ، فَلَوْ وَقَعَ لَاشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ أَيَّمَا اشْتِهَارٍ، وَلَبَقِيَ عِنْدَهُ -صلى الله عليه وسلم- حِسٌّ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَلَمَا أَنْكَرَ مَجِيءَ الْوَحْيِ إِلَيْهِ... وَأَيْضًا فَلَوْ أَثَّرَ هَذَا الْخَوْفُ فِي أَبِي طَالِبٍ وَرَدَّهُ، كَيْفَ كَانَتْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ السَّفَرِ إِلَى الشَّامِ تَاجِرًا لِخَدِيجَةَ؟[2]...

واعتراضات الإمام الذهبي تصب على وجود ما عده هو مغالطات في متن الواقعة كما وردت في هذا النص: «ما الذي جاء بأبي بكر في هذه الرحلة وهو أصغر من الرسول عليه الصلاة والسلام، وكيف يكون بلال معهما وهو أصغر منهما على نحو يمكن أن يكون لم يولد بعد في هذه الفترة؟

(١) سنن الترمذي ٣٦٢٠.

* يقصد بالغريب أنه يدور على راوٍ واحد.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي تحقيق بشار عواد معروف طبعة دار الغرب الإسلامي الجزء الأول ص ٥٠٣-٥٠٤.

ثم كيف يمكن أن تظلله عليه الصلاة والسلام الغمامة ثم يميل فيء الشجرة ليظلله؟»

ثم يعترض الذهبي على أن الواقعة لم تؤثر لاحقًا فيمن حضرها عند نزول الوحي! وكيف لم يستذكرها الرسول عليه الصلاة والسلام عند أول نزول الوحي؟!

اعتراضات الذهبي إذن عقلانية جدًا، وتخص تفاصيل الواقعة، وليس عمومها.

أما الشيخ الألباني، فقد صحح الحديث من ناحية السند[1]، ودافع عن الواقعة مع إقراره بأن ذكر بلال في الحديث منكر.

فلنسجل هنا أن فقرة حضور الروم في أثناء حديث الراهب مع أبي طالب وما إن تحدث عن خطر الروم أمر لا يقل غرابة عن كل ما سبق، والروم أيضًا كانوا يبحثون عنه عليه الصلاة والسلام ليقتلوه! وهم يعرفون أنه «خارج» هذا الشهر (ما معنى ذلك أصلًا؟ وكيف لهم معرفة الغيب بهذا التحديد)، ثم إنهم سرعان ما يقتنعون بما يقوله الراهب ويقيمون معه، وكل هذا بينما قافلة قريش في الجوار!

كما أن تبرير الراهب لقافلة قريش بأنه عرف أنه النبي لأن الشجر والحجر سجد طيلة الطريق تبرير يفتقر للتماسك، هل رأى أحد غيره سجود الشجر والحجر للنبي؟

هذه التفاصيل هي التي تمنح الواقعة أبعادًا غير منطقية، أقرب للخيال والمغامرة، قد تعجب البعض، ولكنها بالتأكيد لا تصمد أمام رغبة البعض الآخر في الاقتناع...

* * *

محور القصة الأساسي منطقي جدًا، واقعي جدًا.

التفاصيل هي المشكلة، لن أبحث عن أسباب حدوث هذه الإضافات غير العقلانية على المحور العقلاني، نعرف عن الطبيعة البشرية ما يغني عن هذا البحث.

لكن ثمة سندًا آخر للواقعة التي تُروى هذه المرة بنَفَس مختلف جدًا...

«أَخْبَرَنَا خَالِدُ بْنُ خِدَاشٍ، أَخْبَرَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، أَوْ أَبَا طَالِبٍ شَكَّ خَالِدٌ قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللهِ عَطَفَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

(١) مشكاة المصابيح ٥٩١٨، صحيح السيرة النبوية الجزء الأول صفحة ٢٩، موسوعة الألباني في العقيدة الجزء الثامن ٢٤٣- ٢٥٤.

فَكَانَ لَا يُسَافِرُ سَفَرًا إِلَّا كَانَ مَعَهُ فِيهِ وَإِنَّهُ تَوَجَّهَ نَحْوَ الشَّامِ فَنَزَلَ مَنْزِلَهُ فَأَتَاهُ فِيهِ رَاهِبٌ، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ رَجُلًا صَالِحًا فَقَالَ: إِنَّ فِينَا مَنْ يَقْرِي الضَّيْفَ، وَيَفُكُّ الْأَسِيرَ، وَيَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ أَوْ نَحْوًا مِنْ هَذَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ فِيكُمْ رَجُلًا صَالِحًا، ثُمَّ قَالَ: أَيْنَ أَبُو هَذَا الْغُلَامِ؟ قَالَ: فَقَالَ: هَأَنَذَا وَلِيُّهُ أَوْ قِيلَ: هَذَا وَلِيُّهُ، قَالَ: احْتَفِظْ بِهَذَا الْغُلَامِ وَلَا تَذْهَبْ بِهِ إِلَى الشَّامِ إِنَّ الْيَهُودَ حَسَدٌ، وَإِنِّي أَخْشَاهُمْ عَلَيْهِ، قَالَ: مَا أَنْتَ تَقُولُ ذَاكَ وَلَكِنَّ اللهَ يَقُولُهُ فَرَدَّهُ، قَالَ: قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ مُحَمَّدًا ثُمَّ إِنَّهُ مَاتَ»[1].

هنا الواقعة منطقية جدًا، الرجل بخبرته، رأى شيئًا قادمًا في هذا الصبي، شيئًا نقيًا روحيًا عميقًا، وحدسًا أنه يمكن أن يكون نبي آخر الزمان، ولم يصرح لهم بذلك، وطلب من أبي طالب أن يبعده عن أي تأثير من أصحاب الديانات السابقة، وهو الأعلم بما حدث من رجال الدين فيها.

* * *

لا غمامة إذن في هذه النسخة من الواقعة؟

لا غمامة، قد تبدو القصة جذابة أكثر ومشوقة أكثر بوجود غمامة تظلله عليه الصلاة والسلام... لكن ما أهم من جاذبية الحكاية هو التساؤل عن جدوى هذه الغمامة... عن تناسقها مع مجمل أحداث حياته الشريفة عليه الصلاة والسلام...

لقد كان عز وجل يقوي نبيه بتعويده على المشاق والصعوبات، وكل حياته لم تخلُ من طرق وعرة وظروف في غاية الشدة.. فلماذا الغمامة هنا؟

ولماذا نستنكر إنكارها؟

* * *

لكن ثمة غمامة أخرى..

غمامة نستشعرها تظللنا، ونحن نتحدث عنه..

غمامة تنبعث من حضوره.. من هيبته.. من الحديث عنه..

---

(١) قال الألباني إسناد مرسل صحيح موسوعة الألباني في العقيدة الجزء الثامن صفحة ٢٤٥ الطبقات الكبرى ابن سعد طبعة دار صادر الجزء الأول صفحة ١٢٠.

كلما اقتربنا منه أكثر، كلما تعمقنا في التنقيب عنه أكثر، شعرنا أن ثمة غمامة تظللنا وتسير معنا، تحرسنا... أو ترافقنا..

حضوره من بعيد، له هالّة من نور... كاريزما مختلفة تتحدى الأزمان والقارات..

كاريزما خاصة... هي كاريزما النبوة...

تَشَرَّب بها، وتشربت به..

عليه الصلاة والسلام...

كاريزما النبوة

لا شك أنه منذ أن بدأت ملامح شخصيته عليه الصلاة والسلام بالظهور، كان فيه شيءٌ مميزٌ، شيء مختلف، شيء تجتمع فيه صفاتٌ كثيرةٌ، وصفاتٌ نادرةٌ أيضًا.

القرآن الكريم وصفه بأنه كان على «خلق عظيم»، وكان هذا في بداية الوحي، حيث إن سورة القلم التي احتوت الآية كانت ثاني ما أنزل من القرآن، وكان هذا الخلق العظيم بالتأكيد جزءًا من كاريزما النبوة، لكن ربما ليس كلها.

ما الذي نعنيه هنا بكاريزما النبوة؟

الكاريزما عمومًا هي نوع خاص ونادر من الجاذبية التي يمكن أن يتمتع بها بعض الأشخاص على نحو يُلْهِم الآخرين التفاني والإخلاص وحتى الاتباع.

مع النبوة، تأخذ الكاريزما بُعدًا أعمق بكثير، في الكاريزما عمومًا ثمة غموض، ثمة قبول غير مفهوم الأسباب تمامًا تجاه صاحب الكاريزما، مع النبوة الجاذبية تصبح أضعافًا مضاعفة، القبول يصبح أكبر وأعمق، ثمة شيء روحاني يشدك من أعماق روحك إلى هذه الكاريزما النبوية، ولأننا لا نعرف كنه الروح (من الطرفين) فإننا لا نفهم بالضبط آلية هذه الجاذبية، كل ما نفهمه هو أنها تحدث، مثل مغناطيس بقطبين غامضين يشدانك من الوريد إلى الوريد ويأخذانك إليه، مركز الجاذبية.

تلك الجاذبية النبوية قد تبدو كالسحر في أحيان كثيرة، لكنها حتمًا ليست كالسحر، هناك ما هو غامض فيها، لأنها تتعامل مع أبعاد خفية في النفس الإنسانية (مثل الروح التي لا نعرف لها تعريفًا)، ولكنها أيضًا تستند على معايير أخلاقية عالية، تجعل من الانجذاب نحو هذا الشخص يتضمن عملية اقتداء إيجابية تنعكس على سلوكياته وصفاته وتعمق تفاعله مع هذه الكاريزما.

هل تؤثر هذه الكاريزما النبوية على الجميع؟

قطعًا لا، هناك من ينجذب لها فورًا، وهناك من يقاوم هذه الجاذبية، يشعر بها ولكنه يحاول قمعها لاعتبارات متعددة، وهناك من لا يشعر أصلًا بها.

كأي انجذاب، يعتمد الأمر على وجود مجال جاذبية (كما مع المغناطيس، صاحب الكاريزما في هذه الحالة)، وعلى وجود مواد ما تقبل الانجذاب للمجال المغناطيسي أو الكاريزما (كما مع المواد التي تمتلك خواص المغناطيسية الحديدية مثل الحديد والكوبلت والنيكل)..

من الصعب تصور عدم وجود ما يقبل الانجذاب تمامًا في داخل أي شخص، لكن من السهل أيضًا تصور حدوث تراكمات على مجسات الجاذبية على نحو يعطل الانجذاب، بالضبط كما يمنع الصدأ الانجذاب.

قد تتنوع طبيعة هذه التراكمات، قد تكون تبعيةً شديدةً للسائد والمتوارث المختلف عما يحمله صاحب الكاريزما، قد تكون جمودًا وتبلدًا في التفاعل مع أي شيء، قد تكون «أنا» عالية جدًا تمنعه من التفاعل مع أي شخص خارج ذاته وأناه، قد يكون نمط حياة مليئًا بمعاصٍ أو أمور ينكرها صاحب الكاريزما..

هذه كلها أسباب محتملة تفسر لماذا يختلف الناس في تفاعلهم مع الأنبياء، لا أتحدث هنا عن إيمانهم بما يقوله الأنبياء بالضبط، بل عن علاقة هذا الإيمان بمن جاء يحمل الدعوة له.. بأن البعض كانوا يؤمنون فورًا، وآخرون كانوا يؤمنون دون أي مراجعة لما يقول ودون أن يكون عندهم سوابق تمرد على الوضع القائم..

* * *

في بعدها الأخلاقي السلوكي، على ماذا ترتكز كاريزما النبوة؟

إذا أخذنا الرسول عليه الصلاة والسلام كنموذج، فمن الواضح أن الصدق هو العلامة الأهم في شخصيته كما عرفها الناس. فهل يمكن أن يكون اللبنة الأساس التي بُني عليها كل شيء في شخصيته لاحقًا؟

مما لا شك فيه أن الصدق والأمانة كانتا صفتين بارزتين من صفاته عليه الصلاة والسلام، ورغم اشتهار أنه لقب بـ«الصادق الأمين» (بهذه الصيغة المركبة)، فإن ذلك لم يصلنا بسند صحيح أو غير صحيح، ولكن صح أنه لقب بالأمين[١]، واعترف له خصومه أنهم لم يجربوا عليه كذبًا[٢].

فلنتأمل في صفة الصدق.

* * *

(١) مسند الإمام أحمد ١٥٥٠٤ وذكره الألباني في صحيح السيرة.

(٢) صحيح البخاري ٤٩٧١.

الصدق، في أبسط أشكاله وأوضحها بالنسبة للناس، هو قول الصدق، عدم الكذب.

وهو في هذه الحالة، الصدق مع الآخرين.

ولكن هذا الصدق مع الناس هو ما يظهر على السطح من هذه الصفة، هو الجزء الذي يتحدث عنه الجميع ويقيسون على أساسه لأنه كل ما يرونه منها، الجزء الخاص بهم.

لكن ثمة جزءًا أصعب وأكثر خفاءً للصدق، الجزء المتعلق بالصدق مع النفس.

الصدق مع النفس أصعب بكثير من الصدق مع الآخرين، على العكس مما قد يتوقع، الصدق الخارجي (مع الآخرين) قد يتأثر بعوامل متعددة: الحياء من الآخرين، خوف الانكشاف، الخوف على سمعتك...

الصدق الداخلي منعزل عن كل هذه العوامل، أنت ونفسك، وخداع النفس منتشر إلى درجة أن آليته تكون جزءًا طبيعيًا من طبيعة التفكير البشري، انحيازاتٌ فكرية كثيرة* نمارسها على نحو غير واعٍ تبرر لنا الكثير من أفعالنا، وتجعلنا ننكر الكثير من الحقائق حولنا وتجعلنا ببساطة نكذب على أنفسنا دون أن نشعر، ودون أن يكون هناك رقيب خارجي للتنبيه على ذلك.

الصدق مع النفس يتطلب «عُدة معينة» من الصفات التي لا يمكن لهذا الصدق أن ينجز من دونها.

أولًا: لا بد من شجاعة المواجهة، ليس من السهل أبدًا مواجهة نفسك، مواجهة الآخرين أمر أسهل مبدئيًا، حتى لو كانت لها تبعات أشد وضوحًا خارجيًا. لكن عذاب مواجهة النفس بأخطائها وعيوبها أمرٌ أعمق وأشد وطأة على المدى البعيد.

ثانيًا: يتطلب الأمر وعيًا عاليًا بكل ما يدور داخل هذه النفس وفي محيطها وفي أسبابها ودوافعها. لا يمكن أن يكون الصدق الداخلي فعالًا دون هذا الوعي.

ثالثًا: الصدق مع النفس يتطلب تحري الحقيقة، مراجعة كل ما هو سائد من مفاهيم، ويتطلب التأني في الحكم على الأشياء.

رابعًا: تحمل نتائج هذا الصدق، والعمل بموجب ما تتوصل له المواجهة والوعي، أي العمل على التغيير من الداخل.

---

* قائمة بمجموعة من التحيزات التي تؤثر في تفكيرنا على نحو غير واعي.

https// :en.wikipedia.org/wiki/List_of_cognitive_biases

هذا الصدق مع النفس، هو الأساس فيما أراه لكل تلك الرحلة التي أهلته عليه الصلاة والسلام ليكونِ الرسول الخاتم، هذه الرحلة بدأت بالصدق مع النفس، وقادت إلى الصدق مع كل شيء، وصولًا إلى الصدق مع الله، وهي مرحلة عليا من الصدق مع النفس، وجزء أساسيٌّ حتمًا من كاريزما النبوة..

* * *

في داخل كل منا جزء من روح الله، بقايا تلك النفخة التي نؤمن أنه نفخها عز وجل في آدم...

أغلب الناس يفقدون هذه النفخة، يفقدون التواصل معها، البعض يتجاهل النفخة ويبقى مصرًا على أنه طين فقط.. والبعض لا ينتبه لها في غمرة تراكم «الأشياء» عليها.

البعض يتمكنون من استشعار هذه النفخة، والتواصل معها، ومن ثم يتمكنون من تحويلها إلى مصدر إلهام وحافز للعمل والتعامل مع كل ما يمرون به...

الصدق مع النفس هو الآلية الأولى لهذا الوصول، إنه يزيل التراكمات بالتدريج، يزيح عن النفخة كل ما يمكن أن يشوشها.. ويملك بالتدريج إمكانية التواصل الحي معها...

هذا الصدق مع النفس، يقود إلى هذا التواصل مع الله عبر نفخة روحه في أعماقنا...

كاريزما النبوة، السابقة للوحي، تحتوي حتمًا على شيء كهذا، لا علاقة للأمر بالمعرفة بالشريعة أو بالكتب السماوية في هذه المرحلة، فقط شعور واستشعار بروح الله في الأعماق، والتعامل مع هذا بطريقة تجعل هذه الروح هي البوصلة والمنارة، هي حجر الزاوية ونقطة الارتكاز في الشخصية...

* * *

الأمانة بُعد آخر، يتضمن الصدق، ولكن على نحو عملي.

هي جزء من الامتداد العملي للصدق.

والأمانة تعني المحافظة والرعاية، وتعني كذلك تحمل المسؤولية، يمكن للشخص أن يكون صادقًا ولكن الأمانة تعني مستوى عاليًا من مستويات الصدق، المستوى العملي، الذي يحافظ على حاجات الناس واحتياجاتها وأسرارها حتى لو كان لا يؤمن بأهمية هذه الحاجات أو استحقاقها للحفاظ، الأمانة تجاه ما يحمله الآخرون وليس تجاه ما يؤمن به هو.

الأمانة اختبار صعب لأنها تتضمن حمل مسؤولية الآخرين.

وما يبدأ بحاجة غالية استودعها عندك صاحبها في سفره، قد ينتهي إلى أن يصبح تحملك لمسؤولية الجميع في مصلحتهم التي لا يدركونها، الأمانة يمكن أن تصبح تحمل مسؤولية الجميع .. بطريقة أو بأخرى..

الصدق والأمانة إذن صفتاه الرئيسيتان..

تبدو للوهلة الأولى مجرد صفات شخصية حسنة، قد لا يندر أن نرى من يحملها..

لكن كاريزما النبوة تأخذ الصفتين إلى آفاق أخرى بعيدة عن التناول العادي لها.

كاريزما النبوة تجعل من الصفتين (الصدق والأمانة) مُرتكزًا لما سيأتي من مواجهات ومسؤوليات ستغير العالم..



الفكرة التي يجب أن نتوقف عندها هنا هو أن كونك صادقًا وأمينًا شيء، وكون الناس يعرفون بذلك، بل يميزونك بذلك، بل يتعاملون مع هذه الصفة كما لو كانت اسمك، شيء آخر تمامًا.

ما الذي يلزم لكي يتحول الأمر إلى علامة دالة عليك وعلى شخصيتك؟

فلنغير «الصفة» قليلًا لكي نستطيع ضرب الأمثلة بوضوح أكبر.

فلنقل أن إحدى النساء، في حي ما، أو مدينة صغيرة ما، عرفت في حيها أو مدينتها باسم «الشريفة».

الكل يلقبها هكذا لشرفها، حتى صار الوصف اسمًا لها.

ما الذي يعنيه هذا؟

يعني أنها شريفة.

نعم، بالتأكيد، ولكن يعني أيضًا شيئًا آخر، يعني أن الشرف في هذا الحي، أو هذه المدينة، نادر.

يعني أن الفساد انتشر بين النسوة في هذا الوقت لدرجة أن الشريفة منهن صارت تعرّف بشرفها.

كذلك الأمر مع كل الصفات التي تتحول لتكون علامة دالة على أصحابها، سواءً كانت صفات إيجابية أو سلبية، إنها تدلل على أن هذه الصفة ليست منتشرة بين أقرانهم، بل هي تميزهم عن الباقين، وتشير ضمنًا إلى أن الآخرين لا يمتلكونها.

فلنطبق هذا على صفتي الصدق والأمانة اللتين ميّزتاه عليه الصلاة والسلام والتي عرف فيها بين قومه في مكة.

لكي يعرف شخص ما بين قومه بهذه الصفة، يجب أن يتصف بها أولًا، وأن يعرف الناس باتصافه بها.

في مثال الشرف، الأمر أسهل، مفاهيم الشرف بالنسبة للمرأة عمومًا واضحة، غالبًا سيكفي الناس أنها محتشمة ولم تمارس شيئًا مخلًا للأخلاق ولا اقتربت من ذلك، ليصفوها بالشرف.

الصفة هنا فعل امتناع، لذا فمن السهل معرفتها.

لكن الصدق والأمانة مختلفان.

مع الصدق والأمانة يجب أن يكون هناك تجربة مباشرة، لن يكفي هنا الامتناع عن فعل شيء ما، بل يجب أن يكون هناك محك للصدق والأمانة.

الأمر هنا أصعب.

خاصة أنه يتضمن إقرارًا من الناس الذين يصفون الصادق بصدقه وأمانته، من أن الباقين (وبضمنهم هم) ليسوا على نفس المستوى؟

بعبارة أخرى: عندما تكون الصدق والأمانة صفتين مميزتين لشخص ما في بيئة ما، فإن هذا لا يكون إلا عبر تجربة عملية أو محك يثبت هذا، ولا يكون أيضًا إلا عندما يكون الكذب متفشيًا بين الناس.. أو على الأقل، لا يكون الصدق هو التعامل الأكثر شيوعًا بين الناس.

كيف وصل عليه الصلاة والسلام إلى أن يعرف بأمانته؟

لا أشك شخصيًا من أنه كان صادقًا أمينًا طيلة عمره، وهذا يمكن أن يكون معروفًا لمن يحتك به مباشرة، لكن أن يُعرف بهذا في مكة، وأن يلقب بهذا، فهذا يحتاج إلى شأن آخر.

في رأيي أن عمل الرسول عليه الصلاة والسلام في التجارة قد أوضح هذا على نحو جعل الأمر (حديثًا) يُتحدث به وينتقل من شخص لآخر.

لماذا؟

لأن طبيعة العمل التجاري في مكة، والذي كان يتركز على نقل البضائع من مكان إلى آخر، واستثمار رؤوس أموال أهل مكة في ذلك، كان يمكن أن تجر الكثير من الكذب، لا يشترط أن يكون ذلك على أصحاب رؤوس الأموال المستثمر فيها..

بل يمكن أن يكون هذا الكذب لصالح صاحب رأس المال، ولكن يمكن أن يضر العميل على الطرف الآخر من الرحلة، في الشام أو في اليمن أو في الحيرة أو الحبشة، الأمر يكاد يكون من الأمور المتعارف عليها والتي لا تثير أي تعليق أو اعتراض عند كثيرين، خاصة في عصور التجارة في ذلك

الوقت حيث يصعب معرفة سعر البضاعة الأصلي، ويصعب متابعة تفاصيل الطريق والقافلة وبذلك يمكن على التاجر الوسيط أن يتحكم أكثر بهامش الربح.

فيما يبدو لي أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان واضحًا جدًا في رفضه للكذب والخداع في الأمر، وفي الغالب كان قد وضع نسبة ربح معقولة (عادلة) لأي تجارة يقودها، وربما كان هذا أمر يرفضه أصحاب رؤوس الأموال رغبة في الربح الأكبر.

كما قد يرفضه أصحاب الرحلات الأخرى الذين قد يعتبرون الأمر مؤثرًا على ما يرغبون برفضه من أسعار، لكن مهما كان الموقف فهناك إقرار حتمي من الجميع أن ما يفعله محمد عليه الصلاة والسلام كان أمانة وصدقًا.

ولا بد أن هذا الأمر انتشر في مكة، وربما لهذا أيضًا لم يصلنا أنه عليه الصلاة والسلام قد استمر في التجارة على نحو واسع ... فهذا الصدق وهذه الأمانة ما كانت ستروق لمنظومة التجارة المكية التي كانت تربح أحيانًا بأضعاف.

هذا في رأيي هو ما جعل أمانة محمد عليه الصلاة والسلام تشتهر وتصبح علامة دالة عليه بين قومه في مكة، وهذا في رأيي هو الذي جعل أهل مكة يتركون ودائعهم أمانة عنده عليه الصلاة والسلام عند سفرهم.

فقد تبينت أمانته في التجارة على نحو جعلهم يؤمنون أن وضع الودائع عنده محسوم وأكثر أملًا من أن تترك في بيوتهم عند نسائهم وصبيانهم أو حتى أولادهم وهو أمر سيستمر لاحقًا حتى ليلة الهجرة.

فلننتبه أن الأمانة التجارية هنا، هي أمانة تقاوم شهوة المال والكسب الزائد. فهي انتصار كبير يتجاوز ظروف الصدق والأمانة الاعتيادية، بل هي -في هذا السياق- تنتصر على العرف الذي يجعل الأمر مقبولًا ومعتادًا عليه، تنصّب للأمر مرجعية قيمية خاصة مختلفة عن مرجعية الأمر الواقع.

صدق كهذا، وأمانة كهذه، لا بد أن آثارهما ظهرت على كل شيء في حياة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام..

في البدء كان الصدق.. ثم توالت الصفات المبنية على الصدق.. الأمانة، الاحترام، الهدوء، البعد عن التصنع والتكلف..

لا بد أن هذا كان يبدو عليه...

في وجهه... في حركات جسده... في كل تعاملاته..

لا بد أن كاريزما النبوة هذه كانت تعطيه نوعًا من الروحانية والشفافية التي قد لا تكون مفهومة للكثيرين خصوصًا في عالم اليوم البعيد عن الروحانيات.

* * *

سيترك هذا شيئًا يمكن أن تراه على وجه هذا الشخص.. شيئًا من الصفاء والنقاء والحكمة والهدوء وقربًا من الكمال والاكتمال..

سيترك هذا نوعًا من الألق والنور الظاهر في وجه الشخص، شيئًا تعجز عن التقاطه أدق الكاميرات بأحدث التقنيات ولكن تلتقطه عين القلب البشري وتستشعره موجودًا في وجه هذا الشخص أو في حضوره أو في هالةٍ من النور غير المرئي إلا بالبصيرة حوله.

قد نشعر بشيءٍ من هذا وذاك موجودًا عند بشر نعرفهم، نستشعر روحانيتهم على نحو غامض..

لكن مع كاريزما النبوة، مع النبي حقًا، كان الأمر أضعافًا مضاعفة...

* * *

فلنميز هنا بين كاريزما القيادة، وكاريزما النبوة.

للقيادة روحٌ أيضًا، قد تتشابه في بعض الجوانب مع كاريزما النبوة، أو فلنقل أن كاريزما النبوة تحتوي ضمنًا على كاريزما القيادة وتتجاوزها إلى ما هو أكبر وأعلى.

القائد يملك سحرًا خاصًا وقوة على الآخرين، قوته الشخصية مستمدة من صفات قيادية يبرزها هو على نحو واعٍ وهو يطرح نفسه قائدًا حتى دون أن يقول ذلك.

القائد متحدث جيد، يعبر عن أفكاره بوضوح، يستشعر مشاكل المجتمع، ويستشعر عجز المجتمع عن تلبية حاجات الأفراد فيه، لديه قدرة على التواصل مع الآخرين على نحو يجعل كل واحد منهم يشعر بأهميته ويكون هذا سببًا في تحفيزهم على العمل، كما أنه يملك القدرة على توزيع الأدوار وفهم مَلَكات كل منهم وتوظيفها لصالح مشروع مشترك يلهمهم جميعًا.

كاريزما النبوة تمتلك كل ذلك وتتجاوزه إلى ما هو أعلى، تربط الأمر بأرواح من حولها، ترفعهم معها، تجعلهم أقرب إلى الله في أعماقهم، سلطتها تتجاوز سلطة كاريزما القائد بكثير، لأنها مستمدة من تلك النفخة في الأعماق، كما أنها تهذب الكاريزما مما قد يلحق بكاريزما القيادة.

كاريزما النبوة ختمت طبعًا معه عليه الصلاة والسلام، وبقيت كاريزما القيادة.

فلنتذكر مجددًا أن حجر الزاوية في كاريزما النبوة هو نفخة الروح الإلهية.

وأن البناء على هذا الحجر كان أخلاقيًا (على خلق عظيم).

وخصوصًا الصدق والأمانة.

ولنتذكر مجددًا أيضًا أن الحديث عن كاريزما النبوة هنا عنده عليه الصلاة والسلام، قبل أن يكون نبيًا، أي قبل الوحي.. بأخلاقه وروحانيته التي أهلته للنبوة الخاتمة.

* * *

الحديث عن أخلاق النبي في هذه المرحلة المبكرة من حياته سيقودنا إلى الحديث عن (العصمة* ما قبل الوحي).

السائد عند أغلب العلماء أن الأنبياء معصومون قبل الوحي من عبادة غير الله، ومن الكبائر المتعمدة دون الصغائر[1].

هذه المقدمة مهمةٌ لفهم أنه عليه الصلاة والسلام كان يعزل ويبعد نفسه عن الكبائر والأمور المنكرة سواءً اعتبرنا ذلك بدافع العصمة مباشرة، أو فهمناها أنها لطفٌ إلهي ينير فطرة الأنبياء وحس عقلهم واستنتاجهم، مثلًا، يرى نتائج الخمر من أثرها على سلوك بني قومه في سكرهم وقيامهم بتصرفات سيأنفون من فعلها في حاله وعيهم، ولذلك فهو يرفضها عفويًا حتى دون أن يكون هناك تحريم لذلك.

لكن عزلَ النبي عليه الصلاة والسلام لنفسه عما تعف عنه، لا يعني أبدًا أنه كان قد عزل نفسه عن بني قومه.

ذلك أنه تروج بعض القصص التي لم تصح عن أنه مثلًا لم يكن يشارك في أعراس قومه ومناسباتهم لما فيها من سكر وغناء وأنه مرة هم بالمشاركة بالعرس فألهمه الله النوم ونسيان ذلك، لليلتين متتاليتين[2].

هذه الرواية ضعيفة ولم تثبت سندًا!، وحضوره العرس لا يعني أبدًا مشاركته في أفعال قومه بالمطلق، العرس مناسبة اجتماعية لا يمكن اعتزالها لمن يريد أن يؤثر في قومه، خاصة أنه لا تحريم ولا تشريع وقتها.

* العصمة: لطف إلهي للأنبياء والرسل تجعلهم يمتنعون عن فعل المعصية أو ترك الطاعة مع القدرة على ذلك.

(١) ابن تيمية مجموع الفتاوى الجزء ٤ ص ٣١٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٧٦١٩.

! قال الحافظ ابن كثير هذا حديث غريب جدًا ولعله موقوف على علي بن أبي طالب، أي ربما المقصود هو علي في الحديث، كما أسهب الألباني في بيان ضعف سنده في تخريجه لكتاب فقه السيرة للغزالي.

والقصة الضعيفة يُفترض أنها حدثت في صباه عليه الصلاة والسلام، ثم إنها تَعْزُو اعتزاله الحدث إلى النوم كفعل لا إرادي، بينما المنطقي والمتسق مع سيرته هو أنه يعرف الخطأ ويعتزله بكامل وعيه وإرادته، وربما يُستفاد من القصة -إن قبلنا بخطها العام دون تفاصيلها- ميله عليه الصلاة والسلام إلى عالمه الداخلي في تلك الفترة وتفضيل هذا العالم «الداخلي» المساعد على التأمل على الاختلاط دون حدود.

لكن ما كان يمكن له، عليه الصلاة والسلام، أن يعرف أخطاء قومه، وقبح بعض أفعالهم، لولا درجة معينة من الاختلاط.

نكرر: القصة ضعيفة، وهذا لا يعني أنها لم تحدث، ولكن الحادثة يفترض أنها في صباه عليه الصلاة والسلام، قبل الوحي وقبل تحريم الخمر (ومجالسة شاربيها) بسنوات طويلة..

بل إن الخمر نفسها حُرمت بالتدريج وبعد سنوات طويلة من البعثة... الصحابة أنفسهم كانوا يجتمعون ويشربون الخمر[1] في المدينة، بعد الهجرة، إلى أن نزل أمر التحريم!

* * *

وهذه الكاريزما، التي تمنحه عليه الصلاة والسلام وقارًا وهيبة، لم تكن عائقًا عن التفاعل مع أقرانه واللهو معهم..

فمثلًا، كان من عادة العرب أن يتصارعوا، حيث يتصارع اثنان أمام الناس، ومن يخسر يغرم، أي يدفع للفائز مبلغًا من المال أو شاة.. ولقد صرع الرسول عليه الصلاة والسلام أبا ركانة -وكان معروفًا بقوته- ثلاث مرات، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يأخذ منه شيئًا وقال له **«ما نجمع عليك أن نصرعك ونغرمك!»**[2]

ويقال أنه قال للرسول عليه الصلاة والسلام -بعد عقود- يوم فتح مكة: «كنت عرفت أنك قد أعنت عليّ من السماء!»[3]

* * *

تركت كاريزما النبوة حتمًا أثرًا على وجه الرسول عليه الصلاة والسلام...

كان هناك ثمة نور يشع في وجهه..

---

(١) صحيح البخاري ٧٢٥٣عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «كُنْتُ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ الأَنْصَارِيَّ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ، وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ شَرَابًا مِنْ فَضِيخٍ - وَهُوَ تَمْرٌ - »، فَجَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أَنَسُ، قُمْ إِلَى هَذِهِ الجِرَارِ فَاكْسِرْهَا، قَالَ أَنَسٌ: «فَقُمْتُ إِلَى مِهْرَاسٍ لَنَا فَضَرَبْتُهَا بِأَسْفَلِهِ حَتَّى انْكَسَرَتْ»

(٢) إرواء الغليل ١٥٠٣ حسنه الألباني، جامع معمر بن راشد ٢٠٩٠٩.

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري الجزء التاسع صفحة ٣٩٢.

أو ضوء... ينعكس من تلك الكاريزما في شخصيته.. من عثوره على روح الله في أعماقه..

شيء ما.. من إشعاعٍ غامضٍ... لا نفهمه تمامًا ولا نستطيع تحديد أبعاده.. لكنه كان يظهر على وجهه...

لم يكن الكل قادرين على رؤية هذا النور، يتطلب بعضًا من النور في داخلك كي ترى ذلك النور على وجه محمد..

لكن البعض كان قادرًا على رؤية هذا...

خديجة، كانت من ضمن هذا البعض.

قدر اسمه خديجة

بعض الناس يتعاملون مع الزواج، الارتباط عمومًا، كما لو كان محطةً لا بد من المرور بها، شرٌّ لا بد منه.. أو قدرٌ لا مفر منه في أحسن الأحوال..

لكن البعض، يكون الزواج بالنسبة لهم شيئًا آخر تمامًا.. محطة في البداية، ولكن لتغيير كل خط الرحلة لاحقًا.. منجم ضوء.. كنز عطاء..

بعض الأشخاص كانوا ليكونو مختلفين جدًا لو أنهم لم يعثروا في رحلة حياتهم على من يجعلهم يعثرون على أنفسهم..

بعض الأشخاص، يضيئون لك نفسك، تكتشفها وتستكشفها عبرهم، قبل أن يضيئوا لك الدرب..

بعض الناس يعرفونك أفضل مما تعرف نفسك، فإذا عرفتهم تعرفت على نفسك أكثر وخبرتها أكثر..

بعض الناس يؤمنون بك أكثر مما تؤمن أنت بنفسك..

وقبل أن تؤمن أنتَ بكَ..

* * *

لا يمكن أن نقول أبدًا أن الرسول محمدًا عليه الصلاة والسلام، كان يمكن أن يكون مختلفًا لولا خديجة..

لكن يمكن أن نقول أن الحكمة الإلهية، والقدر الإلهي، الذي كان يشكل محمدًا ويصنعه على عينه، اختار له خديجة، لتكون الشخص -ربما- الأهم في مصنع الشخصية المحمدية في درب تأهلها لاستلام الوحي...

في البداية، بدت خديجة كما لو كانت نسمة حنان من القدر الإلهي على محمد، بعد أن كانت الدروس الأولى من نفس القدر (اليتم المتعدد، الفقر*) قاسية لتشد من عوده.

لكننا سنعرف أن الدروس من مرحلة خديجة، على حنانها كانت ستشد من عوده أيضًا وستزيده صلابةً وقوةً..

---

* ذهب أغلب المفسرين إلى أن (عائلًا) في آية «ووجدك عائلًا فأغنى» تعني فقيرًا.

ليست الشدة وحدها تقوي..

أحيانًا الحب والرقة أيضًا لهما نفس المفعول.. وربما أكثر..

* * *

لم تكن السيدة خديجة زوجة له عليه الصلاة والسلام فحسب، بل كانت زوجة وأمًا ورفيقة وصديقة وممولة ومستشارة.

كانت عدة نساء في امرأة واحدة، بل كانت امرأة أقوى من كل الرجال، ودورها في المرحلة المكية هو الأهم في دعم رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا منازع .. ربما ليس على مستوى النساء فحسب، بل على مستوى الرجال أيضًا.. فدورها كان عابرًا للجندر (Gender) وتمييزاته وفروقاته... وربما لا يوازي تأثيرها أو يفوقه إلا أبو بكر.

أثرها الكبير على الرسول عليه الصلاة والسلام كان لدرجة أنه يتحدث عنها طيلة الوقت أمام السيدة عائشة، حتى تعترف هذه الأخيرة بكل بساطة: «مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ... لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا[١]»

ونرى في بعض اللفتات العفوية التي صدرت عنه عليه الصلاة والسلام ما يدلنا على حجم محبته لها وتأثره بها، ففي مرة استأذنت هالة أخت خديجة للدخول على الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك بعد سنوات طويلة من وفاة خديجة، فسمع الرسول صوتها وسمع فيه صوت خديجة أو أسلوبها في الاستئذان، فقال «اللَّهُمَّ هَالَةَ[٢]».

أي يا رب اجعل من تستأذن هي هالة، شوقًا وحنينًا لأيام خديجة واستذكارًا لها في حضور أختها، كما أنه كان كلما ذبح شيئًا تفقد صديقاتها (أو صدائق خديجة كما كانت عائشة تسميهن) وأرسل لهن من الذبيحة كما لو أن خديجة لم تمت وهي من ترسل لهن[٣]...

بل يبدو أنها بطريقة ما، كانت لم تمت بالنسبة له.. ربما لأنه لا يمكن حذف ٢٥ سنة من حياة أي أحد بسهولة... فقد عاش معها عليه الصلاة والسلام أكثر مما عاش مع أي زوجة، ٢٥ سنة لم يكن فيها زوجًا لسواها.. بينما عاش مع السيدة عائشة والسيدة سودة بنت زمعة عشر سنوات مشتركات مع سواهن وأقل مع كل من تبقى من نسائه..

٢٥ سنة إذن، منها ١٥ قبل الوحي وعشر في المراحل الأصعب من البعثة..

عمر كامل، انتقل فيه عليه الصلاة والسلام من الشباب إلى سن النضج..

---

(١) صحيح البخاري ٣٨١٦.

(٢) صحيح البخاري ٣٨٢١.

(٣) صحيح البخاري ٣٨١٨.

وكانت خديجة رفيقة دربه..

لذلك عندما كانت السيدة عائشة تسأله: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ[1]؟

فقد كان يرد عليها: «إِنَّهَا كَانَتْ، ... وَكَانَتْ...»

كما لو كان يعدد الصفات الكثيرة التي كانتها خديجة...

ثم يكمل: وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»[2]

وتسمع لصوته صدى حزين وهو يتذكر أولاده من خديجة.. القاسم والطاهر... اللذين ماتا وهما صغيران...

* * *

تنتمي السيدة خديجة إلى بني أسد بن عبد العزى، وهم بطن من بطون قريش الأربعة الأساسية من أولاد قصي (عبد الدار، عبد مناف، عبد العزى، عبد قصي) وبسبب سطوة وقوة كل من بني عبد مناف (وفيهم بنو هاشم، وبنو المطلب وبنو عبد شمس)، وبني عبد الدار (بنو شيبة)، فقد كان فرع بني أسد بن عبد العزى هو الفرع الأقل قوة الذي كان يتحالف دومًا مع أبناء عمومتهم بني عبد مناف.

حتى قيل أنهم كانوا «تبعًا لبني عبد مناف»[3]، لذلك نراهم قد شاركوا في حلف المطيبين (الذي ضم خمس قبائل من قريش: بنو عبد مناف، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو أسد وبنو الحارث بن فهر) كما يبدو أنه كان ثمة ميل قوي إلى أن يتحالفوا تحديدًا مع فرع بني هاشم من بني عبد مناف، لذلك فهم يشاركون في حلف الفضول الذي سبقت الإشارة له بمشاركة الرسول عليه الصلاة والسلام فيه (الذي شارك فيه بنو هاشم وبنو المطلب من أولاد عبد مناف بن قصي مع بني أسد بن عبد العزى، مع بني تيم وبني زهرة من خارج أولاد قصي).

علاقة بني أسد بن عبد العزى ببني هاشم ربما تكون تجاوزت مشاركتهم في حلفي المطيبين والفضول بالرغبة في التصاهر الدائم، حيث كانت الزيجات تعد وسيلة اجتماعية لتحالف بديل قد يكون أقوى من التحالف العشائري التقليدي.

---

(١) صحيح البخاري ٣٨١٨.

(٢) صحيح البخاري ٣٨١٨.

راجع المفتاح الخامس من قائمة مفاتيح السيرة/ أولاد قصي.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ١٣٠٧٩.

راجع المفتاح السابع من قائمة مفاتيح السيرة / حلف المطيبين.

ولعل ما يروى[1] عن رغبة رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى (أخت ورقة بن نوفل) في الزواج من عبد الله والد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قبل زواجه من السيدة آمنة بنت وهب يعبر عن الرغبة في التحالف مع بني هاشم.

* * *

من بين أبناء قصي الأربعة الذين شكلوا بطون قريش الأساسية، كانت الزعامة والتنازع عليها بين أبناء عبد مناف وأبناء عبد الدار، أما عبد العزى وعبد قصي فقد كانوا أقل حظًا في ذلك.

لماذا؟

لأن كلًا من عبد مناف وعبد الدار عاش ولهما عدد من الابناء الذكور، بينما لم يحدث هذا مع عبد العزى وعبد قصي.

عبد مناف أنجب أربعة: هاشم ونوفل والمطلب وعبد شمس.

عبد الدار أنجب أربعة أيضًا: عبد مناف والسباق وعثمان وعبد الله.

أما عبد العزى فقد كان له ولد واحد فقط هو أسد.

وعبد قصي كان له ولد واحد أيضًا: وهب.

كيف يمكن أن يؤثر هذا على قوة العشيرة؟

في ذلك الوقت، كانت قوة كل عشيرة ترتبط بعدد الرجال فيها، حيث يعني ذلك القدرة على حمل السيف، والعمل والمنعة[🔑].

هكذا فإن الجيل الثاني من أبناء عبد مناف وعبد الدار كان يمكن أن يصل لعشرين حفيدًا لكل منهما.

بينما مع أبناء عبد العزى وعبد قصي: يمكن أن يكون خمسة أحفاد فقط.

هكذا وجد بنو أسد بن عبد العزى أنفسهم في زاوية ضيقة، خاصة في الصراع الذي حدث بين أبناء عمومتهم: بنو عبد الدار وبنو عبد مناف.

ولهذا اختاروا أن يكونوا في حلف دائم مع بني عبد مناف.

فلنتنبه هنا إلى أن التحالف مع عبد مناف كان يوفر لهم غطاءً للتوازن مع بقية البطون والعشائر في مكة ولكن المعيار الأساسي في مجتمع قريش كان قد أصبح الثروة، وهو أمر لا بد جعلهم يحاولون التعويض فيه عن قلة عددهم بأساليب غير تقليدية.

---

(١) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ٤٢.

🔑 راجع المفاتيح / المفتاح الثالث/ انقسام قبيلة قريش.

هذا الأمر يجب أن نأخذه بنظر الاعتبار عندما نريد أن نفهم الخلفية التي أنتجت امرأة متميزة مثل السيدة خديجة بنت خويلد.

كذلك علينا أن نضع في الحسبان أن بني أسد كانت قد أوكلت لهم مهمة الرفادة[١]، بعد أن تم إعادة توزيع المهام على بطون قريش، والرفادة تعني جمع المال من كل رجل في قريش من أجل التجهيز لإطعام الحجاج في موسم الحج، أي أنها مهمة تتطلب مهارة اقتصادية لا بد أنها ساهمت في صياغة أفراد العشيرة وإعادة تشكيلهم بطريقة أو بأخرى.

* * *

كل ما سبق ربما ساهم في جعل بني أسد بن عبد العزى مختلفين قليلًا عن بقية بطون قريش، أكثر فردية وتحررًا من قيود العشيرة التي تجعل التحليق خارج السرب صعبًا..

على سبيل المثال، من بين أربعة أشخاص تركوا عبادة الأصنام في قريش كان هناك اثنان من بني أسد بن عبد العزى: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى[٢]، الآخران كانا عبيد الله بن جحش من بني أسد وزيد بن عمرو بن نفيل من بني عدي (تنصر ورقة بن نوفل كما هو معروف وعثمان بن الحويرث تنصر وذهب إلى قيصر[٣]، عبيد الله بن جحش أسلم وهاجر إلى الحبشة ويقال أنه تنصر هناك ومات نصرانيًا[٤] وكان متزوجًا من أم حبيبة بنت أبي سفيان، أما زيد بن عمرو بن نفيل فقد ترك الأوثان وتمسك بالحنيفية).

أي أن بني أسد بن عبد العزى رغم أن عددهم كان قليلًا نسبيًا، فإن نسبة من ترك الأصنام منهم عالية بالمقارنة ببقية البطون في قريش، بل إن قائمة الخارجين من الوثنية لم تضم من كل البطون المتفرعة عن قصي أي شخص من غير بني أسد بن عبد العزى.

من الصعب تصور أن ذلك مجرد صدفة..

لا شيء بالصدفة، بالتأكيد.

---

(١) المنمق في أخبار قريش الجزء الأول صفحة ١٩٠.

(٢) سيرة ابن هشام تحقيق السقا الجزء الأول صفحة ٢٢٢.

(٣) الروض الأنف ت الوكيل الجزء الثاني ٣٨٤.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٦٧٦٨.

لكن تفرد بني أسد بن عبد العزى بمحاولات إثبات أنفسهم والحفاظ على مكانتهم بمعزل عن قلة عددهم، جعل أفرادًا منها يشعرون بفرديتهم واستقلالهم أكثر عن النظام القبلي ومعتقداته..

وبالتالي أكثر تقبلًا لرفض الأصنام...

* * *

ضمن هذه الظروف المحيطة، يمكن تفهم شخصية السيدة خديجة بنت خويلد، القوية، بل استثنائية القوة.

نسمع دومًا عن أن المرأة في الجاهلية كانت إذا نجت من الوأد[١] عاشت مهانة محتقرة تورث كما يورث المتاع فيحق مثلًا لورثة زوجها من إخوته وأوليائه أن يتزوجها أو أن يزوجها لسواه أو يتركها دون زواج -ولا يحق ذلك لأهلها-[٢]، وكان حدادها على زوجها سنة كاملة تدخل فيها إلى بيت صغير من خوص النخيل لا تغتسل فيها ولا تقص من شعرها أو أظافرها[٣] وغير ذلك من أساليب الاحتقار والتهميش[٤].

ولكننا في الوقت نفسه نسمع عن أحوال السيدة خديجة بنت خويلد قبل الإسلام، فنرى الأمر مختلفًا تمامًا. فكيف يجتمع الأمران؟

الحقيقة لم تكن عادات الجاهلية موحدة بالنسبة لكل العشائر العربية، وكان الأمر على ما يبدو مختلفًا بالنسبة للطبقة العليا الراقية من بطون قريش، المنحدرة من قصي، إذ يبدو أن هذه الطبقة كانت لا تعامل المرأة على نفس سوية بقية العشائر، وكان للمرأة مكانة معينة في هذه العشائر سمحت لبعضهن بالبروز (كما مر مع عاتكة بنت عبد المطلب على سبيل المثال)، ولو راجعنا قصص الوأد الشهيرة مثلًا لما رأيناها في هذه الطبقات العُليا[٥]، ولا يقتصر الأمر على الفروع المنحدرة من قصي فيما يبدو، لكن التفاوت في معاملة المرأة بين عشائر العرب في الجاهلية كان واضحًا.

هكذا نشأت السيدة خديجة في بيئة أكثر تقبلًا للمرأة من عموم البيئة الجاهلية.

لكن هذا لم يكن كل شيء..

* * *

(١) صحيح البخاري ٣٨٢٨.
(٢) صحيح البخاري ٦٩٤٨.
(٣) صحيح البخاري ٥٣٣٧.
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء الثامن صفحة ٢٠٩ - ٢١٠.
(٥) المرأة في الجاهلية، حبيب الزيات، ص ٧-٨ .

السيدة خديجة كانت تاجرة كما هو معروف، وكذلك كانت أختها السيدة هالة بنت خويلد (وهي التي تزوج ابنها العاص بن الربيع من زينب بنت الرسول عليه الصلاة والسلام)، والتي لعبت على ما يبدو دورًا في تزويج السيدة خديجة للرسول عليه الصلاة والسلام، السيدة هالة كانت تاجرة أغنام[١] وجلود[٢] وكان لها مكان في السوق تجلس فيه بنفسها[٣].

إذن نحن لسنا أمام السيدة خديجة كحالة متفردة في أسرتها، بل هذا يعني أن بني أسد بن عبد العزى (أو على الأقل والدها خويلد بن أسد بن عبد العزى) كانوا منفتحين على عمل المرأة، وربما كان يتضمن ذلك محاولة للتعويض بجني الثروة عن قلة عدد الرجال في هذا البطن من قريش.

السيدة خديجة كانت امرأة ثرية، تاجرة[٤] من سيدات قريش، وكانت تلقب «بالطاهرة»[٥] في الجاهلية، ولا بد أن ذلك يعود لمكانة اجتماعية مهمة اكتسبتها، بالإضافة إلى ما يحمل اللقب من معاني الطهارة، والتي في الغالب مرتبطة بأخلاقها في التعامل خاصة في التجارة، ولعل اللقب كان لطرد من يمكن أن يطمع فيها أثناء عملها واختلاطها بمن يجب أن تختلط بهم في العمل.

تزوجت السيدة خديجة مرتين قبله عليه الصلاة والسلام، مرة من عتيق بن عائذ المخزومي[٦] -وقيل عتيق بن عابد المخزومي-[٧] (من بني مخزوم، العشيرة القريشية الأكثر ثراءً بالتنافس مع بني أمية)، وأنجبت له فتاة واحدة لم تعش هي زينب والتي احتفظت باسمها لواحدة من بناتها من الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم مات عتيق وتزوجت من هند بن النباش بن زرارة التميمي[٨] المعروف بأبي هالة وأنجبت له ثلاثة ذكور: هند بن أبي هالة، هالة بن أبي هالة[٩] والحارث بن أبي هالة[١٠].

وهند بن النباش ليس قريشيًا بل نزل مكة وحالف بني عبد الدار وكانت قريش تزوج من حلفائها.

---

(١) مسند البزار ٤٣٩٣.
(٢) دلائل النبوة المقدمة ص ٢٠.
(٣) مسند البزار ١٤١٨.
(٤) دلائل النبوة للبيهقي الجزء الثاني صفحة ٦٦.
(٥) المعجم الكبير للطبراني.
(٦) المعجم الكبير للطبراني ٥٥٨٨.
(٧) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الثامن صفحة ١٧٤.
(٨) المعجم الكبير للطبراني الجزء ٢٢ صفحة ١٥٤.
(٩) المستدرك على الصحيحين ٦٦٩٩.
(١٠) إمتاع الأسماع الجزء السادس صفحة ٢٩٧.

هند وهالة والحارث أولاد أبي هالة تربوا في حضن الرسول عليه الصلاة والسلام، مات الحارث في أوائل الدعوة، حيث ضربه كفار مكة عندما صلى في الركن اليماني ومات بعد فترة إثر ذلك[1] (ويقال أنه أول من قتل في الإسلام).

أما هند وهالة فقد عاشا لفترة طويلة، وروى الحسن بن علي عن هند (وهو خاله، أخو السيدة فاطمة من خديجة) حديث أوصاف الرسول المشهور«**كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فَخْمًا مُفَخَّمًا يَتَلأْلأُ وَجْهُهُ تَلأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، أَطْوَلَ مِنَ الْمَرْبُوعِ، وَأَقْصَرَ مِنَ الْمُشَذَّبِ، عَظِيمَ الْهَامَةِ، رَجِلَ الشَّعْرِ.. إلخ**[2]»، وشهد هند يوم بدر أو يوم أحد، وقتل مع ابن الزبير[3].

وهالة هو الذي دخل مرة على الرسول عليه الصلاة والسلام، في المدينة، بعد سنوات طويلة من وفاة خديجة، فضمه الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يقول: هالة، هالة، هالة[4]..

وقد يكون غريبًا هنا كثرة «الهالات» في أسرة خديجة، أختها هالة، وابنها هالة، ولكن يبدو أن التسمية في الحالتين هي على جدة خديجة التي كان اسمها هالة بنت عبد مناف بن الحارث ولعل هذا أيضًا يمنح فكرة عن مكانة المرأة في هذه الأسرة، لدرجة أنها تسمي ابنها على اسم جدتها ويكنى به زوجها!

* * *

ربما من المهم هنا أن نشير إلى أمر قد يشكل عند البعض* ، هناك من يقول أن بنات الرسول عليه الصلاة والسلام هن بنات السيدة خديجة من أزواج سابقين باستثناء السيدة فاطمة رضي الله عنهن أجمعين.

من المهم الإشارة هنا إلى عدم وجود أي حرج عند رواة الأحاديث والسنن مما قد نتحرج منه اليوم، مثلًا ذكر أسماء أزواج خديجة وتفاصيل زواجها منهم وأسماء أولادها منهم، لم ينسب أي منهم للنبي عليه الصلاة والسلام، فلِمَ تنسب البنات للنبي لو كن بنات غيره؟

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم الجزء الأول صفحة ٢٦.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٤١٤ وضعفه الألباني.

(٣) أنساب الأشراف الجزء السادس صفحة ٢٧.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٦٧٠١.

* هذا البعض ليس بالضرورة يأخذ الأمر لغاية طائفية، فالمشهور عند الشيعة أن رقية وزينب وأم كلثوم بناته عليه الصلاة والسلام.

الأمر في رأيي ناتج عن أن هناك تركيزًا على السيدة فاطمة رضي الله عنها أكثر من شقيقاتها.. أحاديث تتعلق بحياتها الشخصية (طلبها الخادم، خلاف لها مع سيدنا علي، نية سيدنا علي الزواج عليها وغضبها.. إلخ).. بينما لا نجد الكثير من هذا عن بقية بنات النبي (باستثناء زينب وقصتها مع ابن العاص إلى حد ما ولكن أقل من فاطمة)..

هذا التركيز يمكن أن يرجع لكونها الأصغر من بناته عليه الصلاة والسلام، وهذا جعلها الأقرب إلى قلبه عليه الصلاة والسلام خاصة أنها كانت الأصغر عند وفاة خديجة..

كما يمكن أن يرجع إلى أنها الوحيدة التي عاشت طيلة فترة حياة النبي وتوفيت بعده، بينما توفيت رقية مبكرة في السنة الثانية للهجرة، وتوفيت زينب في السنة الثامنة، وأم كلثوم في السنة التاسعة.

كما أن قوله المشهور «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها..» يمكن أن يفسر بأمرين: أولًا بأنها كانت الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة، لأن الحادثة وقعت بعد فتح مكة عام ٨ هجرية، وربما كانت أم كلثوم قد ماتت وقت القول، وهي التي توفيت عام ٩ هجرية، أو ربما ذكر فاطمة لأنها كانت الأصغر والمدللة بين بناته، لذا فهو يقول اسمها بالذات ليدلل على عظم الجرم المقترف وعدم التسامح في حد من حدود الله، والوصول إلى نتيجة: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ**[1]». كما أنه من المحتمل أنها كانت حاضرةً وقت قال الرسول عليه الصلاة والسلام الحديث مما يجعل ذكر اسمها أمرًا تلقائيًا بلا أي سبب غير تنبيه الناس لعظم الأمر.

جزءٌ من هذا اللبس ناشئ أيضًا في اعتقادي من وجود اسم زينب بين من توفي من ذرية خديجة من أزواجها السابقين، فقد كان من عادة العرب أن تسمي اسم الأبناء المتوفين على من يأتي بعدهم، وكانت زينب هي كبرى بنات الرسول عليه الصلاة والسلام، فأسمتها خديجة بهذا الاسم على بنت توفيت من زواج سابق لها، ولكن نشأ بعض اللبس في كون زينب هي بنت الرسول أم بنت السيدة خديجة من زواجها الأول.

نريد أن نؤكد هنا: زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة.. هن بناته عليه الصلاة والسلام.

ولو كن غير ذلك، لما تحرج أحد من ذكر ذلك.

* * *

(١) البخاري ٤٣٠٤.

كيف حدث هذا الزواج- القدر؟

تختلف الأقوال في سن السيدة خديجة عند زواجها، وتتراوح هذه الأقوال بين الأربعين، والثامنة والعشرين[١]، وقد استقر في أذهاننا جميعًا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تزوج من السيدة خديجة وفارق العمر بينهما يبلغ خمسة عشر عامًا، وأنها -رضي الله عنها- كانت في الأربعين.

لكن لا سند صحيح يؤيد هذا التصور رغم انتشاره، وفي الوقت نفسه فإن هذا العمر لا يناسب كثيرًا عدد المرات التي أنجبت فيها السيدة خديجة من الرسول عليه الصلاة والسلام وتوقيتها.

فقد ولدت السيدة فاطمة صغرى بنات الرسول عليه الصلاة والسلام قبل خمس سنوات من البعثة، أي بعد عشر سنوات من زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا يعني أنها ولدتها في سن الخمسين لو صح أنها قد تزوجت في سن الأربعين، وهو أمر ممكن عمليًا وطبيًا ولكنه غير شائع وأقرب إلى الندرة، ولو كان حدث لكان شيئًا تناقلته الأخبار على الأقل ولكان ذكر أن السيدة خديجة أنجبت السيدة فاطمة في عمر متأخر.

في الغالب أنها كانت في أواخر العشرين أو بداية الثلاثين، أي أنها كانت أكبر منه عليه الصلاة والسلام ببضع سنوات، حتى سنه عليه الصلاة والسلام وقت الزواج غير محدد بدقة، حيث يقول ابن إسحاق أنه كان في الخامسة والعشرين، ويقول الزهري أنه كان في سن الواحدة والعشرين[٢]، ولعل كونها في مرتبة والده بالنسبة لقرابتهما من قصي هو الذي جعل الفكرة العامة تبالغ في سنها وقت الزواج وصولًا إلى سن الأربعين.

ذلك أن قصي هو الجد الثالث لخديجة بنت خويلد بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، بينما هو الجد الرابع لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

وما دمنا نتحدث عن القرابات، فهناك قرابة أخرى تجمع بين السيدة خديجة والرسول عليه الصلاة والسلام، أقرب من قصي، من ناحية والدته السيدة آمنة بنت وهب: حيث إن عمة السيدة خديجة، أخت أبيها، أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى، هي جدة السيدة آمنة بنت وهب لأمها[٣].

أي أن السيدة آمنة هي ابنة ابنة عمة السيدة خديجة.

أي أن محمدًا عليه الصلاة والسلام هو حفيد عمة السيدة خديجة.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير الجزء الرابع صفحة ٥٨١.

(٢) عيون الأثر الجزء الأول صفحة ٦١.

(٣) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول.

لا بد أن السيدة خديجة كانت تعرف عن محمد منذ فترة طويلة، ربما لا تعرفه بشكل شخصي، رغم أن المجتمع كان لا يفصل تمامًا بين الرجال والنساء، لكن لا دليل على وجود معرفة شخصية بينهما، لكنها كانت تعرف «عنه»، حفيد بنت عمتها، في مجتمع صغير متداخل.

* * *

ماذا تقول الروايات التي وردت عن زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة خديجة؟

فلنذكر أنها كلها روايات ضعيفة لم تصل لدرجة الصحيح سندًا، لكن ربما التمعن فيها ومقارنة ما هو مشترك فيها يساعدنا على الوصول إلى صورة عامة للزواج...

... فلما شبّ (الرسول عليه الصلاة والسلام) وَلَيْسَ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَالِ اسْتَأْجَرَتْهُ خَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدٍ إِلَى سُوقِ حُبَاشَةَ وَهُوَ سُوقٌ بِتِهَامَةَ وَاسْتَأْجَرَتْ مَعَهُ رَجُلًا آخَرَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْهَا مَا رَأَيْتُ مِنْ صَاحِبَةِ أَجِيرٍ خَيْرًا مِنْ خَدِيجَةَ، مَا كُنَّا نَرْجِعُ أَنَا وَصَاحِبِي إِلَّا وَجَدْنَا عِنْدَهَا تُحْفَةً مِنْ طَعَامٍ تُخْبِئُهُ لَنَا[1]

عَنْ أُمِّ سَعْدٍ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ عَنْ نَفِيسَةَ بِنْتِ مُنْيَةَ قَالَتْ: كَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ امْرَأَةً حَازِمَةً. جَلْدَةً. شَرِيفَةً. مَعَ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ. وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَوْسَطُ قُرَيْشٍ نَسَبًا. وَأَعْظَمُهُمْ شَرَفًا. وَأَكْثَرُهُمْ مَالا. وَكُلُّ قَوْمِهَا كَانَ حَرِيصًا عَلَى نِكَاحِهَا لَوْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ. قَدْ طَلَبُوهَا وَبَذَلُوا لَهَا الأَمْوَالَ. فَأَرْسَلَتْنِي دَسِيسًا إِلَى مُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ رَجَعَ فِي عِيرِهَا مِنَ الشَّامِ. فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزَوَّجَ؟

فَقَالَ: مَا بِيَدِي مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ.

قُلْتُ:

فَإِنْ كُفِيتَ ذَلِكَ وَدُعِيتَ إِلَى الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالشَّرَفِ وَالْكَفَاءَةِ أَلا تُجِيبُ؟

قَالَ: فَمَنْ هِيَ؟

قُلْتُ: خَدِيجَةُ.

قَالَ: وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ؟

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٩٧١٨ الجزء ٥ ص ٣١٣.

قَالَتْ قُلْتُ: عَلَيَّ.

قَالَ: فَأَنَا أَفْعَلُ.

فَذَهَبْتُ فَأَخْبَرْتُهَا.

فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنِ ائْتِ لِسَاعَةِ كَذَا وَكَذَا.

وَأَرْسَلَتْ إِلَى عَمِّهَا عَمْرِو بْنِ أَسَدٍ لِيُزَوِّجَهَا. فَحَضَرَ وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي عُمُومَتِهِ. فَزَوَّجَهُ أَحَدُهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ: هَذَا الْبِضْعُ لا يُقْرَعُ أَنْفُهُ[1].

عَنْ مِقْسَمٍ أَبِي الْقَاسِمِ، مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الْحَارِثِ، حَدَّثَهُ: أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ كَانَ إِذَا سَمِعَ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ عَنْ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَدِيجَةَ، يَقُولُ عَمَّارٌ: أَنَا مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِتَزْوِيجِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهَا، كُنْتُ مِنْ إِخْوَانِهِ فَكُنْتُ لَهُ خِدْنًا، وَإِلْفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنِّي خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ حَتَّى مَرَرْنَا عَلَى أُخْتِ خَدِيجَةَ، وَهِيَ جَالِسَةٌ عَلَى أَدَمٍ لَهَا، فَنَادَتْنِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهَا، وَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَقَالَتْ: أَمَا لِصَاحِبِكَ فِي تَزْوِيجِ خَدِيجَةَ حَاجَةٌ، فَأَخْبَرْتُهُ،

فَقَالَ: «بَلَى، لَعَمْرِي»

فَرَجَعْتُ إِلَيْهَا، فَأَخْبَرْتُهَا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: اغْدُ إِلَيْنَا إِذَا أَصْبَحْتَ غَدًا، فَغَدَوْنَا عَلَيْهِمْ، فَوَجَدْنَاهُمْ قَدْ ذَبَحُوا بَقَرَةً، وَأَلْبَسُوا أَبَا خَدِيجَةَ حُلَّةً، وَضَرَبُوا عَلَيْهِ قُبَّةً، فَكَلَّمْتُ أَخَاهَا، فَكَلَّمَ أَبَاهُ، فَأُخْبِرَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَكَانِهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُزَوِّجَهُ، فَزَوَّجَهُ، فَصَنَعُوا مِنَ الْبَقَرَةِ طَعَامًا فَأَكَلْنَا مِنْهُ، وَنَامَ أَبُوهَا ثُمَّ اسْتَيْقَظَ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْحُلَّةُ، وَهَذِهِ الْقُبَّةُ، وَهَذَا الطَّعَامُ؟، قَالَتْ لَهُ ابْنَتُهُ الَّتِي كَلَّمَتْ عَمَّارًا: هَذِهِ الْحُلَّةُ كَسَاكَهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ خَتَنُكَ، وَبَقَرَةٌ أَهْدَاهَا إِلَيْكَ فَذَبَحْنَاهَا حِينَ زَوَّجْتَهُ خَدِيجَةَ، فَأَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ زَوَّجَهُ، وَخَرَجَ حَتَّى جَاءَ الْحِجْرَ، وَخَرَجَتْ بَنُو هَاشِمٍ حَتَّى جَاؤُوا، فَقَالَ: أَيْنَ صَاحِبُكُمُ الَّذِي تَزْعُمُونَ أَنِّي زَوَّجْتُهُ خَدِيجَةَ؟ فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَظَرَ إِلَيْهِ، قَالَ: إِنْ كُنْتُ زَوَّجْتُهُ وَإِلَّا فَقَدْ زَوَّجْتُهُ[2]

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد / الطبعة العلمية / الجزء الأول صفحة ١٠٥.

(٢) الجزء ٤ صفحة ٢٤٨ مسند البزار ١٤١٨.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -فِيمَا يَحْسَبُ حَمَّادٌ-: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ خَدِيجَةَ، وَكَانَ أَبُوهَا يَرْغَبُ* أَنْ يُزَوِّجَهُ، فَصَنَعَتْ طَعَامًا وَشَرَابًا، فَدَعَتْ أَبَاهَا وَنَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَطَعِمُوا وَشَرِبُوا حَتَّى ثَمِلُوا، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ لأَبِيهَا: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَخْطُبُنِي، فَزَوِّجْنِي إِيَّاهُ. فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ فخلَّقَتْهُ وَأَلْبَسَتْهُ حُلَّةً، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالآبَاءِ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ سُكْرُهُ، نَظَرَ فَإِذَا هُوَ مُخَلَّقٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، فَقَالَ: مَا شَأْنِي، مَا هَذَا؟

قَالَتْ: زَوَّجْتَنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ.

قَالَ: أَنَا أُزَوِّجُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ لاَ، لَعَمْرِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَمَا تَسْتَحِي تُرِيدُ أَنْ تُسَفِّهَ نَفْسَكَ عِنْدَ قُرَيْشٍ؟ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّكَ كُنْتَ سَكْرَانَ؟ فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى رَضِيَ (٢)

عنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرة، أَوْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كَانَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْعَى غَنَمًا، ثُمَّ كَانَ يَرْعَى الإِبِلَ مَعَ شَرِيكٍ لَهُ قَدِ اكْتَرَتْهُمَا أُخْتُ خَدِيجَةَ فَلَمَّا قَضَوُا السَّفَرَ بَقِيَ عَلَيْهِمَا شَيْءٌ فَجَعَلَ شَرِيكُهُ يَأْتِيهِمْ فَيَتَقَاضَاهُمْ وَيَقُولُ لِمُحَمَّدٍ انْطَلِقْ فَيَقُولُ: اذْهَبْ أَنْتَ فَإِنِّي أَسْتَحِي فَقَالَتْ لَهُ مَرَّةً، يَعْنِي الشَّرِيكَ وَأَتَاهُمْ: فَأَيْنَ مُحمد لا يجيء معك؟ قال: قد قُلْتُ لَهُ فَذَكَرَ أَنَّهُ يَسْتَحِي قَالَ: فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لأُخْتِهَا خَدِيجَةَ فَقَالَتْ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ أَشَدَّ حَيَاءً، ولاَ أَعَفَّ مِنْ مُحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَقَعَ فِي نَفْسِ أُخْتِهَا خَدِيجَةَ فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: ائْتِ أَبِي فَاخْطُبْ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبُوكِ رَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ -أَحْسَبُهُ قَالَ- لا يَفْعَلُ قَالَتْ: فَانْطَلِقْ فَالْقَ كَلِمَةً فَإِنِّي أَكْفِيكَ وَأْتِهِ عِنْدَ سُكْرِهِ فَفَعَلَ فَأَتَاهُ فَزَوَّجَهُ فَلَمَّا أَصْبَحَ جَلَسَ فِي النَّاسِ فَقِيلَ لَهُ: قَدْ أَحْسَنْتَ زَوَّجْتَ مُحَمَّدًا قَالَ: وَفَعَلْتُ؟! قَالُوا: نَعَمْ فَقَامَ فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنِّي قَدْ زَوَّجْتُ مُحَمَّدًا وَمَا فَعَلْتُ قَالَتْ: بَلَى فَلا تُسَفِّهَنَّ فَإِنَّ مُحَمَّدًا كَذَا وَكَذَا فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى رَضِيَ، ثُمَّ بَعَثَتْ إِلَى مُحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُوقِيَّتَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ، أَوْ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَتْ: اشْتَرِ حُلَّةً فَأَهْدِهَا إِلَيْهِ وَكَذَا وَكَذَا قَالَ وَأَحْسَبُهُ فَعَلَ. (٣)

---

* يرفض.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٨٤٩.

(٣) مسند البزار ٤٢٩٣ الجزء ١٠ ص ٢٠٤.

المشترك هو أن السيدة خديجة كانت تستأجر الرجال للعمل في تجارتها مقابل نسبة أو أجر يحصلون عليه، وأنها أجرته عليه الصلاة والسلام كما غيره، (كما تقول بعض الروايات أن أختها هي التي أجرته في الرعي لها ولا مانع من وجود الحالتين)[1] وحدث نوع من الإعجاب من طرفها وكانت تخصه بالرعاية والاهتمام عند عودته، ثم عرضت الزواج عليه، عن طريق واسطة (مرة صديقة لها ومرة أختها ولا شيء يمنع حدوث الأمرين).

من ناحيته، وافق عليه الصلاة والسلام فورًا، مع إشارة إلى تردده لعدم امتلاكه المال الكافي للزواج.

الاختلاف الأساسي والذي تتفرع عنه بعض الخلافات في التفاصيل هو من الذي زوج خديجة من أهلها..

بعض الروايات تقول عمها عمرو بن أسد الذي كان مؤيدًا للزواج (قال عن الرسول هذا فحل لا يقرع أنفه[2]) وكذلك شقيقها عمرو بن خويلد[3]، وتذكر هذه الروايات أن أباها خويلد بن أسد كان قد مات في حرب الفجار.

لكن الروايات الأخرى تؤكد وجود خويلد بن أسد وتؤكد أنه كان رافضًا لزواج ابنته ممن أسماه «يتيم أبي طالب» أي لفقره، ولا مشكلة أبدًا في كونه قد عارض الزواج إذ إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن غنيًا بالتأكيد ولا شك أن الثراء كان من المعايير المهمة عند العوائل الثرية في قريش.

المشكلة الناتجة عن هذا الاختلاف في القصة هو أن أحد فرعي القصة يأخذها في التفاصيل إلى ما نتحرج من ذكره حاليًا ونعتبره أمرًا لا يليق بمكانة السيدة خديجة من ناحية أنها سقت أباها خمرًا إلى أن ثمل وجعلته يوافق على الزواج وهو في هذه الحالة، ومن ثم وضعته أمام الأمر الواقع.

فلأسجل هنا أن حرجنا المعاصر هذا لا معنى له، فقد ذكر هذه القصص الإمام أحمد (على سبيل المثال) دون أن يتحرج من مضمونها الذي حدث في الجاهلية، لذا «فغيرتنا» على السيدة خديجة لا يجب أن تكون أكثر من غيرة الإمام أحمد مثلًا!

---

(١) مسند البزار ٤٢٩٣.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٠٩٢.

(٣) سيرة ابن هشام الجزء ٢ ص ٦٤٣.

كما أن علينا أن نتذكر أن عصمة النبي قبل الوحي لا تشمل زوجاته وقبل زواجه منهن أيضًا! فلو كانت السيدة خديجة قد سقت أباها أو ضيوفها خمرًا فهي كانت تؤدي العرف والأصول حسب زمانها، والأمر لم يكن حرامًا ولا عيبًا ولا شيئًا ينال من مكانتها.

لو أن الأمر تحول ليكون عن ضعف سند القصة، وليس عن محتواها، فكل القصص التي تتحدث عن تفاصيل زواج السيدة خديجة (من أن عمها أو أخاها زوجها) ضعيفة أيضًا، ولعل السند في مسند الإمام أحمد أقوى ما جاء، وبكل الأحوال فإن الضعف في هذه الأسانيد لم يكن لاتهام أحد رواتها بالكذب، بل غالبًا لأسباب تقنية تتعلق بالانقطاع أو التدليس، لذا فتأملنا القصة بمعزل عن موقفنا المسبق ضد «الخمر»..

الخلاف الموجود بين وجهي القصة يمكن أن يكون شكليًا جدًا، وأن يكون خويلد بن أسد حيًا، ولكن عمها وأخاها هما اللذان زوجاها منه عليه الصلاة والسلام..

كيف؟

ربما كان خويلد قد بلغ في هذه الفترة مبلغًا من العمر يجعله صعب الإقناع كما يحدث مع الكثير من المتقدمين في العمر، علمًا بأن خويلد هو في مرتبة عبد المطلب الذي كان قد توفي منذ قرابة ١٥ عامًا في ذلك الوقت عن عمر ناهز التسعين، أي أن خويلد كان متقدمًا في السن بالفعل دون أن نعرف سنه بالضبط، لذلك كان من المنطقي من السيدة خديجة أن تلجأ لعمها وأخيها، وهذا هو سياق الأصول المرعية التي يمكن أن تحدث حتى اليوم.

ورغم موافقة عمها وأخيها، فإنها ربما كانت حريصة على شكليات الأمر أمام الناس وأمام أبيها نفسه، لذا فقد اختارت أن تضعه أمام الأمر الواقع بينما هو قد شرب الخمر على نحو لا يجعله يرفض الزواج وفي الوقت نفسه لا يصغره أمام قريش، فهو من زوّجها محمدًا وليس أحد آخر.

هذا لا ينفي إمكانية وجود مبالغة في القصة التي وصلتنا، على سبيل المثال: ما الداعي لأن يثمل كل الضيوف؟! ثمل ليوافق، فلمَ يثملون هم؟ وشهادتهم ضرورية لكي يتم الزواج ويحرج خويلد.

* * *

لكن ما الذي رأته خديجة فيه حقًا..

الجواب الفوري هو أمانته وحياؤه.. بلا شك.

لكن ماذا لو كانت خديجة أيضًا قد رأت فيه ما لم يره هو بعد في نفسه..

ماذا لو أنها كانت قد رأت كاريزما النبوة..

لقد كان ورقة بن نوفل ابن عمها المباشر، ولا بد أنه قد قال شيئًا عن نبي آخر الزمان.. أو أنها تعلمت منه شيئًا عن الإيمان بالله.. وعن تلك الروحانيات.. التي كان محمد يشع بها قبل الوحي.. ولا يلتقطها إلا من كان يمتلك شيئًا من الشيء ذاته..

يبدو لي أنها رأت النور..

فأيقنت أن دورها هو أن تسنده..

* * *

بعد سنوات طويلة، ستعترف السيدة عائشة رضي الله عنها، بأنها قالت للرسول عليه الصلاة والسلام، في لحظة غيرة من حبه لخديجة: أبدلك الله خيرًا منها...

فغضب وقال..

ما أبدلني الله خيرًا منها قط... آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذا كفر بي الناس، وواستني بمالها إذ منعني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء.. [1]

نعم.. ليس مثل خديجة قط..

* * *

لا ريب أنها ولدت صغيرة الحجم، قبل أوانها.. ما داموا قد أسموها خديجة..

والخديجة هي الطفلة التي تولد غير مكتملة النمو.. صغيرة الحجم..

لعلهم تصوروا أنها لن تعيش..

لكنها عاشت.. صمدت وقاومت.. كما لو كانت تنتظر دورًا ستؤديه..

وكان أن أدته، فكانت سيدة نساء العالمين...

رضي الله عنها..

---

(١) مسند أحمد ٢٤٨٦٤، وضعفه الألباني.

الهدم، ثم «إعادة» البناء..

سنة ٦٠٥ ميلادية، بعد خمسة عشر عامًا من حرب الفجار، قامت قريش بإعادة بناء الكعبة نتيجة تعرضها للصدع بعد سيل عارم ضرب مكة، وكانت قد تعرضت للحرق قبلها.

هذا ما تذكره الأخبار عن الأمر.

لكن ربما كان الأمر في حقيقته أشبه بحملة إعادة إعمار لمكة -أو لأهم ما فيها على الأقل: الكعبة- تماشيًا مع وضع اقتصادي جديد كانت قريش ترغب في استثماره إلى أقصى حد.

ففي السنوات بين ٥٩١ - ٦٠٢ ميلادية توقفت الحرب الفارسية البيزنطية عندما قام الإمبراطور البيزنطي موريس، بمساعدة الأمير الساساني خسرو أبرويز بن هرمز على استعادة عرش الساسانيين من القائد المتمرد بهرام جوبن، الذي قتل هرمز (والد خسرو) وسمل عينيه واغتصب الحكم وحكم لعامين باسم برهام السادس.

مقابل مساعدة البيزنطيين لخسرو، كان من المنطقي أن تتوقف الحرب، وتنازل الساسانيون عن أجزاءٍ من شمال شرق وادي الرافدين، أرمينيا، وإيبيريا القوقازية لصالح بيزنطة، بالإضافة إلى مكاسبَ اقتصادية أخرى حصل عليها البيزنطيون[1].

كيف يمكن لهذا أن يؤثر على مكة؟

السلام بين الساسانيين والبيزنطيين كان يعيد الحياة لطريق الحرير البري الذي يربط الصين والهند بأوروبا مرورًا بالأناضول وأنطاكية على البحر المتوسط، وهو الطريق الذي يتأثر بنشوب الحرب بين الإمبراطوريتين لمروره على حدودهما الملتهبة، كما أنه يعني أن سفن التجارة البيزنطية يمكنها أن تبحر خلال البحر الأحمر وصولًا إلى البحر العربي ومن ثم المحيط الهندي وصولًا إلى الهند، وهو أمر كانت تمنعها منه السفن الساسانية وقت الحرب، ويتيح هذا المنع هامشًا واسعًا لقوافل مكة كي تنقل البضائع من اليمن إلى الشام.

السلام إذن، كان خرابًا اقتصاديًا لمكة.

---

(١) https: //en.wikipedia.org/wiki/Byzantine%E٩٣%٨٠%٢Sasanian_War_of_%٦٠٢E#٩٣٦٢٨%٨٠%٢Background

لكن هذا السلام لم يدم طويلًا، وسرعان ما نشبت الحرب من جديد في ٦٠٢ ميلادية عقب مقتل الإمبراطور موريس، حيث إن خسرو كان يدين بالوفاء لموريس فقط لأنه هو الذي أعاد له عرشه، وما إن قُتل موريس حتى بدأت الحرب من جديد، واستعاد الساسانيون قبضتهم على البحر الأحمر والمحيط الهندي على نحو أخرج التجارة البيزنطية من المشهد[1].

وهذا يعني أن مكة كانت على أبواب ازدهار تجاري جديد بعد عقد من الركود النسبي.

وسط كل هذا، يمكن فهم لماذا أجلت قريش العمل على بناء الكعبة قبل ذلك رغم تعرضها للحرق والتصدع، حيث إن التجارة كانت في ركود نسبي والوضع الاقتصادي لا يشجع كثيرًا على الإنفاق، ولكن بما أن الحرب بدأت من جديد، وعادت التجارة وأرباحها، فقد صار منطقيًا أن تزدان الكعبة وتبدو بما يناسب مكانة مكة ووضع قريش القوي اقتصاديًا في الجزيرة العربية.

٦٠٥ ميلادية، بعد ثلاث سنوات من نشوب الحرب الجديدة، ووضوح أثرها على التجارة، قررت قريش أن تعيد بناء الكعبة.

* * *

فلنسجل هنا أن قصة إعادة بناء الكعبة كما ترد في الكتب التاريخية، ترتبط بوجود سفينة رومية ذكر أنها غرقت على سواحل جدة، فقررت قريش شراء خشبها لاستخدامه في بناء الكعبة[2] وعرضت على مالكيها أن يعرضوا بضائعهم في مكة دون فرض ضريبة العشر التي كانت تفرض على البضائع عادة[3]، وربما كان هذا مقابل أخذ الخشب دون نقود، أو ربما كانت الصفقة تتضمن سعرًا أقل لخشب السفينة.

هذه الإشارة تذكرنا بأن الأمر حدث بعد نشوب الحرب مجددًا بين الساسانيين والبيزنطيين، وهو أمر كان يهدد السفن البيزنطية ويعطل تجارتها في البحر الأحمر وما وراء ذلك نحو بحر العرب، حيث إن اليمن كانت قد سقطت تحت النفوذ الساساني في تلك الفترة، وهو أمر يجعل التجارة البيزنطية مختنقة في البحر الأحمر.

هل غرقت تلك السفينة الرومية فعلًا نتيجة حادث طبيعي؟ أم أن ذلك كان جزءًا من الصراع العسكري بين البيزنطيين والساسانيين؟ هل فضل أصحاب السفينة إغراقها على الساحل وبيع خشبها على التعرض لخطر الاستيلاء أو التدمير على يد الساسانيين؟

---

(١) The Red Sea from Byzantium to the Caliphate: AD ١٠٠٠-٥٠٠: Timothy Power, ١st edition,٢٠١٢

(٢) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٠٤.

(٣) أخبار مكة للفاكهي الجزء الأول صفحة ١٦٠.

هذا محتمل بعد أن عرفنا أن التوقيت كان لاحقًا لنشوب الحرب مجددًا بين الإمبراطوريتين.

* * *

وتذكر الأخبار أيضًا أن قريش استعانت بنجار بنّاء رومي[1] (وفي خبر آخر قبطي[2]) لاستخدام الخشب في بناء الكعبة وتسقيفها..

قريش إذن، بمعاييرنا اليوم، كانت تستقدم خبرات من دول أخرى، للمشاركة في عملية إعادة الإعمار التي تقيمها، وهذا يعني أنها تريد الكعبة على نحو أكثر تقدمًا وتطورًا عما كانت عليه، وعلى نحو يجعل لمكة هيبة أكبر في مرحلة تتوقع قريش أنها ستكون مزدهرة، ما دامت الحرب بين الساسانيين والبيزنطيين قد بدأت للتو.

* * *

تعاهدت قريش على تجزئ العمل في الكعبة بحيث يكون لكل قسم منها مسؤولية عشيرة أو مجموعة عشائر بعينها[3]، فَكَانَ شِقُّ الْبَابِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَزُهْرَةَ، وَكَانَ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِي لِبَنِي مَخْزُومٍ، وَقَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ انْضَمُّوا إِلَيْهِمْ، وَكَانَ ظَهْرُ الْكَعْبَةِ لِبَنِي جُمَحٍ وَسَهْمٍ، ابْنَيْ عَمْرِو بْنِ هُصَيْصِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ شِقُّ الْحَجَرِ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ، وَلِبَنِي أَسَدِ بْنِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَلِبَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَهُوَ الْحَطِيمُ[4]..

ثم أن قريشًا هَابُوا هَدْمَ الكعبة (بعد أن قرروا ذلك واتفقوا عليه)، فَقَالَ لَهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: أَتُرِيدُونَ بِهَدْمِهَا الْإِصْلَاحَ أَمِ الْإِسَاءَةَ؟ قَالُوا: بَلْ نُرِيدُ الْإِصْلَاحَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ لَا يُهْلِكُ الْمُصْلِحِينَ. قَالُوا: مَنِ الَّذِي يَعْلُوهَا فَيَهْدِمُهَا؟ قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: أَنَا أَعْلُوهَا فَأَهْدِمُهَا. فَارْتَقَى الْوَلِيدُ عَلَى جَدْرِ الْبَيْتِ وَمَعَهُ الْفَأْسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ. ثُمَّ هَدَمَ، فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ مَا هَدَمَ مِنْهَا، وَلَمْ يَأْتِهِمْ مَا يَخَافُونَ مِنَ الْعَذَابِ، هَدَمُوا مَعَهُ[5].

---

(١) أخبار مكة للفاكهي الجزء الأول ص ١٦٠.

(٢) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول ص ١٠٤.

(٣) سيرة ابن هشام الجزء الأول صفحة ١٩٥.

(٤) سمي حطيما، لِأَن النَّاس يزدحمون فِيهِ حَتَّى يحطم بَعضهم بَعْضًا، وَقيل بل لِأَن الثِّيَاب كَانَت تجرد فِيهِ عِنْد الطّواف.

(٥) أخبار مكة للفاكهي الجزء الأول صفحة ١٥٨ - ١٥٩.

أثناء التحضيرات لإعادة الإعمار الذي قررته قريش أعلن أحد ساداتها (أبو وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي*) أن إعادة البناء يجب أن تكون من مال طيب حصرًا، **وأن لا يدخل في هذا المال مهر بغي (أجور دعارة) أو ربا ولا مظلمة أحد من الناس**[١]..

وقد أدى هذا القرار إلى «وجود نقص في السيولة» عند قريش في أموال البناء، فكان أن لم تكمل البناء بحيث يشتمل على كل قواعد إبراهيم، لم تدخل الحجر فيه، رغم أنهم رفعوا من بنائها.

وهذا الأمر (نقص النفقات بسبب الاقتصار على المال الحلال) يدل على أمرين:

الأول: أن قريش لم تكن تعد هذه الأموال التي تربحها من «البغاء أو الربا أو الظلم» شرعية (أو طيبة بتعبيرهم)، كانوا يعرفون أنها أموال حرام ولا تصح، ولم يكونوا يتورعون عن استخدام هذه الأموال في زيادة ثرواتهم أو معاشهم اليومي، لكنهم وجدوا أن بناء الكعبة بالذات يجب أن يكون من مال «طيب».

الثاني: أن حجم المال المستحصل من هذه الموارد (البغاء والربا والظلم) كان كبيرًا بحيث إن حذف موارده جعل من النفقة قاصرة على إكمال البناء..

* * *

وفي لحظة من لحظات إعادة البناء كان على قريش أن تواجه انقساماتها الداخلية المغطاة بالمصالح التجارية، كان عليها أن تضع الحجر الأسود في مكانه، وكان لا بد للعشائرية أن تظهر هنا لكي يتنافس كل بطن من بطون قريش على شرف وضع الحجر الأسود لأن ذلك سيعطيه مكانة أعلى من بقية البطون، وقبل أن يتطور الجدال حول هذا الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، اقترح أحدهم (قيل أنه أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو أكبر قريش سنًا في تلك الفترة[٢]) أن يحكموا بينهم أول رجل يخرج عليهم من الفج (من الباب) فإذا به عليه الصلاة والسلام...

فقالوا: «**أتاكم الأمين**[٣]»

---

* هو خال عبد الله بن عبد المطلب، والد النبي عليه الصلاة والسلام، حيث إن أخته فاطمة بنت عمرو بن عائذ هي زوجة عبد المطلب التي أنجبت أبا طالب وعبد الله وأميمة وعاتكة وآخرين لم يعيشوا.

(١) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول ص ١٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام الجزء الأول صفحة ١٨٢.

(٣) وصححه الألباني في صحيح السيرة مسند الإمام أحمد ١٥٥٠٤.

قدم عليه الصلاة والسلام الحل ببساطة؛ يوضع الحجر في ثوب، وكل بطن يحمل طرفًا من أطراف الثوب، ثم قام برفعه -هو- من الثوب ووضعه في مكانه...

بعيدًا عن الحكمة البسيطة لحل الرسول عليه الصلاة والسلام، التي لا بد أنها جعلتهم يتساءلون: لمَ لمْ نفكر بهذا من قبل؟ فإن **الحجر الأسود قد وضع في النهاية، بيديه الكريمتين عليه الصلاة والسلام...**

لم تكن قريش تعلم، أنه بعد خمس سنوات فقط من هذا، سيبدأ الهدم الحقيقي من أجل البناء الحقيقي، وأن الحجر الأساس الجديد للمجتمع سيوضع أيضًا على يديه..

لم تكن تعلم..

ولم يكن هو أيضًا يعلم..

عليه الصلاة والسلام..

اللامنتمي؟

في كل مجتمع، يوجد لا منتمون، خارجون عن قيم هذا المجتمع ونظمه وقوانينه.. غالبًا يكون هذا الانتماء نتيجة لرفض شخصي لهذه القيم..

أحيانًا يكون هذا اللاانتماء موقفًا مبالغًا في تطرفه، بحيث إن المجتمع يحتقر أصحاب هذا الموقف ويعدهم صعاليك أو منبوذين، وغالبًا لا يعدهم أصحاب موقف أصلا، بل يعدهم مجرد فاشلين لم ينجحوا في تحقيقهم معايير القبول في المجتمع، وأحيانًا يكون هذا التوصيف صحيحًا.

آخرون، يكون رفضهم للمجتمع أقل تطرفًا وأكثر ذكاءً، بحيث إنهم لا يقطعون خيوط التواصل مع المجتمع تمامًا، يعيشون على هامشه ربما، وليس في مركزه، ولكنهم ليسوا في حالة رفض أو نبذ من قبل المجتمع، لا يبدون للناظر الخارجي كما لو كانوا شيئًا غريبًا لدرجة مثيرة للقلق.

ولكن أن تكون لا منتميًا لهذا المجتمع الذي تعيش فيه، وفي الوقت نفسه تحصل على احترامه، هو أمر نادر جدًا.

وهذا ما حققه عليه الصلاة والسلام في مكة، قبل الوحي.

كان قد عزل نفسه عن الكثير من ممارسات قومه، وفي الوقت نفسه، استطاع أن يحتفظ باحترامهم وتقديرهم له.

كان لا منتميًا لمعاييرهم وقيمهم، وكان الكثيرون منهم يدركون ذلك، ولكن لا انتماءه هذا لم يكن ضياعًا، لم يكن تيهًا، لم يكن عملية بحث منفلتة عن القيم، حاشاه عليه الصلاة والسلام.

كان لا منتميًا لمعاييرهم، منتميًا إلى معايير أخرى..

كان عليه الصلاة والسلام يعيش أكثر في عالمه الداخلي، لم يكن منعزلًا تمامًا عن العالم الخارجي لكنه كان يحتفظ بمسافة أمان عن هذا المجتمع.

لا ريب أن اليتم المزدوج، ومن ثم الرعي، والتأمل، قد ساهم في ترسيخ ميله إلى العالم الداخلي.

ولا بد أيضًا أن عالمه الداخلي هذا هو الذي سهل له التعبد والتحنث...

* * *

في هذه الفترة التي سبقت البعثة ربما بدأت قريش تنتبه أن محمدًا عليه الصلاة والسلام غير منتمٍ لمنظومتها الأخلاقية والشعائرية..

إشارات بسيطة، لم تُثِر قريش ولم تزعجها، ولكنها كانت واضحةً، تتراكم بهدوء..

مرة أثناء بناء الكعبة وكان يحمل الأحجار كما يفعل الجميع، وكانوا يرفعون ثيابهم لكي لا يكون الحجر مباشرًا على رؤوسهم فيظهر من أجسادهم الكثير.. لكنه لم يكن يفعل ذلك دونًا عن الجميع[١]، رغم أن التعري كان عاديًا عند العرب حتى أثناء الطواف.

وفي مرة أخرى شوهد مع زيد بن ثابت (ابنه بالتبني في هذه المرحلة) وهو يطوف بالكعبة وزيد يلمس الأصنام كما هي عادة العرب، فنهاه عليه الصلاة والسلام عن ذلك[٢].

كما أنه كان يخالف ما فرضته قريش من تفريق بين أهل مكة (الحمس) وسواهم في الحج، حيث لم تكن قريش تخرج من الحرم إلى عرفة تميزًا لها عن بقية العرب، لكنه عليه الصلاة والسلام ضرب عرض الحائط قبل النبوة بهذا التمييز القبلي وكان يخرج إلى عرفة شأنه شأن باقي العرب[٣].

كانت هذه الإشارات تتراكم، تشير إلى أن محمدًا لا ينتمي لقريش حقًا وإن كان من أوسطها نسبًا...

لكنه كان يختار الانتماء إلى خيارات فطرته وروحه..

* * *

لا أرى أي حرج في اقتراح أن محمدًا عليه الصلاة والسلام، كان بالتدريج قد اتجه إلى أن يعتنق البقية الباقية من ملة إبراهيم عند العرب: الحنيفية، لكن كان هذا يحدث نتيجة لبحثه الشخصي دون وجود معلم محدد أو موجه شخصي.

لم يكن ما يحيط بالرسول عليه الصلاة والسلام يدين بالحنيفية كما هو معلوم، فقريش كانت قد تعبدت للأوثان ودنست الحنيفية منذ فترة طويلة، لكن ربما كان النشوء البعيد لمحمد في مضارب بني سعد قد جعله أقل عرضة لتأثير قريش المباشر في تلك الفترة المبكرة من طفولته.

حيث إن أغلب قبائل العرب في البادية كان لديها صنم واحد أساسي، وإن كانوا لا ينكرون بقية الأصنام التي قد تكون مفضلة بالنسبة لقبائل أخرى، وكان بنو سعد يتعبدون بشكل أساسي لصنم واحد هو «جهار»، [٤] أو «ذا الخلصة»، وهما صنمان يعظمان لقبيلة هوازن التي كان بنو سعد بن بكر

(١) صحيح البخاري١٥٨٢.

(٢) معجم الطبراني الكبير ٤٦٦٥. طفت فلمست بعض الأصنام.

(٣) صحيح البخاري ١٦٦٤.

(٤) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، هوازن.

ينتمون لها، ولا بد أن محمدًا الطفل قد وعى أنهم يعبدون هذا الحجر ويطلبون منه تصريف أمورهم وقضاء حوائجهم..

في الغالب أدى الانتقال في سن الرابعة إلى مكة واكتشاف أن قريش لديها عدد كبير جدًا من الأصنام التي يفترض أنها تقوم بنفس ما كان يفترض أن «جهار» يقوم بفعله في مضارب بني سعد، في الغالب أدى هذا الانتقال إلى تسديد ضربة لفكرة الحجر- الإله نفسها..

قد يتخيل البعض أن طفل الرابعة سيصعب عليه فهم هذا، الحقيقة لا، حتى الأطفال متوسطو الذكاء في هذا السن، يمكنهم أن يلاحظوا حدوث تغييرات عميقة عند انتقالهم من بيئة إلى أخرى، مثلًا عندما ينتقل الطفل من روضة بإدارة حازمة وشديدة إلى روضة تتبع نظامًا متساهلًا مع الأطفال، سيلاحظ الطفل هذا بسهولة وغالبًا سيعبر عن ملاحظته قولًا قبل أن يظهر هذا على سلوكه.

كذلك الانتقال من بيئة تتعبد لصنم واحد بشكل أساسي، إلى بيئة تعج بأصنام بعدد أيام السنة، لا بد أن هذا سيجعله يلاحظ وجود خلل في الأمر برمته، إذا كانت كل هذه الأصنام (هنا) تؤدي ما كان يفعله صنم واحد (هناك)، فهذا يعني أنه أفضل منها.. بالحس المنطقي البسيط.

وبنفس الحس المنطقي البسيط كان لا بد لفكرة الإله الحجر أن تتهاوى، خصوصًا مع حقيقة أن قريش لم تكن تنكر قط أن الأصنام قد جلبت إلى الكعبة لاحقًا وعلى يد عمرو بن عامر الخزاعي[1] وقد جلبها من الشام ووضعها في الكعبة أي أن ملة إبراهيم لم تكن تحتوي على الأوثان التي تعج بها مكة- وذلك باعتراف قريش.

ولا بد أن محمدًا قد وصل لهذه الفكرة في مستهل صباه أي عندما كان في كفالة عمه أبي طالب.. ولا بد أن رقة أبي طالب قد ساهمت في منحه حرية الاستقلال عن ملة قريش دون ضغط أو إقسار، وإلا كان وصلنا شيء من هذا.. لقد ترك أبو طالب ابن أخيه يختار ما يؤمن به...

* * *

فلننتبه هنا إلى أن الآية القرآنية التي خاطبت الرسول الكريم «ووجدك ضالًا فهدى» كانت ضمن هذا التسلسل المتتابع: ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالًا فهدى، ووجدك عائلًا فأغنى..

أي أن الآية تتوسط مرحلة اليتم، وبين كون الرسول عائلًا- فقيرًا قبل زواجه من السيدة خديجة..

مما يعني أنه كان قد اهتدى إلى الحق قبل زواجه من خديجة، أي قبل الخامسة والعشرين.. وغالبًا كان ذلك في مستهل صباه..

وكلمة (ضال) هنا لا تعني الضلال المعتاد لدينا، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يسجد لصنم قط للأسباب التي ذكرناها...

---

(١) مسند الإمام أحمد ٧٧١٠.

لكن الوصول إلى الحق لا يكون فقط في عدم السجود لصنم.. بل في معرفة الإله الواحد الخالق الحق.. في تلمسه الدرب نحو هذا الإله.

ولا بد أن محمدًا عليه الصلاة والسلام قد وجد أن العودة إلى ملة إبراهيم، الحنيفية، هي الحل الأمثل له.. وأن ذلك يتضمن أولًا إزاحة كل ما يتعلق بالأوثان..

وكان من المؤكد أن محمدًا قد أوصل هذه الفكرة لمن حوله ولو بالتدريج، فكما عرفنا عن منعه لزيد من لمس الأصنام حول الكعبة، فإن أحد جيران السيدة خديجة سمع الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لها، وهما في بيتهما: «أَيْ خَدِيجَةُ، وَاللهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ، وَاللهِ لَا أَعْبُدُ الْعُزَّى أَبَدًا.» قَالَ: فَتَقُولُ خَدِيجَةُ: «خَلِّ اللَّاتَ، خَلِّ الْعُزَّى[1]» أي توافقه على ما يقول...

* * *

لا بد هنا أن نقف قليلًا..

البعض قد يتخذ موقفا دفاعيًا من بعض الأشياء في السيرة دون وجود شبهة حقيقية فيها... فيبدو موقفه ضعيفًا دون حاجة لذلك...

مثال ذلك لقاؤه عليه الصلاة والسلام بزيد بن عمرو بن نفيل، واحد من أشهر الموحدين في الجاهلية، وكان قد تحرى ملة إبراهيم، وصار يدين بها، أو بأي راهب أو منتمٍ لدين آخر..

وكانت مناقب زيد بن عمرو بن نفيل لا تقف عند حد نبذ الأصنام بل كان أيضًا ممن يحيون المؤودة إذ كان يذهب إلى الرجل الذي يقتل ابنته، فيقول له «لَا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا[2]» كما أنه كان ممن جاهر بعدائه للأصنام إذ رأته أسماء بنت أبي بكر وقد أسند ظهره للكعبة وهو يقول «يا معاشر قريش! والله ما منكم على دين إبراهيم غيري»[3]، واختياره للحنيفية كان بعد أن ذهب للشام ولقيَ علماء من اليهود ومن النصرانية وأعلن بعدها «اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ[4]»

هناك موقف دفاعي فوري من هذه القصص، خوفًا من أن تثار شبهة أنه عليه الصلاة والسلام تعلم شيئًا من الدين قبل البعثة..

ثم ماذا؟

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٩٤٧.
(٢) صحيح البخاري ٣٨٢٨.
(٣) صحيح البخاري ٥٦٢.
(٤) صحيح البخاري ٣٨٣٧.

لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام يعيش في فقاعة بعيدًا عن الناس والمجتمع، كان يعيش بينهم، يمشي في الأسواق ويأكل الطعام، وكان من الطبيعيِّ جدًا أن يلتقي بكتابي سواءً كان يهوديًا أو نصرانيًا، راهبًا أو شخصًا عاديًا، وسيكون من الغريب التصور أنه لم يفعل، أو أنه كان يهرب منهم إذا رآهم من بعيد..

هذا الخوف المزمن من أن يُتّهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأن أحدًا علمه ما قاله لاحقًا، هذا الخوف المستمر أخشى أن أقول أنه يعكس نوعًا من ضعف في الثقة بالرسالة النبوية.

فليقل من يريد أن يقول ما شاء، علموه؟ حقًا؟! ولمَ لمْ يقولوا هم بدلًا من توكيله بهذه المهمة التي نفذها بعد سنوات طويلة؟ وهل كان ممكنًا أصلًا لأي كان أن يقول ما قاله لاحقًا؟ وهل يكفي لقاءٌ عابر أن يكون علمًا وتعليمًا بأي معيار أو مقياس؟ وهل ما جاء به عليه الصلاة والسلام يمكن أن يُعَلَّم أصلًا؟

نعم لقد التقى عليه الصلاة والسلام بزيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة، وقد صح هذا اللقاء حيث دعا الرسول زيد بن عمرو إلى تناول الطعام على سفرة فيها لحم، فقال له زيد «إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ[1]» ولا يدل هذا على أن الطعام الذي كان يأكله عليه الصلاة والسلام كان مما ذبح على الأنصاب بل يدل على أن زيدًا لم يكن يعلم إن كان عليه الصلاة والسلام يأكل من هذا الطعام أو لا يأكل فحسب، وهو يدل أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منخرطًا مع الحنفاء على نحو يجعل زيد بن عمرو بن نفيل يعرف هذه التفاصيل عنه...

هناك أيضًا رواية فيها «فَمَا رُئِيَ النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام، بَعْدَ ذَلِكَ أَكَلَ شيئًا مِمَّا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ» ولكنها زيادة ضعيفة[2]، والجدال حول هذا الأمر واعتبار أن الرسول كان قد مارس عملًا شركيًا بالأكل مما ذبح على الأصنام وتكبير القصة (الضعيفة أصلًا) أمرٌ لا طائل وراءه..

لم يبلغ زيد بن عمرو بن نفيل الإسلام.. فقد توفي قبل البعثة..

لكن واحدًا من أولاده، سيكون قد تشبع بإيمانه بالحنيفية فيكون من أوائل المسلمين..

بل من العشرة المبشرين بالجنة..

إنه سعيد بن زيد.. زوج فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر التي قيل أنها وزوجها كانا سببًا في إسلام عمر في قصة إسلام عمر الشهيرة، يوم دخل عليهما ليصدهما عن الإسلام.. ثم خرج منهما ليذهب إليه عليه الصلاة والسلام.. معلنًا إسلامه..

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٣٨٢٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ١٦٤٨ وضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

سؤالان سيُطرحان هنا..

ما الفرق أساسًا بين الحنيفية، وديانتي أهل الكتاب: اليهودية والنصرانية؟

نفهم أن الحنيفية، ملة إبراهيم، هي الأصل، وأن أنبياء بني إسرائيل كانوا جميعًا، بما فيهم السيد المسيح عيسى بن مريم كانوا أتباعًا لسيدنا إبراهيم..

لكن ما الفرق الأساسي بين الحنيفية وديانتي أهل الكتاب؟

لعل الفرق الأساسي هو أن الحنيفية كانت بلا كتاب، نعم كانت هناك صحفٌ لإبراهيم كما أكد ذلك القرآن الكريم، لكن لم يبق منها شيءٌ في تلك المرحلة. كانت الحنيفية أقرب إلى أن تكون عقيدة توحيد دون رجال دين ودون تعاليم شرعية كثيرة.

لكن السؤال الثاني هو:

لماذا لم يعتنق أتباع ملة إبراهيم -الحنيفية- أيًا من الديانتين اليهودية أو النصرانية؟

لماذا لم يعتنق زيد بن عمرو بن نفيل أو أي من الموحدين المعروفين أو حتى عليه الصلاة والسلام أيًا من ديانتي أهل الكتاب؟

هل كان الانحراف العقائدي واضحًا لهذه الدرجة؟ هل كان لانغلاق اليهود وعنصريتهم دخل في ذلك؟

هل كانت لانقسامات المسيحية إلى مذاهب متقاتلة عن طبيعة السيد المسيح مثلًا دخل في جعل الموحدين يبتعدون عنها؟

هل كان للاستقطاب السياسي الذي استغل الدينين (الفرس يدعمون اليهود، الروم يدعمون النصرانية) دخلٌ في رد الحنفاء عن الدخول في أي منهما؟

أم هل كان لأن أصحاب الدينين أنفسهم، كانوا يتحدثون عن اقتراب موعد نبي آخر الزمان..

فكان هؤلاء الحنفاء ينتظرون هذا النبي... لاتباعه هو بنفسه بدلًا من اتباع أديان يسيطر عليها رجال الدين...

أخبار أن الكثيرين من اليهود والنصارى كانوا يتحدثون عن اقتراب موعد نبي آخر الزمان أخبار متواترة، من ضمنها ما رواها سلمان الفارسي في قصة إسلامه المطولة[1]، كذلك ما كان يرويه الأنصار من أهل يثرب من أن اليهود كانوا يقولون لهم أنه قد تقارب زمن نبي يبعث الآن، وأنهم سيقتلونهم

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٣٧٣٧.

معه (قتل عاد وإرم)[1] وكذلك ما نقل عن هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي (كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم)[2]..

إذن كان هناك شعورٌ عام منتشر بأن نبي آخر الزمان اقترب موعد ظهوره.. وكان هناك أيضًا انتظار لهذا...

لكن كيف عرفوا أن الزمان اقترب؟

لا يصح أبدًا أن ثمة حسابات فلكية قد حددت اقتراب هذا الزمان، لا يعلم الغيب إلا الله ووجود إشارات إلى قدوم النبي محمد لا تعني أبدًا تحديد موعد خروجه..

إذن كيف عرفوا أن الزمان اقترب؟

ربما كان هذا الشعور بقرب زمان آخر نبي ناتجًا من الشعور بأن الأمور وصلت لحد هو الأسوأ إطلاقًا.. لم يعد العالم يحتمل المزيد من الظلم والفساد.. لا يمكن الاستمرار في هذا الوضع..

لا بد أن يكون نبي آخر الزمان، قد اقترب...

ربما كانوا دومًا في حالة انتظار..

وهذه المرة كان الانتظار صحيحًا..

لقد جاء موعد نبي آخر الزمان...

* * *

محمد على أبواب الأربعين..

حياته مستقرة، ليس من منعطف متوقع لها.. ولا تغيير كبير..

الرجل الخلوق الأمين الذي ولد يتيمًا وكبر يتيمًا لم يعد فقيرًا كما كان، زوجته خديجة واحدة من أكثر نساء مكة ثراء، وهو لا يبدو أنه مهتم بزيادة هذه الثروة لحسابه، بل على ما يبدو أنه يترك خديجة تدير أموالها، إذ لم يصلنا أنه ذهب في تجارة لها إلى الشام كما كان يفعل قبل زواجه منها.

بل إن ما يحاول البعض الإيحاء به من أنه ذهب فترة إلى الشام واطلع على المسيحية بعمق هناك (دون أي دليل على هذا) لا يصمد أمام المرات التي أنجبت فيها خديجة في هذه الفترة، إذ يشير ذلك إلى أنه كان مقيمًا في مكة طيلة الوقت، أو أن غيابه -لو حدث- كان لفترة عابرة لا تكفي لإشباع جوع هؤلاء إلى إثبات نظريات مؤامرتهم...

---

(١) صحيح السيرة النبوية، الألباني.

(٢) صحيح البخاري ٧.

خديجة تبدو حريصة على الحفاظ على استقلالها المادي، عندما تتزوج زينب ابنتهما من أبي العاص بن الربيع، ابن هالة بنت خويلد شقيقة خديجة، فإن خديجة هي التي أهدتها بيتًا للزواج[1]..

لا يذكر أن الهدية من محمد عليه الصلاة والسلام، بل من السيدة خديجة، مما يعني أنها بقيت حريصة على استقلالها المالي.. وبقي البيت الذي عاشا فيه يسمى «بيت خديجة»[2] حتى بعد وفاتها...

كان عليه الصلاة والسلام فيما يذكره أصحاب السير عنه وعن السيدة خديجة «لا يخالفها»[3]... حياتهما كانت هادئة منسجمة في كل ما نعرفه عنها.

ربما هناك بعض من حزن لأن كل من أنجبت خديجة من ذكور قد توفي، القاسم -الذي بلغ أن يركب الدابة- وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر[4].. لكن هذا كله كان ضمن الحياة التي تسير بهدوء، نودع أحبابًا بطرق مختلفة، زينب -كبرى البنات- عند ابن الربيع، ورقية عند عتبة بن أبي لهب، وأم كلثوم عند شقيقه عتيبة[5]..

لم يبق سوى فاطمة الصغيرة التي تبلغ من العمر خمس سنوات.. وزيد، ابنه بالتبني، الذي اشترته له خديجة ووهبته إياه، فأعتقه وتبناه...

وعلي ابن عمه أبي طالب، الذي أخذه الرسول عليه الصلاة والسلام لكي يساعد أبا طالب في نفقاته، بينما أخذ عمه العباس جعفر[6]...

على أبواب الأربعين، حياة محمد تبدو كما لو أنها لن تتغير كثيرًا..

آخرون كانوا ينتظرون تغييرًا كبيرًا... ينتظرون قدوم نبي آخر الزمان...

هو لم يكن يعلم عن هذا..

ولم يكن يعلم أن هذا النبي سيكون هو...

عليه الصلاة والسلام...

---

(١) أخبار مكة للفاكهي الجزء الثالث صفحة ٢٥٢.

(٢) أخبار مكة للفاكهي الجزء الثالث صفحة ٢٧٣.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٠٥٠.

(٤) دلائل النبوة الجزء الثاني صفحة ٦٩.

(٥) المعجم الكبير للطبراني ١٠٦٠.

(٦) المستدرك على الصحيحين ٦٤٦٣.

أطول ليلة في التاريخ

في الأربعين ستتخيل أن حياتك قد اتخذت شكلها النهائي.

وأن أي تطورات ستحصل فيها، هي محض امتداد لما سبق.. ترقيةٌ في وظيفة، ازدهارٌ في عمل.. محض تراكمات علَى ما بنيته سابقًا..

في الأربعين، ستعتقد أنه فات الأوان على أي تغيير كبير مهم وجذري في حياتك..

لقد مضى منها -على الأغلب- أكثر مما سيأتي..

وفات أوان التغيير..

وسواءً كنت تحب حياتك، أو لا تفعل، ولكنك تنكر ذلك، فإنك على الأغلب ستكون تعودت... لا خطة لديك لحياة جديدة في الأربعين..

لكن كل شيء قد يتغير في لحظة واحدة..

ذلك أن الرجل الذي غير العالم، لم يكن يعرف أنه سيفعل ذلك.. إلى أن بلغ الأربعين..

عليه الصلاة والسلام..

* * *

بدأ الأمر بالرؤيا الصادقة[1]..

صار يرى الرؤى في المنام.

فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[2]

لا نعرف ماذا كانت هذه الرؤى ولا موضوعاتها.. هل كان يرى أمورًا يومية في حياته وحياة من حوله.. أم كان عليه الصلاة والسلام يرى أمورًا عامة تحدث في مكة.. وما يمر اليوم قبل أن تتحقق كما رآها تمامًا..

---

(١) صحيح البخاري ١٥٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٣.

فلق الصبح، أي مثل الصباح في وضوحه بعد الليل.. وهذا يعني أن ما كان يتحقق لم يكن تأويلًا للرؤيا، بل كانت تحدث كما يراها بالضبط.. كما لو كان يشاهد في نومه أحداث اليوم التالي أو أحداثًا مهمة في الأيام القادمة.. ثم يستيقظ فيراها كما لو كان يشاهد فيلمًا شاهده من قبله بحذافيره..

كلنا نمر أحيانًا بنسبة قليلة من شعور مماثل، أن يحدث شيء فنشعر شعورًا غامضًا بأننا كنا هنا من قبل، وهي ظاهرة الديجافو (شاهدته من قبل)، والتي بعض تفسيراتها أننا ربما رأينا في المنام شيئًا مشابهًا..

معه عليه الصلاة والسلام، كان الأمر مختلفًا تمامًا، كانت الرؤيا تتحقق تمامًا، وكان يستيقظ من نومه وهو متذكر تمامًا لما رأى، ثم يراه متحققًا أمامه خطوة خطوة، وليس في ظاهرة الديجافو التي نرى فيها الواقع أولًا ثم نقول لقد مررنا بهذا من قبل..

لا بد أنه مع المرة الأولى التي حدث فيها ذلك له عليه الصلاة والسلام، لا بد أنه قال في نفسه، ربما كانت صدفة.. لا نعرف ما في نفسه عليه الصلاة والسلام، لكن أي شخص واعٍ ما كان سيتسرع إلى أي استنتاج أو موقف مما حصل في مرة واحدة فقط..

لكن الأمر تكرر..

ولا بد أنه عليه الصلاة والسلام توقف طويلًا مع ما يحدث له.. لا بد أنه تساءل عما يحدث.. ولا بد أنه أخبر السيدة خديجة عما يحدث..

لا نعرف كم استمر الأمر، ولكن محمدًا عليه الصلاة والسلام لا بد أنه فهم أن الأمر أكبر بكثير من مجرد رؤى تتحقق.. الرؤى لا تتحقق في المعتاد على نحو مختلف، يتحقق تأويلها، وليس أن تنسخ من المنام إلى الواقع..

لا بد أنه فكر في الأمر كثيرًا.. ولكنه لم يصل حتمًا إلى أن ما كان يحدث هو مقدمة لما حصل لاحقًا..

لقد كانت تلك رسائل منه عز وجل إليه عليه الصلاة والسلام..

رسائل تقول له انتبه... سيحدث شيءٌ..

رسائل تقول له أن روحه مقبلة على اتصال كبير جدًا..

رسائل تقول له نعم إنه ليس شخصًا عاديًا على الإطلاق، وإن ما سيحدث له بعد قليل سيكون آخر ما سيحدث لبشر على الإطلاق...

كانت تلك بمثابة نقرات على بوابة روحه عليه الصلاة والسلام.. نقراتٌ تقول له أن يفتح أكثر.. فما سيأتي سيكون محتاجًا للكثير..

وكان عليه الصلاة والسلام متنبهًا، كله آذان لتلك النقرات...

* * *

ما فعله عليه الصلاة والسلام بعد ذلك كان يدل أنه قد فهم رسائل الرؤى على نحو صحيح..

أي شخص منا، تأتيه منامات تتحقق، كان سيخبر الناس وربما سيحتفل بذلك..

حاشاه، عليه الصلاة والسلام..

أما هو فقد...

حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ [1]

كما لو أنه عليه الصلاة والسلام قد علم أن عليه أن يصغي السمع أكثر، أن يرهف كل حواسه لما هو قادم..

انسحب من الناس، من مكة ومن ضجيجها..

إلى الخلاء، حُراء تحديدًا..

هناك سيسمع همس روحه أكثر..

هناك، لو أرهف أكثر، لربما سمع الرد على صلواته ودعواته..

هناك، لو أرهف السمع أكثر، لسمع دقات قلبه ماذا تقول.. لسمع نسغ روحه الصاعد في عروقه ونخاعه..

لذا فقد انسحب إلى الخلاء، حيث سيخوض معركته الأهم..

ويحوز على انتصاره الأكبر..

هناك، في حراء، غارٌ في جبل أجرد متوسط الارتفاع، سيصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى أعلى قمة وصلها إنسان..

وسيغرس فيها قلبه..

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٣.

لكن هذا الانسحاب كان خيارًا تكتيكيًا، استراتيجيًا..

لم يكن خيارًا دائمًا..

مجرد ذكر أنه «حبب إليه الخلاء» في هذه الفترة، فهذا يعني أنه سابقًا كان مع الناس، بينهم، مع مشاكلهم وهمومهم وأوجاعهم وأفراحهم وأحزانهم.. يساعدهم ويحمل ويخفف عنهم..

لكن الآن..

ثمة شيء آخر.. يتطلب الانسحاب من كل هذا.. إلى الخلاء..

الخلاء، الذي يبدو أنه خلاء أجرد..

لكنه قد يكون ممتلئًا جدًا، خصبًا جدًا بخيرات وفيرة لا تُرى بالعين المجردة.

* * *

وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ[1]

يتحنث إذن في غار حراء.. عليه الصلاة والسلام.

والمعنى الأصلي للحنث هو الإثم، ولكن العرب تستخدم فعل التحنث للدلالة على الضد أي على إسقاط الإثم..

كان يتعبد، يناجي ربه، أملًا في المزيد من الطهارة.. كما لو أنه يعرف أن ثمة شيئًا هائلًا قادمًا وأن عليه أن يستعد له بقلب سليم تمامًا..

ليالٍ متتالية، إلى أن يفرغ زاده.. ولعله لم يكن سوى الماء والتمرات..

يفرغ الزاد، ثم يرجع إلى بيته إلى خديجة.. يتزود مرة أخرى.. ثم يرجع إلى الغار مجددًا.. يتحنث..

كم بقي هكذا؟

لا ندري.. لقد بقي يفعل ذلك، يظهر قلبه بمزيد من التعبد، ولا بد أنه كان يشعر بشيءٍ ما مختلف فيما حوله...

لا بد أن كل هذا التعبد كان بمثابة «التوليف الدقيق» للقلب.. كما لو أن القلب -لكي يستقبل موجة بث الوحي- عليه أن يولف توليفًا دقيقًا لا يأتي إلا عبر التعبد المستمر والتطهر الدائم..

---

(١) صحيح البخاري ٣.

بالتدريج، كان قلب محمد عليه الصلاة والسلام، يُهيأ ليستقبل الوحي..

كما لو كان مَدرجًا يستعد لاستخدام أول وآخر وأهم وأخطر طائرة في العالم...

* * *

الغار مثل شق صغير قرب قمة الجبل.

والجبل شديد الوعورة.. ارتفاعه أكثر من ٢٠٠٠ قدم، حوالي ٦٤٢ مترًا.. انحداره شديد من الأعلى، ثم يبدأ بالانحدار بشكل متدرج...

وهو الأعلى بين الجبال من حوله، قمة الجبل هناك هي قمة وحيدة جدًا.. لا شيء يؤنس وحدتها.. الغار أيضًا، قرب القمة، ممر ضيق جدًا بين صخرتين، لا يبدو أنه يقود إلى شيء على الإطلاق..

لكنه يفعل.. ويصل إلى الغار..

لكي تصل إلى الغار عليك أن تصل إلى قمة الجبل، ثم تهبط أمتارًا صعبة شديدة الوعورة والانحدار إلى حيث الغار...

يطل على مكة والكعبة بالذات.. كما لو أنه عليه الصلاة والسلام، حتى وهو يختار العزلة، حتى وهو يختار أصعب نقطة ممكن أن يلحق به فيها إنسان، فإنه يختار أن يكون في نقطة تربطه بعالمه وبمجتمعه... وبالكعبة...

حتى وهو ينسحب من الجميع ليتقرب إلى الله عز وجل، فإنه لا يغلق الباب خلفه..

ثمة شيء يربطه بعالمه..

* * *

للحظات، ربما كانت تبدو عادية.. توقف الكون عن الحركة.. وقف كل شيء على رؤوس أصابعه...

حبست الطبيعة أنفاسها...

لحظات طويلة كالدهر، كثيفة كالأزل... بدا فيها كما لو أن الصمت سيد هذا العالم ولغته الوحيدة...

كما لو أن ما سيحدث الآن، الآن وهنا في الغار، سيكون مؤثرًا ومهمًا في كل ما سيحدث لاحقًا...

حبس العالم أنفاسه ترقبًا..

بينما كان البشر يتصورون أنها مجرد لحظة عادية أخرى...

* * *

ثم حدث كل شيء فجأة..

فجأة..

نص الحديث يقول «جاءه الحق»[1]..

وفي رواية أخرى: فجئه[2] الحق..

والصحيح أن الحق قد جاءه وفاجأه في الوقت نفسه..

الحق؟!

الحق!

هذا هو اللفظ الذي اختاره عليه الصلاة والسلام كي يعبر عن الوحي عند لقائه به أول مرة..

الحق!

كما لو أن كل ما سبق ذلك، كل ما سبق هذا اللقاء.. لم يكن حقًا أو حقيقة... كان وهمًا أو باطلًا..

والآن، الآن فقط: الحق.

هذه هي لحظة الحق.

هذه هي لحظة الحقيقة..

كل ما سوى ذلك، كان زمن الوهم...

* * *

لا بد أن الغار كان مظلمًا جدًا.

لم يرَ عليه الصلاة والسلام شيئًا هذه المرة..

فجأة هناك صوت يكسر حيطان الصمت العالية.

صوت غير متوقع، الغار في نقطة بعيدة في جبل وعر وليس من السهل الوصول له.

صدى الصمت هو الصوت الوحيد المسموع والمتوقع هنا.

---

(١) صحيح البخاري ٣.

(٢) صحيح البخاري ٤٩٥٣.

لكن.. فجأة، الحق.. له صوت.

فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: «اقْرَأْ»، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام: فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ[1]»

اقرأ؟!

الكلمة الأولى.

ليست أقل صدمة من الصوت الصادم الذي هز قلب محمد بعد أن حطم جبل الصمت..

اقرأ؟

أقرأ ماذا وكيف؟

قلب محمد يخفق بشدة بلا شك، لكن جوابه واع يدل على وعي تمكن من امتصاص الصدمة «ما أنا بقارئ».. لست ممن يقرؤون الكتب، إن كان هذا قصدك... القلب يخفق بشدة، لكن الوعي لا يزال ينبض...

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ[2]

أخذني!

أمسك بتلابيبي..

تخيل أن يأخذك ما لا تراه، ولكن تستشعره فقط ملء كيانك وكيانه، تخيل أن يحتضنك، يعتصرك...

هكذا فعل الحق معه عليه الصلاة والسلام عندما جاء إلى حراء..

قال الرسول عليه الصلاة والسلام «فغطني»..

وغطني تعني العصر والكبس، وتعني أيضًا الغطس في الماء...

هكذا فعل معه الحق...

احتضنه بشدة، بعنف، حد الغطس، حد التماهي..

تراه كان حضن حنان يخفف عنه عناء الرحلة القادمة، أم حضن دعم وقوة يقويه لما سيأتي؟

---

(١) صحيح البخاري ٣.

(٢) صحيح البخاري ٣.

ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: «اقْرَأْ»، قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: «اقْرَأْ، فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي[١]

تركه، أرسله، كما لو أنه قد أطلقه بعيدًا.. ممتلكًا كل الخيارات..

وقال له مجددًا.. اقرأ

ووعي محمد لا يزال على أشده: ما أنا بقارئ.. لا يمكنني أن أزيف ما أقول...

ثم تدفق الحق نورًا...

فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾[٢] [العلق١:٣]

قراءةٌ مختلفة إذن، ليست قراءة فك الحرف، بل قراءة فك العالم، باسم الرب الخالق...

اقرأ إذن كانت مختلفة جدًا..

هذه المرة لا يمكن أن يقال ما أنا بقارئ..

ثم ذهب الملك..

انتهى الأمر..

تنفس العالم الصعداء...

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤَادُهُ[٣]

فلننتبه هنا إلى «رجع بها»، الأمر يصور كما لو أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحمل شيئًا بيديه..

فرجع بها!

تراها الآيات؟

تراها التجربة التي مر بها؟

تراها المشاعر؟

لا نعرف، لكنه رجع بها... يحملها.. وفؤاده يرتجف وهو يحملها... ربما من ثقل الحمل..

* * *

(١) صحيح البخاري ٣.
(٢) صحيح البخاري ٣.
(٣) صحيح البخاري ٣.

تخيلوه، عليه الصلاة والسلام، وهو يهبط من الجبل الوعر، ويحمل ما مر به في قلبه..

تخيلوه، يتعثر، يكاد يسقط هنا أو هناك، يتمسك بحجر في درب النزول كي لا يسقط.. كان يلهث حتمًا، نكاد نسمع لهاثه ودقات قلبه بغير انتظام، وهو يتحسس الدرب المظلم..

ها هو قد غادر الجبل، بينه وبين مكة ثمة درب لا يقل عن كيلومترات أربعة، الأدرينالين الذي يفور في جسده من هول التجربة يمده بطاقة النجاة، يريد أن يصل إلى حيث خديجة... بر الأمان.. المرفأ الذي يمكنه أن يقف عنده ويتنفس قليلًا..

كان درب الكيلومترات الأربعة صعبًا بلا شك، كل خطوة يهرولها عليه الصلاة والسلام كانت تزيد صعوبة عن التي قبلها بسبب ما يحمله مما مر به.. الآيات.. التجربة.. اقرأ.. كل شيء.

يلهث ويهرول ويريد خديجة..

عليه الصلاة والسلام.

* * *

ثم وصل...

فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ[1]

وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا[2]

عندما وصل إلى بر الأمان، تلاشت قوته التي مدته بالقدرة على الوصول إلى بيت خديجة.. بدأ يرتجف، على الأغلب هول التجربة التي مر بها جعلت مركز السيطرة على حرارة الجسم يختل تمامًا.. فها هو يرتجف بردًا ويشعر بحاجته إلى الأغطية..

وضعوا عليه الأغطية، خديجة وربما بناته أو خادمات في البيت...

حتى هدأ قليلًا وتمالك أنفاسه..

لكنه لم يخبر أحدًا غير خديجة..

فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي» وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ[3]**، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»**[4]

---

(١) صحيح البخاري ٣.

(٢) صحيح البخاري ٤٩٢٤.

(٣) صحيح البخاري ٦٩٨٢.

(٤) صحيح البخاري ٣.

يا خديجة! ما لي؟

ما الذي يحدث لي يا خديجة..

يا خديجة لقد خشيت على نفسي..

لقد خاف على نفسه عليه الصلاة والسلام.. خاف أن يكون كل ما مر به شيئًا مثل الجنون... أو المرض..

هو يعرف أن ما مر به حقيقة.. لم يكن ما حدث وهمًا ولا خيالًا نفسيًا، وهو الذي اعتصره الحق ثلاث مرات حتى أجهده..

لكن.. يا خديجة... ما لي؟!

فَقَالَتْ لَهُ: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ[1]»

قالت له: كلا! ولم تقل له لا!

لا تفيد النفي فقط.

أما كلا، فهي ردع وزجر واستنكار.. إياك أن تفكر بهذه الطريقة يا محمد... بل هي البشرى.. لن يخزيك الله أبدًا بأن يمسك بسوء في عقلك وأنت على ما أنت عليه من خلق عظيم...

سيدة نساء العالمين، خديجة..

يقولون عادة أنها أول من أسلم من النساء..

لكن نص الحديث هنا يقول أنها آمنت به عليه الصلاة والسلام قبل أن يؤمن هو بنفسه.. كان لا يزال خائفًا، يقول يا خديجة ما لي، عندما كان لا يزال يخشى أن يكون كل ما مر به شيئًا لا يعول عليه...

سيدة نساء العالمين.. أول من أسلم من العالمين...

ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بِالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ[2]

(١) صحيح البخاري ٦٩٨٢.

(٢) صحيح البخاري ٦٩٨٢

انطلقت به، سيدة الحكمة، لم تقل له اذهب أنت، بل قادته هي، كانت معه، وتسبقه بخطوة ربما، إلى ورقة بن نوفل، إلى حيث سيسمع عن التجارب السابقة.. كانت قد فهمت فورًا أين تجد الجواب الذي يحتاجه محمد..

قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»

ورقة رأى فورًا ناموس موسى...

كان نصرانيًا، لكنه لم يرَ عيسى في القصة.. بل رأى موسى..

لماذا؟

لأن ناموس موسى هو الذي تأسس عليه الدين اليهودي، والذي كان عيسى من أنبيائه... حتى لو أسس أتباعه لاحقًا دينًا آخر.. لكنه في الأساس كان لإصلاح الدين اليهودي.. أما هنا، فورقة يرى الدين الجديد.. الناموس.. لا إصلاح لما سبق.. بل تأسيس جديد..

أما عليه الصلاة والسلام، فقد تلقى للتو خبرًا آخر.. أن قومه سيخرجونه..

لذا لن يعلق على كل ما قاله ورقة إلا بهذا السؤال: أوَ مخرجي هم؟

هل سيخرجه قومه؟! هل سيترك مكة؟

قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ[1]

ها هي الصورة تتضح أمام محمد إذن...

كانت الليلة صعبةً وثقيلةً وطويلةً...

لكن سيكون أمامك درب طويل يا محمد..

عليه الصلاة والسلام... كانت أطول ليلة في التاريخ..

لكن بها ستبدأ رحلةٌ ستغير وجه التاريخ...

(١) صحيح البخاري ٣.

الأوائل: سايكولوجيا وسوسولوجيا

هناك أشخاص يكون لديهم بُعد نظر.

يرون ما لا يراه الآخرون إلا بعد وقت طويل..

قد يكونون رُوادًا في أمر ما، عُرض عليهم كما على سواهم، فآثروا المبادرة وساروا في الدرب، بينما آثر آخرون الراحة والبقاء فيما تعودوا عليه..

ثم جاء وقت بعد أن دار الزمن دورته..

وإذا بالأوائل قد أظهرهم دربهم وبان صواب اختيارهم.. وإذ بمن آثروا الراحة يعضون أصابع الندم..

ويعلمون يقينًا خطأ اختيارهم..

أولئك الذين آثروا الراحة كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد ويقولون: لماذا؟ ما الفائدة؟ كنا عايشين..

أما الأوائل فقد نظروا وفكروا وقالوا: لم لا؟

* * *

لكن بعد النظر لا يكفي أبدًا لفهم ما جعل الأوائل يتخذون هذه الخطوة الجريئة.

ثمة أشياء أخرى حتمًا.

كان لديهم نظرتهم العميقة التي ترى مقدار الزيف والسطحية الموجودة في عبادة الأوثان، ربما لم يكونوا قد عبَّروا عن ذلك بصوت عالٍ، بل ربما لم يصارحوا حتى أنفسهم، لكنهم وعوا بطريقة ما أن العالم أكبر وأعقد من أن تكون مجموعة أحجار هي من صنعته، وأعمق بكثير من أن تعبر هذه الأحجار عن العلاقة مع خالق هذا العالم.

كان وعيهم يقول لهم دون أبجدية، أن فكرة تعدد الآلهة تتناقض مع هذا العالم بكليته.

لذا عندما جاء الوحي، ما كان لوعيهم إلا أن يقول لهم: نعم، بالتأكيد.

* * *

هذا وحده لا يكفي أيضًا.

هناك من كان يعي كل هذا ولكنه رفض أيضًا.

الوعي وحده لا يكفي ليفسر إيمان الأوائل.

هناك حسابات أخرى تمنع بعض الواعين من تلك الخطوة، انتفاع من وضع سائد، الجبن عن تغييره، الرضوخ لسلطة الآباء وتراثهم.

وهناك على الجانب الآخر، حسابات أخرى، تلتحم مع الوعي، وتجعل آخرين يخطون بخطوة الريادة إلى الإيمان الجديد.

هناك حسابات الصدق مع أنفسهم، في الغالب هم صادقون مع أنفسهم على نحو لا يمكن لهم أن يتركوا الأمر يمضي دون أن يأخذوا موقفهم، لا يمكن لهم أن يكونوا واعين بالأمر ثم يغضون الطرف لأجل منافع ومصالح وتراث.

صدقٌ، فيه تواضع تجاه الحقيقة، الأنا ومنافعها ومصالحها تتضاءل تجاه الحقيقة.

وثمة شجاعة ولا بد، كل هذا يتحداهم لكي يتحملوا نتائج مواقفهم وصدقهم.

وعيُهم أيضًا يقول لهم أن الواقع فيه من المظالم ما يجعل استمراره أمرًا لا معنى له.. وأن محاولة تغييره أمر يستحق المحاولة على الأقل.

ومرة أخرى: صدقهم مع أنفسهم، يجعلهم يلتزمون بهذا.

* * *

في خريطة توزيع الأوائل، تتصدر السيدة خديجة القائمة بكونها أول من أسلم من النساء.

والحق أنها أول من أسلم من كل العالمين... رجالًا ونساءً وصبيانًا وكل ما نتخيل ولا نتخيل ونعرف ولا نعرف من مخلوقات..

لقد آمنت به عليه الصلاة والسلام قبل أن يؤمن بنفسه...

فهي قبل الرجال طبعًا..

وفي الخريطة أن أبا بكر هو أول الرجال.

وأن زيد بن حارثة هو أول الموالي.

وأن علي بن أبي طالب هو أول الغلمان.

هذه هي قائمة الأوائل الأولى إذن[1]..

لو تأملنا فيها فإن المشترك الأعظم فيها سيكون واضحًا جدًا.

ثلاثة من أربعة من هؤلاء (رضي الله عنهم أجمعين) كانوا من أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، خديجة زوجته، وعلي بن أبي طالب كان ربيبه[2]، وزيد كان لا يزال يومها ابنه بالتبني.

وأبو بكر كان صديقه الحميم.

إذن هؤلاء الأربعة الأوائل كانوا من أقرب الناس للرسول عليه الصلاة والسلام، ولعلهم عرفوا بخبر الوحي بعد ساعات من حدوثه، ربما زيد ذهب مع محمد عليه الصلاة والسلام وخديجة إلى ورقة بن نوفل.. وعرف أبو بكر غالبًا خلال الأربع والعشرين ساعة اللاحقة.

كان من المنطقي جدًا أن يبدأ عليه الصلاة والسلام بهم..

هل كان يقصد دعوتهم إلى الإيمان بما جاءه؟ هل كانت فكرة الدعوة واضحة في ذهنه وهو لا يزال تحت أثر صدمته بالوحي؟

لا نعرف شيئًا عن تفاصيل ما حدث، لكن المنطقي أن الأمر كان لا يزال تحت تأثير هول وفرادة التجربة الأولى، كان الأمر ربما أقرب إلى إخبار المقربين بما تعرض له الرسول الكريم منه إلى الدعوة والتبليغ.

ولأنهم كانوا يعرفونه جدًا ومن قرب، فالأمر كان بالنسبة لهم، رغم غرابته، رغم فرادته، قد حدث فعلًا.

لم يكن الأمر أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله.

ليس في هذه المرحلة بالتأكيد.

كان محض تصديق لخبر ما تعرض له، دون شبهة أنه يكذب، أو أنه قد أصيب بسوء في عقله.

كان الأمر تصديقًا بما مر به، وبأن الوحي قد جاءه في الغار.

ربما لم تكن تبعات هذا الإيمان واضحة جدًا في هذه المرحلة المبكرة.

* * *

---

(١) سنن الترمذي ٣٧٣٤ وصححه الألباني.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٦٤٦٣.

بالنسبة للسيدة خديجة، تصديقها له كان قبل أن يصدق هو بنفسه، أعطت إيمانًا غير مشروط بل ساعدته على أن يؤمن هو بنفسه.

زيد وعلي، كانا محسوبيْن على الرسول على نحو يجعل تكذيبهما لما حدث معه أمرًا مستبعدًا.

لكن علينا أن نقف عند أبي بكر، لأنه مختلف عن الأسماء الأخرى.

لأنه ببساطة ليس من دائرة «البيت» الذي كان تصديق أهله شبه مضمون.

* * *

لا نعرف الكثير عن تفاصيل علاقة أبي بكر بالرسول عليه الصلاة والسلام قبل البعثة.

لكن لا بد أنها كانت الأساس الذي بني عليه هذا «التصديق» الذي واجه به أبو بكر الأمر كله، والذي وصل أن وصف أنه «لم يتلعثم»[1] عندما عرض عليه أمر الإسلام.

متى بدأت العلاقة؟ لا نعرف للأسف، لكن المنطقي أنهما كانا يعرفان بعضهما البعض منذ أوائل الشباب، مكة في النهاية مدينة صغيرة حتى إن كانت كبيرة بمقاييس الجزيرة العربية آنذاك، وكانا في عمر متقارب، حيث إن الرسول عليه الصلاة والسلام يكبر أبا بكر بعامين أو ثلاثة أعوام في أبعد تقدير، وكان من الطبيعي أن يتعارف الشابان في مرحلة ما من مراحل شبابهما.

فلنتذكر هنا أن أبا بكر ينتمي لقبيلة تيم بن مرة التي دخلت مع بني هاشم في حلف الفضول، والذي سبق أن أشرنا إلى مشاركة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة فيه، عدا عن تحالف القبيلتين السابق عبر حلف المطيبين.

هل كان هذا الحلف الذي يناصر القيم الأخلاقية ويرد الظلم عن المظلومين هو مدخل تعارفهما ،ومن ثم صداقتهما التي استمرت عشرين عامًا حتى البعثة، إذا صح أنها بدأت في حلف الفضول...

بكل الأحوال، تلك العلاقة التي انتهت بأن لا يتردد أبو بكر لحظة في تصديقه لمحمد وهو يقول له ما لا يتوقع أحد سماعه أو حدوثه، لا بد أنها كانت علاقة عميقة، من غير المستبعد أبدًا أنهما سافرا معًا في تجارة، وفي السفر تمكن أبو بكر من أن يخبر أمانة وصدق الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

لكن هذا لم يكن كل شيء بالتأكيد، كان هناك ما هو أكثر من طرف أبي بكر، الأمر لم يكن إيمانًا بصدق محمد وأمانته فحسب، بل كان هناك أيضًا حب كبير له كما هو واضح، وهذا الحب ربما يجعلنا نفهم كيف كان إيمان أبي بكر بلا تلعثم.. بلا تردد، بلا نظرة يتأنى فيها قبل أن يعلن إيمانه أو تصديقه، ليس في خبر الوحي الأول بل في كل المسيرة اللاحقة بكل ما فيها من مصاعب وعثرات.

---

(١) جامع الأصول ٦٤٠٥.

فلنتنبه هنا إلى أن أبا بكر لم يكن شخصية ضعيفة، كي نعتقد أن علاقته بالرسول كان فيها نوع من الاستلاب الذي يحدث أن نراه في حياتنا اليومية بين بعض الأصدقاء في علاقات غير متوازنة.

على الإطلاق، كان أبو بكر **«رجلًا مألوفًا لقومه محببًا سهلًا وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما يكون من خير أو شر وكان رجلًا تاجرًا ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته»**[1]

ويوم نزل الوحي كانَ عِنْدَهُ أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ[2].

بمقاييس الحياة الاجتماعية إذن، كان أبو بكر ناجحًا جدًا، ثريًا وناجحًا بتجارته ولديه علاقات واسعة ويحبه قومه. من الواضح أن لديه مهارات تواصل وتأثير عالية جدًا إذ إنه **«جعل يدعو إلى الإسلام كل من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استجابوا وأسلموا»**[3]

كل هؤلاء! وفي تلك الفترة المبكرة التي كان الأمر فيها غريبًا جدًا ويبدو للكثيرين ضربًا من الجنون.

لا بد أن أبا بكر إذن كان يملك ليس فقط التأثير الشخصي وقوة الإقناع، بل كان يملك أيضًا الذكاء الاجتماعي العميق الذي جعله ينتقي هؤلاء الأشخاص أصلًا وقد عرف أنهم أكثر عرضة للإيمان والتصديق من سواهم.

كان شخصية قوية إذن، وناجحة، ليس من النوع «التابع» على الإطلاق.

ربما بسبب ذلك، وليس بالرغم منه، كان أبو بكر بهذا الحسم، وبلا تلعثم، عندما آمن.

لأنه عندما عرف محمدًا عليه الصلاة والسلام، وعاشره، عرفه بقوة، بعمق.

وهذا ما جعل الصديق المقرب صدّيقًا.

* * *

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة ١٢٠ الجزء ٩ صفحة ٥٠٠.

(٢) الطبقات العلمية الجزء الثالث صفحة ١٢٥.

(٣) الإبانة الكبرى لابن بطة ١٢٠ الجزء التاسع صفحة ٥٠١.

إذن دائرة القرب الشخصي الحميمة هي كانت دائرة الأوائل الأولى.

لا نعرف ما هي توقعاتهم عن تبعات الأمر وما سيحدث بالتتابع..

هل كانوا يعون أنهم يخرجون عن المجتمع؟ وأن إيمانهم يمكن أن يُعَد مثل الخيانة العظمى بمفاهيم اليوم؟

هل كانوا يعون أن لا شيء سيعود كما كان منذ تلك اللحظة؟ وأنهم دخلوا رحلةً طويلةً صعبة في اللحظة التي صدقوا محمدًا عليه الصلاة والسلام بما جاء به...

لا نعرف بالضبط.

لكننا نعرف أن الإسلام يومها كان ثلاث آيات فقط..

وأربعة أشخاص آمنوا بها.

* * *

في القوائم اللاحقة لأوائل من أسلم سنرى بعض ما يجعلنا نفهم أكثر عن طبيعة الأمور وقتها...

هناك مثلًا ما سيبدو أنه بعض التضارب إذا نظرنا للأمر من قريب.. ولكن النظر من زاوية أبعد، سيجعلنا نفهم أن الأمر ليس تضاربًا على الإطلاق...

سنرى مثلًا سعد بن أبي وقاص يقول عن نفسه «**مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ، وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلَامِ**[1]»

سعد هنا يقول: أنه أسلم في اليوم الأول الذي أسلم فيه الآخرون... ويقول أنه كان ثلث الإسلام، أي أنه كان ثالث ثلاثة، وأن الحال بقي على هذا لسبعة أيام.

كيف يستقيم هذا مع ما نعرفه أن ثمة أربعةٌ آمنوا أصلًا بالنبي منذ الساعات الأولى: خديجة، وأبو بكر، وزيد، وعلي؟

كيف يكون سعد ثلث الإسلام والإسلام أصلًا كان أربعة قبل أن يأتي اسمه؟

وكذلك يوجد تضارب بين قول أبي ذر الغفاري[2]، وبين قول عمرو بن عبسة السلمي[3] كل عن نفسه أنهما كانا ربع الإسلام.

(١) صحيح البخاري ٣٧٢٧.
(٢) المستدرك على الصحيحين ٥٤٥٩.
(٣) مسند أحمد ١٧٠١٨.

ولعل هذا (الذي يفهم أنه تضارب) يُنظر له من زاوية أخرى فيبدو تناسقًا مع معطيات الأحداث...

كيف يمكن أن يكون هناك اثنان في الوقت نفسه يقولان عن نفسيهما أنهما رابع من أسلم؟

في الحقيقة هذا هو الذي يجب أن يحدث بالضبط، لو حدث عكس ذلك، لكان هناك خلل كبير أثر على مسيرة الإيمان..

الدعوة كانت سرية آنذاك.

ولو علم كل مؤمن جديد دخل للتو في الإسلام بكل من دخل قبله، لكان من الممكن أن تنتهك هذه السرية التي كان المؤمنون بحاجة لها في تلك المرحلة.

وهكذا عندما يسأل عمرو بن عبسة السلمي الرسول عليه الصلاة والسلام وقد أسلم للتو: يا رسول الله من معك؟ فيرد عليه الرسول الكريم: حر وعبد[1] فيعتقد عمرو أنه الرابع بعد الرسول وأبو بكر وبلال، والحقيقة أن كلمة «حر وعبد» هنا تعني نوع الأتباع، أحرار وعبيد، ولا تعني رجلين هما أبو بكر وبلال.

كذلك ليس من الضروري لكل مسلم جديد أن يكون لديه قائمة بأسماء وعناوين من سبقه من المسلمين!

* * *

لعلنا نحتاج أن نوضح شيئًا بخصوص ما يعرف بـ«سرية الدعوة».

سرية الدعوة في بدايتها لم تكن بالضرورة لأن قريشًا ستبطش بمن آمن بما جاء به عليه الصلاة والسلام بالمعنى الذي قامت به لاحقًا.

الأمر كان مبكرًا، ولم يكن معروفًا رد فعل قريش أو حجمه ولا يمكن أصلًا توقعه، تحذير ورقة بن نوفل ليلة نزول الوحي كان عامًا ويشير إلى نمط متكرر من رد فعل المجتمعات تجاه دعوات الأنبياء، لكن لا شيء محددٌ أو واضح.

لكن ليس البطش والأذى الجسدي هو وحده ما كان يجب تجنبه.

الخبر كان خارجًا عن المألوف بحيث إنه كان سيجلب أولًا السخرية، قبل البطش والأذى والاتهام بالمروق عن ملة الآباء.

وكان الأمر جادًا جدًا، لا يحتمل السخرية والضحك. لا يحتمل قهقهات العابثين ولا اعتبارهم الأمر نكتة الموسم أو طرفة يتداولونها في مجالس السمر.

ما كان أحد من المؤمنين الأوائل يرغب في أن يتحول الأمر إلى هذا.. على الإطلاق.

---

(١) سنن ابن ماجة ١٣٦٤ وصححه الألباني.

ولذا كان يتم انتقاء الأشخاص الذين يصلهم الخبر على نحو حذر، الأشخاص الذين يتوقع أن يكون رد فعلهم عابثًا وساخرًا بالتأكيد ليسوا ضمن الاستهداف الأولي...

بل الأشخاص الذين سيأخذون الأمر بجدية، حتى إن كان موقفهم رافضًا..

كان الأمر انتقائيًا...

وكان يقال بهمس..

هذا ما كانت سرية الدعوة تعنيه.

* * *

وربما كان هناك جانب آخر في هذه «السرية»...

ربما كان ذلك أيضًا لكي يفهم كل مسلم جديد أنه من الأوائل بطريقة ما.

ربما كان ذلك لتعزيز شيئين معًا:

عنصر التفرد والريادة، بما يستفز ذلك من تحديات إيجابية عند المسلم الجديد، سيكون من واجبه بعد قليل أن يحاول إقناع المزيد من الناس بالدخول في الإيمان الجديد وتبني رؤية العالم بعدسات جديدة..

العنصر الثاني هو عنصر الخطر، إن كنت ستشعر بالأمان من (كثرة) عدد من آمن قبلك، وسيجعلك هذا تشعر بأن الدرب سالك، فلا داعي لهذا على الإطلاق، اشعر بأن الدرب خالٍ وأن عدد من يسير فيه قليلٌ وأن الطريق موحش... فلو قررت المضي فيه وأنت تحسبه كذلك فأنت مؤهل فعلًا لخوض التجربة...

* * *

إذن ربما كان هناك مجموعة كبيرة من الأوائل... أكثر مما كان يعلم كل منهم على حدة!

تقسيم أول من أسلم من النساء، من الرجال، من الغلمان، من الموالي، من العبيد... من القبيلة الفلانية، من المدينة الفلانية... كل هذا التقسيم كان لاستفزاز «الأول» في داخل كل مسلم جديد...

دومًا هناك شيء يمكنك أن تكون «الأول» فيه..

ترى الأمر توضح لاحقًا أكثر في آية ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (الأنعام ١٦٢-١٦٣)

وتكرس في دعاء الاستفتاح الذي استند على الآية السابقة.. وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[1]

صار من السنة أن تستفتح الصلاة، بأن تتذكر بأنك الأول!

الأول في ماذا؟

الأمر مفتوح.

* * *

مراجعة القوائم الأخرى التي ذكر فيها السابقون في الإسلام (من دون ترتيب محدد) ستبرز أسماء سعد بن أبي وقاص[2]، عثمان بن عفان، عمار بن ياسر، الزبير بن العوام، بلال بن رباح، عبد الله بن مسعود، خالد بن سعيد بن العاص، خباب بن الأرت، عمرو بن عبسة، أبي ذر الغفاري، طلحة بن عبيد الله.

الأسماء أعلاه، بعضها يُروى عنه أنه بعد أبي بكر (مثل خالد بن سعيد بن العاص)[3] - رغم عدم ثبوت ذلك، لكن هذا مرة أخرى يدلل على ما سبق: الكل كانوا في المقدمة بطريقة أو بأخرى!

* * *

مراجعة قوائم الأوائل ستوضح لنا وجود ثلاثة انتماءات للمسلمين الأوائل...

الأول: المسلمون من العشائر القرشية البارزة، من الملأ القريشي ومترفيه مثل عثمان بن عفان وخالد بن سعيد بن العاص (بنو أمية / بنو عبد مناف)، سعد بن أبي وقاص (بنو زهرة بن كلاب)، الزبير بن العوام (بنو أسد بن عبد العزى / بنو عبد مناف)، طلحة بن عبيد الله (بنو تيم بن مرة)، ويغلب عليهم سن الشباب: سعد كان بعمر الـ١٧، عثمان ٢٠ سنة، الزبير ١٨، طلحة ١١ سنة، خالد بن سعيد بن العاص في أوائل العشرين على أبعد تقدير.

---

(١) صحيح مسلم ٢٠٢.

(٢) صحيح البخاري ٣٧٢٧.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد الحديث في مرويات السيرة النبوية - د. أكرم ضياء العمري الجزء الأول صفحة ١٣٦-١٣٨.

كما أن اثنين من هذه المجموعة يرتبطان بقرابة مع الرسول عليه الصلاة والسلام: سعد بن أبي وقاص من أخوال الرسول (والده ابن عم آمنة بنت وهب)، والزبير بن العوام (ابن عمته صفية بنت عبد المطلب وابن شقيق السيدة خديجة بنت خويلد).

ومن الجدير هنا الانتباه إلى أن القرابة هنا كانت من جهة النساء في الحالتين، وهو أمر مهم في سياق النظر إلى دور المرأة في الدعوة التي كانت المرأة أول منتم لها (حرفيًا).

الثاني: مسلمون من الطبقات الأدنى (من خارج قريش ولكنّ محالفون لبعض بطونها) مثل عبد الله بن مسعود، خباب بن الأرت (محالفون لبني زهرة) وعمار بن ياسر (والده محالف لواحد من سادات بني مخزوم)، وهناك بلال بن رباح (عبد لأمية بن خلف) وهو العبد الوحيد الذي وصلنا اسمه في هذه المرحلة[1].

ويلاحظ أن معدل السن متفاوت فبينما كان عبد الله بن مسعود ١٤ عامًا وخباب بن الأرت بعمر الـ١٦ فإن بلالًا وعمارًا كانا قد تجاوزا الثلاثين.

الثالث: مسلمون من خارج مكة / قريش: مثل عمرو بن عبسة وأبي ذر الغفاري وهؤلاء كان لديهم موقف سابق من الوثنية ومعتقدات العرب، وكانوا يتحرّون ظهور دين جديد، وجاءوا مكة لهذا الغرض تحديدًا، وهؤلاء لم يكن لمعرفتهم بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام دخل مباشر بإسلامهم على عكس الفئتين الأولى والثانية.

هذه الانتماءات الثلاثة كانت تعني ببساطة أن الإسلام كان عابرًا للانتماءات التقليدية.. وأن انتماءً جديدًا -عابرًا للعشيرة والقدرة المادية- كان قيد التكوين.

* * *

نخلص من هذه الملاحظات إلى ملاحظتين تخصان عموم الأوائل.

أولًا: أغلبهم من الشباب، وهذا أمر مفهوم، الأفكار الجديدة يمكن أن تعتنق أكثر من قبل الشباب، لم يتمكن المجتمع القديم من تطويعهم تمامًا بعد، ولذلك كانوا أكثر تقبلًا للإيمان بالإله الواحد، ولعل كان لديهم بعض الشكوك بشأن الأصنام والمعتقدات الوثنية.

وهذا أمر طبيعي في أي فكرة «جديدة».

ثانيًا: عدم وجود انتماء طبقي اجتماعي محدد للمؤمنين الأوائل، لا من ناحية الانتماء القبلي أو العشائري ولا من ناحية الثروة.

هناك أثرياء مترفون من الطبقة العليا (أقرب لمجتمعات النوادي المترفة حاليًا) وهناك معدمون أيضًا (أقرب للعشوائيات).

وهذا أمر غريب جدًا.

---

(١) سير الأعلام للذهبي الجزء الثالث صفحة ٩٥.

عادة الحركات الفكرية تجد فئة مستهدفةً محددة تخاطبها وتنتشر بينها وتكون هي وقودها الأساسي في التغيير.

وغالبًا ما تكون هذه الفئة من الطبقات المهمشة المسحوقة حتى لو كان قادة الحركة من طبقات أعلى، هكذا حدث مع المسيحية في انتشارها، ومع الماركسية، ومع أغلب الحركات التي تركت أثرًا في التاريخ. على الأقل يكون انتشارها الأول محصورًا بفئة محددة.

لكن هنا، لا شيء من هذا..

الإيمان يتحرك بطرق غامضة..

يستثمر قوانين الاقتصاد ولكن لا يخضع لها...

* * *

لكن هل يمكن أن نجد في قائمة الأوائل تأثرًا بالتحالفات التي كانت تقسم قريشًا وتوازن العلاقة بين عشائرها؟

نعم. يمكن ملاحظة هذا بسهولة، فعلى سبيل عدد المنتمين لعشائر حلف المطيبين من الأوائل يفوق عددهم من حلف الأحلاف.

فالأوائل[1] **من عشائر حلف**[؟] **المطيبين هم** (خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ- بنو أسد بن عبد العزى، عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ- بنو هاشم بن عبد مناف، أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ- بنو تيم بن مرة، زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ- بنو هاشم آنذاك، عُثْمَانُ بن عفان- بنو عبد شمس بن عبد مناف، الزُّبَيْرُ بن العوام- بنو أسد بن عبد العزى، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ- بنو زهرة بن كلاب، طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ- بنو تيم بن مرة، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ- بنو زهرة بن كلاب، أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ- بنو الحارث بن فهر، وَعُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ بنِ المُطَّلِبِ المُطَّلِبِيُّ، أسماء بنت الصديق- بنو تيم بن مرة، وَعُمَيْرُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَخُو سَعْدٍ- بنو زهرة بن كلب وَجَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ الهَاشِمِيُّ، وَالمُطَّلِبُ بنُ أَزْهَرَ بن عَبْدِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ، وَخَالِدُ بنُ سَعِيْدِ بنِ العَاصِ بنِ أُمَيَّةَ بن عبد مناف وَأَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ بنِ رَبِيْعَةَ- بنو عبد شمس بن عبد مناف) **وهؤلاء سبعة عشر رجلًا وامرأة.**

؟ راجع المفاتيح /المفتاح السابع/ حلف المطيبين والأحلاف.

(١) حسب سير الأعلام للذهبي الجزء الثالث صفحة ٩٥.

أما الأوائل من عشائر حلف الأحلاف فهم (أَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْد الأَسَد من بني مخزوم، وَالأَرْقَمُ بنُ أَبِي الأَرْقَم بن أَسَد بن عَبْد الله بن عُمَرَ من بني مخزوم وعُثْمَانُ بنُ مَظْعُوْن الجُمَحيُّ، وَسَعِيْدُ بنُ زَيْد بن عَمْرو بن نُفَيْلِ العَدَوِيُّ، وَعَيَّاش بنُ أَبِي رَبِيْعَةَ بنِ المُغِيْرَةِ المَخْزُوْمِيُّ، خُنَيْسُ بنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ وَحَاطِبُ بنُ الحَارِث الجُمَحِيُّ، وأخواه خطاب ومعمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون الجمحي، وَالنَّحَّامُ نُعَيْمُ بنُ عَبْدِ الله العَدَوِيُّ).

وهؤلاء أحد عشر رجلًا*. وهناك امرأة واحدة هي رملة بِنْتُ أَبِي عَوْفٍ السَّهْمِيَّةُ ولكن زوجها هو المُطَّلِبُ بنُ أَزْهَرَ بنِ عَبْد عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ المنتمي لعشيرة من حلف المطيبين.

ومن العشائر المحايدة (سَلِيْطُ بنُ عَمْرِو بن عَبْدِ شَمْسٍ العَامِرِيُّ، حَاطِبُ بنُ عَمْرِو العَامِرِيُّ) رجلان، وهناك أيضًا فَاطِمَةُ بِنْتُ المُجَلِّلِ العَامِرِيَّةُ (ولكن زوجها أسلم وهو حاطب بن الحارث الجمحي)

ومن الأوائل المنتمين لعشائر غير قرشية تحالفت مع عشائر تنتمي لحلف المطيبين أو من الموالين (خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ الخُزَاعِيُّ حَلِيْفُ بَنِي زُهْرَةَ، وَعَبْدُ الله بنُ مَسْعُوْدٍ الهُذَلِيُّ مِنْ حُلَفَاءِ بَنِي زُهْرَةَ، وَمَسْعُوْدُ بنُ رَبِيْعَةَ القَارِئُ حليف بني زهرة، وَعَبْدُ الله بنُ جَحْش بن رئاب الأَسَدِيُّ حَلِيْفُ بَنِي أُمَيَّةَ، وَعَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى الصِّدِّيْق، وَصُهَيْبُ بنُ سِنَان بن مَالِكٍ النَّمِرِيُّ الرُّوْمِيُّ المَنْشَأ وَوَلاَؤُهُ لِعَبْدِ الله بنِ جُدْعَانَ من بني تيم) وهؤلاء ستة.

أما الأوائل المنتمون لعشائر غير قرشية تحالفت مع عشائر تنتمي لحلف الأحلاف فهم (عَامِرُ بنُ رَبِيْعَةَ العَنْزِيُّ حَلِيْفُ آلِ الخَطَّاب من بني عدي، وَوَاقِدُ بنُ عَبْد الله بن عَبْد مَنَاف التَّمِيْمِيُّ اليَرْبُوْعِيُّ حَلِيْفُ بَنِي عَدِيٍّ، وَخَالِدٌ وَعَامِرٌ وَعَاقِلٌ وإياس بنو البكير بن عَبْد يَالِيْل اللَّيْثِيُّ حُلَفَاءُ بَنِي عَدِيٍّ وَعَمَّارُ بنُ يَاسِرِ بن عَامِرٍ العَنْسِيُّ حَلِيْفُ بَنِي مَخْزُوْم) وهؤلاء سبعة[!].

أي أن مجموع المحالفين والموالين ككل كان ١٣ رجلًا ولا يوجد هنا تأثير كبير لكون العشيرة المحالفة من حلف المطيبين أو الأحلاف.

وهناك من غير القريشيين (أبو ذر الغفاري، عمرو بن عبسة السلمي).

---

* يبدو أن اسم مصعب بن عمير قد سقط سهوًا من قائمة الذهبي، فنحن نعرف عن إسلامه المبكر وعلى الأقل قبل إسلام حمزة وعمر، وهو من بني عبد الدار، أي أن اسمه يجب أن يضاف إلى قائمة حلف الأحلاف.

! لم تضم القائمة عند الذهبي أسماء العبيد ونحن نعرف أن بلالًا كان من الأوائل وهو من عبيد بني جمح المنتمين لحلف الأحلاف.

كذلك هناك زوجات غير قريشيات كن من الأوائل مع أزواجهن (أَسْمَاءُ بِنْتُ سَلاَمَةَ التَّمِيْمِيَّةُ زوجة عياش بن أبي ربيعة، أسماء بنت عميس الخثعمية زوجة جعفر بن أبي طالب، فكيهة بنت يسار زوجة خطاب بن الحارث الجمحي، أُمَيْمَةُ بِنْتُ خَلَفٍ الخُزَاعِيَّةُ زوجة خالد بن سعيد بن العاص).

من الواضح من هذه الخريطة أن عدد الأوائل كان يميل إلى أن يكون من عشائر المطيبين طالما كان الشخص قريشيًا أصيلًا، لكن لم يكن الأمر يحدث فرقًا كبيرًا عندما يكون الشخص منتميًا لعشيرة غير قرشية* بغض النظر عن انتماء محالفه القريشي لهذا الحلف أو ذاك.

ويبدو أن أبا سلمة والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميين هما أول من أسلم من عشائر حلف الأحلاف، ولكن أبا سلمة هو ابن عمة النبي عليه الصلاة والسلام فأمه هي برة بنت عبد المطلب لذا فقد يفهم إيمانه بأنه متأثر بقرابته الشخصية للرسول الكريم، بينما الأرقم لم يكن له قرابة مباشرة مع الرسول عليه الصلاة والسلام وأمه من خزاعة، أو قيل أنها من بني سهم.

ربما لهذا كان هناك أهمية مميزة للأرقم بن أبي الأرقم، وربما كان هذا من الأسباب التي جعلت الرسول عليه الصلاة والسلام يختار دار الأرقم بن أبي الأرقم كي تكون مكانًا لتجمع المسلمين الأوائل وتواصلهم معه ومع الوحي النازل، كان ثمة رسالة في هذا الاختيار، فعندما يكون المضيف مخزوميًا، وحتى لو كان أغلب الضيوف من عشائر حلف المطيبين، فإن الرسالة هي أن هذه الدعوة الجديدة تتجاوز الأحلاف وتعمل على منطقة أعلى منها.

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت وأثارت انتباه الكثيرين من المنتمين لعشائر حلف الأحلاف... لذا فإن النتيجة عند حساب أوائل القريشيين تجعل ٦٠ ٪ لعشائر حلف المطيبين (وهذا طبيعي لانتمائهم لدائرة شخصية أقرب من الرسول عليه الصلاة والسلام، و٤٠٪ لعشائر حلف الأحلاف).

الإيمان كان يتجاوز هذه الأحلاف، ولكنه أيضًا كان يستخدمها أحيانًا كأداة توصيل، التأثير الذي حدث في المجموعة الأولى من المسلمين (خاصة الذين أسلموا على يد أبي بكر) كان سيكون أصعب بكثير لولا وجود حلف المطيبين يقرب بين هؤلاء في علاقاتهم الشخصية.

نعم، كان الإيمان أعلى من حواجز الأحلاف...

وكان هناك رفض وكفر وإصرار للدعوة الجديدة من كل العشائر بل ومن عشيرة النبي عليه الصلاة والسلام نفسه..

الإيمان والكفر وحتى العداء لم يكن يفسر بوجود هذه الأحلاف وبانتماء الرسول لعشيرة تنتمي لحلف المطيبين.

---

* أي شخص غير قريشي يسكن مكة كان يتحالف مع عشيرة قريشية تمنح وجوده الشرعية.

لكن شدة العداء وحدته يمكن أن تفسر بذلك...

كما سنرى بالتدريج.

* * *

علينا أن ننتبه هنا إلى أمر مهم في هذه الدعوة...

وهو أن أولوياتها على ما يصلنا من نصوص صحيحة لم تكن كما نتوهم اليوم..

على سبيل المثال ما يرويه عمرو بن عبسة..

قال للرسول عليه الصلاة والسلام: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»[1]

الأولويات هنا بدأت من صلة الأرحام، من العلاقات الاجتماعية التي كان العرب أيضًا يحرصون عليها، أي أن الأمر رقم واحد لم يكن صادمًا، لم يكن مخالفًا للعُرف السائد، لم يكن هادمًا للمجتمع... كان يبدو إصلاحيًا جدًا..

هل كان هذا مقصودًا تحديدًا مع عمرو وهو من عشيرة خارج قريش؟ كي يعرف أن هذا الإيمان لا يعني تمرده على علاقته بقومه ولا تبعية منه لعشيرة أخرى.. رسالة طمأنينة مبكرة إلى أن الأمر أعمق وهدفه الإصلاح..

* * *

لكن لا بد أن تكون قوائم الأوائل هذه قد أغفلت عن غير عمد أناسًا كثيرين..

ربما لسرية الأمر كما قلنا، أو لأنهم رحلوا مبكرًا في درب الدعوة... أو لأن أمر إيمانهم كان محسومًا ولا يحتاج إلى ذكر..

مثل ذلك بنات الرسول عليه الصلاة والسلام، زينب ورقية وأم كلثوم... نعرف أنهن أسلمن لكن لا نعرف وقت إسلامهن أو ترتيبهن في الإسلام، رغم ذلك فهن بالتأكيد ضمن الأوائل..

كذلك أولاد خديجة من أزواجها السابقين: نعرف أنهم أسلموا مبكرًا، لكن ترتيبهم؟ بالتأكيد ضمن الأوائل.. لكن لا نعرفه..

---

(١) صحيح مسلم ٢٩٤.

ليس مهمًا..

يعرفه ربهم الذي آمنوا به..

* * *

لو كنا هناك في تلك الفترة..

ترانا سنكون مع أولئك الذين آمنوا بالفكرة الجديدة، مع الأوائل..

أم سنكون أعداءً جاهزين لها، لمجرد جِدتها..

كيف نتصرف اليوم مع فكرة جديدة، هل نرفضها فورًا فقط لأنها لم تكن ضمن الموروث الذي وصلنا.. أم نمنحها ونمنح أنفسنا فرصة تفحصها...

غالبًا الجواب عن هذا السؤال سيكون الجواب عن سؤال: ماذا كنا سنفعل يومها!

* * *

ينقل البعض دعاء يقول «اللهم إيمانًا كإيمان العجائز»..

أي إيمانًا لا شك فيه ولا جدال ولا كثر كلام.. تسليمٌ وانتهى الأمر..

أعتقد أننا نحتاج إلى تحديث بهذا الخصوص.

اللهم إيمانًا كإيمان الأوائل...

القلم والمزمل والمدثر

ثلاث سور مكية مبكرة جدًا، قد تعطينا الكثير عما كان يحدث داخل نفس الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

السور هي القلم والمزمل والمدثر، ويُفترض -حسب أصح الأقوال- أنها نزلت بهذا الترتيب بعد سورة العلق، وهناك الكثير ما يدعم هذا الترتيب موضوعيًا.

لكن فلنتذكر هنا أن ترتيب النزول الذي وصلنا كان يخص (في الأغلب) مطالع السور وليس السورة كاملة، فقد يتنزل مطلع السورة في ترتيب معين، ثم ينزل مطلع سورة أخرى، ثم بعد فترة تنزل آيات أخرى تدرج في السورة الأسبق، رغم أنها (زمنيًا) نزلت لاحقًا.

الآيات التي نزلت في المدينة وأدرجت في سور مكية (مثل الآيات ١، و٢، و٣ و٧ من سورة يوسف) تم تمييزها بالتصنيف المدني، لكن عندما تكون الآيات كلها مكية، بعضها مبكر جدًا وبعضها متأخر، فإن التصنيف المكي يطغى عليها ولم يتم تمييز وقت نزولها، وإن كان سياقها يدل على ذلك أحيانًا.

فلنتأمل الآن في السور الثلاثة، في هذه الفترة المبكرة، وفي حوارها مع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.



نزلت الآيات الأولى من سورة العلق في الغار كما تقدم.

كانت خمس آيات.

ولكنها كانت تعني أكثر بكثير من عددها المجرد.

كانت تعني: الوحي، الرسالة.. كانت تعني أن محمدًا عليه الصلاة والسلام يكلمه ربه.

وهذا كان وقتها أهم بكثير من (مضمون الآيات الثلاثة) بالنسبة لمن بدأ يتسرب الخبر إليهم.

الرسول عليه الصلاة والسلام كان مصدومًا من هول تجربة الوحي الأولى. والحديث الذي يرويه

يقول بوضوح أنه قد خشي على نفسه أن يكون قد أصابه سوء[1]، أو مسه عرض من الجنون*.

أي أنه كان خائفًا أن يكون ما يمر به عارض من أعراض التخيلات والأوهام مما قد يمر به من نسميهم اليوم أصحاب الاضطرابات النفسية. علمًا بأن أصحاب الاضطرابات النفسية ممن يرون الهلاوس أو يسمعون أصواتًا نادرًا ما يشكون في أن بهم «سوءًا» لأنهم لا يتمكنون من استخدام أدوات عقلية لمحاكمة ما يحدث لهم وتحليله*.

الوحي جاء، خمس آيات فقط لكن التجربة كانت هائلة، صادمة.

موقف السيدة خديجة كان التثبيت وتهدئة روع سيدنا محمد وبث الطمأنينة في داخله.

ومن ثم أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، أي إلى أهل الكتاب، ممن مروا بتجارب مماثلة.

وأكد له ورقة بن نوفل الربط الذي ربطته السيدة خديجة... فأشار إلى موسى عليه السلام، وأشار أيضًا إلى أن موقف الناس مما حدث لن يكون مُرحبًا، وأنه قومه سيخرجونه، ومن الواضح أن معرفة محمد عليه الصلاة والسلام بهم قليلة وإلا ما كانت أخذته خديجة فورًا إلى ورقة.

مع وجود خدم وعبيد في بيوت السيدة خديجة وورقة بن نوفل وأوائل من آمنوا (مثل أبي بكر) فمن المنطقي جدًا أن خبر الوحي لم يكن منحصرًا تمامًا بمن آمن فقط بل ربما كان موجودًا ضمن دائرة ضيقة، خاصة أن الخبر يمتلك من الغرابة ما يجعل من يعرفه يرغب بإخباره إلى آخرين.

إذن، نحن في وضع متأزم جدًا.

الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه مصدومٌ. الأمر يتعلق بموقفه مما حدث.

وهناك موقف أهل مكة المتوقع، الذي قد يتجاوز (عدم التصديق) إلى العداء كما أشار ورقة.

هنا تأتي سورة القلم[2]...

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٣.

* ذكر ابن حجر في فتح الباري أن العلماء اختلفوا في تفسير الخشية التي تحدث عنها عليه الصلاة والسلام على اثني عشر قولًا، أولها حسب ابن حجر: الجنون، ونقل ابن حجر أن أبا بكر بن العربي قد أبطل ذلك ولكن نقل أيضًا أن الإسماعيلي قد فسر ذلك بأن هذه الخشية من الجنون كانت قبل التأكد من أن الذي جاءه ملك وأنه من الله تعالى.

* المصابون بالاضطرابات النفسية ممن يرون أو يسمعون ما يعرف بالهلوسات (مثل الشيزوفرينيا) لا يتمكنون من محاكمة ما يرون أو الشك فيه فهم لا يملكون أدوات عقلية لأجل ذلك، أما حالات صرع الفص الصدغي فهم يستطيعون محاكمة ما يرون وقد يشكون بأنفسهم، لكن أصحاب هذه الحالات غير قادرين على التصرف على نحو يجعلهم قادة أو أشخاص مؤثرين، والناجحون المشاهير منهم يكونون غالبًا في مجالات أدبية أو فنية وليس في مجال القيادة الاجتماعية.

(٢) يختلف البعض في ترتيب النزول هنا ليجعلوا سورة المدثر هي ثاني ما أنزل بدلاً عن القلم ولكن سياق التثبيت الذي في سورة القلم يتناسق أكثر مع ترتيب النزول المعروف والذي يجعل القلم ثاني سورة أنزلت بعد العلق.

القلم

نون، والقلم وما يسطرون[1].

لا شيء يؤكد أن النون هنا هي من قبيل الأحرف المقطعة التي ابتدأت بها سور كثيرة مثل (ألم، ألر، كهيعص... إلخ)... ذلك أن تفسيرات كثيرة لاحقة كانت تشير إلى أنه اسم الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس.

وبغض النظر عن وجود أو عدم وجود أسماء محددة للحيتان، فإن كلمة نون كانت تعني سمكة في الآرامية والسريانية، واللغة العربية لديها مشتركات كثيرة مع هاتين اللغتين، كما أن ابن منظور في لسان العرب يقول بوضوح أن النون هو «سمكة» عند العرب وجمعها نينان، كما يقال أن النون هو اسم لسيف على شكل سمكة.

ويؤكد كل هذا إشارة قرآنية لاحقة ليونس عليه السلام بصفته «ذا النون».[2]

نحن إذن أمام إشارة مباشرة من الوحي، تنبه الرسول الكريم إلى تجربة يونس عليه السلام تحديدًا.

لماذا يونس؟

سنعرف الآن.

لكن سياق النون (حوت يونس) مع القلم، ومع «ما يسطرون» يشير إلى أن مطلع السورة يشد من أزر الرسول الكريم بوضعه في سياق من سبقه من أنبياء أهل «الكتاب».. السورة السابقة / الأولى ابتدأت بـ«اقرأ»... الآن هناك إشارة إلى نبي كتابي، مع إشارة إلى القلم (وهو يسبق عملية تسطير الكتاب بطبيعة الحال)، وهناك إشارة إلى فعل مباشر لاستخدام القلم: يسطرون.

الفكرة: الكتاب يسطر الآن...

ثمة كتاب، مثل كتب أهل الكتاب، يحدث الآن، يُسَطر الآن..

وهذا المخاض الصعب، الحمل الثقيل، هذا الحوت الضخم الذي يُثْقل صدرك يا محمد هو من ضرورات تسطيره.

* * *

---

(١) لا يتعارض أي معنى يرد هنا مع ما هو سائد من تفاسير إلا حين نعتقد أن كل آية في القرآن لها معنى واحد غير قابل للتعداد، القرآن يمكن التعامل معه مثل الضوء في المنشور، ثمة معانٍ متعددة لكنها متدرجة مثل ألوان المنشور، لذا فالقول السائد أن ما يسطرون هو عن الملائكة التي تكتب الأعمال لا يتعارض بالضرورة مع ما يرد هنا، وإن كنت لا أراه مناسبًا جدًا للوضع المبكر في تلك الفترة.

(٢) {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} الأنبياء(٨٧).

لماذا يونس؟ ولماذا حوت يونس؟[١]

أغلب قصص الأنبياء المذكورة في العهد القديم تنتهي بعقوبات لأقوام هؤلاء الأنبياء بعد أن كذبوهم وحاربوهم.

أو على الأقل تنتهي بترك الأنبياء لأقوامهم وخروجهم مع المؤمنين بهم.

يونس (أو يونان كما يرد اسمه في العهد القديم) من الفئة النادرة جدًا من الأنبياء الذين نجحوا في تغيير قومهم على نحو يتفادى العذاب والعقوبة الجماعية.

إذن، أول نبي يُشار إلى سيرته في القرآن، في هذا الوحي النازل على قلب وروح وعقل محمد، هو نبي نجح في تغيير قومه.

لقد قال له ورقة: «سيخرجك قومك»، وكان على حق فيما قال.

ولكن الوحي يقول له: «هناك من نجح».

فيكون أول من ذُكر في القرآن...

* * *

لكن الوحي لا يجعل ذلك سهلًا أبدًا، نثبتك ونهدئ من روعك، لكن لا أوهام.

يونس دخل بطن الحوت، بطن الحوت، تخيل يا محمد! بطن الحوت!

لكن لماذا دخل بطن الحوت؟ لأنه بالضبط مر بما تمر به اليوم من أسئلة وشعر بهول ما تشعر من صعوبات.

وقف أمام مدينته الضخمة القوية، نينوى، وهو يحمل هم دعوته وثقلها، وفكر: الأمر صعب جدًا، لن يتغيروا، لن يصدقوا أن الله قد أوحى لي بشيء، لن يتركوا ما عبد آباؤهم وأجدادهم من أجل وحي جاءني ولم يصدقوه.

وجد يونس أن الأمر أصعب بكثير من طاقته وقدرته، هكذا قدر.

وفر من نينوى، راكبًا البحر.

---

(١) من المؤكد حسب موقف السيدة خديجة أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن لديه معرفة بأنبياء أهل الكتاب، لذا فمجرد ورود اسم يونس أو الإشارة له قد لا تعني الكثير دون وجود ورقة بن نوفل، الذي كان لا يزال حيًا في الفترة المكية المبكرة جدًا، ولا شيء معيب في هذا أو يثير الحرج، فقد تمت استشارته في أول الوحي بوضوح علمًا بأن قصة سيدنا يونس في العهد القديم مقاربة لقصته في القرآن، والإشارة إلى الحوت تتكرر في العهد القديم والجديد أيضًا.

ثم ابتلعه الحوت.

ومن بطن الحوت.. نادى ربه وقد فهم أنه قد كان ظالمًا لنفسه ولقومه لأنه لم يبذل كل جهده في المحاولة.

ومن هناك قرر أن يعود لقومه.

المرور ببطن الحوت جعل يونس أقوى..

وعندما عاد، آمن به قومه.

لكل هذا، كان يونس أول من ذكر من الأنبياء في الوحي المنزل على قلب محمد..

لن يذكر لاحقًا بالكم الذي سيذكر فيه موسى أو نوح أو عيسى... سلام الله عليهم جميعًا..

لكن ذِكْره في البداية هنا، في هذه المرحلة الصعبة الوعرة من بداية الوحي، ترك أثرًا كبيرًا ولا بد على قلبِ محمد، على قلبه وروحه وعقله، على كله عليه الصلاة والسلام.

* * *

«حوت، قلم، وما يسطرون» هكذا تحدثت مع السورة الثانية إذن.

الحوت هنا إذن هو رمز لهذا المخاض الصعب المر الذي لازم كل الأنبياء، وكان لكلٍ حُوتُه بطريقة ما، لكن حوت يونس خلاصة مكثفة لكل ما يمكن أن يمر به إنسان من أزمات في داخلهِ وخارجه في آن واحد.

القلم: أداة الكتابة، وكل كتاب لا بد له من قلم.. والإشارة للقلم هنا يعني أن ثمة كتابًا جديدًا لم يُسَطَّر بعد...

كتابٌ ستحمله أنت يا محمد... مرورًا ببطن الحوت..

وما يسطرون.. متى يحدث هذا؟

يحدث الآن، هذا هو يا محمد، جاري تسطير الكتاب، هذه المرة لن يكون على لوح حجري، أو لفائف ورقيةٍ. أنت لا تقرأ يا محمد، وهذا سيجعل الكتاب صيغة أوسع من القراءة المباشرة، سيكون محفوظًا في قلبك وعقلك وروحك، وعقول وقلوب من يؤمن بك، الكتاب هذه المرة بصيغة مختلفة.

جاري تسطير الكتاب يا محمد، الآن.

* * *

لا نعرف كم نزل بالضبط من سورة القلم مع مطلعها، بعض الآيات سياقها لا ينسجم مع أنها ثاني ما أنزل من القرآن الكريم، خاصة الآيات التي فسرت لاحقًا على أنها تتحدث عن الوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شريق وهي الآيات ١٠ - ١٦ ﴿ولَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦)﴾ القلم (١٠:١٦)

فهذه الآيات تشير إلى تصاعد حدة الموقف والمواجهة بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين مشركي مكة، وهو أمر كان لا يزال مستبعدًا في هذه الفترة المبكرة (نحن في الأغلب في الأيام أو الأسابيع الأولى للوحي، وخبر الوحي لم ينتشر على نطاق واسع، قد نتوقع بعض السخرية أو عدم التصديق أو تهمة الجنون ممن لم يؤمنوا، لكن هذا العداء لم يحدث إلا لاحقًا عندما بدأت دعوة الرسول تشق المجتمع القريشي).

لكن مطلع السورة وآياتها الأربع الأولى ينسجم تمامًا مع ما يمكن أن يكون يحدث في نفسه عليه الصلاة والسلام...

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ الْقَلَمَ (٢:٤)

كان عليه الصلاة والسلام قد قال لخديجة رضي الله عنها أنه خشي على نفسه، فيما يفهم أنه خوف من أن يكون قد مسه عرض من جنون.

أي شخص «عاقل» يمر بما مر به الرسول من تجربة وحي، كان سيفكر بالشيء ذاته... هل أصابه سوء؟

هذا هو رد الفعل «الطبيعي» لشيء خارق لا يحدث إلا نادرًا جدًا في تاريخ البشرية.

أي رد فعل آخر، يتصرف مع شيء مشابه كما لو كان أمرًا طبيعيًا، سيكون رد فعل غير طبيعي، مفتعل، ويستحق التفحص.

الرسول خشي على نفسه وأسر بذلك لخديجة ونقل الأمر لاحقًا للسيدة عائشة رضي الله عنهما.

الوحي الذي نزل عليه بعد هذا كان يقول له، لست بمجنون، لا يساورك لحظة أن ما مر بك كان وهمًا، كل ما مررت به كان حقيقة، وكل ما تشعر به وتخشاه في أعماقك وتسر به بهمس لزوجتك يعرفه منزل الوحي.

الوحي، يمسك بتلابيب قلب محمد، كما لو كان ينظر له عينًا بعين، ويقول له: لست بمجنون.

ليس هذا فقط... الوحي لا يزيل الخشية من هذا فقط، بل يقول له أن ثمة «أجرًا كبيرًا» لاحقًا لهذا الحمل الثقيل، الحمل الثقيل أصلا نعمة، رغم ما يبدو من صعوبته، فإنه نعمة كبيرة، وسيتبعها أجرٌ كبيرٌ، غير ممنون... مكانة كبيرة...

الوحي إذن يعمل معه عليه الصلاة والسلام كما يلي:

أولًا: يزيل شعوره السلبي -أو بقاياه- بأن ما مر به ربما كان عارضًا من أعراض الجنون.

ثانيًا: يثبت شعورًا إيجابيًا بديلًا: الأمر نعمة، ثمة أجر غير ممنون.

ثالثًا: يذكره عليه الصلاة والسلام بقيمته هو، حتى بمعزل عن الوحي، يذكره أن تقييمه لذاته يجب أن يبقى مرتفعًا جدًا لأنه ببساطة على «خلق عظيم».

كما لو أن الوحي هنا يذكره عليه الصلاة والسلام أن اختياره لهذه المهمة، لهذا الحمل، لهذه النعمة، لم يكن عشوائيًا، بل كان على أساس هذه الأخلاق العظيمة التي بذل محمد عليه الصلاة والسلام جهدًا كبيرًا من التنقية للوصول لها.

نفس ما فعلته سيدة الحكمة، السيدة خديجة، في تلك الليلة.. يوم قالت له بشدة نافية شبهة الجنون: «**كَلَّا... فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ..**» إلى آخر ما قالت.

لكن هذه المرة الوحي هو الذي يقول له..

عينًا بعين... في داخل قلبه.

* * *

لا أرى الآيات اللاحقة تنسجم كثيرًا مع الجو المبكر جدًا بحيث تكون أنها نزلت كلها في تلك الفترة، هناك إشارة إلى فئة محددة تتربص بالرسول الكريم: ﴿**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧)**﴾

ولا أرى هذه المرحلة المبكرة ساحة فيها هذا الصراع على نحو واضح كما يمكن أن يكون لاحقًا...

لكن الآيات بين ٤٨ - ٥٠ منسجمةٌ تمامًا مع الجو المبكر لثاني ما أُنزل من القرآن الكريم..

﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)**﴾*

* هناك من يقول أن هذه الآيات مدنية، لكن هذا طريق ضعيف لأن عطاء الخراساني لم يلتق ابن عباس.

... الوحي هنا، يربط وضع الرسول الكريم عليه الصلاة بوضع يونس عليه السلام تحديدًا لأسباب مر ذكرها، وهو يقول له: «لقد فكر يونس أن الأمر أكبر من قدرته، كما يمكن لك أن تفكر بالضبط... لكن الفرار من المسؤولية لم يكن خيارًا صائبًا من يونس في تلك المرحلة... ولذلك لا تفكر أصلًا في جعله خيارًا من خياراتك... »

قال الوحي: «لا تكن كصاحب الحوت.. »

وهذا يعني، أنه كان يمكن أن يكون... لكن الوحي «عَصَمَهُ» من احتمالية بطن الحوت...

انتشله من مجرد التفكير بالفرار من المسؤولية...

* * *

المزمل

سورة المزمل تلتقي بالرسول عليه الصلاة والسلام وهو في وضع نفسي مختلف.

بعبارة أخرى: أخرجته «القلم» من مخاوفه، من حوت كامن كان يتربص به.. وثبتته.

لذا نرى في «المزمل» لغة مختلفة في مخاطبته عليه الصلاة والسلام.

فلنتأمل أولًا فيما تعنيه لفظة «المزمل» التي خوطب الرسول عليه الصلاة والسلام بها في هذه السورة..



الفعل «زمل» في لسان العرب يعني عَدَا وأَسْرَعَ مُعْتَمِدًا في أَحد شِقَّيْه رَافِعًا جَنْبَهُ الْآخَرَ، وكأَنه يَعْتَمِدُ عَلَى رِجْل وَاحِدَةٍ، والأَزْمَل: كُلُّ صَوْتٍ مُخْتَلِطٍ والزِّمْل عِنْدَ الْعَرَبِ: الحِمْل، يُقَالُ: تَزَمَّل فُلَانٌ إِذا تَلَفَّف بِثِيَابِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ لُفِّف فَقَدْ زُمِّلَ.

ويقول ابن فارس في مقاييس اللغة: الجذر زمل يَدُلُّ عَلَى حَمْلِ ثِقْلٍ مِنَ الْأَثْقَالِ.

إذن نحن أمام معنيين أساسيين: سرعة وعدو بالاعتماد على شق واحد، وحمل ثقيل.

الرابط بينهما؟ الحمل الثقيل أثناء السرعة والعدو، يقود إلى أن يكون هذا العدو يعتمد على شق دون الآخر.

ماذا عن التلفف بالثياب؟ هو معنى موجود حتمًا ومرتبط بالحمل، فالتلفف بكثير من الثياب، يكاد يكون حملًا أيضًا.

مخاطبة الوحي للرسول عليه الصلاة والسلام بالمزمل هنا ترتبط بما حدث ليلة الوحي حتمًا، عندما عاد من الغار وهو يلهث طالبًا: «زملوني، زملوني... فزملوه حتى ذهب عنه الروع[1]».

زملوه، كان يرتجف فرقًا صلى الله عليه وسلم، حتى هدأ وذهب عنه الروع، روع ما حدث من اللقاء الأول بالوحي.

ذهب الروع. ولكن بقي الحِمل.. الحمل الذي احتمله مع مجيء الوحي.

لذلك، نحن الآن على مسافة سورة مما حدث ليلتها (سورة القلم، التي نزلت بعد العلق وقبل المزمل) ولكن الوصف لا يزال قائمًا: «المزمل».

لكن المعنى لم يعد يقتصر على ما وُضع ليلتها عليه من ثياب وأغطية.

بل صار يعني هذا الحمل الثقيل؛ مسؤولية الوحي.

الآن، بعد أن تنزلت عليه سورة القلم، أو أجزاء منها على الأقل، صار عليه الصلاة والسلام أكثر وعيًا بحجم الحمل الذي احتمله... ببطن الحوت الذي يتربص به.. بصعوبة التغيير.. بوعورة الدرب الذي سار عليه أنبياء قبله..

حمل ثقيل بلا شك، من الصعب المجادلة في ذلك، الكلمة هنا مجازية طبعًا، الحمل هنا حمل مسؤولية ووعي، ولكن فكرة أنه حملٌ كبيرٌ لدرجة أنه لا يستطيع السير منتصبًا مستقيمًا واضحة جدًا ومتناسقة مع حجم المسؤولية التي تحملها عليه الصلاة والسلام.

حملٌ كبير لدرجة أنه لم يكن يستطيع تصور أنه سيحمله منتصبًا.

حتى معنى السرعة والعدو الذي في الفعل «زمل» ليس بعيدًا عن هذا... عندما تحمل شيئًا ثقيلًا جدًا فإنك لا شعوريًا تسرع لكي تصل إلى المكان الذي يجب أن توصل له الحمل بأسرع وقت ممكن.

ليس هذا فقط...

ربما كان هذا الحمل الثقيل، الذي وعاه عليه الصلاة والسلام، يدفعه إلى النوم، كما يحدث طبيعيًا مع كل من يتعرض لأزمة أو قلق، يكون النوم ملجأً لا يفكر فيه مباشرة بالحمل الذي عليه أن يحمله..

كل هذا في... «المزمل».

الوصف الذي اختاره الوحي، ليخاطب به الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة.

* * *

(١) صحيح البخاري ٣، ٤٩٥٣.

والوحي يعطيه الحل لكل هذا.

للحمل الثقيل الذي يبدو أنه أثقل مما يطاق...

الحل؟

قم الليل..

أنت تنام من التعب ومن شدة الحمل وثقله ومن قلق المحافظة عليه؟

قُمِ اللَّيْلَ

كله؟

إِلَّا قَلِيلًا

هل هذا كثير؟

نِصْفَهُ

لا يزال كثيرًا؟

أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا

أقل من النصف.. الأمر يبدو أيسر الآن.

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ

يبقى الأمر مفتوحًا بين زيادة ونقصان..

لم كل هذا التفاوت... الكل إلا قليلًا، النصف أو أقل أو أكثر...

كلها احتمالات تفتح المجال أمامه عليه الصلاة والسلام، الليل كله ميدان للقيام، يمكنه أن يختبر الأمر، دون تحديد أو حصر...

لكن ماذا يعني أن يقوم الليل؟

مبدئيًا نعرف أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحنث ويتعبد في غار حراء قبل نزول الوحي، لا نعرف شكل تعبده ولا صورته، ربما بحديث مباشر مع خالق الكون أو تسبيح له أو دعاء أو صلاة بطريقة ما.. لذا لا يمكن أن نفترض أن قيام الليل سيختلف في «شكله» عن «تعبده» عليه الصلاة والسلام قبل الوحي وإن كان من الطبيعي أن يكون هذه المرة بمعانٍ مختلفة تمامًا وشحن روحي ومعنوي أكبر بكثير..

لكن المهم هنا أن قيام الليل في هذا السياق، كان يختلف عن التحنث السابق في أن الأخير كان يشكل انقطاعًا تامًا للرسول عن مدينته، كان عزلة تامة عن مكة كما مر، بينما هو هنا تخصيص وقت الليل للتعبد دون أن يبتعد عمليًا عن مجتمعه..

كما لو أن الوحي هنا يشير له أن هذا الذي يتنزل عليه لن يقدم شيئًا يشبه انقطاع الرهبان في صوامعهم، مما كان محمد عليه الصلاة والسلام قد سمع عنه أو رآه بالتأكيد، بل سيكون قيامُ الليل مدرسةً مختلفة التوجه، لا رهبانية فيها ولا عزلة عن العالم، لأنها تؤكد، في نفس السياق الذي تذكر فيه قيام الليل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ المزمل(٧)

الأمر الآخر المهم هنا، أن المزّمل، المتعب بأحماله وأثقاله، يوجه إلى أن يجد الراحة والقوة (ليس في الخلود إلى الاسترخاء والنوم ومن ثم مواصلة الحمل) بل يوجه إلى «قيام الليل»... عكس المتوقع في هذه الحالة.. كما لو أن الوحي يرشده إلى أن يجد القوة من داخله عبر قيامه لله... عبر تواصله معه... كما لو أن الوحي يرشده إلى المصدر الحقيقي للقوة التي ستعينه على أحماله...

وسيكون هناك، في هذا القيام ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا..﴾ المزمل(٤)

هذه أول مرة يرد فيها ذكر القرآن في الوحي... هذه أول مرة يعرف الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أن هذا الوحي اسمه هكذا، القرآن...

لا بد أن الأمر ارتبط فورًا في ذهنه عليه الصلاة والسلام بأول كلمة جاءت من الوحي: اقرأ... وقتها بدأ الأمر أول مرة... الآن يدرك أكثر أن اقرأ تلك مرتبطة بكل الوحي اللاحق... سيصبح اسمه قرآنًا...

فلننتبه أيضًا أن الوحي سماه قرآنًا، وكان مطلع سورتين فقط وهذه الثالثة، لكنه «القرآن»... كما لو أن أي جزء منه هو كله دون تبعيض..

والعلاقة بالقرآن لم تعد قراءةً هنا، بل صارت ترتيلًا، والترتيل هو حسن التنظيم والتناسق، فيقال للثغر منتظم الأسنان رتل.. كما يقال للنبات المستوي: الرتِل.

والترتيل مع القرآن هو التَّرَسُّلُ فِيهَ وَالتَّبْيِينُ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ، حيث كل كلمة تلفظ بوضوح واستقامة وتمهل.

هل الترتيل هنا جزء من عملية تهدئة السرعة المرتبطة بالكلمة التي خوطب بها الرسول عليه الصلاة والسلام: المزمل؟

هل كان عليه الصلاة والسلام يتعجل في قراءة القرآن خوفًا من أن تتفلت منه ولو آية واحدة، كما بَيَّن القرآن فعلًا لاحقًا في سورة لاحقة، مكية أيضًا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ القيامة (١٦) وكان الترتيل إيقافًا لهذا التعجل وحرصًا على الوضوح والبيان؟

هل كان الأمر بترتيل القرآن فصلًا له عن أسلوب العرب في قراءة الشعر أو رجز الكهان، بحيث يكون للقرآن شخصية مستقلة حتى في طريقة قراءته؟

هل كان الأمر بالترتيل (بالهدوء والتروي في القراءة) مرتبطًا بالتشجيع على التأمل والتدبر في كل آية، في كل كلمة؟

غالبًا الأمر مزيج من كل هذا...

لكن الوحي رغم تهدئته للرسول الكريم لا يخفف من ثقل المهمة وصعوبتها، على العكس، الوحي يقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾المزمل (٥، ٦)

القول ثقيل إذن، لكن قيام الليل سيساعدك على تحمله أكثر...

ما هو القول الثقيل؟

هل يمكن تجاوز أن الآيات التالية قد تضمنت -لأول مرة في السور الثلاثة الأولى- إشارة إلى ما سيكون الفاصل في دخول الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله...

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ المزمل (٩)

هذه أول مرة ضمن ترتيب هذه السور، يأتي وصف الله على هذا النحو: قبلها كان يأتي الأمر في سياق «ربك»*... كان السياق شخصيًا حميمًا... الآن هناك انتقال من «ربك» في آية: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ المزمل (٨) إلى أنه «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» في الآية التالية فورًا...

هذا الرب ليس ربًا شخصيًا فحسب، ليس إله القبيلة أو العشيرة، ليس إله المؤمنين به فحسب، بل هو رب المشرق والمغرب... العالم بأسره، لا ريب أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان يعي عظمة الإله وتعاليه عن أن يكون محليًا أو خاصًا بقبيلة أو عشيرة، كما كانت أصنام العرب أو حتى مفهوم الإله عند اليهود... لكن أن يكون تحديد ذلك في الوحي بهذه الصيغة «رب المشرق والمغرب» وأن يكون ذلك مرتبطا بصيغة «ربك»...

أن يكون ربك هو رب المشرق والمغرب، العالم كله، هذا يجعل هذا الرب أقرب لك، رغم تعاليه، رغم أنه رب المشرق والمغرب وكل الجهات، فإنه أيضًا «ربك» -على نحو شخصي وحميم وهامس- وهذا يجعل إيمانك به قضية شخصية وحميمة وقريبة من نفسك بالإضافة إلى كونها قضية «وجود»...

هذا كله تمهيد لما سيكون لاحقًا مفتاح الإسلام: لا إله إلا هو...

---

* مرتان في أول ما أنزل من سورة العلق وثلاث مرات فيما أنزل من سورة القلم.

بأغلب ما وصل من نصوص توحيدية من أهل الكتاب، كانت صيغة التوحيد تعتمد على عبادة إله واحد، أكثر مما كانت تركز على نفي أي إله غير الله (كما في الوصية الأولى من الوصايا العشرة كما في العهد القديم: لا يكون لك آلهة أخرى أمامي)، لا يعني هذا بالتأكيد أن التوحيد في الأديان السماوية كان متقبلًا لفكرة وجود آلهة أخرى، بل إن الصياغة التي عبر عنها التوحيد لم تكن دومًا على نحو جذري وقاطع، ربما لظروف مرت بها هذه الأديان في مراحل نشأتها الأولى..

الأمر هنا مع الوحي الأخير مختلف، الطريقة التي يعبر عنها التوحيد قاطعة وحاسمة وجذرية... التوحيد هنا يعبر عن نفسه بنفي كل إله آخر...

الإثبات هنا يمر حتمًا بنفي وجود أي إله آخر...

وهذا ربما يمثل واحدة من أهم الاختلافات عن «الحنفاء» الذين كانوا يتعبدون لله الواحد، ولكنهم كانوا -فيما وصلنا على الأقل- يتجنبون المواجهة مع أوثان العرب وأصنامهم.

بعبارة أخرى: صيغة التوحيد هذه، الإثبات مرورًا بالنفي، تعني حتمية **المواجهة**.

«قولًا ثقيلًا» فعلًا.

* * *

الآيات أيضًا قالت للرسول الكريم أن يتبتل لله... ينقطع له.. الانقطاع قد يعطي معنى يشبه عزلة الزهاد والرهبان.. لكن معنى كلمة بتل رغم أنه يعطي الانقطاع، فإنه أيضًا يمنح معنى آخر يرتبط بالفسيلة، فالبتيلة هي **الفَسِيلة المُنْقَطِعةُ عَنْ أُمها المستغنيةُ عَنْهَا**.

بالتأكيد من يعرف «البتيلة» ويقرأ القرآن ترتيلًا، بهدوء، حرفًا حرفًا، سيستحضر هذا المعنى، الانقطاع هنا ليس عن النساء أو عن الدنيا، بل هو انقطاع الفسيلة عن النخلة، لكي تكون نخلة أخرى..

الآيات قالت للرسول الكريم أيضًا أن يتخذ من ربه، رب المشرق والمغرب، الذي لا إله إلا هو، يتخذه وكيلًا...

وكيلًا في ماذا بالضبط؟

فيما سيحدث لاحقًا.. في المواجهة الحتمية.

ثم أشارت له بالصبر، الصبر على ما يقولون، ومن ثم بالهجر الجميل...

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ المزمل (١٠)

هل كانوا بدؤوا يقولون فعلًا في هذه المرحلة؟ أم أن الوحي كان يمهد للرسول عليه الصلاة والسلام ما سيحدث؟

الأمران واردان...

* * *

سورة القلم أكدت له أنه بخير، ذكرته بقيمته وأخلاقه، وربطته بسابقيه من الأنبياء وبمنظومة الكتاب.

سورة المزمل أكدت له أن حمله ثقيلٌ فعلًا، وأشارت له بما يجب فعله ليزيد من قوة تحمله.

ثم قالت له أن أمامه ما هو أثقل، ومهدت له أن التوحيد الذي سيحمله سيكون جذريًا وقاطعًا، وبالتالي سيؤدي إلى مواجهات.

هَيَّأته المزمل لكل هذا.

ذلك أن «المدثر»، ستقابله لتأخذه إلى مرحلة أخرى تمامًا.

* * *

المدثر...

ينتشر قول البعض أن التزمل والتدثر لهما نفس المعنى.

وهذا قد يمنحنا انطباعًا عن أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان لا يزال متلحفًا بثيابه طيلة هذه الفترة، منذ نزول الوحي أول مرة.. إلى أن نزل مطلع السورة الرابعة.

لكن المعنى لا يمكن أن يكون متطابقًا تمامًا، لا معنى أن يستخدم عز وجل كلمتين لنفس المعنى تمامًا،

فلنتذكر أن «المزمل» ارتبط بالحمل، والسرعة.

وأن معنى «التلفف» موجود لكنه أقرب في هذه الحالة بالتلفف بالكثير من الأغطية والثياب لدرجة أن تبدو هذه كالأحمال الثقيلة.

التدثر لا يعطي هذا المعنى، فالدثار هو كل ما كان فوق الثياب من الشِّعار، والشعار هي الثياب التي تلي الجسم، أي تحيط مباشرة بجسم الإنسان، أو بشعر جسمه، ومن هذا جاء اسم «الشعار»، بينما الدثار هي الثياب التي تغطي هذه الثياب الأقرب للجسم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ**[1]

أي أن الأنصار أقرب للرسول عليه الصلاة والسلام من سواهم من الناس، مثل قرب الملابس الملتصقة بشعر الجسم مقارنة بالثياب الخارجية.

الفرق إذن بين التدثر والتزمل أن التدثر هو التغطي بالملابس الخارجية، المعدة لذلك أصلًا.

---

(١) صحيح البخاري ٤٣٣٠.

أما التزمل فهو التلفف بأي شيء يمكن أن يستخدم في التغطية، سواء كان قد صنع لذلك أصلًا أو لا.

أي أن الفرق على الأقل هو في «كمية» ما يتغطى به.. حيث تكون أكثر في التزمل لدرجة أنها تكون كالحمل.

بينما في التدثر التغطي يكون بما أعد أصلًا ليكون كذلك، بالدثار، أي بما هو طبيعي ومنطقي في البرد أو الريح أو أي ظرف يحتم التدثر.

فلننتبه هنا إلى أن جذر الفعل دثر يعني قَدُمَ ودَرَسَ، ومنه الاندثار.

كيف نربط بين هذا المعنى، وما يستخدم من الدثار للتغطية؟

الربط واضح، فالمتدثر يختفي في دثاره، يختفي مثل أن يدرس، أن لا يظهر منه شيء.

بعبارة أخرى، الفرق بين المزمل والمدثر هنا أصبح كبيرًا.

المزمل يحمل ثقلًا كبيرًا ينوء به ظهره.

المدثر يختفي في دثاره، ربما كان الاختفاء هنا محض نتيجة للتدثر.

وربما كان مقصودًا.

بكل الأحوال، ها هو الوحي يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام: يا أيها المدثر.

* * *

كان أمام المزمل أن يقوم الليل ليتقوى على حمله.

أما المدثر فعليه أن يقوم، لينذر.

في الحالتين هناك الفعل المباشر: قُم.

لكن قيام الليل كان مختلفًا حتمًا عن القيام للإنذار.

وبينما ساهم قيام الليل في خروجه عليه الصلاة والسلام من مرحلة «المزمل»...

فإن علينا أن نفهم كيف أن القيام للإنذار سيساهم في خروجه من مرحلة «المدثر»..

لماذا يمكن أن يكون هذا التدثر مضادًا لعملية القيام للإنذار؟

أي دثار هو المقصود يا ترى؟

* * *

عندما عرفنا شخصية الرسول الكريم قبل نزول الوحي، لاحظنا كيف أن نشأته كيتيم، وكطفل وحيد تنقل بين أكثر من كفيل قد ساهم في جعله أكثر ميلا للهدوء والعزلة وتفضيل عالمه الداخلي. وكيف استمر ذلك في صباه وشبابه.

لم يكن مضادًا للمجتمع، لم يكن معزولًا عنه بالضبط، لكن عالمه الأقرب إلى قلبه والمفضل إليه كان عالمه الداخلي. حافظ على صلاته بالمجتمع من خلال تعامله الأخلاقي رفيع المستوى، وكسب بذلك احترام الجميع، لكن عالم محمد قبل الوحي كان عالمًا داخليًا بامتياز، وقد ساعده ذلك بلا حدود في التأمل في أحوال الكون والخليقة وقربه بلا شك من التعبد لإله هذا العالم دون وسيط أو معلم أو رسالة.

وقد ساعده عالمه الداخلي على ذلك، عزلته في غار حراء قربته من الله وإن حافظت على مسافة -كانت ضرورية وقتها- من العالم والناس.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام متدثرًا بعالمه الداخلي، مختفيًا فيه، عن العالم الخارجي.

وكان هذا مفيدًا جدًا في مرحلة ما قبل الوحي، المرحلة التي ساهمت في جعله عليه الصلاة والسلام مهيئًا لنزول الوحي.

لكن مرحلة النبي بعد الوحي، لا تشبه مرحلة العابد المتعبد قبل النبوة.

العابد لا يضره أن يعيش مختبئًا محتميًا خلف دثار عالمه الداخلي، ما دام محافظًا على ضروريات التواصل الأساسية مع من حوله من أهله ومجتمعه.

لكن النبي لا يمكنه أن يبقى خلف هذا الدثار، مهمة النبي -بالتعريف- هي أن ينبئ قومه بما عرف، أن ينبئهم مرة تلو أخرى، ويتطلب ذلك أن يختلط بهم أكثر وأن يكون معهم أكثر.

مهمة النبي تتطلب أن يخرج من دثاره الأثير لقلبه، حيث تعبداته وتأملاته ومناجاته لربه، أن يكسر هذه العزلة النسبية الانتقائية، ويخرج للناس.

لديه قيام الليل بديلًا لمساحة التعبد والمناجاة التي فقدها.

لكن عليه أن يخرج من الدثار النفسي الذي كان يزدهر فيه.

* * *

هكذا يمكن أن نفهم مخاطبة الوحي للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بـ«المدثر» في تلك المرحلة المبكرة...

لقد آن أوان أن يبدأ بالعمل.. وأول متطلبات العمل هو أن يكسر هذا الدثار الداخلي.. أن يخرج من هذه المساحة الذاتية التي كان عليه الصلاة والسلام يجد نفسه فيها، لن أسميها منطقة راحة

بالضبط، لكنها كانت حتمًا منطقة ازدهار نفسي، منطقةٌ يجد فيها الرسول الكريم طاقته وتواصله مع الله عز وجل.

السورة التي سبقت المدثر، أعطته عليه الصلاة والسلام البديل، قيام الليل، ستترك دثارك الذاتي، لكن سيكون لديك هذا البديل الليلي الذي يتيح لك التواصل بينما الناس نيام، لكن لا عزلة بعد الآن، لا غار، لا خروج من مكة بالأيام والليالي للتعبد كما فيما مضى، بل لا عزلة حتى في المنزل، بل خروج من كل هذا إلى الناس... ليس سهلًا أن تترك ما كان في شخصيتك منذ أن نشأت، ليس سهلًا أن تترك ما بنى فيك شخصيتك وكان ذخرًا دوما لطاقتك وتأملاتك..

لكن من قال أن مهمة النبي سهلة؟

الخروج من هذا الدثار الذاتي لم يكن سهلًا بالتأكيد، لقد كان حملًا إضافيًا من أحمال الدعوة التي كانت تثقل ظهره... لكن لم يكن هناك مفر من فعل ذلك.

التوصيف الوظيفي للنبي كان يتطلب أن يُغير من شخصيته، نعرف يقينًا أن الأمر ليس سهلًا أبدًا على البشر العاديين.

ونعرف أن عظمة الأنبياء ليست في سهولة الأمر عليهم، بل في إخلاصهم في التغيير، في بذلهم كل ما في وسعهم للوصول إلى التغيير، في إيمانهم أنه لا معنى في محاولتهم تغيير الناس إن لم ينجحوا أولًا في تغيير أنفسهم.

وهكذا كان...

لا نعرف ماذا حدث تحديدًا داخل النفس المحمدية في تلك اللحظات، تلك المرحلة..

لكنها كانت حتمًا ولادةً جديدة، مخاضٌ داخلي عميق..

كان الوحي، القرآن، يتنزل على محمد، ليعيد صناعته من جديد...

* * *

ما كان يمكن لـ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر (٢) أن تتنزل إلا بعد الخروج من «المدثر»..

الآن أصبح لـ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ المدثر(٣) معنى مختلفٌ..

ربك هو ربهم جميعًا، سواءً قبلوا بذلك أو رفضوه، سواءً آمنوا أو كفروا، سواءً صدقوا بما تقول أو كذبوك.. هو رب الجميع .. ولأنه كذلك، فعليك أن تخرج به من الدائرة الشخصية الذاتية الحميمة حولك، عليك أن «تكبر» تلك الدائرة، تخرج به للناس... تشهر تكبيره ليكون لناس أكثر وأعم...

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ المدثر(٤)

يختلف المفسرون في معنى الثياب هنا، والكثير منهم يميلون إلى أن يكون معنى الثياب هو العمل، ولا أرى أي مشكلة في أن يكون مقصد الآية مباشرًا وواضحًا: الثياب نفسها. سيكون الاعتراض هنا: وهل كانت ثيابه عليه الصلاة والسلام غير طاهرة قبلها؟

الاعتراض صحيح، ولكن هل كانت أعماله غير طاهرة قبلها، حاشاه عليه الصلاة والسلام؟

لا، حتمًا كانت طاهرة.

الفكرة هنا أن الوحي كان يثبته عليه الصلاة والسلام على توازن سيكون ملازمًا له طيلة حياته الشريفة عليه الصلاة والسلام.

يحدث كثيرًا أن ينشغل أصحاب القضايا الكبيرة بقضاياهم إلى درجة نسيان مظهرهم، بالنسبة لهم العالم يتمحور حول قضاياهم، وهم يفترضون أن على الناس الاهتمام لما يقولون وليس لتفاصيل صغيرة غير مهمة (برأيهم) مثل المظهر، -وأحيانًا يكون هذا الأمر مفتعلًا تمامًا- وعندما يحدث أن يؤثر هذا على تقبل الناس لما يقولون، فإنهم ينقلبون على الناس وتفاهتهم وسطحيتهم وهذا بدوره يقود للمزيد من النفور.

يحدث هذا كثيرًا، ولعله كان جزءًا من مظهر الزهاد والرهبان في الجزيرة في تلك الفترة، لا نعرف الكثير عن هذا ولكنه محتمل جدًا. من المؤكد أنه لم يكن جزءًا من مظهره عليه الصلاة والسلام لاعتبارات اجتماعية مفهومة تمامًا، لكن الوحي يثبت هذا خارج سياق الاعتبار الاجتماعي، الوحي يثبت الأمر لأنه جزء أساسي من الخروج من الدثار، من التأثير في الناس، من عملية توصيل الإنذار.. أن يكون مظهرك الخارجي انعكاسًا ليس لما تحمله فقط، بل أن يكون انعكاسًا لحرصك على إيصال ما تحمله للناس، على أن تصلهم رسالةٌ أن ما تحمله من قضية لن يجعلهم «غريبي الأطوار» ولن يطردهم من المجتمع لو آمنوا به..

كان الأمر مهمًا جدًا، هذا التوازن والظهور بمظهر مقبول اجتماعيًا كان أمرًا أساسيًا في الدعوة الجديدة...

لا تغرق بقضيتك لدرجة أن تبدو قضيتك غير صالحة للعيش في المجتمع.



﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المدثر(٥)

يسود عند المفسرين القول أن الرجز هو الأوثان. وهو أمر غريب، إذ لا يتَّسق المعنى هنا، فالرسول لم يكن يعبد الأوثان أصلًا وفي أي وقت، فكيف الآن وبعد الوحي؟ فضلًا أن ورود الأمر بعد «وثيابك فطهر» غريب أيضًا، هل يعقل أن يتأخر أمر هجر الأوثان إلى ما بعد تطهير الثياب؟

الرجز في لسان العرب هو الاضطراب والارتعاد، ومنه داء يصيب الإبل فيجعل أفخاذها ترتعش.

ومنه بطبيعة الحال: الوساوس والهواجس الناشئة من هذا الاضطراب، أو المسببة له.

الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة المبكرة كان معرضًا للقلق والوساوس، البعض يستنكر ذلك وكأنه أمر معيب محتجًا بعصمة الأنبياء... لكن هل الأوثان أفضل مثلا من الوساوس والقلق؟

وما هي عصمة الأنبياء؟ أليست بأمر إلهي؟ ألا تحدث نتيجة لأمر يأمرهم به الله فيلتزمون به وينأون عن الوقوع فيه..

لكن فلنوضح أن الوساوس أو القلق هنا لا يمكن أن تخص الله أو الوحي أو أن يكون ما يحدث له ضرب من الجنون، تجاوزنا هذه المرحلة وبحسم.

في الغالب القلق هنا يتعلق بنجاح مهمة الإنذار والتبليغ...

هل سيؤمنون؟ هل سيصدقون؟ هل سيسخرون؟

الوحي يقول للرسول عليه الصلاة والسلام أن يهجر كل ذلك.

هذا الاضطراب سيؤثر على عملية التبليغ نفسها. اهجره...

منطقي جدًا...

* * *

فلنتذكر هنا أن «قم فأنذر» لم يكن معناها أن يسير عليه الصلاة والسلام في الشوارع وهو ينذر أهل مكة بالويل القادم إن لم يؤمنوا به. قطعًا لا، ولو حدث هذا لبدا الأمر غريبًا جدًا وغير مقبول. كان الأمر سيشبه أفعال الكهنة والمجاذيب والعرافين، سيحدث شيء علني وعام لاحقًا، كما سنرى، ولكن على نحو أكثر انسجامًا بعد أن يكون هناك تدرج في الأمر، وبعد أن يكون أهل مكة قد عرفوا بالأمر.

كان الأمر الآن هو توسيع دائرة المتحدث معهم عن الأمر، الدائرة التي تحدث فيها عليه الصلاة والسلام في البداية كانت تضم المقربين من أصدقاء وأقارب، وهو أمر طبيعي بالنسبة للكل، وحتمي بالنسبة لمن تعود العيش في عالم داخلي.

الآن، كان عليه أن ينتقي دائرة أوسع من المعارف لكي يحمل لهم الأمر...

هذه أول خطوة، أول تحدٍ، في الخروج من الدثار...

* * *

بعد هذه المراحل الثلاثة التي مر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام في السور المتتالية، القلم والمزمل والمدثر، صار الأمر مهيئًا تمامًا للسورة اللاحقة..

السورة التي ستحتل مكانة المقدمة في كل الوحي.

السورة التي لا صلاة من دونها.

الفاتحة...

كان قد أُخبر بأن يقوم لينذر...

لكن السورة التالية لم تأتِ بوعيد... بل جاءت برسالة «الحمد»... رسالة فيها الثناء على الله...

اليوم صار ربك «رب العالمين»، رب الجميع ...

اليوم، تتغير طريقة الرؤية للعالم... بحيث يبدو فيها العالم كأنه تغير...

اليوم تفتح العيون على عالم مختلف...

ربما لهذا، اسمها فاتحة...

حديث المدينة

يتم تقسيم مرحلة الدعوة في مكة إلى قسمين (سري وجهري) على نحو شديد التحديد كما لو أنها كانت فصلين دراسيين متعاقبين بجدول محدد...

الحقيقة أن ما يبدو من روايات الفترة المكية شيءٌ بعيدٌ عن هذا، لم يُنهِ المسلمون الأوائل فترة المرحلة السرية عبر إكمال الحصول على متطلباتها ومن ثم عبروا بنجاح إلَى المرحلة الجهرية مثلًا، كما أن الدعوة إلى الإسلام لم تكن حركة حزبية تسيرها قرارات حزبية صارمة (كما يحلو للبعض تصويرها والترويج لها).

في الحقيقة كان الأمر -تقريبًا ومنذ البداية- بين هذا وذاك.. حدود السرية والجهرية لم تكن واضحة كالحدود بين البلدان أو بوجود تقويم ينتهي هنا ويبتدئ هناك..

منذ البداية، كان الأمر على ما يظهر مرتبطًا بالشخص وبقدرته على مواجهة المجتمع من حوله؛ لذا نجد قصص إظهار مبكرة جدًا، وحالات «استخفاء» أو إسلام بالسر متأخرة جدًا.. أي حالات حافظ فيها من أسلم على إسلامه سرًا ودون علم المقربين منه..

بالتأكيد هناك مرحلة فاصلة تخص النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنها لم تخص كل المسلمين، وذلك عندما نزل الأمر الإلهي بـ «وأنذر عشيرتك الأقربين». انتقل الرسول الكريم من الدعوة الفردية إلى دعوة قريش ككل... ولكن ذلك التحول لم يعم على جميع المسلمين، بل بقي رهنًا بظروفهم الخاصة، بقدرة عشيرتهم على حمايتهم، أحيانًا برغبة عشائرهم أصلًا في ذلك.. أو بروح التحدي والمواجهة الموجودة عندهم.. وهكذا..

* * *

مهما كان الأمر «سريًا» و«مخفيًا»..

لا بد أن قريش بدأت تعلم بالتدريج.

ربما ليس في الأيام الأولى جدًا، عندما كان المسلمون على عدد أصابع اليد الواحدة، ولكن بالتدريج، لا بد أن شيئًا ما تسرب..

ربما من الخدم أو من البيوت، سمع أحدهم شيئًا ونقله لآخر، ربما بعض المسلمين الأوائل قال شيئًا ما وسمعه آخر ونقله... هذا عدا عن أن الوحي كان قد أمر الرسول بتوسيع دائرة دعوته.. ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر (٢)..

المؤكد إذن أن قريش علمت مبكرًا..

ماذا علمت؟

علمت أن محمدًا عليه الصلاة والسلام، نزل عليه الوحي.. وحي النبوة.

ماذا كان رد فعلها؟

مجنون طبعًا..

لقد جن الصادق الأمين.. يتيم أبي طالب.

* * *

فلنكن موضوعيين..

كان الأمر غريبًا جدًا على قريش، ولم يألف العرب وجود نبي منهم.. حتى الآن، كان الأمر -بالنسبة للعرب وما يعرفونه- خاصًا باليهود.. حتى السيد المسيح ظهر بينهم.

لذا كان الأمر غريبًا على ثقافتهم جدًا..

وحي؟ من الله؟ ولعربي من قريش؟

لو كنا مكانهم... هل يا ترى كنا سنصدق فورًا؟

فلنأخذ دور محامي الشيطان الآن..

فلنكن مكان كفار قريش..

محمد بن عبد لله، يقول أن «وَحيًا» من الله نزل عليه.

نعرف أن محمدًا لا يكذب...

لكن هذا الذي يقوله أمر لا يصدق... ولم يُسمع من قبل.

عندما لا يكذب شخص ويقول شيئًا لا يصدق سيكون رد الفعل الأكثر عمومًا هو: لقد جن!

وإصابة فرد ما بالجنون قد يكون موضوعًا للاستهزاء والسخرية... ولكن عمليًا هناك رفع مسؤولية، ولا تشكيك في صدقه.. التشكيك يكون في أهليته.. لكنه ليس كذابًا..

وهذا ما يخبرنا به القرآن بالضبط...

ففي أول مرة يظهر موقف للمشركين في آيات القرآن المبكرة في تلك الفترة، نراهم قد وصفوه بالمجنون..

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ القلم (٢)

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ التكوير (٢٢)

وسورة القلم من أوائل ما أنزل (ترتيبها الثاني حسب النزول)، وسورة التكوير هي سابع ما أنزل، أي أننا لا نزال في مرحلة مبكرة..

* * *

إذن كان رد فعل مكة الأوَّلي، نتيجة الأخبار المتسربة عن أن محمدًا جاءه الوحي هو السخرية، القول بجنونه، وهذا التصنيف سيجعل كل ما يقوله بلا معنى..

في البداية، ربما ظنوا فعلًا أنه جن. الخبر غريب عليهم.

لكن مع الأيام لا بد أنهم لاحظوا أن سلوكه لا يزال طبيعيًا.. وأن الصادق الأمين، لا يزال كما هو في سلوكه.. بينما سلوك من كانت العرب تعدهم مجانين معروف وملاحظ بسهولة.

لكنهم استمروا بوصفه بالجنون لأن هذا كان هو التفسير الأنسب لهم حتى لا يواجهوا احتمالية أن ما يقوله حقيقي... لأن لذلك تبعات لا يرغبون في مواجهتها...

* * *

سنخطئ جدًا لو تصورنا أن الدافع الوحيد لما قاله مشركو مكة هو تصورهم أنه (عليه الصلاة والسلام) كان مجنونًا، حاشاه..

أو أن الجنون كان تفسيرهم الوحيد للأمر حتى لو كانوا بينهم وبين أنفسهم لا يرون علامات الجنون المعتادة عليه..

هناك شيء آخر في مجاهل النفس البشرية، هناك استعداد دائم له على الأقل.

هذا الاستعداد هو أن الأشخاص الأقل أخلاقية، يتربصون دومًا لمن هو في مقام أخلاقي أعلى، ويترصدون أي شيء يمكن أن يسهم لترويجه والتشهير به..

يحدث هذا دومًا، أن الشخص الذي يحصل على احترام الناس بسبب أخلاقه، يكون هناك من ينظر له بعين تريد أن تجد العيوب أو تتسقط أي خطأ للترويج له..

غالبًا لن يظهروا أي شيء سلبي تجاه الرجل حتى يظهر منه خطأ بشري أو زلة صغيرة يتم تكبيرها وتسليط الضوء عليها ويتم الالتفات بعدها للناس: أرأيتم هذا الذي كنتم تعتبرونه خلوقًا واحترمتموه؟

شيء ما في الأشخاص المتميزين أخلاقيًا، يستفز الناس الذين يعرفون أنهم ليسوا على خلق، قوة هؤلاء الأخلاقية تذكر الضعيف بضعفه...

يحدث هذا كثيرًا ويمكن أن نلاحظه بسهولة في حياتنا اليومية مع أول خطأ لشخص يحترمه الناس...

لا بد أن جزءًا من دوافع الاستهزاء والسخرية بالرسول كان يعود لهذه النوازع السُّفلية التي كان يشعر بها ليس فقط سفهاء مكة وسفلتها، بل حتى علية قومها الذين كانوا يعرفون تفوق محمد عليه الصلاة والسلام عليهم..

كما أن التنافس بين عشائر قريش على المكانة وتوزيع مهام الحج بينهم لا بد أنه أسهم في إضافة نوع من الدوافع الخفية على الاستهزاء..

هناك الصراع داخل أولاد قصي[ꟷ] بين بني عبد الدار وبين بني عبد مناف والرسول عليه الصلاة والسلام من ضمنهم، وهو الصراع الذي قسم قريش إلى معسكرين..

وهناك التنافس داخل بني عبد مناف أنفسهم بين بني هاشم وبني عبد شمس...

ها هم بنو هاشم الذين أخذوا السقاية وقد ظهر بينهم مجنون.. حاشاه، عليه الصلاة والسلام...

لا يمكن لنبوته عليه الصلاة والسلام إلا أن اصطدمت بكل هذه التناقضات داخل قريش..

ولعل أبا جهل لخص موقف بني مخزوم (العشيرة الثرية من قريش التي تنتمي لحلف الأحلاف) عندما قال:

بَنِي قُصَيٍّ قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ،
فَقَالُوا: فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ،
ثُمَّ قَالُوا: فِينَا اللِّوَاءُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ،
ثُمَّ قَالُوا: فِينَا السِّقَايَةُ فَقُلْنَا: نَعَمْ،
ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ (تساوينا في الشرف) قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ؟[1].

* * *

وتروي لنا الصحاح أن سفهاء مكة (ربما في مرحلة لاحقة قليلًا وليس بالضرورة في هذه الفترة المبكرة) تمادوا لدرجة أنهم أرسلوا أحد «الرقاة» المعروفين في جزيرة العرب -الذي زار مكة- إلى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ليعالجه... لم يكونوا يقصدون علاجه غالبًا، لأنهم لم يكونوا مقتنعين حقًا بجنونه، لكنهم فعلوا ذلك إمعانًا في السخرية والإحراج..

ꟷ راجع المفاتيح/ المفتاح السابع.

(١) مسند ابن أبي شيبة ٣٥٨٢٩.

ذهب الرجل[1] واسمه «ضماد» من أزد شنوءة ولم يكن لديه أدنى معرفة سابقة بالرسول عليه الصلاة والسلام وبأخلاقه، بالنسبة له كان الأمر مجرد «مجنون» آخر يصادف وجوده في الأماكن التي يتجول فيها فيخبره الناس عن وجود رجل مجنون وهكذا...

فذهب إليه، وقال له: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ (أي الجنون)، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟

فرد عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِه اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ»

الرجل بهت.

فقال: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ!

قل هذا الذي قلته مجددًا.. كما لو أنه لم يصدق ما سمع ...

فأعادها عليه الصلاة والسلام، مرة ثانية.

وطلبها مجددًا...

فقالها الثالثة.

فقال ضماد..

لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ..

كانوا قد قالوا له أنه مجنون، لكنه هنا تجاوز الأمر بالكلية... لم يأت على ذكر الأمر، فهو ليس مطروحًا أصلًا.

كهنة؟ سحرة؟ شعراء؟

كل هذا أيضًا لا يشبه ما قيل..

ثم أسلم..

* * *

عندما جاء ضماد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليقابله، وقال له عليه الصلاة والسلام تلك الكلمات... ثلاثًا..

لا بد أنه كان ينظر في عينيه.. عينًا بعين..

---

(١) صحيح مسلم ٤٦.

لا بد أن عينيه عليه الصلاة والسلام نقلتا الكلمات أيضًا..

لا بد أن تلك الكلمات قد انعكست على مقلتيه.. عليه الصلاة والسلام..

«إِنَّ الْحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِه اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ..

عينًا بعين...

لا ريب أن «ضماد» قد شعر بالقشعريرة تمر في كل عموده الفقري...

أو ربما الزلزال...

لا ريب أن أجمل مكان ذهب إليه ضماد هو تلك المساحة التي تحتلها عيناه عليه الصلاة والسلام..

.. وأجمل مكان يمكن أن نذهب له، نحن أيضًا...

* * *

في مرحلة مبكرة جدًا من الدعوة... نزلت الآية التي تقول للنبي الكريم ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ القلم (٥١)

الآية تنقل لنا جزءًا مما دار في نفسه عليه الصلاة والسلام..

ليس يسيرًا أبدًا أن تسير في شوارع مدينتك وأنت تسمع الهمس «مجنون... مجنون».. أو على الأقل أن تتوقع أنهم يهمسونه...

وكنت قبل ذلك الصادق.. الأمين.. الذي يقف الناس له احترامًا أينما ذهب...

ليس يسيرًا أبدًا أن تتنازل عن «أناك» تمامًا، حيث تعود اتهامات الجنون وفقدان المكانة الاجتماعية غير مهمة، مقابل أن توصل للناس ما تؤمن أنه الحقيقة الوحيدة التي تستحق أن تقال...

ليس سهلًا أن تلمح في عيونهم ما يقولونه همسًا، ضحكة خفية ساخرة مما صرت تعده أعز ما تملك..

ليس سهلًا أن تفكر في صمتهم.. هل يا ترى يضم سخرية أيضًا.. هل يتهامسون في أنفسهم...

ليس سهلًا أن تكون في قمة عقلك، كما لم تكن من قبل.. ثم يظنونك مجنونًا...

ليس سهلًا أبدًا، أن تعرف أنهم ربما كانوا يعتقدون ذلك فعلًا.. أن يكونوا جادين في تصورهم.. ليسوا ساخرين.. كانوا يؤمنون بذلك..

قد نتخيل أن الأمر مجرد كلام لا يمكن أن يكون قد أثر عليه..

لكن الآية تنبهنا إلى أثر هذا الكلام.. يكاد كلامهم يزلقه، عليه الصلاة والسلام...

نفس مثل نفسه عليه الصلاة والسلام، وهو لا يزال في مرحلة الخروج الأولى من الدثار، الخروج من ذاتيته الثرية المريحة، لا بد أنها كانت في أقصى حالات التأهب والحساسية....

ليس سهلًا المرور بكل هذا.. وكانت الفترة الأولى من الدعوة، فترة الهمس والكلام، تدريبًا نفسيًا شديدًا له عليه الصلاة والسلام، صحيح أن ثمة مراحل لاحقةً سيكون الأذى فيها أشد وأكثر مباشرة..

لكن مرحلة الهمس، مرحلة «حديث المدينة» لم تكن قليلةً إطلاقًا.. كانت تدريبًا لما سيأتي لاحقًا..

نزلت آيات كثيرة تشد من أزره عليه الصلاة والسلام، تقول له أن قائمة الاتهامات هذه قد مرت على كل الأنبياء من قبل، وأنها حتمية..

المهم أن لا تزلقك أقاويلهم عن السير على الطريق الصحيح..

المهم أن لا تنتبه لما يقولون الآن ولا تضعه في حساباتك..

أن لا تجعل هذه الاتهامات نصب عينيك وتحاول إثبات أنك لست بمجنون أو لست بشاعر أو لست بكاهن..

لا..

لا يزلقونك بأبصارهم عما يجب أن لا يحيد عنه بصرك..

* * *

يقولون أحيانًا: أميتوا الباطل بالسكوت عنه..

لكن النهج القرآني يرى شيئًا آخر..

لو أنه لم ينقل لنا هذه الاتهامات الباطلة ضد الرسول عليه الصلاة والسلام، لربما ما وصلتنا قط..

لكنه ينقلها لنا بتجرد..

قالوا: شاعر، مجنون، ساحر، كذاب، كاهن..

وكلها نقلها القرآن..

لأنها بطريقة ما لا تزال تقال حتى اليوم.. من المعاصرين..

هناك من مُنكري النبوة من يصف حالات الوحي بأنها حالة نفسية!

وهناك من يصف الوحي بأنه نص أدبي جميل!

وهناك من يستغل وجود الأحرف في بدايات السور ليربط الوحي بالكهانة..

قد تتغير الألفاظ والمصطلحات..

لكن حديث المدينة لا يزال هو هو!

زلزال في مكة

من المؤكد أنه كان في قريش مَن بدأ -بالتدريج- يفهم أن ما يقوله محمد عليه الصلاة والسلام يحمل مؤشراتٍ خطيرة بالنسبة لقريش... وأن الأمر أكبر من الاستهزاء والسخرية واتهامات الجنون...

لم يكن الأمر فقط ترك ديانة الأجداد، أو نبذ الأوثان..

ربما كانت قريش تجد أشياء تهددها أكثر مما كان يبدو لها أول الأمر وأكثر مما يبدو لنا الآن...

ربما حتى في سور لا نرى فيها الآن ذلك التهديد الذي قد يستفز قريشًا جدًا..

بعد المدثر، التي تضمنت «قم فأنذر»..

جاءت سورة ربما لا نفهم منها الآن معنى الإنذار..

لكنها كانت سورةً فتحت النار..

وفتحت العيون..

وفتحت الأفواه..

كانت فاتحة الكتاب..

* * *

هل تبدو الفاتحة مستفزة؟

ربما ليس لنا، ولكنها استفزت قريشًا على ما يبدو، ليس لأن الله عز جلاله هنا صار له تعريف أوضح «رب العالمين» على نحو يتجاوز أفق العشيرة والقبيلة إلى «عالمية» ما كان يمكن لقريش أن تستوعبها في هذه المرحلة..

وليس لأنها تضمنت الإشارة إلى يوم البعث، وهو مفهوم لم يكن موجودًا أو معروفًا عند العرب في جاهليتهم..

وليس لأنها صنفت الناس إلى ثلاثة أصناف، واحد منهم فقط على صواب، والصنفان الباقيان: مغضوب عليهم وضالون...

كل هذا مزعج لقريش بالتأكيد..

لكن كان هناك ما جعل قريشًا تنزعج جدًا.

إنه «الرحمن».

* * *

كيف يمكن لذكر اسم الله الرحمن الرحيم أن يكون مستفزًا؟

اللفظ مشتق من الرحمة. كيف يمكن للرحمة أن تستفز؟

الرحمة لا تستفز، لكن لفظ «الرحمن» بالنسبة لقريش كانت له أبعادٌ أخرى غير التي نفهمها اليوم..

«الرحمن» بالنسبة لقريش كان رمزًا نصرانيًا ولأسباب متعددة، فلنتذكر هنا أن نصارى الجزيرة العربية كانوا يتبعون مذاهب لم يعد لها وجود حقيقي اليوم (أغلبهم كانوا نساطرة ويعاقبة) وهؤلاء كانوا يعبرون عن معتقداتهم بطريقة ربما لا تكون مطابقة لما نعرفه اليوم عن المسيحية، كما كانت كتبهم بالسريانية، ويبدو أنهم استخدموا لفظًا قريبًا من كلمة الرحمن في وصف الله وهو لفظ (رحمانن، مرحيانا) وكانت تعني (كثير المحبة) في لغتهم، وقد أشار الرازي في التفسير الكبير إلى وجود هذا في السريانية ونفى وجود اشتقاق مشترك مع لفظ الرحمن في العربية[١].

ويبدو أن الاسم لم يكن وصفًا منفصلًا عن لفظ الجلالة بل كان هو لفظ الجلالة نفسه، أي أنه كان هو اللفظ الذي يعبر عن الله عندهم على نحو كرس عند قريش وغيرها أن لفظ الرحمن يشير إلى إله مستقل، وليس إلى وصف أو اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى.

يعزز ذلك أن الأبحاث الآثارية تشير إلى أن بعض ملوك الحميريين في اليمن ممن تنصروا كانوا يستخدمون لفظ الرحمن في مراسلاتهم ونقوشهم للتعبير عن لفظ الجلالة (كأن يكتب بسم رحمنن وبنهو كرشتش غلبن وتعني: بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب)[٢]، كما أن أبرهة الحبشي الذي أسقط حكم الحميريين وحكم اليمن احتفظ بنفس طريقة المراسلات وكان يستخدم لفظ الرحمن هو أيضًا.

أبرهة الذي أراد هدم الكعبة كان يفتتح مراسلاته: بحول الرحمن... ويستخدم لفظ الرحمن حصرًا في التعبير عن الله[٣].

ويبدو أن الرحمن كان لفظًا تستعمله قبائل مختلفة تأثرت بالنصرانية فقد شاع مثلًا عند قريش أن «الرحمن» هو إله اليمامة*، واليمامة منطقة كانت تسكنها بنو حنيفة وهي من قبائل العرب المتنصرة[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي الجزء الأول صفحة ١٤٨.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السادس صفحة ١٦٧.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السادس صفحة ١٨٤.

* بطريقة ما كانت قريش أيضًا تسمي مسيلمة الكذاب برحمان اليمامة ويبدو أنه كان موجودًا منذ فترة مبكرة من بعثة النبي دون أن يكون من الواضح أنه قد ادعى النبوة آنذاك، فالسياق يوحي أنه كان يدعي الألوهية في هذه الفترة.

(٤) النصرانية وآدابها في الجاهلية صفحة ٢٨.

إضافة إلى ذلك: يذكر اليعقوبي أن تلبية قبيلة قيس عيلان كانت على هذا النحو: لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمن، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان[1] وقيس عيلان هي القبيلة التي حاربت قريشًا في حرب الفجار قبل أقل من ثلاثة عقود من البعثة، وهذا يفسر جزءًا من الحساسية من استخدام لفظ تستعمله القبيلة العدو في تلبيتها في الكعبة. ورغم أننا لا نعرف أن قيس عيلان قد تنصرت فإنه لا يمنع حدوث تأثر بالنصرانية يجعلها تأخذ الاسم، بل تشير بعض الآثار إلى احتمالية وجود صنم في جنوب الجزيرة كان يحمل هذا الاسم أو اسم قريب منه (رحمنن) ولا بد أن يكون هذا قد حدث بتأثير يهودي أو نصراني.[2]

وينقل القرآن موقف قريش من لفظ الرحمن تحديدًا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ الفرقان (٦٠)

وقيل أن أبا جهل كان يقول عندما يسمع الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو «يا الله يا رحمن» يقول: كَانَ مُحَمَّدٌ يَنْهَانَا عَنْ عِبَادَةِ الْآلِهَةِ وَهُوَ يَدْعُو إِلَهَيْنِ... وَنَزَلَ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الْإِسْرَاءِ (١١٠).[3]

كيف نربط كل هذه المعطيات لنفسر سر استفزاز قريش من لفظ الرحمن تحديدًا؟

بالنسبة لقريش، كان الشرك يمثل حيادًا من نوع خاص في الصراع المزمن بين الفرس والبيزنطيين، وهو الصراع الذي كان سببًا من أسباب ثروة قريش أصلًا كما مر، الصراع يجب أن يستمر، ولكن أيضًا الحياد يجب أن يستمر، أي ميل ديني يمكن أن يحدث لصالح هذا الطرف أو ذاك ستكون له تأثيرات سياسية تخرب تجارة قريش. وإذا حدث ميل قريشي لرمز نصراني (وهذا ما فهمته قريش من لفظ الرحمن) فإن هذا سيجعل قريش تضحي بعلاقتها مع الفرس، وهو أمر سيؤثر حتمًا على تجارتها وثروتها ورحلة صيفها وشتائها.

قريش كانت تستثمر في شركها وأوثانها لأنها كانت منطقة وسطى بين طرفي الصراع، وهو أمر يجب أن يبقى بالنسبة لها.

لكن هذا ليس كل شيء...

فلفظ الرحمن ارتبط في ذاكرة قريش بعدوين مهمين.. أبرهة الذي كان يستخدم لفظ الرحمن حصرًا في الإشارة إلى الله، والذي أراد هدم الكعبة قبل أربعة عقود فقط، وقيس عيلان التي خاضت حرب الفجار ضد قريش قبل أقل من ثلاثة عقود.

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جزء ١١ صفحة ٤٠.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جزء ١١ صفحة ٤٠.

(٣) تفسير القرطبي سورة الرعد آية ٣٠/ الجزء التاسع صفحة ٣١٨.

صحيح أن بني حنيفة لا حرب لها مع قريش ولا عداء، إلا أن قريش تأنف حتمًا من أن تظهر كما لو كانت تقلد هذه القبيلة التي هي في النهاية قبيلة مزارعين[١] (وكانت قريش تأنف وتحتقر المزارعين) وهي في النهاية قبيلة تركت دين آبائها وتبنت النصرانية. تنازل قريش إلى إله هذه القبيلة (كما فهمت قريش الأمور) أمر غير مقبول.

حتى قيس عيلان تنظر لها أيضًا قريش نظرة دونية باعتبارها قبائل بدو لا يجب التنازل لها.

تعاملت قريش مع لفظ الرحمن كما لو كان يعني إلهًا آخر وليس اسمًا من أسماء الله سبحانه وتعالى...

يبدو هذا الإله إلهٌ للأعداء..

أما بالنسبة للوحي، فهو فوق هذه التفاصيل، وكل الكتب السماوية كانت من منبع واحد، وكل هذه الأسماء لإله واحد.. لذا لا فرق كبير أن تستفز قريش أو لا تستفز من هذا الاسم، عليها أن تخرج من قبليتها الضيقة...

إنه رب «العالمين»...

***

ولعل هذا التحسس من لفظ الرحمن تحديدًا يفسر لنا بعض المواقف التي ربما نكون سمعنا بها سابقًا...

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَاتَبْتُ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ كِتَابًا، بِأَنْ يَحْفَظَنِي فِي صَاغِيَتِي بِمَكَّةَ، وَأَحْفَظَهُ فِي صَاغِيَتِهِ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا ذَكَرْتُ الرَّحْمَنَ قَالَ: لاَ أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، كَاتِبْنِي بِاسْمِكَ الَّذِي كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَكَاتَبْتُهُ: عَبْدَ عَمْرٍو»[٢]...

عبد الرحمن بن عوف كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، أسماه الرسول عبد الرحمن بدلًا عن ذلك، وبينما هو يتكاتب مع أمية بن خلف على أن يحمي كل منهما أموال الآخر في مكة والمدينة، فإن أمية يرفض القبول باسمه الجديد: لا أعرف «الرحمن»... هكذا يقول له... يطالبه باسمه القديم...

الواقعة الأشهر منها هي تلك التي حدثت في صلح الحديبية..

جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: وَاللهِ لاَ نَكْتُبُهَا

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ١٣ صفحة ٣٨.

(٢) صحيح البخاري ٢٣٠١.

إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»[1].. إلخ.

مرة أخرى نرى الرفض المشدد للفظ الرحمن تحديدًا، لا مشكلة في لفظ الرحيم مثلًا لدى قريش، لكن رفض مستفز تحديدًا لدى الرحمن.

كان الأمر يتعلق بثلاثة أمور:

أولًا: رفض استراتيجي لأي ميل لصالح البيزنطيين، عبر التقرب من النصرانية.

ثانيًا: ذاكرة مليئة بأعداء كادوا يقضون على مكة وكانوا لا يذكرون لله اسمًا غير الرحمن.

ثالثًا: تعالي تجاه بعض القبائل التي تتعبد للرحمن والتي تعد قريش نفسها أفضل منها...

إذن كان من الطبيعي عند تسرب آيات الفاتحة أن يغضب أقارب للرسول عليه الصلاة والسلام ممن كانوا يعدون أنه محسوب عليهم كهاشمي وأن كل ما يقوله يمسهم بطريقة أو بأخرى..

وكان من الطبيعي أيضًا أن السورة التي نزلت بعد الفاتحة كانت تعكس ذلك بطريقة واضحة...

كانت سورة «المسد»!

* * *

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهْ»، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، قَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: «تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ المسد: (١)[2]

الرسول الكريم في هذه المرحلة كان قد تنزلت عليه «قُمْ فَأَنْذِرْ» في سورة المدثر.. بيننا وبينها سورة واحدة فقط هي سورة الفاتحة..

وهو هنا ينذرهم بالضبط.

أبو لهب، المحرج مما يدور، الذي يعتبر أن كل بني هاشم محرجة بما يقوله ويفعله محمد عليه الصلاة والسلام ينطق كلمة تقال عادة عند الغضب وهي عمليًا دعاء بالخيبة والخسران.

---

(١) صحيح البخاري ٢٧٣١.

(٢) صحيح البخاري ٤٨٠١.

موقف أبي لهب كان عدائيًا ربما أكثر من بقية من حضر الإنذار، لأنه يحسب أنه بهذا يدافع عن بني هاشم من تهمة دعم محمد عليه الصلاة والسلام فيما يقول، وهو يقول ما يزعج قريشًا ويهددها في أعز ما تملك.

ومن الواضح من سياق الآيات أن هذا ليس أول عمل عدائي من أبي لهب، إذ إن الآيات تتوعد زوجته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية بن عبد شمس وتصفها بحمالة الحطب، بينما لا وجود لها في هذا المشهد، مما يعني أنه كان لها دور سابق في حمل الحطب لغرض إشعال النار ضد محمد في بيوت بني هاشم وبني عبد شمس وتأليبهم ضده.

لكن موقف أبي لهب كان علنيًا هذه المرة، أمام قريش، وهذا يشكل إهانة أكبر، وتحديا أكبر..

إذ أن إهانة أبي لهب لابن أخيه علنًا على هذا النحو كانت تفسح المجال حتمًا للمزيد من الإهانات من بطون قريش الأخرى..

سنعرف لاحقًا أن «علنية إهانات» أبي لهب كانت شيئًا مقصودًا لغاية في نفسه.

السورة تأتي قاطعة وبلا رغبة في استمالة أبي لهب أو محاباته تحت أي اعتبار. رب العزة يعرف مسبقًا كيف يفكر البعض وماذا يختارون، ولقد اختار أبو لهب وزوجه الخسران.

المال والنسب لا ينفعان هنا.

كل شيء سيكون نارًا ذات لهب.

* * *

وإذا كان عليه الصلاة والسلام قد «أنذر» قومه دون تفاصيل..

فإن سورة التكوير، التي نزلت بعد المسد، غنية بتفاصيل مفجعة عن اليوم الذي أنذرهم عنه عليه الصلاة والسلام.. فالشمس يذهب نورها، والنجوم تتساقط، والجبال تندثر، والبحار تفجر، والحيوانات المفترسة في البراري تجتمع.

ويرمي لهم بين ذلك ما يمس حياتهم الشخصية، ما يجعل المشهد واقعيًا تمامًا..

العشار تترك، أي النوق التي تكون في آخر أشهر حملها، في أعلى سعر ممكن لها باعتبار أنها تضم ناقة أخرى ضمنها، وكانت العشار تعد واحدة من أكثر ما يهتم العرب به لتحصيل الثروة وزيادتها..

وبين كل عناصر هذا المشهد سيأتي سؤال الفتيات الموؤودات في الصحراء: لماذا قتلكن آباؤكن؟

وسيكون ليس أقل رعبًا من الجبال المندثرة، والنجوم المتساقطة...

ثم سيأتي السؤال الهدف من كل هذا التتابع: علمت نفس ما أحضرت.

كل نفس عليها أن تحضر شيئًا لهذا اللقاء..

وهذا هو الإنذار..

* * *

لا بد أن من يتناقل هذه الآيات في مكة، وعدد المؤمنين كان لا يزال قليلًا جدًا، لا بد أنه كان يهمس عندما يقولها.. لا أستطيع تخيل أن عربيًا كان يمكن أن يرفع صوته بهذه الآيات المفجعة.. لا خوفًا من قريش أو من استهزائها أو من رد فعلها مهما كان...

بل لأن كلمات الآيات أصعب من أن تقال بصوت مرتفع، «الحنجرة البشرية» لا تحتمل حملها على طبقة عالية، شيء كهذا الذي قالته الآيات لا يمكن أن يقال إلا همسًا... تكفي معانيه الصارخة..

كانت تُهمس، ولكن رغم ذلك، كانت زلزالًا..

زلزالٌ في مكة... يقول لها أن ثمة حسابًا.. وأن هذه الحياة ليست عبثًا يفضي إلى لا شيء...

زلزالٌ بقوة غير محدودة الدرجات..

على مقياس التغيير...

* * *

بعد التكوير ومشاهدها المرعبة... جاءت سورة الأعلى..

السورة هامسة ولكن على نحو مختلف، اسم الله الذي يسبح له هو الأعلى هذه المرة، ولا شيء في أخبار الجاهلية يقول لنا أن العرب كانوا يعرفون هذا الاسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، لذا لا موقف مسبق من قريش تجاه هذا الاسم... لا رفضًا ولا قبولًا..

الأعلى، كما لو أن السورة تقول أن الله أعلى بكثير من هذه النظرة التي ينظر لها القريشيون لأسمائه.. يقْبَلون الرحيم ويرفضون الرحمن بناء على حسابات عشائرية ضيقة..

لا، أنتم هنا تنظرون للعالم من ثقب صغير جدًا.. الله أعلى من هذا بكثير... أسماؤه تعبر عنه وعن صفاته ولكنه واحد على نحو يحتوي كل هذه الأسماء... وسيكون هناك المزيد..

الأعلى هذه المرة، حاولوا أن تنظروا إلى الأعلى لكي تفهموا المعنى، حلقوا، المعاني مرتفعة، وأنتم تنظرون إلى الأسفل والأدنى، وهذا سيجعلكم غير قادرين على استيعاب ما يقال...

إنه الأعلى، خلق فسوى، قدر فهدى، وأخرج المرعى...

النظر إلى الأعلى، نحو الأعلى، بطريقة أعلى، سيجعل ثمة خيارًا مستمرًا... هناك من سيخشى.. وهناك من هو أشقى... وهناك حياة دنيا، وهناك آخرة، خير وأبقى...

ثم هناك مرجعية واضحة في هذه السورة: هذا الذي يقوله الوحي ليس جديدًا، بل هو في صحف إبراهيم وموسى. لا خجل من هذا ولا دفاع ولا محاولة تهرب.

كل الوحي ينبع من مصدر واحد، لديكم مشكلة مع هذا؟ تقبلون بإبراهيم وترفضون موسى لأنكم تريدون تمييز أنفسكم عن اليهود؟ هذه مشكلتكم التي عليكم مواجهتها... لن يغير شيء من حقيقة أن هذا في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى...

* * *

فلننتبه إلى أن هذه الآيات كانت تعيد تشكيل وبناء الرسول عليه الصلاة والسلام أيضًا.. وليس فقط المؤمنين الجدد أو المتفاعلين مع الآيات على الحافة الفاصلة بين الكفر والإيمان..

كان تفاعله عليه الصلاة والسلام مختلفًا حتمًا عن تفاعل الآخرين، لكن كان ثمة تفاعل.. لم يكن مجرد مبلغ لرسالة، بل كان متلقيًا لها متفاعلًا معها أولا.. ومن ثم يوصلها للآخرين..

لذلك كانت هناك آيات تخصه وتخص تفاعله شخصيًا..

كما في ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ الأعلى (٦) في هذه السورة تحديدًا..

ولكن هذه الآيات تبقى فيما سيوجه للجميع.. لن تحذف ولن تعتبر شيئًا يخص محمدًا عليه الصلاة والسلام.. حتى الآيات التي ستحتوي عتبًا أو لومًا أو تهديدًا.. ستبقى ضمن الآيات ولا يمكن حذف حرف واحد منها..

يشبه الأمر -دون تشبيه- أن يقدم لك مدرسك المادة الدراسية وضمنها توجيهات تخص مدرس المادة وربما تخص طريقة أدائه..

الأمر غالبًا سيكون مرفوضًا بالنسبة للمدرس، التوجيهات تكون بينه وبين المشرف، ولا داعي لأن تكون أمام الجميع..

معه عليه الصلاة والسلام، الأمر سيكون مختلفًا، كما لو أن عملية التوجيه النبوية يجب أن تكون على هذا النحو... بهذا الوضوح وهذه الشفافية... تعرض للجميع... يترسخ الدرس للجميع..

* * *

بعد سورة الأعلى تتنزل سورة الليل..

واصلت السورة تحديد الثنائيات وتشكيل الخيارات التي بدأتها سورة الأعلى بما يؤكد أنها نزلت بعدها مباشرة..

ثمة ليل يغشى، ونهار يتجلى، وثمة ذكر وأنثى، وثمة سعي شتى هو مختلف لكل منهما..

ثمة من أعطى واتقى... وثمة من بخل واستغنى..

ثمة من صدق بالحسنى... وثمة من كذب بالحسنى..

هناك تيسير لليُسر... وهناك تيسير للعسر..

الأشقى الذي رأيناه في سورة الأعلى وهو يتجنب الذكرى.. سنراه هنا أيضًا وهو في النار أيضًا كما في سورة الأعلى...

لكن هذه المرة سيكون هناك «الأتقى» وهذا سيتم تجنيبه هذه النار...

وهذا لا يريد شيئًا إلا ابتغاء وجه ربه «الأعلى»...

* * *

وبعد الليل، ثمة فجر..

وهكذا تنزلت سورة الفجر بعد الليل..

الفجر يأتي دومًا بعد ليل طويل، أحيانًا بعد ليالٍ طويلة، ربما بعد عشر ليالٍ...

السورة هذه المرة تتحدث عن عاد وثمود، وهي قصص أقوام لم تكن معروفة عند أهل الكتاب ولكنها جزء من معارف العرب لقربهم الجغرافي..

كما لو أن الوحي هنا يقول أن ثمة تشابهًا مع أهل الكتاب في بعض القصص لأن مصدرها واحدٌ، ولكن الوحي أيضًا يتضمن ما لم يكن عند أهل الكتاب.. هو يضم قصصهم، هم جزء منه وليس العكس..

تفاصيل عاد وثمود تُربط هنا مع قصة فرعون، التي وردت بالتفصيل في التوراة، كما لو أن الوحي يريد التنبيه على ما هو متشابه ومشترك بين قصص أقوام يبدون مختلفين جغرافيًا وحضاريًا وزمنيًا..

لكن كل القصص عندما تجرد من تفاصيلها تصبح متشابهة: ثمة ظلم وطغيان وتجبر، ومن ثم نتيجة وعاقبة لكل ذلك... ثمة سوط عذاب من ربك. أين هو ربك؟ إنه بالمرصاد. يرصد كل ما يدور وكل ما تفعلون.

المشكلة الأساسية في ظلم هذه الأقوام كان في غياب العدالة كما تشير السورة، حب المال الذي يقود إلى الاستغلال، اليتيم الذي لم يكن يرث حسب الأعراف الجاهلية، والمساكين الذين كانوا يعانون من الجوع والفاقة.. هناك خيار لا بد من أخذه من أجل أن تكون العاقبة مختلفة..

ثم تنتهي السورة نهاية مختلفة..

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ الفجر (٢٧: ٣٠)

مات أحدهم؟

هذا ما يبدو.

مات أحدهم.. وكانت نفسه مطمئنة..

من مات في هذه الفترة المبكرة من البعثة وكانت له هذه النفس.

لا نعرف أحدًا سوى ورقة بن نوفل... ابن عم السيدة خديجة... الذي شد من أزر الرسول عليه الصلاة والسلام في ليلة الوحي الأولى والذي قال له أن ما جاءه هو «الناموس» الذي نزل على موسى... وقال له أن قومه سيخرجونه... وقال بما معناه ليته يكون حيًا عندما يحدث ذلك...

نعرف أنه مات مبكرًا في هذه المرحلة...

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ[1]

لعل هذه الآيات في آخر سورة الفجر كانت تشير إلى وفاته..

لكن هذا لم يكن كل شيء... بعد أن نزلت سورة الفجر، يبدو أن حدثًا كبيرًا جدًا قد حدث... حدثًا كان أزمة كبيرة وقت حدوثه.. محنة كبيرة...

فالحديث الذي يروي ما حدث ليلة الوحي ويقول ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ يكمل:

وَفَتَرَ الوَحْيُ...

الحدث الكبير بعد هذه السورة، بعد الفجر، كان أنه لم يحدث شيء...

لقد انقطع الوحي* ...

---

(١) صحيح البخاري ٦٩٨٢.

* كيف عرفنا أن فترة الوحي صارت بعد هذه السورة؟ لأن السورة التي أشارت إلى عودة الوحي وهي سورة الضحى قد نزلت بعد سورة الفجر، وهذا يعني أن ما بينهما كان فترة فتور الوحي.

فلنعترف أن الموضوع القادم حساس وخطير، والكثيرون سيعتبرونه حقل ألغام لا داعي للخوض فيه، وأكثر منهم من سيعتبر الموضوع غير موجود أصلًا..

ولأن هناك من يعتبر طرحه بمثابة مساس بمكانته عليه الصلاة والسلام، فإن علينا أن نؤكد العكس تمامًا، وأن طرح هذا الموضوع على نحو متوازن وواقعي، سيكرس المكانة العظيمة للرسول عليه الصلاة والسلام وللسنة النبوية أيضًا..

لكن ليكن الطرح متوازنًا، لأن طريقة هذا الطرح قد تكون ضرورية في التعامل مع مواقف أخرى في السيرة النبوية وفي السنة النبوية.



فلنبدأ أولًا بمثال من القرآن عن نبي كريم آخر...

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف (٢٣– ٢٤)

القصة معروفة، امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه.

والآية القرآنية واضحة: ولقد همت به... وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه.

همَّ بها، لولا.. أن رأى برهان ربه.

أي بعبارة أخرى، بالعربي الفصيح: لم يحدث..

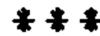
همَّ، لولا...

كان على وشك أن يفعل، ولكن رأى برهان ربه... فلم يحدث...

وهو نبي مرسل كريم وله العصمة.

كان على وشك... ولم يحدث.

فلنضع هذه الواقعة في أذهاننا ونغادر إلى موقع آخر..



فلنتذكر ما حدث يوم نزل الوحي للمرة الأولى.

الواقعة بكل تفاصيلها رواها الرسول عليه الصلاة والسلام، بعد سنوات طويلة، للسيدة عائشة، التي لم تكن قد ولدت يوم نزل الوحي.

التفاصيل الحميمة للواقعة، تنقل لنا جوانب إنسانية دقيقة لما حدث.

هو الذي نقل هذه التفاصيل، عليه الصلاة والسلام، تفاصيل الفزع والخوف الذي مر به، كيف هرع إلى خديجة، وكيف قال لها أنه يخشى أن يكون قد أصابه شيء، وكيف تماسكت هي وسندته..

كان يمكن أن يختصر التفاصيل.. ولن يكون ذلك كذبًا، حاشاه.. عليه الصلاة والسلام...

لكن الصادق الأمين، حرص على أن ينقل للسيدة عائشة، ومن ثم لنا جميعًا هذه التفاصيل.. كما لو أنه يقول لنا: أنا بشر أيضًا... مكانة الرسول لا تتناقض مع هذه المشاعر الإنسانية، حتى لو بدت لنا من زاوية معينة ضيقة كما لو كانت ضعفًا..

كما لو أنه يقول لنا أن لا نخفي مشاعرنا حتى لو كانت مشاعر ضعف، أن نواجهها، أن نبوح لمن يمكن أن يقوينا ويسندنا ويساعدنا على تخطي هذه المشاعر...

عليه الصلاة والسلام...

الصادق الأمين..

صدقه وأمانته كانا مع نفسه أيضًا، مع مشاعره... وليس مع الناس فقط.. ربما لا يمكنك أن تكون صادقًا أمينًا مع الناس إن لم تكن كذلك مع نفسك..

عليه الصلاة والسلام..

* * *

هاتان المقدمتان ضروريتان للدخول إلى موضوع شائك وحساس.

واستحضارهما (معًا) مهم في فهم هذا الموضوع...

نتحدث هنا عن مرحلة عابرة في السيرة النبوية، مرحلة فتور الوحي.

وهي المرحلة التي انقطع فيها الوحي، أو فَتَر، لفترة من الوقت.

* * *

متى حدث ذلك؟

لا نعرف بالضبط، سياق ما نقله البخاري في صحيحه عن السيدة عائشة[1] يشير إلى أن ذلك قد حدث في فترة مبكرة، أي بعد نزول الآيات الأولى «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...» ووفاة ورقة بن

(١) صحيح البخاري ٦٩٨٢.

نوفل، نص الحديث لا يحدد ذلك بالضبط ولا يقول أن الانقطاع قد حدث مباشرة بعد نزول «العلق» ولكن هذا ما فهم عمومًا، أن الانقطاع قد تلى نزول الوحي أول مرة.

وحسب ما يفهم من حديث آخر في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله[1] فإن الوحي قد عاد مع سورة المدثر...

وهكذا يفهم من هذين الحديثين أن فترة الانقطاع كانت بين سورة العلق وسورة المدثر. ويكون ورقة بن نوفل قد توفي بعد نزول الوحي مباشرة.

في الوقت نفسه فقد ثبت في صحيح البخاري أن «**احْتَبَسَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»، **فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ الضحى(١:٣)**[2]

وبلفظ مسلم:

أَبْطَأَ جِبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّدٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ الضحى(١-٢)**[3]

ورغم أن بعض ألفاظ الحديث تقول أن الأمر هنا لم يتجاوز ليلتين أو ثلاثًا[4] فإن الأمر لا يبدو مقنعًا، لم نعرف قط أن الوحي كان يأتي كل ليلة، ولم نعرف أيضًا أن المشركين كانوا يعرفون كل ما يحدث أولا بأول بحيث إن غيابًا قصيرًا للوحي جعلهم يتحدثون عن الأمر ويضخمونه. كما أننا نعرف أن الوحي قد تأخر في مناسبات أخرى أكثر من هذا (شهر مثلًا في قصة الإفك[5]) ولم يعتبره أحد فتورًا في الوحي!

ينقل كثيرون حدوث انقطاعين للوحي بناءً على ما سبق، الأول هو الذي بعد نزول الوحي مباشرةً كما فهم حديث السيدة عائشة وهو الأشهر والأكثر أهمية، والثاني المرتبط بنزول سورة الضحى.

لكني أرى أنه من المحتمل جدًا أن هذا الانقطاع هنا الذي يشار إليه في الحديث الأخير هو الانقطاعَ الشهير أو فتور الوحي الذي سنتناول ما حدث فيه. لماذا هذا الاحتمال؟

أولًا: فكرة أن الفتور حدث بعد أول نزول للوحي (سورة العلق) وانتهى بسورة المدثر كما يفهم من الجمع بين حديثين في صحيح البخاري[6] تتعارض مع ترتيب نزول القرآن الذي يجعل

---

(١) صحيح البخاري ٤٩٢٦.
(٢) صحيح البخاري ١١٢٥ .
(٣) صحيح مسلم ١١٤.
(٤) صحيح البخاري ٤٩٥٠.
(٥) صحيح البخاري ٤١٤١/ ٢٦٣٧.
(٦) صحيح البخاري ٦٩٨٢ و٣٢٣٨.

سورة القلم ومن ثم سورة المزمل قبل سورة المدثر. قوة سند ترتيب النزول لا يمكن أن تقارن بقوة سند حديث البخاري، لكن الحديثين لا يقصدان ترتيب النزول، الحديث الأول يتحدث عن سورة العلق، ثم يتحدث عن وفاة ورقة وفتور الوحي بشكل عام ولم يحدد ترتيبًا لنزول السور، الحديث الثاني يتحدث عن ظروف نزول المدثر بعد «انقطاع» للوحي، وليس من إشارة إلى أنه نفس فتور الوحي الذي أصابه بحزن شديد كما أشير في الحديث الأول.

ثانيًا: موضوعيًا طرح سورة المدثر (التوجه إلى الإنذار والدعوة)، لا يناسب أن تكون ثاني ما أنزل من القرآن، بينما سورة القلم (التثبيت من القلق الذي حدث نتيجة تجربة الوحي) وسورة المزمل (التقوي بقيام الليل على التجربة) يتناسب أكثر أن يحدث مع الترتيب: العلق / القلم / المزمل / المدثر.

ثالثًا: تجربة انقطاع الوحي كما اتفق عليها حملت حزنًا شخصيًا كبيرًا للرسول عليه الصلاة والسلام، لذا فإن عودة الوحي لا بد أن تحمل ولو إشارة إلى ذلك الانقطاع.

هذا لا أثر له في سورة المدثر على الإطلاق.

بينما الإشارة إلى ذلك في سورة الضحى واضحة ومؤكدة.

وهو أمر لا يتسق أيضًا مع ما يقال أن الفتور الأول -بعد سورة العلق- دام فترة تتراوح بين اثني عشر يومًا، أو خمسة عشر يومًا، أو أربعين يومًا [1] وصولًا إلى سنتين أو سنتين ونصف السنة[2] أو ثلاثة أعوام حسب أقوال أخرى[3]، بينما فترة الانقطاع الثاني كانت ثلاث ليال! فكيف يشار في القرآن الكريم إلى انقطاع للوحي دام لمدة ثلاث ليالٍ ولا يشار إلى فترة أكثر من ذلك بكثير؟

رابعًا: فتور الوحي حدث بعد وفاة ورقة بن نوفل حسب صحيح البخاري[4]، لا نعرف متى مات ورقة بالضبط، وهناك أثر ضعيف[5] عن بقائه على قيد الحياة إلى أن بدأ اضطهاد مشركي مكة للمسلمين، لكن حسب تسلسل نزول السور، ولو كان فتور الوحي قد انتهى بنزول سورة الضحى، أي بعد عشر سور من العلق إلى الفجر، فإن آخر سورة نزلت قبل انقطاع الوحي (أي سورة الفجر، السورة العاشرة في ترتيب النزول) تضمنت إشارة إلى وفاة «نفس مطمئنة».

---

(١) تفسير الرازي مفاتيح الغيب/ الجزء ٣١ صفحة ١٩٢.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية طبعة إحياء التراث الجزء الثالث صفحة ٢٤.

(٣) فتح الباري الجزء الأول صفحة ٢٧ ونقل فيه جزم ابن إسحاق بذلك.

(٤) صحيح البخاري ٣.

(٥) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٩٠.

وهو أمر نرى أنه يتوافق مع ما ذكره البخاري من أن وفاة ورقة سبقت الفتور مباشرة.

وهكذا يكون انقطاع الوحي (الأهم / الأطول) قد وقع في السنة الأولى للبعثة، بعد نزول عشر سور من القرآن، ولمدة لا نعرفها تحديدًا لكنها كانت كافية لأمرين: الأول مرور الرسول عليه الصلاة والسلام بحزن كبير كما سنرى الآن، الثاني: أن يتحدث مشركو مكة بالأمر.

* * *

في صحيح البخاري[1]، نقلت لنا السيدة عائشة عنه عليه الصلاة والسلام واقعة نزول الوحي لأول مرة، وذهابه عليه الصلاة والسلام إلى السيدة خديجة التي أخذته بدورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي قال له إنه الناموس الذي أنزل على موسى.. وشجعه وقال له ما قال..

ثم يكمل البخاري: **ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**

من الذي يتحدث هنا؟

السيدة عائشة؟

لا.

يبدو أنه الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، الذي نقل الحديث عن عروة بن الزبير عن خالته السيدة عائشة...

أي أنه يروي شيئًا هنا لم يسمعه من عروة، بل من أحد آخر لم يحدده لذا يقول: **فيما بلغنا..**

هكذا بالضبط: وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا...

(فيما بلغنا..)

يمكن أن يكون هذا قول معمر الذي روى عن الزهري، أو قول الزهري، في الحالتين كل ما سيلي من كلام لا ينتمي لما قبله من حديث صحيح متصل السند للسيدة عائشة رضي الله عنها.

بعبارة أخرى: هذا القول ليس ضمن «صحيح البخاري»، حتى لو كان ضمن كتاب «صحيح البخاري»، لأن العنوان الأصلي للكتاب هو «الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه».. المسند، والواقعة التي قالها البخاري عن الزهري ليست مسندة، وإنما أدرجها بعد حديث نزول الوحي تورعًا منه لأنها وصلته.

---

(١) صحيح البخاري ٦٩٨٢.

حسنًا.. ما الذي بلغ الزهري بالضبط ولمَ هذه المقدمة التبريرية- الاعتذارية لما سيأتي؟

وهل يستحق الأمر كل هذه المقدمات؟

نعم، غالبًا يستحق.. من أجل التوضيح.

* * *

هذا تمام ما بلغ الزهري وذكره البخاري..

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ.

باختصار:

ما بلغ الزهري.. هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما فتر عنه الوحي حزن حزنًا شديدًا لدرجة أنه كان يذهب إلى قمم الجبال كي يتردى منها، أي يرمي بنفسه منها...

وأن جبريل كان يظهر له كل مرة ليثبته..

* * *

فلنتذكر هنا ما قلناه في البداية عن سيدنا يوسف..

ولقد هم بها... لولا أن رأى برهان ربه..

يعني لم يفعل...

ولو طبقنا الآية الكريمة على الحدث الذي «بلغ» الزهري، لرأينا الأمرين متشابهين إلى حد بعيد..

حديث نفس، لم ينفذ، لأنه رأى برهان ربه..

أعترف أني بهذه الطريقة... لا أرى أي مشكلة فيما بلغ الزهري، بغض النظر عن الصحة الإسنادية أو عدم وجود سند متصل وكون الواقعة كلها من مراسيل* الزهري.

* * *

* الحديث المرسل هو الحديث الذي سقط الصحابي من سنده، والزهري معروف بمراسيله وكثيرون من أهل العلم يعتبرونها ضعيفة ولا يقبلونها.

لكن الموقف العام (المعاصر خصوصًا) مما بلغ الزهري وأدرجه البخاري في صحيحه، هو موقف دفاعي مستنفر وبشدة، ويحاول أولا تجاهل القصة أو تجنب الإشارة إليها.. ومن ثم يخوض حربًا لا هوادة فيها ضد المؤامرة الكونية والحرب القائمة على الدين من قبل أعدائه بشتى تصنيفاتهم...

هناك حرب من جهة (أعداء الدين الإسلامي) الذين سيستخدمون ما بلغ الزهري للتشكيك في نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام..

تشكيك بماذا بالضبط؟

بانتحار لم يحدث؟ بهاجس يفترض أنه مر في ذهنه عليه الصلاة والسلام في أول مراحل نبوته؟

هل هذا هو التشكيك؟

هل هناك من قال أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خلق من طين آخر غير طين البشر وأن المشاعر التي يمر بها الآخرون ممتنعة أصلًا عن المرور به، ولو مجرد المرور؟

من جهة أخرى، سيكون هناك المشككون بالبخاري وبالصحاح -وعلم الحديث عمومًا- سيقولون: أرأيتم؟ هذا ما يقوله البخاري عن الرسول عليه الصلاة والسلام! يقول أنه حاول الانتحار، يا للمؤامرة!

غالبًا رفع راية الدفاع عن الرسول عليه الصلاة والسلام هنا هو من أجل الهجوم على البخاري تحديدًا وما فيه تحديدًا..

ورغم أننا نقر ببشرية البخاري وبالتالي بإمكانية وقوعه في أي خطأ بشري، ونقر أيضًا أن «صحيح البخاري» هو جهد بشري وبالتالي فهو -بالتعريف- لا يخلو من الخطأ، لكن استخدام هذا الخبر بالذات في هذا السياق لا علاقة له بوجود خطأ في البخاري... وذلك لسببين..

أولًا: أن البخاري قد أدرجها في سياق معين يميزها عن الأحاديث الصحيحة متصلة السند.. ويمكن لكل مدقق أن يميز هذا بسهولة.

ثانيًا: أن الأمر في صالح البخاري وليس كما يزعمون ضده، لقد بلغ من شفافيته ومصداقيته أن نقل هذا الخبر على حساسيته..

هناك من المشككين من يقول عادة: وما أدرانا أن رواة الحديث لم يخفوا علينا شيئًا مهمًا؟ لماذا نثق بهم؟ ربما أخفوا شيئًا عن حياته قبل البعثة؟ ربما هناك تحريف لوصايا الرسول عليه الصلاة والسلام أو حذف لبعض ما قال لأغراض سياسية... يقولون هذا دومًا.

لكن عندما ننظر إلى الخبر الذي يقول أنه عليه الصلاة والسلام مر بهذه التجربة، نطمئن تمامًا...

من ينقل هذا الخبر، لن يخفي شيئًا على الإطلاق.

من يمتلك هذه الدرجة العالية من الشفافية والمصداقية، لن يتكتم على أي خبر مهما كان.

نقطة نهاية سطر.

* * *

علينا أن نسجل هنا أن استقبال «ما بلغ الزهري» سابقًا كان أهدأ بكثير من الاستقبال المعاصر المبالغ في الرفض للقصة واعتبار ما فيها أمرًا باطلًا يمس مكانة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام...

على سبيل المثال لا الحصر هذا ما كتبه ابن حجر في كتابه فتح الباري في شرح صحيح البخاري عندما وصل لشرح حديث بدء الوحي:

(.. وَأَمَّا إِرَادَتُهُ إِلْقَاءَ نَفْسه من رُؤُوس الْجبَال بعد مَا نُبِّئَ فَلِضَعْف قُوَّته عَنْ تَحَمُّل مَا حَمَلَهُ مِنْ أَعْبَاء النُّبُوَّة وَخَوْفًا مِمَّا يَحْصُل لَهُ مِنَ الْقيَام بهَا من مُبَايَنَة الْخَلْق جَميعًا كَمَا يَطْلُبُ الرَّجُلُ الرَّاحَةَ مِنْ غَمٍّ يَنَالُهُ فِي الْعَاجل بِمَا يَكُونُ فيه زَوَالُهُ عَنْهُ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى إِهْلَاك نَفْسه عَاجلًا حَتَّى إِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا فِيهِ صَبْرُهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْعُقْبَى الْمَحْمُودَة صَبَرَ وَاسْتَقَرَّتْ نَفْسُهُ..)[1]

وقال الإمام الذهبي في تاريخه وهو يعلق مستنكرًا قصة الراهب بحيرا وإخباره بنبوته وهو صبي:

(فَلَوْ وَقَعَ لَاشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ أَيَّمَا اشْتِهَار، وَلَبَقِيَ عِنْدَهُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِسٌّ مِنَ النُّبُوَّة، وَلَمَا أَنْكَرَ مَجِيءَ الْوَحْيِ إِلَيْه، أَوَّلًا بِغَار حِرَاء وَأَتَى خَدِيجَةَ خَائِفًا عَلَى عَقْلِه، وَلَمَا ذَهَبَ إِلَى شَوَاهِقِ الْجِبَالِ لِيَرْمِيَ نَفْسَهُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[2]

كانوا أكثر تقبلًا للجوانب الإنسانية في حياته عليه الصلاة والسلام... ربما لأنهم لم يكونوا يشعرون أنهم في حالة دفاع مزمنة عن النفس.. لم يكونوا في حالة «هزيمة نفسية» تجعلهم يعتبرون كل جانب إنساني في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام نقطة ضعف عليهم التعامل معها بالإنكار والإبطال...

لم يعتبروا أنفسهم، تاريخهم، رسولهم، في موضع الاتهام الذي يتطلب منهم أن يكونوا في موقف المحامي الباحث عن أدلة براءة طيلة الوقت.

وهذا يفسر الكثير.

* * *

ماذا عن عصمته عليه الصلاة والسلام وتعارض «الهاجس!» مع هذه العصمة؟

---

(١) فتح الباري الجزء ١٢ صفحة ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) تاريخ الإسلام تحقيق التدمري الجزء الأول ص ٥٧ .

السؤال هو: كيف عرف المعترضون أن هذا مما يتعارض مع العصمة؟ هل كانوا معصومين قبلها وعرفوا ذلك؟

هل هناك في أيديهم دليل إرشادي (كاتالوج) للعصمة وعلموا منه أن ثمة تعارضًا بين الأمرين...

في الحقيقة: كتالوج العصمة هو ما يجب أن يستخلص من سيرته الشريفة..

لا أن نبني سيرته على أساس كاتالوج مفترض..

والقرآن يقول عن العصمة بوضوح: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة (٥٧)

وهذا ما حدث هنا فيما بلغ الزهري، لقد عصمه الله من هاجس نفس..

إن كان قد حدث على الإطلاق..

* * *

فلنتخيل الآن ما يمكن أن يكون قد حدث.. فيما بلغ الزهري..

جاء الوحي بتلك التجربة المزلزلة الهائلة التي كان عليه الصلاة والسلام آخر إنسان يمر بها، استلم الرسول الكريم مهمته التي علم ثقلها، وآمن بنبوته نفر ممن حوله..

حسنًا..

كانت معه الآن السور العشر التي نزل بها الوحي..

بدأت اقرأ بسم ربك الذي خلق.. فصار يقرأ كل شيء من خلال السور.

صار يقرأ الكون من خلالها، يقرأ كل ما يراه من خلالها... تَشَرَّب بها حتى لعلها صارت في دمه ونخاعه..

هل كان «الفتور» مقصودًا كي يتعلم عليه الصلاة والسلام كيف يتشبع بما سينزل لاحقًا، تباعًا من القرآن وبوتيرة متسارعة؟

هل كان الفتور مرحلة ضرورية وجزءًا أساسيًا لكي يحصل عليه الصلاة والسلام على المزيد من معدات سيحتاجها في دربه الصعب لاحقًا؟

ربما..

* * *

لكن ماذا بعد ذلك...

ما الخطوة التالية؟

بقي ينتظر..

لم يأت شيء.

بقي يترقب الوحي قلقًا...

لم يحدث...

المدة غير معروفة بالضبط... لكن أزمة كهذه لا تنشب من انتظار أيام فقط.. لا بد أنها كانت أسابيع طويلة... أو أشهر... البعض يقول سنوات كما مر...

هل يمكننا تخيل ترقبه، قلقه، جزعه من انتظار من تأخر.. ما تأخر..

هل يمكننا تخيل قلق أم تنتظر ابنها على الباب، وتفترض عودته بعد غياب طويل في ساحات الحرب؟

هل تتخيلون أسئلة يمكن أن تطرح: هل هو شيء فعلته؟ هل بدر مني ما يجعلني غير مؤهل لكل ذلك؟

هل تتخيلونه وهو يذهب إلى حراء.. حيث التقى بالوحي أول مرة.. لعل المكان يستجلب الوحي الغائب من جديد...

هل تتخيلونه وهو يذهب إلى الخلاء.. إلى قمم الجبال.. إلى الوديان.. لعل الوحي يلاقيه هناك..

هل تتخيلون السؤال المرتسم في عيون المؤمنين: أما من شيء جديد؟

بلهفة أولًا. بترقب. ثم بالتدريج بلوعة. ثم بجزع.

هل تتخيلون السؤال المحتمل: ماذا لو كان هذا كل شيء؟!

ماذا لو أنه لن يجيء مجددًا!

هل انتهى كل شيء. دون سابق إنذار...

سؤال صعب.. وعر..

مرحلة صعبة نفسيًا بلا شك..

لكنها كانت درسًا قدمه الله عز وجل له، ليتعلم الصبر، ليواجه الدنيا وحيدًا لفترة دون وحي، لكي يفهم أن حياته ارتبطت -منذ أن نزل الوحي- بالوحي، على نحو لا فكاك منه..

وأن حياته ستكون منذ تلك اللحظة وعاءً للوحي وعاكسًا له..

* * *

وصلنا أيضًا موقف «مرسل» من مواقف سيدة الحكمة، السيدة خديجة في تلك الفترة المؤلمة الحرجة..

قالت له، وهي تشد من أزره، تقويه وتساعده على تجاوز الأزمة..

أن الوحي قد أبطأ عنه بسبب «جزعه»[1] عليه الصلاة والسلام.

قالت له أن يتجاوز الجزع كي يتجاوز الأزمة، وأن ربه يختبره، وكلما اجتاز الجزع بنجاح، عاد الوحي...

لو صح هذا، فإن وسائل تثبيتها ودعمها تتجاوز فكرتنا التقليدية عن الدعم... كانت أكثر ذكاءً من أن يكون دعمها محض مواساة.. مجرد تثبيت...

كانت تنظر له عينًا بعين وتقول له: تجاوز جزعك لينته الأمر.

سيدة الحكمة والقوة.. رضي الله عنها..

* * *

يفترض البعض أن هذه الحادثة لو صحت فإنها يمكن أن تمس مكانة الرسول عليه الصلاة والسلام في أذهاننا ونفوسنا..

على العكس. أرى أنها تقويها. تزيدها مناعة. تزيدنا قربًا منه. تقول لنا الكثير عن عالمه الداخلي. عن معاناته من داخلها. دومًا كنا نسمع عن معاناته مع الخارج، عن اضطهاد المشركين له وصراعهم معه وصراعه معهم... هنا ثمة معاناة داخلية من نوع مختلف، من نوع أكثر حميمية وأكثر قربًا من الذات..

هنا نفهم ألمه في الداخل، قلقه، جزعه... هنا نشعر به أقرب إلينا وأقرب منا... نعرف أنه في طريقه إلى أعلى نقطة في الكمال الإنساني مر أيضًا بشواهق الجبال تلك.. وربما جاءه هاجس أن ينهي كل شيء هناك...

تكاد القصة تجعلنا نعانقه، نحتضنه.. نفهمه أكثر... ونفهم أنفسنا أكثر فنتمكن من أن نعانقها ونحتضنها.. ننظر إلى ضعفنا بتفهم أكبر، ونعرف أن شواهق الجبال تلك أمر يمكن أن يحدث لنا فنتعلم كيف نهبط منها... لا كيف نلقي بأنفسنا منها..

نهبط من قصة شواهق الجبال هذه ونحن نفهمه أكثر، نشعر بقربنا له أكثر... نعرف أن قوته لم تكن شيئًا خارقًا وُلد به بل شيئًا اكتسبه عبر معاناة قادته إلى شواهق الجبال..

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤٢١٤ وهو حديث مرسل.

نهبط من قصة شواهق الجبال التي بلغت الزهري، ونحن نحبه أكثر..

حتى لو لم تصح القصة...

مرورنا بها، يجعلنا نحبه أكثر...

عليه الصلاة والسلام..

* * *

لا نعرف كم استمر هذا الصمت المؤلم، ولكن لنا أن نتخيل كيف عاد الوحي مرة أخرى كالفيضان يغمر الأرض العطشى..

فجأة.. ربما في لحظة استسلام تشبه استسلام إبراهيم وابنه لأمر الذبح.. تسليم لأمر الله بصمت الوحي أو بنزوله مجددًا...

هبط الوحي كالمطر المفاجئ الذي لم يسبق قدومه غيمة، ولم تعلن عن حضوره صرخة رعد أو وميض برق...

فجأة دق القلب، بعدما كان الظن أنه لن يدق.

عادت الحياة كما لو أنها لم تتوقف أصلًا...

تركه الوحي في سورة الفجر، الفجر الذي جاء بعد ليالٍ عشر...

وجاءه في الضحى! في ارتفاع الشمس.

كما لو ليقول له: نواصل من هنا. الفجر أكثر بيانًا من الليل، ومن الليال العشر. الشمس ظهرت وبدا النور... ولكن ثمة ما هو أوضح. ثمة ما تكون الأمور أوضح فيه. الضحى. الشمس ترتفع ويبدو كل شيء بأوضح ما يمكن.

الضحى هو عكس الليل إذا سجى، الليل الثابت، وليس الفجر... رغم أن الفجر قد يكون ألطف وأرق، فإنه ليس سوى بداية... الضحى شمسها ثقيلة، وحرها أشد، لكن الأمور فيها أوضح، الحقيقة فيها أكثر بيانًا، رغم أنها ليست الألطف بالضرورة... بالضبط مثل هذه التجربة التي مررت بها... فتور الوحي... ليست لطيفة على النفس، لكنك تقويتَ بها.. أصبحت أقوى... لم تكن وداعًا من ربك ولا تغيرًا منه عليك ولا عقوبة لك. كان الأمر لكي تصل إلى الضُّحى. إلى عين الحقيقة وشمسها. وسيكون القادم أكثر خيرًا من كل ما مضى... إلى درجة الرضى!

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾ الضحى (١:٥)

ثم يذكره الوحي بأزمات حياته الكبرى: يتمه، حيرته، حاجته...

والآن يستطيع أن يفهم هذه الأزمات من جديد على نحو مختلف... أزمة فتور الوحي كانت أقسى بكثير.. ولكن الوحي الإلهي ينبهه إلى نمط العناية الإلهية الذي لازمه دومًا... عند اليتم.. عند الحيرة... عند الحاجة...

كل مرة كان الله يقدم له البدائل ويكشف له عن الأفضل... كيف يمكن أن يكون انقطاع الوحي استثناءً عن هذا؟

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨)﴾ الضحى (٦:٨)

لكن تجربة الداخل هذه عندما تنتهي يجب أن تجلب نتائج إلى الخارج، الألم كان داخليًا مريرًا، ولكن نتائجه يجب أن تأتي بثمار إلى الآخرين... إلى الناس خارج دائرة هذا الألم الداخلي...

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ الضحى (٩:١١)

النعمة هنا -في هذه اللحظات- هذا الوحي الذي أنعم به عليه..

والتحديث به... هو التبليغ... أن يخبر الناس كلهم عن كل آية تتنزل عليه...

* * *

انهمر الوحي كالمطر على قلب محمد عليه الصلاة والسلام... لعل الوقت كان ضحى... ولعله خر ساجدًا شكرًا لله على نعمة هذا المطر... ولعل سنة صلاة الضحى بدأت في نعمة هذا المطر...

كان صدره عليه الصلاة والسلام قد ضاق كثيرًا قبل أن يعود الوحي من جديد...

ضاق كثيرًا بكل ما يحمله...

لكن هذا تغير في لحظة نزول الوحي وعودته من جديد...

هل نستغرب بعدها أن تكون السورة التي نزلت فورًا بعد سورة الضحى... هي سورة الشرح...

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾ الشرح (١:٨)

* * *

الآن نفهم أكثر...

نفهم معنى شرح الصدر...

ونفهم ما هو الحمل الذي أثقل ظهره عليه الصلاة والسلام...

ونفهم كيف أن مع العسر يسرًا...

الآن نفهم أكثر...

قريش على سطح صفيح ساخن

لو أن مخترعًا ما، أسس شركة تهتم بتصنيع مواد تقلل من استهلاك السيارات للوقود، فإن هناك الكثيرين ممن سيكونون مهتمين بهذا النتاج وسيدعمونه ويحاولون منافسته أيضًا..

لن يسر هذا القرار الجميع، وستنظر له شركات الوقود الكبرى حتمًا شزرًا وتحاربه.. لكن شركات السيارات ستدعمه.. في النهاية سيكون هناك حل وسط، ولن تخسر شركات الوقود ولا السيارات كثيرًا، قد تقل أرباح البعض لفترة، لكن قلة سعر الوقود ستؤدي إلى أن الكثيرين سيستخدمونه أكثر، وهكذا فإن النتيجة النهائية قد تكون لصالح الشركات الكبرى وللفرد المستهلك أيضًا..

لكن إن جاءت شركة رائدة بنمط سيارات مختلف تمامًا، بفكرة محرك مختلفة تمامًا عن كافة المحركات المستخدمة حاليًا، وبدون وقود أو دون وقود تقليدي تمامًا، فإن الكل سيحارب هذه الشركة وفكرتها... لأنها ببساطة تسحب البساط من الجميع وتغير كل الأسس والقواعد التي تقوم عليها «الصناعة»...

لذا تكون الحرب شرسة.. مثل صراع من أجل البقاء..

كل فكرة جديدة -تقوم مقام إصلاح بعض ما هو موجود وإدخال تحسينات عليه- قد تواجه ببعض المقاومة، أحيانًا لمجرد التحيز للقديم، وأحيانًا دفاعًا عن مصالح، لكن في الغالب يتم قبولها واستيعابها وتؤدي دورها الإصلاحي إلى حد ما..

لكن الفكرة الجديدة التي تتجاوز إصلاح ما هو موجود إلى بناء شيء مختلف تمامًا، التي لا ترى أن في إصلاح البناء الآيل للسقوط فائدة، بل ترى أن الجهد يجب أن يبذل في بناء جديد، هذه الفكرة، ستحارب بلا هوادة تقريبًا من الجميع، لا حل وسط معها، الفكرة الجديدة لا تسحب البساط فقط، بل تسحب البناء كله..

لذا فهي مواجهة حياة أو موت.. صراع من أجل البقاء.

* * *

كان تعامل قريش مع الدعوة الجديدة بنفس هذا النسق المتصاعد...

في البداية حرب عليها كأي حربٍ تحدث على أية فكرة جديدة تخالف المألوف والسائد... بمختلف أنواع الحرب..

في البداية كانت قريش تصف ما حدث لمحمد عليه الصلاة والسلام بالجنون.

ولكن وصم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون، كان يعني أن قريشًا على رفضها القاطع لدعوى الرسول، لم تكن تعتبره خطرًا جديًا عليها أول الأمر.

المجنون عادة لا يخشى منه بشكل جاد، إذ يمكن تحجيمه وتهميشه بسهولة.

لكنهم سرعان ما أدركوا أنه عليه الصلاة والسلام لا يبدو عليه الجنون حاشاه، رغم غرابة دعواه.

لذا فقد انتقلوا بعدها إلى أوصاف جديدة.. ضمن نفس الحرب الإعلامية ضد دعوته...

شاعر، كاهن، ساحر...

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ الطور (٢٩-٣٠)

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ الأنبياء (٥)

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾ الحاقة (٤١-٤٢)

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)﴾ ص (٤)

وكل هذه الأوصاف كانت تعبر عن إحساس قريش المتزايد بخطورة الدعوة الجديدة، فالكاهن يمكن أن تكون له سلطة وتأثير، والشاعر يمكن لشعره أن ينتشر، والساحر يمكن أن يفرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه..

لكن كلمة الصابئ، هي الكلمة الأقرب للحقيقة بالنسبة لقريش في وصف محمد عليه الصلاة والسلام، والصابئ هو المفارق لدين آبائه، وهي حقيقة، لم تكن كلمة سيئة أو استهزاء، فهي تعني الخروج من دين إلى آخر، لكن فعل ترك دين الآباء بحد ذاته كان سلبيًا عند العرب، لذلك أخذت قريش تلعب على هذا الوتر وتنشر هذا اللقب تحديدًا[1]، بعد أن كان يتوضح للكثيرين أن محمدًا ليس بمجنون ولا ساحر ولا شاعر...

حتى لو لم يكن كل هذا، فهو يدعو إلى ترك دين الآباء؟ هل ترضون بذلك؟

كان هذا هو الاتهام الأكبر خلف كل الأوصاف التي يروجها مشركو قريش ضد محمد عليه الصلاة والسلام..

(١) المعجم الكبير للطبراني ٣١٦٦.

كانوا بهذا يستثمرون في خوف الناس التقليدي من الشيء الجديد، يستثمرون الطبيعة البشرية التي ترغب في التمسك بالقديم وما كان عليه الآباء.. ويستفزون تقديس الآباء والأجداد عند العرب كي يرفضوا دعوة محمد..

وهو تقديس قوي بما فيه الكفاية ليكون جزءًا مهمًا من الحملة ضد محمد، ما الفرق لو كان شاعرًا أو ساحرًا أو كاهنًا أو كاذبًا أو حتى صادق ما دام سيؤدي إلى ترك دين الآباء؟!

وآيات القرآن التي تناقش هذا الأمر كثيرة ومنتشرة على طول الفترة المكية وحتى ما بعدها... ولكن يلاحظ أن الحديث عن الآبائية* في القرآن الكريم لم يأت مبكرًا في السور الأولى وإنما جاء لاحقًا لأن هذا الأمر لم يطرح من قبل المشركين مبكرًا وإنما جاء بعد بيان تهافت تهم السحر والجنون والكهانة والشعر (رغم أن استخدام هذه الأوصاف استمر لفترة متأخرة ولم يتوقف تمامًا)، وربما كانت أول إشارة واضحة ومباشرة إلى هذا في سورة الأعراف التي ترتيب نزولها ٣٩..

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الأعراف (٧٠)

وهكذا انتشرت تسمية الصابئ عليه الصلاة والسلام بين العرب، حتى إن البعض عندما كان يأتي مكة كان يسأل عن الصابئ الذي تتحدث عنه مكة لغرض رؤيته، وبعضهم كان يسلم نتيجة هذا[1]!

* * *

يقال الآن في المثل: لا توجد دعاية سيئة!

لكن قريش لم تكن تدرك هذا... ورغم أن دعايتها المضادة قد نجحت في منع وصول كلمته عليه الصلاة والسلام إلى الكثيرين، فإنها في الوقت نفسه جلبت نوعًا معينًا من الناس، نوعًا مميزًا ويمتلك حدًا من الحرية الفكرية الذي يجعله يشك بأوثان قومه ودينهم...

هؤلاء، ربما ما كانوا سيعرفون بوجوده عليه الصلاة والسلام لولا دعاية قريش المضادة، تحديدًا التي أطلقت عليه لقب الصابئ... جذبهم ما كان يبعد بقية الناس.. قالت لهم الدعاية المضادة، على الأقل، أن هذا الرجل -مثلكم- لا يؤمن بدين قومه.. فدفعهم ذلك للتقرب منه...

ورغم أنهم أقلية، فإنهم أقلية مميزة لعبت دورًا في نشر الإسلام في قومها، وستتعرف على بعضهم لاحقًا. من ضمنهم أبو ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي اللذان لم يكتفيا بإسلامهما بل ساهما في دعوة قومهما أيضًا...

---

* الآبائية: اتباع الآباء كتقليد أعمى.

(١) صحيح مسلم ١٣٢.

قريش كانت تقوم بعملية فلترة لا إرادية بحيث يكون «الأوائل» مميزين..

دون أن تشعر بذلك!

* * *

فلنتذكر هنا أن قريش استوعبت من قبل تحول بعض أبنائها إلى دين آخر.. مثل ورقة بن نوفل الذي اعتنق النصرانية وبقي في مكة ولم يبدُ أنه تعرض لعداء من قريش.

كذلك كان الأحناف موجودين ودينهم يختلف تمامًا عما يدين به أهل قريش ورغم ذلك، لا شيء واضح عن تعرضهم للعداء.

لمَ كان الأمر مع محمد مختلفًا، ومن البداية؟

* * *

فلْنُقرَّ أن إيمان ورقة بن نوفل أو الأحناف بدين مختلف (له نبيه أو أنبياؤه) كان مختلفًا تمامًا عن أن يكون هَناك نبي جديد بلحمه ودمه!

الأمر قد يكون مستفزًا وصادمًا.

أضف على ذلك، لم يصلنا أي شيء يدل على أن ورقة بن نوفل أو زيد بن عمرو بن نفيل كانا يحاولان نشر ما يؤمنان به.

بينما كان عليه الصلاة والسلام ينقل الإيمان به منذ الساعات الأولى لنزول الوحي عليه...

الأمر أكثر استفزازًا وخطرًا.. أن يؤمن محمد وأهله وورقة وزيد بن عمرو بن نفيل بإله واحد هذا شأنهم.. لكن في اللحظة التي يبدؤون فيها بالدعوة لما يؤمنون به خارج نطاق أسرهم... فالأمر يختلف..

وكان هناك، أكثر من ذلك...

* * *

لم يكن التوحيد الذي ينادي به عليه الصلاة والسلام يشبه توحيد ورقة وتوحيد الأحناف...

في البداية لعل قريشًا وكبار الملأ فيها لم ينتبهوا لذلك..

لكنهم فهموا بالتدريج..

توحيد ورقة بن نوفل والأحناف كان يرتكز على عبادة إله واحد فقط.. و يمكن أن يحدث عبر تجاهل الأصنام وعدم الإشارة لها، تجاهلها تمامًا...

أما التوحيد الذي يتحدث عنه عليه الصلاة والسلام فقد كان يرتكز على أن لا إله يعبد إلا الله...

لا إله إلا الله!

توحيد محمد، الشرط لدخول إيمانه، يبدأ أصلًا بمهاجمة أوثانهم! بنفيها وإلغائها!

شهادة الدخول في الإيمان الجديد تتطلب أن تلغي كل الأوثان.. أن تقر أنها غير موجودة أصلًا...

لم يعد الإيمان هنا هو أن يعبد إلهًا واحدًا ولا يتدخل ببقية الآلهة التي يعبدها سواه..

بل صار الإيمان يعني ضمنيًا «كسر الأوثان».. وهذا ما قاله الرسول حرفيًا لعمرو بن عبسة كما مر سابقًا...

إذن كان أمام قريش دعوة جديدة، تتسع باستمرار تطالب بكسر الأوثان (ويعني ذلك التخلي عن دين الآباء والأجداد بالإضافة إلى أهمية الأوثان التجارية بالنسبة لمكة بالإضافة إلى إيمانهم بها أيضًا)...

وكانت الدعوة الجديدة أيضًا تعني تسليم كل شيء (من قيم وأعراف ورثوها) لمحمد عليه الصلاة والسلام، ليقرر هو ما يشاء تجاهها أو يقر قيمًا جديدةً غيرها..

كان الأمر أشبه بتوقيع على بياض يسلم لمحمد عليه الصلاة والسلام وهم لا يعرفون الأجندة التي يمكن أن يحملها الدين الجديد..

بل إن مجرد تسليم نوع من السلطة لمحمد، وهو من بني هاشم من بني عبد مناف، كان سيخرب «التحالفات والتوافقات» التي استقر الوضع عليها في مكة، والذي يوزع المهام بين البطون المهمة دون سيادة أو هيمنة لأي بطن، لكن هذا ما كان يمكن أن يبقى على هذا النحو مع الاعتراف بالنبوة لمحمد...

وهذا ما قاله أبو جهل بصراحة فيما تقدم: «بَنِي قُصَيٍّ قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَقَالُوا: فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا اللِّوَاءُ فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا السِّقَايَةُ فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ (أي تساوينا في الشرف) قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ؟[1]»

كان الأمر يشبه تغيير الأبجدية أو اللغة في دولة ما... أو تغيير أنظمة الحاسوب بلغة مختلفة تمامًا.

كل شيء سيتغير..

غيرت قريش هنا أسلوب حربها..

من الحملة الإعلانية ضد الرسول عليه الصلاة والسلام، إلى إيذاء أتباعه...

* * *

(١) مسند ابن أبي شيبة ٣٥٨٢٩.

كان هناك مثال صارخ على التغيير العميق الذي يمكن أن يحدث في المجتمع المكي بسبب الإيمان الجديد، وهذا المثال سهل على قريش الانتقال إلى مرحلة الإيذاء...

كان هذا هو إيمان العبيد بالدين الجديد وعصيان أوامر أسيادهم.

كان الأمر ينذر بخطر كبير، لا من ناحية تمرد العبيد وانتشار الأمر بينهم فحسب، بل من ناحية أن طبيعة العلاقات في المجتمع تتغير، وأن أتباع محمد من الأحرار كانوا لا يجدون غضاضة في الجلوس مع العبيد أو التعامل معهم كأنداد..

ورغم أن بلال الحبشي هو الذي اشتهر، فإنه من الواضح أن هناك عبيدًا سواه دخلوا في الإسلام، أبو بكر (وحده) أعتق سبعة من الذين كانوا يعذبون في الله..

أَعْتَقَ أَبُو بَكْرٍ مِمَّا كَانَ يُعَذَّبُ فِي اللهِ سَبْعَةً: عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ وَبِلَالًا وَنَذِيرَةَ وَأُمَّ عُبَيْسٍ وَالنَّهْدِيَّةَ وَأُخْتَهَا وَحَارِثَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ مُؤَمَّلٍ[1]

وربما كانت هذه النقطة، نقطة دخول العبيد في الإسلام، هي نقطة تحول عداء قريش للدعوة الجديدة من السخرية والاستهزاء بالدين الجديد إلى نقطة الحرب الحقيقية.. أي الإيذاء الجسدي والتعذيب الذي تعرض له المسلمون في مكة. ما سهل الأمر هو أن التعامل هنا مع أشخاص لا عشائر لهم يستفزها الأمر ويزعجها، لذا فهي فرصة لقريش لكي تبطش بأتباع الدين الجديد دون تبعات ناتجة عن ذلك، وعلى نحو يجعلهم عبرة لمن يعتبر ممن تخشى حدوث تبعات لو مسهم شيءٌ.

التعذيب الصريح المباشر كان من نصيب العبيد مثل بلال والأسماء التي ذكرت فيمن أعتقهم أبو بكر، أو الموالي* مثل خباب بن الأرت (الذي كان أولًا سبيًا مملوكًا لأم أنمار الخزاعية حليفة بني زهرة[2]، ثم أعتقته فصار مولى لها ومحالفًا لبني زهرة)، وكذلك المحالفين من العشائر غير القرشية التي سكنت مكة وتحالفت مع قريش مثل عمار بن ياسر وأهله (وكان من حلفاء بني مخزوم[3]، عشيرة أبي جهل).

وفي كل الحالات، كان من قام بالتعذيب ينتمي إلى العشيرة التي تملك أو تحالف (بلال كان مملوكًا لبني جمح وأمية بن خلف الجمحي هو الذي عذبه، وأم أنمار هي التي عذبت خباب[4]، وأبو جهل المخزومي عذب عمارًا وأهله وهم حلفاء لبني مخزوم).

---

(١) مسند ابن أبي شيبة ٣١٩٣٩.

* الموالي أنواع، منهم من يعتق من العبيد فيصير مولى لسيده بمثابة خادم، ومنهم يصير مواليًا عندما يتحالف مع عشيرة.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٥٦٣٣.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٥٦٥٢.

(٤) أنساب الأشراف ٤٤٤.

ولعل فترة التعذيب المباشر هذه قد أبرزت من سيكون الأشد على الإسلام لاحقًا.. إذ قام عمرو بن الحكم أبو جهل بقتل سمية أم عمار بن ياسر طعنًا[1]، ولاحقًا سنجده يتصدر كل موقف ضد الرسول عليه الصلاة والسلام على نحو يجعله صاحب دور «الشرير» بلا منازع في الفترة المكية.

لكن المؤمنين الذين ينتمون إلى قريش تعرضوا لضغوط من عشائرهم وأسرهم وصلت أحيانًا لحدود الحبس (مع مصعب بن عمير مثلًا الذي حبسته أمه[2] أو عثمان بن عفان الذي أوثق عمه الحكم بن أبي العاص رباطه[3]) أو الضغط المعنوي (كما مع سعد بن أبي وقاص مثلًا الذي حلفت أمه أن لا تكلمه ولا تأكل ولا تشرب حتى يكفر، وفعلت ذلك لثلاثة أيام حتى غلبها الجهد وأجبرها ابن لها على الطعام[4])..

* * *

كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يزال في معزل وحصانة في هذه المرحلة، ما كان ليتعرض من أذى قريش كما تعرض العبيد والموالي بالتأكيد، فهو قُرَشِي، وما كان سيتعرض لأذى من عشيرة غير عشيرته بني هاشم، ولكن في الوقت نفسه علينا أن ننتبه أن من تعرضوا لأذى من قبل عشائرهم كانوا أصغر سنًا منه عليه الصلاة والسلام. أي أن مكانة الرسول الاجتماعية والعمرية داخل عشيرته أيضًا ساهمت في حمايته.

ولعل موقف أبي لهب المبكر من الرسول عليه الصلاة والسلام هو أكثر مواقف بني هاشم حدة تجاهه وربما كان أبو لهب متعمدًا لحدة الموقف وعلنيته لكي يعزل نفسه عن أي تعاطف محتمل من بني هاشم مع محمد، كما أن تأثير زوجته أم جميل بنت حرب (أخت أبي سفيان بن حرب) -حمالة الحطب- لا يمكن أن يتجاهل تمامًا، خاصة عندما سنرى مواقفها لاحقًا.. (ولعل تصاعد حدة مواقف أبي لهب لاحقًا سيقودنا إلى البحث عن أسباب أعمق لعداء أبي لهب للرسول عليه الصلاة والسلام).

لكنه عليه الصلاة والسلام تعرض لنوع مختلف من الأذى، لم يصلنا أن الآخرين من المؤمنين قد تعرضوا له...

نوع قد لا يكون جسديًا مباشرًا...

لكنه قد يكون أشد وطأةً على المدى البعيد...

* * *

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣٣٦٨٩.

(٢) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم ٣٤٦٩.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد الطبعة العلمية الجزء ٣ صفحة ٤٠.

(٤) صحيح مسلم ٤٣.

قامت قريش بضرب حصار اجتماعي على الرسول عليه الصلاة والسلام عبر ضغطها على تطليق بناته لإشغاله بهن[١].. أدى الأمر إلى طلاق ابنتي الرسول رقية وأم كلثوم من ابني أبي لهب عتبة وعتيبة[٢] بتحريض مباشر من أبي لهب وزوجه، وطلب عتبة الزواج بدلاً عن ذلك ببنت سعيد بن العاص فزوجوه إياها مقابل طلاقه لرقية[٣] (فلننتبه هنا إلى أن هاشميًا طلق هاشمية كي يتزوج من بني عبد شمس، الإيمان الجديد يرسم خريطة جديدة للتحالفات والمصاهرات... وزواج رقية من عثمان بن عفان -وهو من بني عبد شمس أيضًا- يؤكد أن الإيمان يتغلغل أكثر وأكثر ويعيد ترتيب كل شيء)..

وطلب المشركون من العاص ابن أبي الربيع طلاق زينب بنت الرسول لكنه رفض[٤]..

فلنسجل هنا أن زوجة أبي لهب أم جميل بنت حرب أخرجت كل الحطب في داخلها، فصارت تهجوه عليه الصلاة والسلام وتسميه «مذممًا»...

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «لأَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ (أي حجر تريد أن تضرب الرسول به) وَهِيَ تَقُولُ: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ.. فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي. فَقَالَ: لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ.»

فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: «قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا[٥]»

وأبو بكر هنا حلف صادقًا لأن ما يقوله الرسول ليس شعرًا كي يسميه هجاء.. أم جميل فهمت أن الأمر نفي لما سمعت من شمولها مع زوجها بهجوم من القرآن... وفهمت ذلك أنه لمكانة أبيها حرب بن أمية... لذا فقد ذهبت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها...

وكل هذه أمثلة ولا بد على زيادة جرأة قريش على الرسول عليه الصلاة والسلام... إذا كانت زوجة عمه تهجوه، وهذا موقفه... فلم لا يفعل الآخرون كذلك..

ولهذا فإن الفترة اللاحقة شهدت أول مرة الإساءات اللفظية وحتى الجسدية التي طالت الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن كان الأمر سخرية واستهزاء..

الحرب لم تكن باردة على الإطلاق...

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٠٥٠.
(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٠٦٠.
(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٠٥٠.
(٤) المعجم الكبير للطبراني ١٠٥٠.
(٥) المستدرك على الصحيحين ٣٣٧٦.

ولكنه عليه الصلاة والسلام كان يعرف تمامًا أن الثمن باهظٌ..

وأن هذا هو جزء منه فحسب...

* * *

رقية وأم كلثوم ترجعان، كسيرتي الخاطر حزينتين إلى البيت إذن.

لكن هناك من يغادر البيت، ويحزن الكل عليه...

إنه عبد الله الصغير، الملقب بالطاهر وبالطيب... كان عبد الله هو أصغر أولاده عليه الصلاة والسلام.. وآخر من أنجبتهم خديجة رضي الله عنها... ولد بعد البعثة... وتوفي بعدها بفترة قليلة.. ولعله عليه الصلاة والسلام كان قد استبشر بولادته بعد البعثة... لكن ها هو يلحق بأخيه القاسم...

ولعل السيدة خديجة كانت قد بلغت مبلغًا من العمر يصعب أن تنجب مرة أخرى... وهذا شجع العاص بن وائل السهمي بأن يعايره بأنه أبتر.. بلا عقب من أولاد ذكور... فإذا مات انقطع ذكره[1]...

وهنا نزلت سورة الكوثر... تواسيه عليه الصلاة والسلام.. وتقول له أن الذكر الحقيقي لا يكون بأولاد ذكور... وتعده بكثرة مختلفة في طبيعتها عن معايير العرب في جاهليتهم... وتسميها الكوثر... وترتيبها بين السور الخامسة عشرة، وتنزل بعدها سورة التكاثر، وهي تضرب مفاهيم الجاهلية القائمة على التكديس، الأموال والأولاد... وتتوعدهم الجحيم الذي سيسألون فيه عن كل هذا...

وغير بعيد عن كل هذا تنزل سورة الماعون، ويقال أنها نزلت أيضًا في العاص بن وائل السهمي، أو في أبي سفيان بن حرب الذي كان ينحر جزورين (ناقتين) كل أسبوع، فجاءه يتيم يسأله من الذبح، فقرعه بعصا[2].. كرمه كان كرمًا لأثرياء قريش ووجهائها فحسب، ولكي يضاف إلى وجاهته، وليس لكي يشبع منه الجياع أو من لا يحسب لهم حساب من اليتامى والمهمشين.. فنزلت الآيات تربط بين تكذيب هؤلاء للدين وبين سلوكهم الجشع **أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين...**

ربط مستمر بين الدين الجديد، وسلوكيات وأخلاقيات يومية تحدث في مكة...

وإحراجٌ مستمر لسادتها وملأها...

---

(١) أسباب النزول تحقيق الحميدان الجزء الأول صفحة ٤٦٦.

(٢) أسباب النزول تحقيق الحميدان الجزء الأول صفحة ٤٦٥.

غرانيق لا تجيد التحليق

في مرحلة مبكرة، وما إن رأت قريش نماذج من صلابة المؤمنين بالدين الجديد، وبعد أن مرَّ رد فعلها الأولي الرافض لأي شيء يغير الوضع السائد والمتوارث...

كان لا بد لعقل قريش التجاري أن يسأل: لم لا؟

لم لا يمكن الاستفادة من دعوة محمد الجديدة باحتوائها ومن ثم استثمارها لتكون رصيدًا يضاف إلى مكة؟

كان لا بد للتاجر في نهاية الأمر أن يفكر هكذا.

لا بد أن موسم الحج كان على وشك الاقتراب، وقريش لا تريد أن تظهر بمظهر سيئ أمام قوافل الحجاج والتجار.. أن تؤدب عبدًا أمر لا مشكلة فيه.. لكن أن يكون الأمر ظاهرةً تنتشر بين قريش ومواليها وعبيدها فهو يعكس مشكلة لا تريد قريش أن تظهر أكثر..

كان لا بد للجزء التاجر من عقل قريش أن يسأل: لم لا؟

* * *

ورغم أننا لا نزال في مرحلة مبكرة، ورغم أن محمدًا ومن معه لا يزالون قلة، ولم يصل عددهم إلى الأربعين حتى، وأنهم مستضعفون، فإن قريشًا حاولت احتواء الدعوة كلها كجزء من سياستها ووجودها المبني أصلًا على احتواء وتنازلات وتحالفات..

فذهبت جماعة منهم إليه وقالوا: يَا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فَاتَّبِعْ دِينَنَا وَنَتَّبِعُ دِينَكَ، تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً، فَإِنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ خَيْرًا مِمَّا بِأَيْدِينَا كُنَّا قَدْ شَرِكْنَاكَ فِيهِ وَأَخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي بِأَيْدِينَا خَيْرًا مِمَّا فِي يَدِكَ كُنْتَ قَدْ شَرِكْتَنَا فِي أَمْرِنَا وَأَخَذْتَ بِحَظِّكَ، فَقَالَ: «مَعَاذَ اللهِ أَنْ أُشْرِكَ بِهِ غَيْرَهُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَغَدَا رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِيهِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى فَرَغَ مِنَ السُّورَةِ، فَأَيِسُوا مِنْهُ عِنْدَ ذَلِكَ[1]

---

(١) أسباب النزول الجزء الأول تحقيق الحميدان صفحة ٤٦٧ وذكره الألباني في صحيح السيرة.

حاولت قريش أن تتعامل مع الأمر كما لو كان مهام تتقاسمها كما قسمت الرفادة والسقاية والندوة والسفارة وأرضت البطون المختلفة... ما رأيك أن نعبد إلهك سنة وتعبد أنت اللات والعزى السنة التي تلي ذلك؟ فإن رأينا أن دينك أفضل من ديننا اعتنقناه، وإن رأيت أنت العكس أخذت ديننا!

عم يتحدثون بالضبط؟ كيف يمكن لهم تقرير أي دين خير هكذا؟!

غالبًا كانوا يقصدون انعكاس ذلك على تجارة قريش وأسواقها وموسم حجها... دين القوم كان أموالهم وتجارتهم...

وجاء الرد رافضًا بحسم فيما أصبح لاحقًا مثالًا على المفاصلة.

لكم دينكم ولي دين. والدينان لا يتمازجان. ليسا عشيرتين متحاربتين تصالح بينهما بزواج ومصاهرة وحلف.

الأمر أكبر ولا يقبل التمازج والمساومة.

كانت تلك هي أول مرة يناديهم الوحي فيما سيصبح اسمًا لهم: الكافرون.

وكانت تلك هي السورة الثامنة عشرة حسب ترتيب النزول...

* * *

يقول النص أنهم يئسوا منه..

لكن ربما كان يأسهم من قبوله بهذه الطريقة الفجة.

هناك أكثر من إشارة لاحقة، ضمن نفس المرحلة، تشير إلى أنهم ربما كانوا يريدون حلًا وسطًا يحتوي دعوة محمد ويتنازل لها قليلًا لكي يحصد احتواءها...

سورة الفيل مثلًا، التي نزلت بعد «سورة الكافرون» مباشرة، أي أنها بالتسلسل ١٩، ربما تكون قد أعطت بعض الأمل لقريش...

السورة تتحدث عن نصر الله للكعبة عندما هاجمها أصحاب الفيل... الحدث الذي يبعد أكثر قليلًا من أربعة عقود ولكنه ظل حيًا بالتأكيد في ذاكرة قريش وكان جزءًا من فخرها واعتزازها بل وزاد من مكانتها بين العرب... رغم أن قريشًا لم تبذل أي جهد في هذا النصر فإنها غيرته لحسابها تمامًا... والآن الوحي يتحدث عما حدث دون أن يبدي شقاقًا ضد قريش أو يخالفها فيما ترويه عن الواقعة..

ربما طمأنها هذا قليلًا في رد فعلها تجاه لفظ «الرحمن» الذي سبق لأبرهة أن استخدمه.

بل ربما ظنوا أن محمدًا عليه الصلاة والسلام قد بدأ يغير لهجته تجاههم.

* * *

السور اللاحقة ربما تبرز بعض الفضول القريشي تجاه إله محمد...

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ الإخلاص (١، ٢)(١)

كانت تلك السورة تحمل الرقم الثاني والعشرين في ترتيب النزول... ولقد عبرت عن الفرق الشاسع بين فكرة قريش عن الإله (الذي يتصورونه خاضعًا للنسب كما البشر) وبين التوحيد المتعالي عن أي تجسيم أو تشبيه بشري...

* * *

واحدة من محاولات قريش في احتواء الأمر تتمثل في رأيي في حادثة لم تفهم على أنها محاولة احتواء قريشية للدعوة..

الحادثة مشهورة لغرابة بل ونكارة بعض أجزائها، ولأن هناك من حاول استغلال الجزء المنكر منها لتشويه الرسول عليه الصلاة والسلام (وهو أمر طبيعي وجزء طبيعي من مهمات النبوة)، ونال الجزء المنكر من القصة شهرة عالمية عندما صدرت فتوى إعدام أواخر الثمانينات بحق مؤلف روائي حاول استخدامها في رواية له.

أكرر: الحادثة لها أساس صحيح وثابت، أي أنها في كتب الصحاح وسندها صحيح.

ولكن هناك تفاصيل منكرة للحادثة، بأسانيد غير صحيحة، ولم ترد في الصحاح، وهذه التفاصيل هي سبب المشكلة.

ما هي الحادثة الأصلية الثابتة؟

عَنِ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ»(٢)

سجد المسلمون والمشركون إذن، في مكة، والشرك لا يزال أوج قوته، بينما الرسول يقرأ سورة النجم، التي نزلت في هذه المرحلة التي نتحدث عنها: بالتسلسل ٢٣، بعد قل هو الله أحد تمامًا، أي بعد أن كانوا يسألونه (ربما فضولًا) انسب لنا ربك، وبعد أن عرضوا عليه التناوب في العبادة في سورة «الكافرون»...

لمَ يسجد الكافرون أثناء قراءة سورة النجم؟ أن يسجد المسلمون لما يقرأه الرسول عليه الصلاة والسلام فهذا متوقع..

---

(١) سنن الترمذي ٣٣٦٤ وحسنه الألباني.

(٢) صحيح البخاري ٤٨٦٢.

لكن أن يسجد المشركون؟

والواقعة في صحيح البخاري.

ما تفسيرها وما التفاصيل التي لم تصح؟

* * *

تفسير الواقعة موجود في عدد كبير من الطرق والأسانيد التي لم يصح منها شيء (بين الإرسال والضعف وجهالة الرواة) وقد فصّل الشيخ الألباني في ضعف كل تلك الطرق في كتاب خاص[1] يمكن مراجعته لمن شاء أن يستزيد.

لكني أرغب في تفحص واقعية «الحادثة» التي ترويها تلك الأسانيد الضعيفة والباطلة.

فلنتذكر أن أصل القصة: سجود المشركين مع المسلمين، ثابت وفي صحيح البخاري.

ونحن لا نجد تفسيرًا بسند صحيح لما حدث.

* * *

ملخص ما تقوله الأسانيد الضعيفة:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قَرَأَ النَّجْمَ فَلَمَّا بَلَغَ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ النجم (١٩) ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ النجم (٢٠) أَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ «تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَشَفَاعَتُهُنَّ لَتُرْتَجَى» فَلَمَّا سَجَدَ سَجَدَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ[2].

والغرانيق هي طيور مائية بيضاء طويلة السيقان، تشبه طائر الكراكي، ويبدو أن قريشًا كانت تجسم آلهتها بهذا الشكل.

وفي بعض أسانيد القصة أن جبريل راجعه عليه الصلاة والسلام بعد ذلك، وسأله أن يعيد ما قاله عليه، فقال عليه الصلاة والسلام الآيات وأعاد ذكر «الغرانيق العلى..» فقال له جبريل أنه لم يأت بهذا وأن هذا قول الشيطان.

أي أنه عليه الصلاة والسلام (حسب النسخة ضعيفة السند من القصة) لم ينتبه لوجود أي «إشكال» فيما قال، ليس هذا فقط، حتى المسلمون لم يجدوا أي مشكلة في أن تذكر الأوثان بخير في القرآن فجأة ودون سابق إنذار ولم يراجعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك، إلى أن جاء جبريل لينبه الرسول إلى ذلك.

رد الفعل على هذا غير منطقي تمامًا، ويستحق رفض القصة بهذه التفاصيل.

---

(١) نصب المنجنيق لنسف قصة الغرانيق- محمد ناصر الدين الألباني.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٢٤٥٠.

لكننا نعرف أن ثمة ما حدث وأدى إلى سجود المشركين والمسلمين..

فما هو هذا الذي حدث؟

كيف نجمع بين قبولنا بهذا الذي ثبت حدوثه ورفضنا لتفاصيل ضعيفة السند وضعيفة التناسق؟

فلنتنبه إلى ما يلي بخصوص هذه الحادثة:

أولًا: السياق الذي نزلت فيه سورة النجم، وأقصد السياق من ناحية قريش، ورغبتها باحتواء الدعوة وإجراء مساومة من نوع ما مع دعوة محمد.

بعبارة أخرى: قريش كانت تريد أي بادرة «حسن نية» منه عليه الصلاة والسلام لكي تأخذها وتبني عليها.

ثانيًا: أن بعض أسانيد القصة تؤكد هذا السياق: **قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المشركون: إن ذكر آلهتنا بخير ذكرنا إلهه بخير، فألقى في أمنيته: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩—٢٠]، «إنهن لفي الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»**[1]

وفي سند آخر: **وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ: لَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَذْكُرُ آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ أَقْرَرْنَاهُ وَأَصْحَابَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَذْكُرُ أَحَدًا مِمَّنْ خَالَفَ دِينَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى بِمِثْلِ الَّذِي يَذْكُرُ بِهِ آلِهَتَنَا مِنَ الشَّتْمِ وَالشَّرِّ، فَلَمَّا أَنْزَلَ [ص: ٣٥] اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السُّورَةَ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [النجم: ١]، وَقَرَأَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ٢٠] أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِيهَا عِنْدَ ذَلِكَ ذِكْرَ الطَّوَاغِيتِ فَقَالَ: «وَإِنَّهُنَّ لَمِنَ الْغَرَانِيقِ الْعُلَى، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُمْ لَتُرْتَجَى»**[2]

أي أن قريش كانت تنتظر أي شيء منه عليه الصلاة والسلام...

ثالثًا: وفي سند آخر، يظهر أن قريش كانت تريد أن تريه عليه الصلاة والسلام كيف أن ذكره آلهة قريش بخير سيعود عليه بخير أكبر إذ يجالسه أهم العرب: **عن أبي العالية قال: قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جلساؤك عبيد بني فلان، ومولى بني فلان، فلو ذكرت آلهتنا بشيء جالسناك، فإنه يأتيك أشرف العرب، فإذا رأوا جلساءك أشرف قومك كان أرغب لهم فيك، قال: فألقى الشيطان في أمنيته، فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩—٢٠]، قال: فأجرى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلى[3].. إلخ**

---

(١) نصب المنجنيق لنسف قصة الغرانيق/ السند السابع صفحة ٢٦.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٨٣١٦.

(٣) نصب المنجنيق السند ٣/ صفحة ٣٠.

رابعًا: في هذه السورة ورد ذكر آلهة قريش لأول مرة باسمها. ويجب أن يكون هناك انتباه شديد لكامل السياق لكي يفهم أن الآيات تنتقص من آلهة قريش.

ضمن كل ما سبق: قريش تريد من الرسول أن يذكر آلهتها بخير، وآياته غالبًا ضد ما تعبد قريش من آلهة ولكنه لم يسبق له أن ذكرها بالاسم في الآيات، تأتي هذه الآيات هذه المرة وضمن هذا الترقب بذكر أسماء الآلهة لأول مرة، الآيات التي ورد ذكر الآلهة فيها لا سب فيها ولا انتقاص للآلهة. بل يفهم هذا من كامل السياق.

هل سجد الكفار لمجرد ورود أسماء آلهتهم في الآيات؟ هل كان ذلك أصلًا من عاداتهم، السجود عند ورود أسماء آلهتها؟ لا نعرف. لكن من المحتمل أن قريشًا كانت تريد أن تضع الرسول عليه الصلاة والسلام أمام الأمر الواقع، تتظاهر أنه ذكر آلهتها بخير وتفرح وتنشر الخبر لكي يرى محمد بأم عينه كيف يمكن أن ينتفع فعلا لو أنه جاملهم قليلًا في آلهتهم... سيسجد الكل، وسيرحب به الجميع..

ليس من المستبعد بعد هذا أن ألفاظ **«الغرانيق العلى» كلها كانت ألصقتها قريش بالآيات** كي تشيع أن محمدًا قد جامل آلهتها فعلًا وكي تكرس الإشاعة وتزيد وطأة الأمر الواقع عليه..

كل هذا مجرد استنتاج، أراه يفسر سجود المشركين مع المؤمنين.. وأكثر منطقية من أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال شيئًا مما قاله الشيطان...

* * *

فلننتبه هنا إلى أن الكثير من المفسرين يرى في آية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الحج (٥٢) علاقة بهذه الحادثة ضعيفة السند غير المتماسكة منطقيًا..

ولكن الآية ليس فيها ما يشير إلى هذه الواقعة من قريب أو من بعيد...

ثمة أمنية لكل نبي ورسول... أمنية بانتشار دعوته وهداية قومه..

وثمة شيطان يتربص، يحاول تحريف فهم ما يقوله النبي...

لا أخدود في مكة

للشعارات بريقٌ يخطف أحيانًا القلوب والعقول..

أحيانًا يوظف ذلك فيما هو حق وعدل وصواب..

وأحيانًا هناك من يوظفها على نحو عشوائي يقود إلى ما هو بكل شيء..

وأحيانًا تكون هناك نيات طيبة، ولكن أيضًا يتم توظيفها لصالح ما هو مضاد من قيم...

بعض الشعارات تكون ملهمة، وتصبح لبعض الناس، خصوصًا الشباب منهم، مثل المغناطيس الذي يشدهم إلى المزيد..

وعندما تختلط الشعارات بقيم الاستشهاد والفوز بالجنة، فإن الأمر يصبح ذا مخاطر محتملة أكثر من أي شعارات أخرى..

وعندما تكون الظروف المحيطة محبطة، تدفع إلى اليأس...

فإن هذه الشعارات تتحول إلى شيء يشبه الدوامة، تبتلعهم بالتدريج...

صحيح أن الدوامة قد تخرجهم من الظروف المحيطة المحبطة...

لكنها غالبًا تأخذهم إلى وضع أسوأ..

* * *

للأسف، تعرضت القيم الدينية، لهذا الخطر في الكثير من الأحيان عبر التاريخ، وتتعرض في هذه الفترة لشيء مماثل..

ما هو هذا الخطر؟

خطرٌ أن تتحول المصاعب والشدائد لتكون دليلًا على صحة الطريق...

وهذا موجود للأسف، الكثير من التجارب تعتبر مرورها في أزمات وكوارث دليلًا على كون هذه التجارب صحيحة!

أي بدلًا من البحث عن السبب الذي أدى إلى وقوع الأزمة أو الكارثة لتصحيح المسار، فإن الأزمة والكارثة صارت تعد علامة صحة للتجربة...

الكارثة علامة صحة التجربة!

وليس وصول التجربة إلى أهدافها مثلًا...

انتشرت أقوال منسوبة للسلف، دون ذكر اسم منهم، تقول «والله لولا المحن لشككت في الطريق!»*... وهكذا صارت المحنةُ شرطًا في التأكد من صحة الأمور!

قد تكون المحنة ناتجةً عن مواجهات حتمية..

ولكنها قد تكون أيضًا قد نتجت عن أخطاء أساسية في التجربة نفسها!

ولكن اعتبارها «شرط صحة» لن يجعل أحدًا يمارس النقد والتقويم لمعرفة أين الخلل!

ومن يستفيد من هذا كله غير أعداء التجربة؟

وربما أيضًا من تسبب بالمحنة؟

* * *

ما دخل هذا كله بالسيرة النبوية؟

دخله أن البعض يقرأ القرآن الكريم على نحو معاكس للتطبيق النبوي له...

ونحن نقرأ في سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام كيف فهم القرآن، كيف طبقه. في السيرة النبوية الكريمة نرى امتدادًا بشريًا تطبيقيًا لما نقرؤه في القرآن، سيبقى القرآن ومعانيه مثل الموشور قابلة لتطبيقات متنوعة وليست بالضرورة متناقضة بينها...

الجزء المقصود من القرآن هو سورة البروج التي نزلت بالتسلسل ٢٧ والتي تضمنت قصة أصحاب الأخدود...

السورة تشير إلى أخدود كبير أُحرق فيه مجموعة من المؤمنين الذي كان كل جرمهم أنهم آمنوا بالله، تفاصيل القصة موجودة في صحيح مسلم[١]، وخلاصتها المهمة هنا أن «غلامًا» كان مقربًا من ملك ظالم يجبر الكل على عبادته، هذا الغلام تعرف على راهب جعله يؤمن بالله، فأمر الملك بصلبه أمام كل الناس، لكن كان الإيمان بالله قد انتشر بين الناس، فأمر الملك بحفر أخدود ضخم وصار يسأل كل أهل المدينة من ربك؟ فيقول الله فيأمر بحرقه.

وهكذا قضوا جميعًا حرقًا في الأخدود.

* * *

* هذا القول المنتشر المنسوب لواحد من السلف لا يزال يبحث عن قائله من السلف.

(١) صحيح مسلم ٧٣.

القصة مرتبطة بحادثة لم تكن قريش تجهلها بالتأكيد، إذ لم تكن بعيدة جغرافيًا ولم يكن تاريخ وقوعها زمنيًا بعيدًا جدًا، فهي غالبًا ترتبط بما حدث لنصارى نجران حوالي ٥٢٣ ميلادية (على بعد ٦٠٠ كيلومتر جنوب مكة) على يد ملك حمير اليهودي «ذو نواس» الذي حكم في الفترة بين ٥١٧ - ٥٢٧ ميلادية، أي قبل ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام بحوالي خمسين عامًا وأقل من مائة سنة من البعثة.. علمًا أن المجازر التي ارتكبها ذو نواس بحق نصارى نجران لم تكن حادثًا عابرًا في الجزيرة، وقد مر سابقًا توضيح أن الحادثة قد أدت إلى تدخل مملكة أكسوم (المعروفة عندنا بالحبشة) والقضاء على مملكة الحميريين، وكان هذا كله ضمن صراع الفرس والبيزنطيين وكانت حملة أبرهة على مكة من النتائج النهائية لما حدث في نجران.

إذن القصة لم تكن بعيدة عن ذاكرة قريش واهتمامها، نزل فيها وحي مقدس وتحدث عنها عليه الصلاة والسلام تفصيلا، ويوجد أثرٌ يربط بوضوح بين ذكر الأخدود في القرآن وما حدث لنصارى نجران[1].

لكن كيف فهمها وطبقها عليه الصلاة والسلام؟

هذا ما يهمنا في التداخل بين السيرة والقرآن..

* * *

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[2]

خباب بن الأرت، وهو من الأوائل، يروي هذه الواقعة.

المسلمون يتعرضون للأذى والتعذيب.

وسؤال منه موجه للرسول عليه الصلاة والسلام: «**ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟**»

ماذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل؟

كان متوسدًا البردة، جالسًا في ظل الكعبة.

حقًا؟

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد ١٥٧٣.

(٢) صحيح البخاري ٦٩٤٣.

بينما المسلمون يعذبون؟

نعم..

مقاييسنا اليوم تحتم عليه أن يذهب ليُعَذَّب معهم.. لأن هذه المقاييس ليست مستلة من سيرته عليه الصلاة والسلام.. بل من محض شعارات ومبالغات لفظية لا تمت للواقع بصلة..

لكنه عليه الصلاة والسلام، هو من يحدد كيف يكون الأمر صوابًا ومناسبًا، وليس أحكامنا المسبقة التي قد تكون خيالية، غير واقعية، صنعتها الشعارات...

نعم، هو يستظل تحت الكعبة..

لكن هذا لا يعني أنه يستجم هناك...

لكنه يحتاج إلى أن ينعزل قليلًا ليفكر فيما يمكن فعله فيما يتعرض له المسلمون...

التفكير؟ أحيانًا سمعته سيئة، مرتبط بالتنظير، وقد أصبح أقرب للشتيمة، شبعنا تنظيرًا، نريد الفعل، نريد العمل..

وها هو عليه الصلاة والسلام، يفكر بشيء للعمل..

ثلاث طرق واجهها مسلمو مكة ضد تعذيب قريش لهم...

الأولى: استخدام الروابط العشائرية في حماية المسلمين، وهي عمليًا استعانة بـ«مشرك» أو كافر أو ما شئتم من التسميات، لكنه عليه الصلاة لم يجد أدنى مشكلة في استخدام هذه الروابط في توفير الحماية للمسلمين، بل حتى إنه استخدم هذه الرابطة لنفسه عليه الصلاة والسلام، وماذا كانت حماية أبي طالب وإجارة المطعم بن عدي (لاحقًا) له غير ذاك؟

الفكرة هنا هي استخدام ما يتوفر من علاقات ومن روابط، مهما كانت أسسها بعيدة عن العقيدة، ومهما كانت تربطنا بأناس مختلفين تمامًا فكريًا بل وعلى الطرف الآخر الأقرب للكفر... نعم حتى هؤلاء استخدم عليه الصلاة والسلام العلاقة والروابط معهم للحفاظ على سلامة المؤمنين وأرواحهم... لا تصعيد لفظي شعاراتي عن عدم الاستعانة بالمشركين و«ملة الكفر واحدة»، على الإطلاق.. وضع لأرواح الناس وسلامتها كأولوية على ما سوى ذلك.

الثانية: الأموال لشراء العبيد الذين كانوا يعذبون.. أبو بكر وحده أنقذ سبعة من العبيد المؤمنين الذين كانوا يعذبون من قبل أسيادهم... هل كانت الفكرة فكرة أبي بكر؟ أم أنها كانت فكرته عليه الصلاة والسلام، ربما وهو جالس في ظل الكعبة؟ هل كانت كل الأموال أموال أبي بكر؟ أم أن

السيدة خديجة بنت خويلد ساهمت في الأمر؟ أو سواها من أغنياء المسلمين، هل كانوا يجمعون الأموال ويدعمون العبيد وكان أبو بكر هو واجهتهم للأمر- استخفاء منهم؟ لماذا لم يقال لاحقًا ذلك؟ ربما خوفًا من الرياء. لماذا لم يقم عليه الصلاة والسلام بنفسه بالأمر؟ لأنه كان لا بد من فهم وتكريس فكرة أن الإسلام لا يقوم على رجل واحد، حتى لو كان عليه الصلاة والسلام نفسه..

الثالثة: وهي ربما الأهم.. السماح لمن يعذب أن يظهر الكفر للمحافظة على حياته وسلامته.. حدث هذا على الأقل مع عمار بن ياسر فيما نعرف وقد نزل القرآن في ذلك..

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النحل (١٠٦)

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»[1]

عمار بن ياسر يعذبه ضميره، يقول لقد نلت منك وذكرتُ إلهتهم بخير..

يسأله عليه الصلاة والسلام عن قلبه.. كيف كان عندما قال كلمة الكفر..

فرد عمار أن ذلك لم يؤثر على قلبه..

فقال له عليه الصلاة والسلام أن يكررها لو عادوا..

يكررها؟!

يكرر كلمة الكفر لكي يخلوا سبيله؟

نعم..

* * *

لو أن شيئًا مشابهًا حدث اليوم لرأينا البعض يعلق تعليقات من نوع ...

وأين إذن: «لا نعطي الدنية في ديننا؟» وأين «ألسنا على حق؟» «أليسوا على باطل؟»..

للأسف هذه العبارات قالها عمر بن الخطاب في سياق مختلف تمامًا[2] عندما كانت قوى المسلمين والمشركين متساوية تقريبًا إن لم تكن لصالح المسلمين...

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣٣٦٢.

(٢) في واقعة صلح الحديبية/ صحيح البخاري ٢٧٣١.

ورغم ذلك، تراجع عمر بن الخطاب نفسه واعتذر عن هذا الذي قاله..

لكن للأسف، هناك من ينسى هذه الآية الكريمة التي تجيز التراجع ظاهريًا عن الإيمان حفاظًا على السلامة، وينسى موقف الرسول الكريم مع عمار حيث أوصاه «إن عادوا فعد» لم يقل له مثلًا هذه المرة لا بأس ولكن في المرة القادمة حاول أن تتحمل! لا.. أوصاه أن يعود لما قال من كلمة الكفر إن عادوا إلى إكراهه...

هناك من ينسى آية قرآنية، وموقفًا نبويًا، ويتذكر كلمات قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتراجع عنها في نفس اليوم وروى هو بنفسه كيف قالها وكيف تراجع عنها في نفس الحديث، ويحول هذه الكلمات إلى شعارات مقدسة الخروج عنها هو كالخروج عن الدين!

* * *

فلننتبه هنا إلى أن الموالي والمحالفين ربما كانوا الحلقة الأضعف بين الجميع، أضعف حتى من العبيد، إذ كان يمكن المساومة على شراء العبيد بالمال كما حدث فعلًا، لكن وضع الموالي والمحالفين كان يجعلهم في منزلة من الصعب تخليصهم منها، الموالي بعضهم عبيد سابقون أعتقوا وأصبحوا موالي لسادتهم السابقين، أو يكونون قادمين من عشائر ضعيفة خارج مكة، ويضطرون لموالاة عشيرة قوية لكي يتمتعوا بحمايتها، أو يكونون عبيدًا سابقين أعتقوا ولكن يبقى ولاؤهم لمن كان مالكًا لهم، لكي يتمتعوا بحمايته.

هؤلاء كانوا في وضع لا يمكن فيه شراؤهم كما مع العبيد لأنهم ليسوا عبيدًا، كذلك كانوا بلا حماية من عشائرهم.

ولعل هذا يفسر مقتل سمية وياسر تحديدًا من بين كل من عرفنا أنهم أوذوا في الإسلام، لا هم عبيد فينقذهم من يملك المال، ولا لهم عشائر تثأر لهم وتطالب بدمائهم.

ولأنهم كانوا محالفين لبني مخزوم، فقد وقعوا مع الأسوأ والأشد عداء..

مع أبي جهل.

* * *

ولعل هذا السياق كله يفسر لنا ما نعرفه عن سورة «عبس وتولى»، وهي السورة التي نزلت في نفس الفترة تقريبًا، قبل سورة البروج بسورتين فقط، إذ إن تسلسلها هو الرابع والعشرون.

السورة تتحدث معه عليه الصلاة والسلام، وتعاتبه أمامنا جميعًا في درجة متناهية من الشفافية والنقاء، لم العتب؟ الرسول عليه الصلاة والسلام يحاول إقناع أحدهم، ممن يبدو من الآيات أنه كان من عظماء قريش، وأثناء محاولته يأتيه رجل أعمى، يسأله باهتمام عن شيء ما يخص دعوته.

ولكنه عليه الصلاة والسلام «يعبس ويتولى» أمام الأعمى ويحاول مواصلة إقناع من كان يحاوره.

العتب كان على موقفه تجاه الأعمى فحسب، موقفه من الأعمى مقارنة بموقفه مع الآخر..

لكن سياق السورة يوضح لنا لهفة الرسول على إقناع هذا الرجل الذي وصف بأنه من «عظماء المشركين»[(١)]

نتوقع عادة أنه يريد أن يقنعه بالإسلام.. ربما، ولكن ممكن جدًا أيضًا أنه يقنعه بحماية المسلمين..

يقال أن الرجل هو أبي بن خلف أو أمية بن خلف.. أو هشام بن المغيرة... أو عتبة أو شيبة بن ربيعة[(٢)].. وقيل أنه كان هناك جمع من هؤلاء...

كل واحد من هؤلاء كان مركز قوة في عشيرته، وكان يكفي جدًا منه أن يحمي المسلمين الموالين لهذه العشيرة...

أمية وأبي كانا من بني جمح.. هشام بن المغيرة من بني خزيمة (وكان آل ياسر من مواليهم) وعتبة وشيبة بن ربيعة كانا من بني عبد شمس.

مراكز قوة كان المسلمون يحتاجونها، بغض النظر عن إسلامهم شخصيًا..

* * *

ماذا كان سيحدث لولا هذه الآليات الثلاثة التي استخدمها عليه الصلاة والسلام لمواجهة تعذيب كفار مكة؟

أولًا: لو كان هناك رفض لاستخدام الروابط العشائرية تحت شعار «لا نستعين بكافر، مشرك.. إلخ» فإن ذلك سيدفع بالجميع ، حتى الأقوياء منهم، الأقوياء بانتمائهم العشائري، إلى فقدان هذه القوة والمواجهة مع الجميع .

ثانيًا: بسبب ما سبق، فإن إمكانية استخدام المال لشراء العبيد ستكون أقل لأن الأقوياء أصحاب المال أنفسهم سيكونون في حالة مواجهة.

ثالثًا: لو كان التظاهر بتأييد الكفر ومسايرته يعد مفارقة للإيمان، فإن المشهد الأخدودي سيتكرر: وكل المؤمنين سيزجون في محرقة لن ينجو منها إلا من سيكفر.

هذا ما كان سيحدث لولا الآليات التي استخدمها عليه الصلاة والسلام..

وهذا ما كان سيحدث لو أننا سلمنا طريقة التفكير السائدة حاليًا زمام الأمور...

---

(١) سنن الترمذي ٣٣٣١ وصححه الألباني.

(٢) موطأ الإمام مالك ٦٩٢/ ٢٢٣.

لكنكم تستعجلون!

* * *

فلنتذكر أن قصة أصحاب الأخدود التي رواها الرسول في صحيح مسلم تضمنت شخصيتين مركزيتين...

الغلام والراهب..

هل الغلام هنا يمثل إيمانًا شبابيًا تتحكم فيه العاطفة أكثر مما يجب؟

وهل الراهب يمثل تعبدًا منقطعًا عن الواقع مغرقًا في المثالية؟

هل كان لهذا دخلٌ في النتيجة الأخدودية التي انتهت لها التجربة... وليس النتيجة التي انتهت لها التجربة في مكة، عندما كانت بيد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام؟

ولن يقلل هذا من الفوز الأخروي الذي حصل عليه المؤمنون الذين ألقي بهم في الأخدود..

لكن مؤمني مكة حصلوا على ما هو أكبر...

حققوا الحسنيين: بناء أفضل للعالم، تعبيد الطريق إلى الجنة...

* * *

ويمكن فهم موقف الرسول عليه الصلاة والسلام ومحاولته تجنب التجارب الأخدودية قدر الإمكان عبر تفحص موقف المسلمين عمومًا من الجهر بالإسلام والتخفي به..

دومًا يقدم الموضوع كما لو كان مرتبطًا بمرحلة زمنية فاصلة بين الحالتين، من السنة الأولى للبعثة مثلًا إلى الرابعة كان المسلمون مسلمين سرًا، ومن السنة الخامسة فما يليها صاروا مسلمين جهرًا..

الأمر لم يكن هكذا، أبيض أو أسود، بل كان تداخلًا بين اللونين ومع ألوان أخرى متدرجة تختلف أحيانًا بحسب ظروف الشخص ووضعه وليس بحسب المرحلة الزمنية بالضرورة..

ولعل أبسط وأوضح مثال على هذا أبو بكر الصديق نفسه رضي الله عنه. قريش كانت تعلم أنه مسلم طبعًا، شراؤه للعبيد الذين أسلموا كان معلومًا، وقد وصل عددهم إلى سبعة..

لكن هذا لم يكن يجعله جهريًا كما نتخيل، بل كان مضطرًا حتى مرحلة متقدمة جدًا قبل الهجرة بقليل إلى الاكتفاء بالصلاة في بيته، وقد كان ذلك من شروط الحماية التي قدمها له أبو الدغنة* عندما أجاره من قريش، أن يَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ[1]

والتزم أبو بكر بالأمر لكنه بنى ما يشبه المسجد في الدار، وكان أبو بكر رجلًا بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فكان الجيران من المشركين يسمعونه وقد فتن صوته نساءهم وأولادهم، فطلبت قريش من أبي الدغنة أن يرد عليه جواره لأنه قد أعلن عبادته لربه وإن لم يخرج من بيته، وقد رد أبو الدغنة جواره فعلًا، ولكن ما لبث أبو بكر أن هاجر مع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

هذا الأمر حدث مع أبي بكر، مع مكانته وسنه، فلا ريب أنه كان يحدث مع آخرين.

وهذا يؤكد أن الجهري والسري كان مرتبطًا بالظرف الشخصي للفرد، أكثر مما يرتبط بمرحلة زمنية.

وهو يؤكد أيضًا المرونة التي كان المسلمون يبدونها للتكيف مع الأوضاع المحيطة..

كي يتجنبوا التعثر بالأخدود، في كل خطوة...

* * *

لماذا كان لا أخدود في مكة؟

ببساطة لأن الإسلام حركة حياة متغيرة باستمرار، وليس حركة حزبية يهمها أن تتمسك بشعاراتها اكثر مما تهمها الحياة، وتخلط بين التضحيات والمنجزات..

الإسلام حركة حياة، قد تتعثر، قد تمر بالأخدود، قد تمر بالمحن والشدائد والصعاب.. بالتأكيد... كما سيحدث لأي تجربة..

لكن هذا ليس شرطًا لصحة الطريق..

الطريق لا يمر بالأخدود بالضرورة...

---

* هو سيد القارة من بني الهون بن خزيمة، من الأحابيش، راجع المفتاح الثاني عشر.

(١) صحيح البخاري ٣٩٠٥.

المعجزات لا تحدث سرًا

في مرحلة لاحقة، بدأت المواجهة مع مشركي قريش تتخذ طابعًا مختلفًا..

بدأت الأسئلة... بدأ النقاش، بدأ الجدال..

صحيح أن النبرة ربما كانت لا تزال تحمل من السخرية والاستهزاء الشيء الكثير..

إلا أن ذلك كان ربما يتضمن شيئًا خلفه..

ولعل كان هناك منهم من ينصت حقًا للنقاش..

أو لعل النقاش كان يتسرب شيئًا فشيئًا في عقولهم، حتى لو كانت أصواتهم وحناجرهم تقول شيئًا آخر..

ربما لا نعتقد أن التطور كان كبيرًا وقتها..

لكن الانتقال من مرحلة «مجنون! يقول أنه نبي!» ومرحلة «أَصَبَوْت؟ أتترك دين الآباء؟» إلى مرحلة «ما دليلك على كونك نبيًا؟» هو بالتأكيد تطور كبير...

حتى لو كانت الطريقة التي تقال بها الجملة فيها سخرية واستهزاء..

ثمة شيء يتغير..

بالضبط مثل الفرق في أن ترفض السماع لشخص ما أصلًا، من ناحية المبدأ، وبين أن تسمعه وتسمع ما يقول حتى لو كنت قد قد قررت مسبقًا أن ترفض..

لكن ضمنيًا، مجرد سماعك للأمر، فأنت تقر أن ما يقوله قابل للأخذ والرد والنقاش..

بينما في البداية كنت لا ترى ذلك..

ربما لم يكن الأمر سواء مع كل المشركين.. وربما كان بعضهم يظهر السخرية أمام القوم، ولكن ثمة شيئًا في داخله يتغير بالتدريج... ربما كان يشارك في الجدال مع القوم وهو يظهر أنه في صفهم، يريد أن يحرج محمدًا عليه الصلاة والسلام..

لكن ربما كان في داخله يريد حقًا أن يعرف ماذا سيكون جوابه عليه الصلاة والسلام..

ليس الإيمان دومًا صاعقة تأتي فجأة..

ليس الإيمان دومًا حبًا يحدث من أول نظرة...

هو أحيانًا يكون كنبتة تنمو بالتدريج، يبدأ بذرة صغيرة ربما ألقيت على غفلة من الأرض التي تحويها، تنمو البذرة بالتدريج، تتحدى الظروف الصعبة، وتنبت كشيء صغير لا يكاد يرى.. ولكنها فجأة ستشق الأرض وتكبر...

أحيانًا يكون الإيمان هكذا.. هناك كلمة تسمعها وأنت في قمة رفضك وتحديك لها، الكلمة تقع في أعماقك، ربما لا تهتم كثيرًا، وربما سطحك لا يزال يظهر نفس الرفض، ولسانك لا يزال يقول كلمات الرفض ويكررها... ولكن تلك الكلمة التي سقطت في أعماقك بدأت تسقط أشياء أخرى.. بدأت تعمل كالمحفار في أعماقك دون أن تعي ذلك في البداية..

ويتفاعل ذلك مع كلمات أخرى، مع نقاش مستمر، مع أشياء ربما قيلت من قبل وسمعتها ألف مرة، لكن الآن، كل شيء يبدو مختلفًا، وحتى ما سمعته من قبل تسمعه الآن من جديد وتفهمه على نحو مختلف...

وعندما يحدث الإيمان.. ويظهر على سطحك ولسانك..

قد يبدو للبعض أنه مفاجئٌ..

لكن الحقيقة هي أن بذرته كانت تنمو بهدوء تحت السطح..

* * *

أين كانت تحدث هذه النقاشات مع الرسول عليه الصلاة والسلام؟

في كل مكان في مكة غالبًا..

في كل مكان يكون فيه الرسول ويدعو فيه إلى الإسلام، كان يمكن لنقاش كهذا أن يحدث، في أسواق مكة، في شوارعها، حول الكعبة، في مجالسها..

لم يكن الرسول الكريم متخفيًا بدعوته قط، كان يتحدث مع الناس في كل مكان...

والآن ها نحن نرى نوعًا مختلفًا من الردود...

صرنا الآن نسمع: **يا محمد! كل الأنبياء كان لديهم آيات! ما آيتك أنت؟**

ربما كانت النبرة ليست محترمة وفيها استهزاء وسخرية..

ولكن السؤال بحد ذاته كان يتضمن حقيقة أن **الوعي القُرَشي قد استدرج إلى نقطة أنه صار يقارن محمدًا بأنبياء بني إسرائيل**، بينما كان أصلًا يرفض فكرة النبوة عند العرب ويجدها هجينة وغريبة...

* * *

وهكذا بدأت قريش تتصرف كما تصرف أقوام بني إسرائيل مع أنبيائها..

صاروا يطلبون من محمد عليه الصلاة والسلام آية.. أو معجزة..

بالضبط كما فعل الكفار مع أنبيائهم..

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الشعراء (١٥٤) مع قوم صالح

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الأعراف (١٠٦) مع فرعون

وها هم كفار مكة يطالبون بآية...

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ طه (١٣٣)

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ الأنبياء (٥)

السؤال تحول من: **هل جننت؟**

إلى: **ما هي معجزتك؟**

صحيح ما هي؟!

* * *

السؤال الذي سألته قريش كان أنها طلبت آية: ائت بها، بالضبط كما طلبتها الأقوام الأخرى مرارًا وتكرارًا..

لكن، بالنسبة للأقوام الأخرى، عندما طلبت الآيات.. وجاءت الآيات.. هل أدى ذلك إلى إيمانها؟

طلب فرعون آية...

فجاءت العصا تسعى...

ولكنه لم يؤمن بل قتل من آمن وكانوا «الحكم» الذي عينه فرعون بنفسه..

طلبت ثمود آية.. وجاءت الناقة.. فماذا فعلوا؟ قتلوها!

جاء المسيح بالمعجزات، أحيا الموتى وأشفى الأكمه والأبرص؟

فهل آمنوا؟

بل حاولوا قتله!

وها هم قوم محمد عليه الصلاة والسلام يطلبون آية، في تطور نوعي بالنسبة لنوعية تفكيرهم ورؤيتهم عن النبوة...

ولكن.. ثمة تطور آخر ينتظرهم!

* * *

يقول المثل إذا قمت بتكرار عمل الأشياء بنفس الطريقة... فأنك ستحصل على النتيجة ذاتها!

ولقد شاءت الحكمة الإلهية، أن تمنح البشر فرصًا متعددة في التعرف عليه عز وجل، بدأتها أولاً بسلسلة من المعجزات المادية، أي الأمور الخارقة للطبيعة ولما تعوده البشر من الطبيعة حولهم..

كان ذلك موافقًا لما طلبه البشر أنفسهم من براهين..

وكما كان موافقًا لطبيعة العقل البشري التي تريد أن ترى ما هو خارق -ماديًا وبشكل مشاهد بالعين المجردة- لكي ترفع الراية البيضاء وتعلن أن صاحب هذه المعجزة لا بد أن يكون مؤيدًا من الخالق..

لكن ما كان يحدث مع هذا النوع من المعجزات أمران..

الأول أن ليس كل من شاهدها قد آمن بمن جاء بها، فدومًا كان هناك باب واسع للخروج من الإيمان لمن يريد... لعله السحر؟ لعله سحر أعيننا؟ لعله خداع بصر... إلخ

وهذا بالنسبة لمن شاهد الأمر عيانًا..

فأما من لم يشاهد، فأبواب عدم الإيمان له أوسع... لم يصدق أصلًا أن هناك من شاهد المعجزة...

إذن المعجزة المادية، التي جاء بها أنبياء ما قبل القرآن كان لها بعدان أساسيان، الأول أنها كانت حسية، مادية، تشاهد على نحو مباشر، والثاني أن أثرها كان دومًا «وقتيًا»، مرتبطًا بوقت الحادثة..

فهل كان من المنطقي أن يقوم نبي آخر الزمان بتقديم معجزة من ذات جنس المعجزات التي جاء بها من سبقه من الأنبياء؟

تكرار الشيء ذاته، كان ينتهي دومًا بالنتيجة ذاتها..

من العبث، بل من الجنون، أن تنتظر نتيجة أخرى مختلفة..

والآيات التي قدمت للأقوام السابقة لم تفرق كثيرًا في إيمانهم، على العكس، جحدوها ونالوا عذابًا على ذلك..

اليوم معجزة أخرى، مختلفة، لا تشبه المعجزات من ناحية أنها مادية..

وهي مستمرة، لا زمن يحدها، ولا مكان يعزلها..

القرآن..

* * *

كانوا يطالبون بالمعجزة، غير مدركين أن ما يتحدث به محمد عليه الصلاة والسلام هو المعجزة..

هذا الذي يقوله، والذي كان يغير الناس، يدخل قلوبهم وعقولهم، يغير من حياتهم، يغيرهم كلية.. أمر ما فعلته عصا موسى ولا يد المسيح، ما كانت العصا تمس الناس فيتغيرون، واليد التي كانت تحيي الموتى وتشفي الأمراض بإذن الله ما كانت تغير النفوس لو مستها..

لكن هذا القرآن، بكلماته، كان يفعل...

كانوا يسألون محمدًا آية، ولكنهم كانوا عمليًا يعيشون في داخلها، يرون آثارها، بينما كانوا يطالبون بها، كانت في الحقيقة تثير أعصابهم ضد محمد: هذا التغيير الذي حدث في مكة، هؤلاء الرجال والنساء الذين يتركون دين آبائهم ويؤمنون بمحمد، هؤلاء هم المعجزة الحقيقية..

هل كانوا يريدون معجزة مادية، أن يحيي محمد مثلًا عبد المطلب أو أن يجعل السماء تمطر ذهبًا على مكة؟

جربت البشرية ذلك من قبل مرارًا..

آن لها أن تلتقي بفرصتها الأخيرة...

* * *

القرآن إذن هو المعجزة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام.

تنتظرون مني أن أكمل؟

.. أن أقول معجزته «الأساسية»... مثلًا...

أن أضيف قائمة أخرى من المعجزات؟

لم؟ القرآن لا يكفي مثلًا؟ لا يملأ العيون؟

لندع القرآن يرد...

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ العنكبوت (٥٠، ٥١)

سورة العنكبوت هي من أواخر ما نزل في المرحلة المكية بأسرها.. تسلسل النزول هو ٨٥، ويليها سورة المطففين فقط..

إذن، بعد أن انتهت تقريبًا المرحلة المكية.. ١٣ عامًا من الدعوة..

القرآن يقول: **أو لم يكفهم القرآن كمعجزة؟! لا يزالون يطالبون بآية مثل آيات ما قبل القرآن؟!**

لعل السؤال يطرح علينا أيضًا؟

أو لم يكفنا القرآن كمعجزة؟ ولا نزال نبحث عن معجزةٍ مادية تشبه معجزات أنبياء ما قبل القرآن...

* * *

لا بد أن يقودنا الحديث إذن إلى «انشقاق القمر»، وهو أول وأهم ما يضاف إلى قائمة المعجزات..

والقمر تبلغ كتلته أكثر قليلًا من ربع كتلة الأرض.. ومساحته أصغر قليلًا من قارة آسيا أكبر قارة على الأرض.

حصول انشقاق في القمر، كمعجزة، هو أهم بكثير (وبلا مقارنة) من أي من معجزات الرسل السابقين..

انشقاق القمر، وهو بهذا الحجم، هو أهم -مثلًا- من انشقاق البحر أمام موسى عليه السلام ومن معه، بلا مقارنة.

وانشقاق القمر هو أهم بالتأكيد من تحول العصا إلى حية تسعى..

وأهم وأضخم من عودة ميت إلى الحياة..

وأهم من شفاء الأكمه والأبرص دون الحاجة أصلًا لقول ذلك..

كل معجزات الأنبياء الآخرين، ستتضاءل أهميتها وحجمها مقابل انشقاق القمر..

كل المعجزات الأخرى، كان تأثيرها محصورًا بمكانها، ولعل أكبرها كان شق البحر لموسى.. لكن حادثة مثل انشقاق القمر كانت سيكون لها تأثيرها الكبير على الكرة الأرضية بأسرها، لأن القمر مؤثر على الحياة في الأرض، من خلال التأثير على الجاذبية وعلى حركتي المد والجزر، تعرض القمر للانشقاق ما كان يمكن أن يحدث دون أن تتأثر الأرض كلها: كان يفترض أن تنتج أعاصير وعواصف وفيضانات عن الأمر... لكن شيئًا من هذا لم يذكر أنه حدث وقتها، علمًا أن القمر هو القمر في مكة وفي المدينة وفي فارس وفي بلاد الشام (والوقت واحد تقريبًا في هذه الأماكن بفارق بسيط لا يتجاوز الساعتين)، فأي انشقاق للقمر يحدث لمكة، يجب أن يرى في كل هذه الأماكن.. وبعضها كان متطورًا بحيث يملك حسابات ومراصد.. ومع هذا لم يذكر شيء عن الأمر..

إضافة إلى هذا، نرى كل تلك المعجزات الأخرى -الأقل حجمًا- قد ذكرت قرآنيًا عدة مرات، وأشير لها مرارًا، بينما الإشارة إلى انشقاق القمر جاءت في موضع واحد.. والإشارة لم تكن واضحة.. أي لم يكن أي تفاصيل لسياق حدوثها، وطلب المشركين لها، بينما عرفنا تفاصيل الناقة والعصا..

مثلًا معجزة تحول العصا إلى أفعى بيد رسوله موسى ذكرت ثماني مرات في خمس سور (طه ٢٠ و٦٩، الأعراف ١٠٧ و١١٧، الشعراء ٣٢ و٤٥، النمل ١٠، القصص ٣١) وكذلك تكرر ذكر ناقة صالح أربع مرات (الأعراف ٧٣، هود ٦٤، الإسراء ٥٩، الشعراء ١٥٥).

كذلك تكرر ذكر آيات ومعجزات الأنبياء الآخرين عليهم وعلى رسولنا الصلاة والسلام أكثر من مرة فكما تكرر ذكر عصا موسى (تحولها إلى أفعى، والاستسقاء بها، وشق البحر) ثلاث عشرة مرة؛ ورد إغراق قوم نوح إحدى عشرة مرة، وعذاب قوم لوط ثماني مرات*

أليس هذا غريبًا؟

وأليس غريبًا أن تنزل الآية المعنية (اقتربت الساعة وانشق القمر) في النصف الأول من المرحلة المكية.. بينما تتوالى الآيات لاحقًا، تتحدث عن مطالبة المشركين بآية «كونية» دون أن تشير إلى أن الآية قدمت لهم فعلًا..

فلنراجع الآيات التي أشارت لذلك..

١. في سورة الأعراف وهي مكية وتسلسل نزولها ٣٩ أي بعد سورة القمر بثلاث سور فقط. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف (٢٠٣)

يقول الحق سبحانه وتعالى «وإذا لم تأتهم بآية»، ولم يقل ألم تأتهم بآية وهي «شق القمر» على عظمتها يقول الكفار لولا اجتبيتها أي لو اخترعت أنت آية لك من أجل أن تقنعنا بنبوتك مما يدل على أنهم لم يشاهدوا آية منه.

٢. سورة طه مكية وتسلسلها ٤٥ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ طه (١٣٣)

* فصل في شرح هذا الأمر وتوضيحه الدكتور محمد صالح العاني في كتاب «القيامة كونية أم أرضية»

أي أن الله سبحانه وتعالى يرد على طلب المشركين (بآية من ربه) أن ألم يكفهم معرفتهم وعلمهم بالآيات التي أنزلت على الأقوام السابقة، حيث أهلكوا نتيجة تكذيبهم لرسلهم وكذلك ورود علامات نبوة محمد (عليه الصلاة والسلام) في الصحف الأولى.

٣. سورة الشعراء: مكية تسلسل نزولها في مكة ٤٧ أي بعد سورة القمر. يقول تعالى ﴿لعلكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ الشعراء (٣، ٤)

أي لو نشاء أن ننزل على كفار قومك معجزة من السماء تلجئهم من قوتها ووضوحها وشدتها إلى الإيمان فتصير أعناق أصحابهم وجماعاتهم منقادة لها حتمًا.

وهذه الآية نزلت بعد سورة القمر... **فهل معجزة «شق القمر» دون هذا المستوى الذي تظل أعناق الكفار لها منقادة.. حيث إنها لم تؤد إلى هذا الانقلاب في إ يمان قريش؟**

٤. كذلك ورد في سورة يونس وهي مكية وتسلسل نزولها ٥١ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)﴾ يونس (٢٠)

يقول الكفار «لولا أنزل عليه آية؟» ويأتي الجواب: «فانتظروا» ولم يقل لهم أو يذكرهم بحادثة شق القمر.

٥. في سورة الأنعام: وهي مكية وتسلسل نزولها في مكة ٥٥ يقول تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام (١٠٩)

الكلام موجه للمؤمنين أنهم (أي الكفار) قد يؤمنوا إذا جاءتهم آية. ولم يقل أنهم لم يؤمنوا عند «انشقاق القمر».

٦. وأخيرًا في سورة العنكبوت وهي مكية وتسلسل نزولها في مكة ٨٥ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾العنكبوت (٥٠: ٥١)

أي أن الله ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام «نذير مبين» ولا ضرورة للآيات الدنيوية. ثم يؤكد بعد ذلك «ألم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب» أي أن القرآن هو آيتك الخالدة على مر العصور والأزمان.

٧. في سورة الرعد وهي مدنية وتسلسل نزولها في المدينة ١٠ يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد (٧)

ثم يقول في آية أخرى في نفس السورة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ الرعد (٢٧)

أي أن هداية الله هي لمن أناب إليه ولا تتم بمجرد مشاهدة الآيات.

هذه الآيات وأمثالها كثيرة وموجودة حتى في الفترة المدنية (كما في سورة الرعد) وكلها تشير إلى اختلاف طبيعة الآية التي جاء فيها عليه الصلاة والسلام، وليس هناك من تذكير إطلاقًا بموضوع انشقاق القمر...

* * *

سيقول قائل: هل تكذب القرآن الذي قال بوضوح: اقتربت الساعة وانشق القمر؟

إطلاقًا.

لكن استخدام الفعل الماضي للدلالة على ما سيحدث يوم القيامة شائع جدًا في القرآن الكريم.

﴿وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢)﴾ الشعراء (٩٠: ٩٢)

وكلها أفعال ماضية تدل على ما سيحدث في المستقبل في يوم القيامة وتستخدم لزيادة تأكيد حدوث الأمر، أي أن الأمر أكيد كما لو أنه قد حدث فعلًا!

ومثلها..

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١)﴾ ق (٢١، ٢٠)

وهي أيضًا من سياقات يوم القيامة، الحديث بالماضي، عن حدث سيحدث في المستقبل..

وكذلك..

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف (٤٤)

ومطلع سورة القمر مشابه لكل هذا.. الحديث عن يوم القيامة بصيغة الماضي...

* * *

فلنسجل هنا، أنه على الرغم من أن أغلب المفسرين تعاملوا مع آية انشقاق القمر بربطها بحديث عبد الله بن مسعود، وأن القمر انشق فعلًا على عهده عليه الصلاة والسلام في مكة، فإن هناك أيضًا البعض منهم من ذكر أن الآية تخص يوم القيامة.

من هؤلاء العز بن عبد السلام: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي اتضح الأمر وظهر يضربون المثل بالقمر فيما وضح وظهر، أو انشقاقه انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها كما سمي الصبح فلقًا لانفلاق الظلمة عنه، أو ينشق حقيقة بعد النفخة الثانية، أو انشق على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند الجمهور.

ونقل النيسابوري في تفسيره: وعن بعضهم أن المراد سينشق القمر وصيغة الماضي على عادة إخبار الله. وذلك أن انشقاق القمر أمر عظيم الوقع في النفوس فكان ينبغي أن يبلغ وقوعه حد التواتر وليس كذلك.

ونقل السمعاني في تفسيره قول المخالفين لجمهور المفسرين بكون الآية تقصد أن القمر انشق في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وإن كان هو يذهب مع قول الجمهور: **وَلَو كَانَ قد انْشَقَّ الْقَمَر لرواه جَمِيع أَصْحَاب رَسُول الله، وَأَيْضًا لَو كَانَ ثَابتًا لرواه جَمِيع النَّاس، ولأرخوا لَهُ تَارِيخًا؛ لأنهم قد أرخُوا مَا دون هَذَا من الْحَوَادِث، وَإِنَّمَا معنى الْآيَة: انْشَقَّ الْقَمَر أي: ينشق، وَذَلِكَ يَوْم الْقِيَامَة. وَيُقَال: معنى انْشَقَّ الْقَمَر أي: انكسف.**

وقال الماوردي في تفسيره: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: معناه وضح الأمر وظهر والعرب تضرب مثلا فيما وضح أمره، قال الشاعر:

(أقيموا بني أمي صدور مطيكم... فإني إلى قوم سواكم لأميل)

(فقد حمت الحاجات والليل مقمر... وشدت لطيات مطايا وأرحل)

والثاني: أن انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها كما يسمى الصبح فلقًا لانفلاق الظلمة عنه، وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه، كما قال النابغة الجعدي:

(فلما أدبروا ولهم دوي... دعانا عند شق الصبح داعي)

الثالث: أنه انشقاق القمر على حقيقة انشقاقه. وفيه على هذا التأويل قولان: أحدهما: أنه ينشق بعد مجيء الساعة وهي النفخة الثانية، قاله الحسن، قال: لأنه لو انشق ما بقي أحد إلا رآه لأنها آية والناس في الآيات سواء. الثاني: وهو قول الجمهور وظاهر التنزيل أن القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن سأله عمه حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضبًا

لسب أبي جهل لرسول الله، أن يريه آية يزداد بها يقينًا في إيمانه، وروى مجاهد عن أبي معمر عن أبي مسعود قال: رأيت القمر منشقًا شقتين بمكة قبل مخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، شقة على أبي قبيس، وشقة على السويدا فقالوا: سحر القمر فنزلت ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. القمر (١)

وكذلك نقل القرطبي في تفسيره قول القائلين بأن انشق القمر يستعملها العرب بمعنى الوضوح والبيان، وكذلك نقل بأن الأمر يعني أنه سيحدث في المستقبل.

فلنتذكر هنا أن أهمية بعض الأسماء القائلة بأن الانشقاق سيحدث في يوم القيامة (**مثل العز ابن عبد السلام والحسن البصري**) لا يمكن لها أن تفوق أهمية الأسماء القائلة بأن الأمر حدث فعلًا في

مكة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن الأمر ليس بعدد الأصوات ولا بوزنها، لكن من المهم التذكير بأن **إنكار حدوث الانشقاق فعليًا في مكة في عهد الرسول ليس بدعة معاصرة يقولها المتأثرون بالغرب (كما نتهم عادة)، بل هو أمر كان موجودًا ومطروحًا ومتفاعلًا معه منذ عصر التابعين وما بعدهم**، صحيح أنه لم يكن القول السائد، ولكنه كان موجودًا ومنقولًا ولم يتهم أحد في إيمانه جراء ذلك...

* * *

ولكن مرة أخرى، أليس غريبًا مع حادثة بهذا الحجم أن لا يكون هناك «شاهد عيان» من الصحابة إلا صحابي واحد فقط هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؟

لا يوجد صحابي واحد آخر قال -بسند صحيح- حضرت حادثة انشقاق القمر..

كل من ذكر الأمر من الصحابة في أحاديث أخرى، ذكروها على ما يبدو نقلًا عن ابن مسعود أو ربما سواه، لكن لا نعرف من بالضبط..

أنس بن مالك (وحديثه متفق عليه[1]) لم ير انشقاق القمر في مكة، لأنه كان في المدينة، وكان عمره يوم جاء الرسول عليه الصلاة والسلام مهاجرًا عشر سنوات فقط، والحادثة حدثت قبل الهجرة بسنوات (وأنس بن مالك هو الوحيد الذي قال أن انشقاق القمر قد حدث بعد طلب المشركين آية).

جبير بن مطعم روي عنه حديث[2] عن ذلك أيضًا، وقد كان مشركًا آنذاك، ولكن سند الحديث ضعيف*.

---

* جبير بن محمد بن جبير مجهول الحال، وحصين لم يسمع من محمد بن جبير بل بينهما جبير.

(١) صحيح البخاري ٣٨٦٨.

(٢) مسند أحمد ١٦٧٥٠- الترمذي ٣٢٨٩.

ابن عباس أيضًا ذكر الحادثة[1] وكذلك ابن عمر[2] وكلاهما لم يحضرا الأمر (لعدم ولادة الأول في تلك الفترة، وصغر سن الثاني) رضي الله عنهم جميعًا.

الوحيد الذي ذكر في نص الحديث أنه رأى الأمر هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولكنه لم يذكر أي رد فعل للمشركين... ولا أن هناك منهم من آمن أو سخر أو أي شيء.. بل لم يذكر أنهم شاهدوا الحدث أصلًا.

كل ما قاله عبد الله بن مسعود (في مجمل ما روي عنه متفرقًا بأسانيد مختلفة ولكن صحيحة) هو أن النبي كان مع مجموعة من المؤمنين في منى[3]، وأن القمر انشق، وأن الرسول قال لهم «اشهدوا»[4].. فقط...

لا شيء آخر..

وكما أيضًا أنه لا معنى في عدم وجود المشركين في المشهد، حيث يكتفي ابن مسعود بذكر المؤمنين الذين كانوا معه عليه الصلاة والسلام.. ولا شيء عن المشركين..

لم تحدث معجزة كهذه سرًا؟ بينما يحشر الناس كلهم -مثلًا- لمعجزة العصا الأصغر حجمًا بما لا يقارن؟

***

إذن أنت تكذب حديثًا جاء في صحيحي البخاري ومسلم أصح كتابين بعد كتاب الله واللذين تلقتهما الأمة بالقبول.. ألا تعلم أن هذا هو ما يريده أعداء الأمة... إلخ إلخ إلخ...

إطلاقًا.

لا نكذب حديث عبد الله بن مسعود.. أو أي من الصحابة الكرام الذين نقلوا الأمر عنه...

الصحابي الجليل رأى ظاهرة، وسماها هو انشقاق القمر، قد تكون خسوفًا وقد تكون انعكاسًا للقمر على الغيوم، وهو أمر ليس نادر الحدوث تمامًا، ولم يربط في الحديث مع السورة، وكل ما قاله هو أن الرسول قال اشهدوا وهو أمر طبيعي، فكل ظاهرة في الكون هي آية من آيات الله.. ولا شيء فيما رواه ابن مسعود (شاهد العيان الوحيد هنا باعتبار أن الصحابة الآخرين نقلوا عن آخرين) يدل على أنه عليه الصلاة والسلام قال أن هذا انشقاق للقمر..

---

(١) صحيح البخاري ٤٨٦٦ .

(٢) صحيح ابن حبان ٦٤٩٦.

(٣) صحيح مسلم ٤٤.

(٤) صحيح البخاري ٣٦٣٦، ٤٨٦٤.

أن تفسر حديثًا صحيحًا بطريقة تتوافق مع القرآن الكريم، ومع الحس البديهي، لا يعني أبدًا أنك تكذبه...

* * *

هل يعني هنا أننا نقول أنه لا حوادث خارقة للطبيعة على الإطلاق في سيرته عليه الصلاة والسلام؟

لا بالتأكيد.

الحديث عن انشقاق القمر مختلف تمامًا، فهو مرتبط بظاهرة كونية كبيرة جدًا...

لكن هناك بالتأكيد حوادث خارقة للمعتاد أو كرامات حدثت على يديه..

مثل بركة الطعام، عندما كان الطعام المعد لأشخاص محدودي العدد في عرس، فإذا به يكفي زهاء ثلاثمائة[1].. ومثلها فوران الماء[2] من بين أصابعه حتى شرب القوم وتوضأوا في الحديبية وكانوا أكثر من ألف وكان الماء في ركوة صغيرة (إناء من جلد)...

أو مثل ليونة الشجر له عليه الصلاة والسلام[3].. أو حنين النخلة [4].. فهي حوادث لا ننكرها لكنها ظواهر في سياق محدود مختلف عن تأثيرات «انشقاق القمر» ولم يحدث قط أنه عليه الصلاة والسلام استخدمها لتحدي الكفار أو أن أحدًا قال أنه فعل ذلك عليه الصلاة والسلام.. ولم يذكرها هو بنفسه عليه الصلاة والسلام، بل نقلها لنا حضور هذه الحوادث وشهودها...

هذه الحوادث الخارقة لم يستخدمها عليه الصلاة والسلام قط لتحدي الكفار، وهذا هو ما يميز المعجزة ويجعلها معجزة...

كان التحدي عبر القرآن وبالقرآن.. يتحداهم به فقط.. والتحدي مستمر... ما كان لأي حادثة أخرى أن تكون مستمرة.. وحده القرآن مستمر..

الجدير بالذكر هنا أن حادثة أنه «لم يكن هناك جبل ولا شجر إلا استقبله عليه الصلاة والسلام في طريقه إلى المدينة وقال له السلام عليك يا رسول الله هو حديث ضعيف[5] على شهرته».

وكذلك حديث تسبيح الحصى بين يديه على شهرته أيضًا[6]...

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٩٤.

(٢) صحيح البخاري ٤١٥٢.

(٣) صحيح مسلم ٣٠١٢.

(٤) صحيح البخاري ٢٠٩٥.

(٥) سنن الترمذي ٣٦٢٦ وضعفه الألباني وقال الترمذي هذا حديث غريب.

(٦) فتح الباري لابن حجر، شرح حديث ٣٥٨٠ (تسليم الغزالة).

لا تخف على دينك من الضوء...

لا تخف عليه من النور...

خف على نفسك وإيمانك من الظلام، من التكتم، من الاستمرار في السكوت...

اخش على إيمان الأجيال القادمة التي تريد إيمانًا لا يتعارض مع العقل، على الأقل في مساحات معينة..

وبالمناسبة: ناسا لم تر آثارًا لشقوق في القمر.. وملك مقاطعة ماليبار في الهند لم يسلم بسبب القصة...

ليتنا نكف عن ترويج مثل هذه القصص التي لم تحدث..

الإيمان على الضفة الأخرى

في أوقات الأزمات والحروب والكوارث، يضطر الكثيرون لمغادرة أوطانهم.. أحيانًا إلى بلد مجاور ينتظرون فيه عودة الهدوء إلى بلدانهم... لن نغيب كثيرًا.. أسابيع أو أشهر فقط... سنعود مع بدء المدارس...

لكن الأشهر تصبح سنوات.. والمدارس تصبح جامعات.. ثم تنتبه فجأة فإذا بالصغار الذين حملتهم خوفًا عليهم وهم أصغر من أن يعوا ماذا يدور، قد كبروا، وصار لهم قرار مستقل عن قرارك..

ثم تنتبه أكثر، فتجد أن عمرك قد تسرب منك وأنت تنتظر أن يعود الهدوء إلى بلدك.. وربما كنت شريكًا بطريقة أو بأخرى، بنسبة ما في عدم عودة الهدوء.. لأن كل ما فعلته هو الانتظار..

ثم تنتبه أكثر فأكثر، فتجد أن وجودك في هذه البلد التي لم ولن تمنحك مواطنتها (ليس لأنها سيئة أو ناكرة للجميل كما يحلو للبعض أن يتصور، بل لأن عقد المواطنة فيها لا يحتمل الهجرة، وهي لم تعدك بذلك يومًا...) وجودك في هذا البلد دون أوراق جديدة ودون هوية أخرى، استنزف من عمرك الكثير وسيستنزف من عمر أولادك أيضًا..

ستخاف من لومهم، لمَ بقينا هنا، أما كان الأفضل لو ذهبنا شمالًا، شمالًا جدًا، إلى واحدة من بلدان اللجوء والهجرة.. التي تمنحك جواز سفر محترم، وأشياء أخرى...

ستجد نفسك تنزل بالتدريج عن بغلة عنادك التي كنت ركبتها أول ما غادرت.. وما كان مرفوضًا تمامًا وبتاتًا ونهائيًا.. صار بالتدريج فكرة وجيهة... ومن ثم صار: «لو فعلناها من زمان..»

أغلب من يهاجر اليوم، يفعلون ذلك لأسباب كهذه..

أحيانًا من أجل الحياة فحسب.. الحياة! كي لا تنتهي حياتك برصاصة في الرأس، أو بسبع عشرة رصاصة في صدرك.. كي لا تنتهي في المشرحة جثة مجهولة شوهتها ابتكارات التعذيب فقط لأن اسمك عمر أو حسين أو جورج..

وأحيانًا يهاجر من يهاجر ليس من أجل حياة فحسب.. بل من أجل حياة «كريمة».. ليست مجرد استمرار في العمليات البيولوجية؛ تنفس وهضم وأيض فحسب.. بل حياةٌ فيها كرامة.. حياةٌ كريمة توفر لك الفرص في إثبات ذاتك وتحقيق نفسك.. حياةٌ لا تضيع مواهبك فيها ولا تدفن تحت

ركام عشرات الأشياء.. حياةٌ توفر لأولادك تعليمًا حقيقيًا.. حياةٌ فيها ضمان صحي يقيك الحاجة عند كبرك..

يمكننا أن نقول ما شئنا من أسباب عن تركنا لبلادنا وهجرنا لها.. يمكننا أن نتحدث عن هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يثرب وتأسيس المدينة فيها..

لكن لا حاجة لهذا التصعيد..

أغلب من يهاجر يفعل ذلك لأسبابٍ تعود إما إلى خانة «الحياة»، أي البقاء على قيد الحياة فحسب..

أو خانة «الحياة الكريمة»...

وهو أمر لا يستحق أن تبحث له عن أعذار لتُغطيه أو تتبرأ منه..

* * *

أحيانًا نرتبط أكثر مما يجب بالأماكن...

تنمو جذورنا أكثر مما يجب لوظيفتها..

وظيفتها أن تمدنا بأسباب الحياة..

لكننا نسيء استخدامها أحيانًا، فنتوهم أن تلك الجذور هي الحياة نفسها..

ولا نتوقع أنه يمكننا أن نتنفس بعيدًا عنها..

نتعلق أكثر مما يجب بالأشياء.. بالأماكن.. بالذكريات المرتبطة بالأماكن.. بالأشخاص.. وبالذكريات المرتبطة بالأشخاص..

كثيرًا ما تجعلنا تعلقاتنا هذه عالقين في أماكننا غير قادرين على تركها..

كثيرًا ما نَعْلَقُ في وضع لا نريده حقًا، لكن تعلقاتنا تجعلنا أكثر تعلقًا من أن نتمكن من الرحيل..

ولكن أحيانًا، يكون البقاء عالقين يعني شيئًا واحدًا..

أننا سنتخلى عن أشياء مهمةٍ..

.. عن حقنا في عيش كريم، عن حقنا في أن نقول ما نؤمن به، عن حقنا في أن نؤمن بما نريد أن نؤمن به... عن كرامتنا.. وحريتنا...

وغالبًا ما يراهن «الحرس القديم» على هذا التعلق، كواحد من أهم أسلحتهم الموجودة فينا نحن..

أننا لن نخاطر بخسارة ما نتعلق به، من أجل شيءٍ لسنا متأكدين حقًّا من وجوده، هناك على الضفة الأخرى...

* * *

لعل قريشًا راهنت ضمنيًّا على شيء كهذا...

راهنت على أن المسلمين، مهما كان إيمانهم بمحمد وبرسالته وقرآنه قويًّا، فإنهم في مرحلة ما، سيَمَلُّون من التمسك بما لا طائل وراءه.. ما دامت قريش ستبقى صامدة متمسكة بدينها وتجاربهم.

لم تكن قريش تدرك أن هذا الإيمان الذي في النفوس، كان أقوى من كل الرهانات التقليدية، لدرجة أن المؤمنين كانوا مستعدين للقيام بما هو غير تقليدي إطلاقًا بحسابات ذلك الزمان، وبحسابات قريش ومكة تحديدًا...

كانوا مستعدين لهجر مكة كلها..

* * *

في الصراعات طويلة الأمد، ثمة تغييرٌ مستمرٌ يجب أن يحدث في قواعد اللعبة.. أو قواعد الصراع إن شئتم..

إن بقيت القواعد كما هي، دون تغيير، في مرحلة من الصراع، ستصل كل الأمور إلى طريق مسدود.. تبذل كل الحيل والتكتيكات.. وتعاد أكثر من مرة.. إلى أن يصل الجميع إلى نفس طريق المسدود.. بلا غالب ولا مغلوب.. مثل معادلة متوازنة الأطراف..

لذا لا بد من تغيير في القواعد التي سار عليها الصراع..

لا بد من إدخال عنصرٍ جديد للمعادلة، يقلب الطاولة على الوضع الساكن..

كانت الهجرة إلى الحبشة، شيئًا كهذا..

على الأقل من زاويةٍ ما..

* * *

اليوم، تبدو مسألة الهجرة أمرًا عاديًا... بل ومحببًا ومرغوبًا فيه، الناس تخاطر بحياتها حرفيًا من أجل الهجرة، وتتبادل التهاني والتبريكات عندما تحصل على صيغة آمنة لها..

لكن الأمر لم يكن كذلك دائمًا..

صحيح أن الهجرة موجودة منذ أن وُجد البشر على الأرض، وأنهم تحركوا دومًا بين القارات، وأنه لا منطقة في الأرض اليوم يسكنها فقط أحفاد من كان فيها قبل ٣ آلاف سنة مثلًا... الهجرة دومًا تُغَيِّرُ طبيعة السكان ونسبهم وتخلط أعراقهم، وتاريخ الإنسانية هو تاريخ هجرات وأسبابها، بطريقة أو بأخرى..

لكن هذه الهجرات كانت دومًا مرتبطة بأسباب مادية مباشرة، جفافٌ لسنوات متلاحقة أدى إلى مجاعات، أو فيضانات، أو مواسم صقيع قضت على المحاصيل.. إلخ.

كل هذه الأسباب الطبيعية، كانت تؤدي إلى هجرات جماعية كبرى من مكان إلى آخر، غالبًا على الأقدام، وغالبًا لسنوات طويلة إلى أن يحدث استقرار في أكثر من مكان بديل..

هناك أيضًا أسباب أخرى، مثل الحروب التي تتعدى حدود ساحات القتال إلى حدود الإبادة الجماعية، وكانت هذه تؤدي أيضًا إلى الهجرات، ولعل من دوافع الإبادات الجماعية دفع الناس إلى الهجرة للحصول على أراضيهم..

كل هذا كان موجودًا عبر التاريخ..

ولا يزال موجودًا أيضًا..

ربما ليس الجفاف والفيضانات وخراب المحاصيل على نحو مباشر، لكن الركود الاقتصادي والبطالة هي الصيغ المعاصرة الأكثر شيوعًا التي تدفع الناس إلى الهجرة، أو على الأقل إلى ترك أماكن سكناها رغبة في حياة أفضل (على أمل تحسن الأمور في الوطن.. الذي كان).

ولا تزال الإبادة الجماعية وشبحها والأسماء الأكثر تهذيبًا لها تدفع الناس إلى الهجرة، أو بالأحرى تجبرهم..

ولا يزال البشر بعيدين عن التعلم من أخطائهم.. ولا تزال نوازع الشر الموجودة عندهم تتحكم في الكثير من سلوكياتهم على نحو لم يختلف كثيرًا عبر آلاف السنين (للأسف).

لكن ما كان نادرًا عبر التاريخ (وليس معدومًا تمامًا) هو الهجرة من أجل فكرة اعتنقها المهاجرون، الهجرة من أجل حريتهم وحقهم في الإيمان الذي اختاروه بأنفسهم عكس السائد عند قومهم، حقهم في أن يمارسوا ما آمنوا به دون خوف..

كان الأمر نادرًا، ولكن ليس معدومًا تمامًا...

ولكنه بالتأكيد كان غريبًا جدًا في مكة..

ليس هذا بالضبط..

بل إن قريشًا، القبيلة التي تتسيد مكة، كانت تعدها هي الحاضرة الأهم في جزيرة العرب (بمنافسة مع الطائف إلى حد ما) خاصة بعد تعرض سد مأرب إلى الخراب. فمغادرتها إلى مكان آخر كانت أمرًا مستبعدًا ومن غير المفكر فيه...

سيبقى أتباع محمد في مكة هنا، وهم ينالون سوء العذاب من قريش، وسيكون الأمر كله مجرد فورة شبابٍ عابرة.. سيملون... يضجرون... ثم يعودون لدين قريش...

* * *

... حتى لو كانت قريش تفكر في أن أتباع محمد، قد نالوا من العذاب ما سيجعلهم يتركون مكة، فأين سيذهبون؟

ستردهم بسهولة..

لن تجرؤ أي قرية من قرى جزيرة العرب أن تحميهم وتخسر علاقتها مع مكة، الكل لديهم علاقاتٌ تجارية مباشرةٌ تمر بمكة بطريقة أو بأخرى، ولا أحد يمكنه أن يخاطر بذلك..

حتى لو فكر أتباع محمد في الذهاب إلى الشام، من أجل الحصول على حماية الروم، وهم يدينون بدين كتابي قريب إلى دين محمد، فإنه من المستبعد أنهم سيحافظون عليهم، خاصة في ظل وجود التجاذبات السياسية التي تجعل العرب محط تنافس بين الروم وأعدائهم التاريخيين الفرس، سيتنازل الروم عن أتباع محمد بسهولة، أو لقاء مكاسب معينة، سواء من أجل التجارة أو من السياسة.. كما أن بلاد الشام آنذاك كانت موضع تنازع بين الفرس والبيزنطيين طيلة سنوات البعثة في مكة..

ولجوء أتباع محمد إلى الفرس مستبعد.. لبعد دينهم عن دين المجوس، لكن لو فكروا بذلك، فاسترجاعهم أسهل..

كانت الجزيرة كلها، بأطرافها، تبدو مغلقة على أتباع محمد..

لا مكان لكم يمكن أن تهربوا إليه..

إن فكرتم بذلك أصلًا...

* * *

لكن قريشًا لم تكن تعلم أن أنظار أتباع محمد كانت ترى أوسع بكثير مما سيفكر به العربي التقليدي..

وإن كان هذا الأخير سيفكر بالذهاب إلى الشمال أو الجنوب...

فإن الإنسان الجديد، المسلم، سيفكر بطريقة مختلفة..

سينظر إلى الضفة الأخرى...

التي لم تكن قريش أصلًا تفكر فيها...

* * *

الوجهة كانت إذن أبعد مما يمكن لقريش أن تفكر...

كانت قريش تعتقد أن الضغط الذي تمارسه على المسلمين سيؤدي إلى تركهم للإسلام وليس تركهم لمكة!

لكنها كانت تظن أن لا مهرب منها... وأن تَعَوُّدَهم على مكة، وطنهم، حاضرة العرب آنذاك، سيكون أقوى من حس المخاطرة في الذهاب إلى أبعد من المتوقع..

وهكذا، لم تكن قريش تتوقع أن تكون الوجهة هي الحبشة.

لكن لماذا الحبشة؟

الجواب معروف وواضح «إن فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد»*.

العدل إذن، هو الوجهة.

هذا هو السبب الأول والأهم الذي قاله عليه الصلاة والسلام فيما روته عنه زوجه أم سلمة، وقد كانت واحدة ممن هاجروا إلى الحبشة.

لم يقل لأن دينه أقرب إلى ديننا، و لم يقل لأنه من أهل الكتاب مثلنا.

لم يقل لأنه لا يعبد الأوثان.

هذه المعايير الدينية -التي تشكل جزءًا كبيرًا من منظومة تفكيرنا اليوم- لم تكن موجودةً في قرار الوجهة.

العدل.. أن لا يظلم عنده أحد...

هذا هو المعيار الأول، لأن به سنتمكن من الحفاظ فيه على كل ما نهرب لأجله... إيماننا، حقنا في أن نعبد ما اخترناه.. كرامتنا..

ربما كان هذا العدل نابعًا من القيم الدينية التي آمن بها هذا الملك.. نعم، هذا محتمل جدًا.

لكن هذه القيم، مثلًا، لم تجعل هرقل البيزنطي، مرشحًا للذهاب واللجوء إليه رغم أنه يدين بنفس دين ملك الحبشة..

* من حديث أم سلمة الذي سيأتي بعد قليل.

نعرف دومًا أن الدين نفسه يمكن أن ينتج أفهامًا مختلفة، بعضها ترى العدل مع الجميع من صميم هذا الدين، وبعضها ترى أن ما يسميه الآخرون ظلمًا هو من صميم هذا الدين أيضا.

إذن، العدل هو الأساس، وهو الذي حدد اتجاه بوصلة الهجرة...

* * *

لكن ربما هناك عوامل أخرى، ساعدت في جعل هذا العدل بمعزل عن أي اعتبارات أخرى يمكن أن تؤثر في أمر الهجرة إلى الحبشة..

الحبشة (أو مملكة أكسوم آنذاك) كانت مستقرةً، ومنعزلة نسبيًا عن الصراع البيزنطي الفارسي حول أطراف المنطقة، صحيح أنها سبق أن تحالفت مع البيزنطيين ضد الفرس بطريقة غير مباشرة، واحتلت اليمن مسقطة حكم الحميريين (حلفاء الفرس)، كما سبق الإشارة إليه، لكن انقضى على هذا الأمر حوالي القرن، كما أن التجربة التي أدت إلى استقلال اليمن عن الحبشة بقيادة نائب قائد الجيش الحبشي، قد انتهت على نحو لم يكن أي من ملوك الحبشة يرغب في تكراره.

كما أن امتلاكها منفذًا بحريًا واسعًا يمكنها من الوصول إلى اليمن (وتجارتها) وكذلك بلاد الشام (وتجارتها) دون المرور بمكة جعلها «مستغنية» عن دور قريش التجاري وحمايتها لقوافلها، وبالتالي جعل من ضغط قريش عليها في حالة استقبالها للمهاجرين أقل تأثيرًا وجدوى.

نعم، العدل أولًا كما أشار عليه الصلاة والسلام...

ولكن من المهم أيضًا أن لا يكون هناك ما يؤثر على هذا العدل من مصالح اقتصادية أو سياسية..

عدالة الملك (والدول عمومًا) تقاس أولًا بتعامله مع شعبه وليس مع المهاجرين إليه، فالدول في النهاية ليست جمعيات خيرية..

لذلك كان خيار الحبشة موفقًا من هاتين الناحيتين:

أولًا- عدم السقوط في فخ التجاذبات السياسية بين الفرس والروم.

ثانيًا- دولة عادلة لا تربطها مصالح مهمة مع قريش تؤثر على عدالتها..

* * *

تقول أم سلمة..

«لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل

الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه، فخرجنا إليها أرسالًا* حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنًا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا[1]».

«ضاقت علينا مكة»! أظننا نعرف هذا الشعور جيدًا، أن يضيق الوطن عن تحمل أبنائه وطموحاتهم وأحلامهم وحقوقهم.. وكم هو شائع هذا الأمر بين الحين والآخر.. أو على الأقل في الوقت الراهن.

وأم سلمة تقول ببساطة أنهم كانوا يتعرضون للإيذاء وأن الرسول لم يستطع أن يقدم لهم الحماية، لذا اقترح عليهم أن يذهبوا إلى الحبشة حيث الملك الذي لا يظلم عنده أحد.. فلنتنبه هنا أن كل الحلول النبوية كانت تتجه إلى تجنب تكرار تجربة أصحاب الأخدود والمصادمات المحكوم عليها بالفشل،ولنتنبه أيضًا إلى أن المسلمين لم يفكروا باعتبار الهجرة هروبًا أو هزيمة أو فرارًا من الزحف... إلخ.

فلنتنبه أيضًا أن معيار العدل كان مقدمًا على أي معيار ديني محتمل طرحه، ولا يعني هذا أن الحبشة كانت مدينة فاضلة لا يحدث فيها أي ظلم على الإطلاق، لكن السائد هو التزام بقيم العدل وروحه، مع ضرورة تقبل وجود أخطاء في ذلك كأي تجربة بشرية..

ولو كان هناك من يريد أن يفتح دفاتر المظلومية لكان ممكن أن يقول: «لكنهم حاولوا هدم الكعبة يا رسول الله!»

لكن تلك العقلية لم تكن قد تكونت بعد.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يدربهم على الأولويات في المعايير: العدل أولًا.

الباقي تفاصيل.

* * *

كانوا عشرة رجال وأربع نساء، خرجوا من مكة ليلًا سيرًا على الأقدام[2]، ثم وصلوا الشعيبة، وهو الميناء القديم القريب من مكة على البحر الأحمر، كانت المسافة بين مكة والشعيبة حوالي ٨٠ كيلومترًا، ثم استأجروا سفينة من هناك أقلتهم إلى الحبشة بنصف دينار[3].. ويبدو أنه لم يكن هناك سماسرة موت يتاجرون بحاجة الناس إلى الكرامة كي يتركوهم طعامًا لأسماك البحر..

---

* أرسالًا أي متفرقين.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣١٩٠.

(٢) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٥٩.

(٣) فتح الباري- باب هجرة إلى الحبشة ١ / ١٨٨.

ما كانوا يرغبون في أن تعرف قريش أنهم خرجوا، أو أين وجهتهم، لذا غادروا متفرقين سيرًا على الأقدام... خارج مكة.

* * *

للوهلة الأولى ستتخيل أن من ذهب إلى الحبشة هم المستضعفون من المسلمين.

هذا هو المنطقي عندما نسمع عن اللجوء إلى دولة «عادلة».

لكن تفحص أسماء مهاجري الحبشة الذين خرجوا ليلًا من مكة سيرًا على الأقدام، سيجعلنا نفكر في أن الأمر ليس كذلك تمامًا، وأن اختيارهم كان مبنيًا على أسس أعقد مما نعتقد.

من هم هؤلاء؟[1]

أولًا- عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت الرسول عليه الصلاة والسلام (بنو أمية / بنو هاشم).

ثانيًا- أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس (من بني عبد شمس) وهو أخو هند وابن سيد قومه عتبة بن ربيعة، وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو (من بني عامر بن لؤي).

ثالثًا- الزبير بن العوام بن خويلد (من بني أسد بن عبد العزى).

رابعًا- مصعب بن عمير (من بني عبد الدار بن قصي).

خامسًا- عبد الرحمن بن عوف (من بني زهرة بن كلاب).

سادسًا- أبو سلمة بن عبد الأسد (من بني مخزوم) ومعه زوجته أم سلمة بنت أبي أمية (من بني مخزوم).

سابعًا- عثمان بن مضعون (من بني جمح).

ثامنًا- عامر بن ربيعة (حليف آل الخطاب / بنو عدي) ومعه زوجته ليلى بنت أبي حثمة من بني عدي.

تاسعًا- أبو سبرة بن أبي رهم (من بني عامر بن لؤي).

عاشرًا- سهيل بن بيضاء (من بني الحارث بن فهر).

هذه القائمة تغطي تقريبًا كل بطون قريش المهمة. البطون المتفرعة من قصي (بنو عبد مناف / بنو عبد الدار / بنو أسد) ممثلة فيها في عثمان وزوجته، في الزبير، في مصعب بن عمير، وفي أبي حذيفة بن عتبة.

---

(١) سيرة ابن هشام تحقيق طه عبد الرؤوف الجزء الأول صفحة ٢٨٠ .

الفروع التي تلتقي مع أبناء قصي بجدٍّ أعلى (هو كعب بن لؤي) ممثلة كلها تقريبًا (بنو زهرة، بنو مخزوم، بنو عدي، بنو جمح، بنو عدي) مع غيابٍ لبني تيم (وهم عشيرة أبي بكر) وبني سهم.

ولعل غياب بني تيم يمكن أن يفسر بما نعرفه من وجود أثر صحيح يدل على أن أبا بكر الصديق نفسه، كان سيذهب، لكنه رجع قبل بلوغه البحر[1]، وإن كنا لا نعرف هل كان هذا مع الهجرة الأولى أو لاحقًا.

هؤلاء كانوا من أهم بطون وعشائر قريش، كانوا يتعرضون حتمًا إلى ضغوطات من أقاربهم كما مر بنا، ولكنهم لم يكونوا من الموالي مثلا ممن كانوا مستضعفين ويتعرضون إلى أذى من عشائر قريش (مثل خباب بن الأرت أو عبد الله بن مسعود).

ما الذي جعل أسماء أوائل مهاجري الحبشة تكون هكذا؟ بهذه الانتماءات العشائرية القوية؟

لماذا يضطرنا تفحص أسماء مهاجري الحبشة الأوائل إلى المرور على كل عشائر قريش المهمة؟

لأنه -برأيي- كان لا بد من أن **يتفرق أمر الهجرة على القبائل.**

بالضبط كما ارتأى المشركون لاحقًا أن يساهموا جميعًا في قتله عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة، كي يتفرق دمه بين القبائل ولا تتمكن بنو هاشم من الثأر له...

كذلك الأمر مع الهجرة...

كان لا بد من أن يتوزع الأمر بحيث لا تكون هناك عشيرة إلا وفيها من هاجر إلى الحبشة، توازن سيجعل قريش كلها تتلقى الصفعة بالتساوي.

صفعة ما كان لها أن تكون لو أن من هاجر كان من المستضعفين.

لو أن المستضعفين هم من هاجروا، لما شكل ذلك أية صدمة لقريش.

ولو أن المهاجرين كانوا من بعض عشائر قريش القوية دون أخرى، لكان ذلك لصالح التنافسات بينهم، بالذات لصالح العشائر التي ليس فيها من هاجر.

لكن عندما يكون المهاجرون من كل عشيرة: فعلى قريش أن تفهم أنها لا تواجه حالة فردية منعزلة، فقد وصل الأمر للجميع.

لا أعتقد أن الأمر كان صدفة أبدًا، هذا التوزيع للمهاجرين الأوائل على خارطة العشائر.

بل كان تخطيطًا منه عليه الصلاة والسلام.

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٣٩٠٥.

هل كان عليه الصلاة والسلام يضع «الخطة ب»؟

أو على الأقل يمنح الإسلام فرصة أخرى في مكان آخر بعيد عن سطوة قريش؟

هل كان يجعل صحابته يعايشون حضارة أخرى، يستفيدون من تجربتها، وتضيف لهم ما يمكن أن يجعلهم يساهمون في صنع تجربة أخرى تستفيد من تجربة الحبشة والعدل الموجود فيها؟

هل كان اختيارهم من العشائر القوية ليجعل وضعهم أقوى وفرص قبولهم أفضل عند النجاشي؟

هل كان اختيارهم هذا ليكونوا ممهدين لمن سيأتي بعدهم من المهاجرين؟

هل يمكن ألا ننتبه إلى أن أسماء مهاجري الحبشة تضم ثلاثة مما عُرف لاحقًا «بمجلس شورى» عمر بن الخطاب؟ وهو المجلس الذي اختاره بعد طعنه ليتشاوروا فيمن يكون الخليفة من بينهم..

ثلاثة من الستة الذين اختارهم عمر كانوا قد هاجروا إلى الحبشة!

عثمان، عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام...

هل كان تميزهم اللاحق ناتجًا عن تفاعل خامتهم الجيدة أصلًا مع تجربة الحبشة؟

هل كانت تلك أصلًا خطته عليه الصلاة والسلام؟ أن يجعلهم في خضم التفاعل مع تجربة أخرى؟

فلنتذكر أيضًا أن عثمان بن عفان قد أنجز ضمن فترة خلافته ما لا يمكن أن يعزل عن تجربة الهجرة إلى الحبشة..

أولًا : بناء ميناء جدة، بدلًا عن ميناء الشعيبة القديم الذي أبحروا منه إلى الحبشة..

وثانيًا : بناء أول أسطول بحري إسلامي. فعمر بن الخطاب رغم كل منجزاته فإنه لم يفعل هذا، لكن تجربة الهجرة إلى الحبشة وركوب البحر والعيش في مملكة بحرية متقدمة بمقاييس ذلك الوقت، ربما ساهمت في جعل عثمان يفكر بذلك.

كذلك لا يمكن إلا أن نتساءل إن كان ثراء عبد الرحمن بن عوف وخبراته التجارية له علاقة بالهجرة إلى الحبشة؟

لقد هاجروا، وعندما عادوا، حملوا خبرات مهمة، أفادتهم شخصيًا كما أفادت مجتمعهم...

لعلهم عندما هاجروا لم يكونوا مسكونين بهاجس أنهم سيذوبون هناك..

بل بهاجس التعلم والاستفادة..

* * *

كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة[١]، حوالي سنة ٦١٥ ميلادية[٢].

أما الهجرة الثانية فقد كانت لاحقًا، وليس هناك ما يمكن أن يثبت متى كانت تحديدًا. يعتقد البعض أن الأمر كان مرتبطًا بوصول خبر إسلام قريش (نتيجة لإشاعات حاولت قريش ترويجها لوضعه عليه الصلاة والسلام أمام الأمر الواقع في حادثة سجودها أثناء قراءة سورة النجم كما مر سابقًا) فعاد بعض المهاجرين إلى مكة ومن ثم رجعوا إلى الحبشة ومعهم المزيد من المهاجرين الذين تشجعوا بما سمعوه عن الوضع الآمن هناك.

ولكن يبدو منطقيًا أكثر أن أخبار الوضع الآمن في الحبشة قد وصلت إلى مكة، وشجعت المؤمنين على تكرار التجربة.

كانت الهجرة الثانية أوسع، وضمت أكثر من ثمانين رجلًا مع نسائهم وأبنائهم[٣].

وكان فيهم جعفر بن أبي طالب[٤] الذي جاء من مكة وهو يحمل ما أُنزل من القرآن في تلك الفترة...

وضمن ذلك، سورة سيكون لها دور البطولة في مشهد لاحق في الحبشة...



لم تحتمل قريش صدمة الهجرة الثانية إلى الحبشة.

كانت تلك إهانة كبرى لها.

كان العدد الأكبر صفعة مؤذية ومهينة أمام كل العرب حرفيًا كان هناك في الموجة الثانية فردٌ من كل بطن من بطون قريش ومحالفيهم.

كان منهم أم حبيبة بنت أبي سفيان وزوجها، وعمرو بن سعيد بن العاص وأخوه خالد من بني أمية.

وكان منهم أيضًا عياش بن أبي ربيعة من بني مخزوم، أخو أبي جهل لأمه.

وكان منهم هشام بن العاص، أخو عمرو بن العاص.

كان الأمر إهانة شخصيةً للكثير من سادات مكة ووجوهها.

---

(١) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٥٩.

(٢) Wikipedia, Kingdom of Aksum.

(٣) سيرة ابن هشام تحقيق السقا الجزء الأول صفحة ٣٣٠.

(٤) صحيح البخاري ٤٢٣٠.

حاولت قريش مواجهة الهجرة الأولى داخليًا (كما سيأتي لاحقًا)، لكنها لم تحاول الوصول إلى الحبشة وملكها لإرجاع من فر منها.

كانوا عشرة فقط.

لكن الهجرة الثانية بعددها ومقدار تصميم المسلمين فيها، جعلت قريشًا ترسل وفدها إلى النجاشي بقيادة عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي* وعمرو بن العاص السهمي.

خطة وفد قريش كانت تقديم الهدايا للنجاشي والبطارقة، إذ لا ورقة ضغط لديها غير الهدايا والرشى، لكن النجاشي كان أنبل من أن ينهي الأمر بمجرد سماعه من وفد قريش أن من جاءه هم (غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ)[1] بل أصر على أن يسمع من المسلمين أنفسهم رغم أن البطارقة كانوا يرغبون في إنهاء الأمر عند كلام وفد قريش.

وكانت كلمة جعفر بن أبي طالب المانعة الجامعة التي توحي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اختار من يذهب ليكونوا سفراء للإسلام وليس فقط أن يسلموا على دينهم.

قال جعفر:

أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشِّرْكِ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا نُحَرِّمُهُ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ -قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ- فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ

* أخو أبي جهل لأمه، وأخوه عياش كان ضمن مهاجري الهجرة الثانية.

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٤٠.

مِنْ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ. [1]

لا يمكنني أن أمُر هنا على ما قاله جعفر دون أن أُنَبِّه إلى نمط التفكير الذي صدر عن هذا الخطاب. هناك وضوح في الرؤية وذهاب إلى النقاط المهمة، دون غرق في تفاصيل ودون مبالغات أو مزايدات، والأهم من كل ذلك عدم تحويل الأمر إلى وعظ مباشر للنجاشي، وانتهاز الفرصة لدعوته إلى الإسلام على نحو فج ومنفر، الدعوة هنا كانت طبيعية وتلقائية ولا تبدو أنها متعمدة أبدًا وليس فيها دور الواعظ الذي ينفر المقابل فورًا.

فلننتبه هنا إلى أن النمط السائد حاليًا في خطابنا للآخر، أو على الأقل الأدبيات التي ساهمت في تشكيل ذلك، لم تستثمر موقف جعفر وموضوعيته وطريقة طرحه، بل استندت إلى حديث ربعي بن عامر مع رستم قائد الفرس في مقدمات معركة القادسية، وقال له الخطبة التي لا تزال تلعب الدور الأكبر في تشكيل نمط خطابنا للآخر...

«جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»- الكلام في سياقه يدل على عزة حتمًا، لا شك في ذلك، لكن في سياق المواجهة الحربية المتكافئة، لا يمكن أن يخرج هذا الكلام عن سياقه ليعمم على كل خطاب يعبر عن الإسلام... كما حدث معنا...

هذا بالإضافة إلى أن سند خطبة ربعي في حضور رستم ضعيف ولم تذكر إلا في كتب التاريخ، ولا يعني هذا أنها لم تحدث، لكن خطبة جعفر بسند صحيح في مسند الإمام أحمد.

وربعي بن عامر لم تثبت صحبته.

بينما جعفر هو جعفر!

(فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كهيعص.. فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ..

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٤٠- دلائل النبوة للبيهقي ٣٠١/٢.

ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، ثم قال -لعبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص-: انْطَلِقَا فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُم أَبَدًا)[1]..

* * *

قرأ له من سورة مريم...

تخيلوه.. تخيلوا الكلمات تخرج من فم جعفر.. ويعم الصمت مفسحًا المجال لذلك النور المتدفق حزنًا ورقة... تخيلوها وهي تتجول في القصر أمام الملك وحوله حاشيته..

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) ﴾ مريم (١٦: ٢٤)

وضعتهم الآيات في قلب أزمة مريم، الأزمة التي جعلتها تتمنى لو أنها ماتت ونُسيت تمامًا، ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا... امرأة في أزمة.. وحيدةً... على وشك أن تواجه اتهامات العار والفضيحة من قومها..

كم تشبه أولئك الغرباء المهاجرين الذين كان قومهم يريدون أن يرجعوهم غصبًا وقهرًا لينالوا منهم سوء العذاب...

لا بد أنهم سمعوا الآيات كما لو كانت تُنَزل للتو.. كما لو أنهم يسمعونها أول مرة..

كانوا بضعة وثمانين رجلًا وزوجاتهم..

كلهم أحسوا أنهم، مريم...

ولكن فعلت الآيات فعلها في النجاشي...

* * *

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٤٠.

لا يمكن هنا أن نتجاوز اختيار جعفر لهذه السورة تحديدًا دون التعليق على ذلك.

اختياره كان موفقًا جدًا، الجانب العاطفي في السورة لا يخفى، ومن الصعب تجاوزه وتجاوز أن جعفرًا تعمد استخدامه، وكذلك السياق العام للسورة يضع مساحة مشتركة مع دين الحبشة يمكن البناء عليها، وهو أمر آتي أكله كما هو واضح.

في عالم آخر، معاصر وواقعي تمامًا، لو حدث شيء مشابه وتم اختيار سورة مريم كمثال يقدم من القرآن، فإن أصواتًا كثيرةً ستسيء الظن بنية من اختار سورة مريم، وتعتبر أنه يقصد إظهار صورة غير متوازنة للإسلام، وأنه يحرص على المجاملة والمداهنة، وربما ستفضل لو تم اختيار مقاطع فيها نقد لعقائد أهل الكتاب.

وعندما يحدث رد فعلٍ على اختيارهم هذا، سيقولون بثقة: لقد أخبرناكم.. إسلاموفوبيا!

* * *

لم ييأس عمرو بن العاص.

ويبدو أنه كان يعرف عن آيات القرآن عن السيد المسيح على نحو أراد أن يوقع به بين المهاجرين والنجاشي...

(قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللهِ لأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ -وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ في المهاجرين-: لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُم أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا.

قَالَ: وَاللهِ لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ،

ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلِ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ... فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ

قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ

فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ اذْهَبُوا، فَأَنْتُمْ آمنون بِأَرْضِي مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي جبلًا ذَهَبًا، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ. رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، فَوَاللهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ، فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ)[1]

* * *

لا نعرف متى حدث ذلك بالضبط.

لكنه لا بد أن يكون حدث بعد نزول سورة مريم بطبيعة الحال.

وسورة مريم نزلت بالتسلسل ٤٤... ولا نعرف متى حدث ذلك..

لكنها ليست بعيدة عن سورة الإسراء، بتسلسل ٥٠...

وسورة الإسراء لا بد أنها نزلت مع حادثة الإسراء، وأغلب الأقوال أنها كانت في السنة العاشرة للبعثة.

أي أن هذه الواقعة كلها لا بد أن تكون قد حدثت في أي مدة بعد السنة التاسعة للبعثة.

وهذا منطقي ومتناسق مع ما نعرفه من أن الهجرة الأولى حدثت في السنة الخامسة للبعثة.

بل لعل الهجرة الثانية كلها كانت بسبب تدهور الأوضاع بمكة تجاه المسلمين، عندما بدأ حصار بني هاشم في شعب أبي طالب، وهو الحصار الذي بدأ في السنة السابعة للبعثة ويقال أنه استمر ثلاث سنوات حتى العاشرة، كما سيأتي لاحقًا.

* * *

هل كانت هناك إشارة في القرآن يمكن أن تفهم في سياق الهجرة الأولى للحبشة؟

ليس بوضوح.

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٤٠.

لكن في تصوري أن مطلع سورة البلد التي نزلت بالتسلسل ٣٥، وآيات أخرى في سورة القمر التي نزلت بالتسلسل ٣٧ يمكن أن تشير إلى ذلك...

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ سورة البلد (١-٢)

مكة هنا في وضع حرج، الوحي الإلهي يسحب قسمًا سبق في السورة بالتسلسل ٢٨ -سورة التين- ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)﴾ التين (١:٣)

لماذا حدث هذا السحب للقسم؟

وأنت حل بهذا البلد.. أي لأنهم يستحلون أذاك ومن اتبعك*...

سورة القمر توحي بشيء آخر، كما لو كانت تشير إلى طريق مختلف للخروج من هذا البلد الذي «أحل أذاك وأذى من اتبعك»..

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ القمر (٩:١٣)

القصة حدثت قبل ذلك.. قالوا عنه مجنون... ودعا ربه أنه مغلوب.. وطلب منه النصر..

ليس من الضروري أن ينهمر الماء، كي تكون هناك ألواح ودسر...

يمكن أن نذهب نحن إلى الألواح والدسر..

السفن التي تأخذنا إلى مكان أكثر أمانًا...

إن كان هذا الربط صحيحًا، فنحن في السورة رقم ٣٧ حسب النزول، في السنة الخامسة للهجرة..

* * *

تُراهم فكروا وهم يعبرون البحر بأن دينهم قد يضيع هناك..

تراهم فكروا -كما قد نفكر- بأن أولادهم سيكبرون في الغربة معوجي اللسان.

---

* هذا واحد من أوجه التفسير المعروفة، الوجه الأول في كتب التفسير يفسر الآية على نحو مختلف، ويعتبر أنها تعود إلى أن الله قد حلل القتل بمكة عندما فتحها الرسول عليه الصلاة والسلام لاحقًا، ولكن السورة مكية بالاتفاق، ويبدو لي وجه التفسير الآخر أكثر مناسبة لسياق النزول.

تراهم تصوروا ولو لوهلة أن هناك من المسلمين في أجيال لاحقة سيتداول فتاوى تحرم ما أمرهم به الرسول يوم قال لهم أن يذهبوا إلى من لا يظلم عنده أحد..

تراهم كانوا سيصدقون ذلك؟

نعم، هناك خسائر ولا شك... ولقد قيل أن عبيد الله بن جحش (زوج أم حبيبة - رملة بنت أبي سفيان) قد تنصر في الحبشة ومات على ذلك..

لكنها خسائر لا تذكر مقابل المكاسب التي جنيت...

ليس على صعيد حماية المؤمنين فقط، بل على صعيد جعلهم يعيشون تجربة التعايش مع دين كتابي فيه ما هو مشترك وفيه ما هو مختلف.. يعيشون تجربة عدل في ظل قيم دينية..

وكانت أيضًا رسالة إلى قريش: نحن جادون، فوق ما تتخيلون..

* * *

لو تتبعنا مسار مهاجري الحبشة في البحر الأحمر، لربما عثرنا على قنينة زجاجية، فيها رسالة منهم وعن تجربتهم إلى كل من يتوجه إلى أي حبشة أخرى في زماننا المعاصر، أيٍّ حبشة فيها قانون لا يظلم عنده أحد؛ سنقرأ في الرسالة أشياء كثيرة، منها عتب، عتب على كل من يواجه إحسان الحبشة المعاصرة بإساءة، كان المهاجرون شديدي الامتنان للحبشة على ما فعلته لهم، لم يقولوا إنهم يمدونهم بخبرات أو أيدي عاملة ولم يتهموها بأنها تآمرت مع قريش للتضييق عليهم ودفعهم إلى الهجرة.. ولم يحاولوا أن يفرضوا معتقداتهم على من وفر لهم حمايتها.. وعندما تنصر واحد منهم، لم يضج الجميع بالحديث عن مؤامرة التبشير.. بل اعتُبِر الأمر ضمن سياقه الشخصي...

تلك الرسالة في القنينة، في البحر الأحمر، نحتاج أن نقرأها جميعًا.. بمعزل عن لون البحر الذي نجتازه.. وبمعزل عن وسيلة اجتيازه..

أنياب قريش

في أحيان كثيرة، يكون استعمال القوة، دليلًا على ضعف ما..

بالتأكيد هناك مناحٍ عديدةٌ، لا مناص من استعمال القوة..

لكن في أحيان معينة، ليست مجهولة أو غامضة تمامًا، عندما يقوم شخص، أو تقوم فئة، باستخدام قوته، ضد طرف آخر، يدرك تمامًا بأنه ليس مساويًا له في القوة، فإن هذا الأمر يدل على ضعف ما... ضعف تجاه نواحٍ مختلفة موجودة في الطرف الآخر...

يعني هذا غالبًا بأن الطرف الذي استخدم القوة، بدأ يستشعر الخطر من نواحي قوة كامنة موجودة في الطرف الآخر، وبدأ يدرك أن هذه النواحي قد بدأت تسحب البساط من قوته، وأنها، وإن بدت أقل أهمية في يومها هذا..

إلا أنها تتوسع، وتتقوى بالتدريج..

* * *

نفهم من حديث أم سلمة[1] الذي سبق ذكره عن الهجرة إلى الحبشة، أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان في منعة من قومه إلى زمان الهجرة الأولى، أي أنه لم يكن يتعرض إلى أذى مباشر إلى السنة الخامسة للهجرة.

ولكن يبدو أن هذا تغير بالضبط في هذا التوقيت، بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة.

بالنسبة لقريش: محمد لم يكن فقط يدعو إلى إله واحد لاغيًا كل أصنامها، بل كان أيضًا نتاج هذه الدعوة، لقد دخل محمد كل بيت وفرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه، فبالنسبة لمجتمع قائم على روابط العشيرة، كان هذا مزلزلًا من الأساس.

بدأت قريش بتغيير تعاملها معه عليه الصلاة والسلام، لم تكن لطيفة منذ البداية، لكن كان ثمة خطوط في التعامل معه.

بعد هجرة الحبشة، لم يعد هناك خطوط.

* * *

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣١٩٠.

لوهلة سيبدو أن قريشًا كانت ترغب في التفاوض...

عن عقيل بْنُ أَبِي طَالب، قَالَ: جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالب فَقَالَتْ: إِنَّ ابْنَ أَخيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادينَا وَمَسْجدنَا فَانْهَهُ عَنْ إِيذَائنَا قَالَ: يَا عَقيلُ ائْت مُحَمَّدًا فَادْعُهُ، فَذَهَبْتُ فَأَتَيْتُهُ به فَجَاءَ فِي نصْف النَّهَار يَتَخَلَّلُ الْفَيْءَ، فَجَلَسَ عنْدَ أُسْكُفَّة الْبَاب وَقُرَيْشٌ عنْدَ أَبِي طَالب، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّ بَنِي عَمّكَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تُؤْذيهِمْ فِي نَاديهِمْ وَمَسْجدهِمْ فَانْتَه عَنْ ذَلكَ، قَالَ: فَحَلَّقَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ هَذه الشَّمْسَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ ذَلكَ منْكُمْ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا لِي منْهَا شُعْلَةً*» قَالَ: فَقَالَ أَبُو طَالب: مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي فَارْجِعُوا، قَالَ: فَرَجَعُوا[1]

هذه هي «المفاوضات» الأولى التي وصلتنا بطريق صحيح...

فلننتبه إلى أن قريشًا هنا، تطلب من محمد أن يكف عن أذاها، باعتبار أنه هو المعتدي،لأنه يتكلم عن آلهتها في «ناديها ومسجدها»..

هل كانت قريش تقصد الأذى الذي لحقها بخروج المسلمين إلى الحبشة؟

هل كانت قريش تفاوض هنا حقًا؟ أم أنها تريد أن تُشْهد أبا طالب على موقف متعنت لابن أخيه، كي يسقط العتب عنها لو أنها غيرت من سلوكها تجاه محمد؟

هل هناك تفاوض هنا أصلًا؟

هم يطلبون من أبي طالب أن يطلب من محمد أن يكف عن دعوته!

لم يقدموا مقابلًا هنا، لم يعرضوا شيئًا..

في الأغلب لم تكن هذه مفاوضات أصلًا، وفي الغالب كانوا يعلمون أن محمدًا لن يقبل بالكف عن دعوته، وأن دور «المعتدى عليه» أمام أبي طالب كان مجرد دور تؤديه قريش لتبرير التصعيد الذي ستشنه على محمد عليه الصلاة والسلام، وكي يسقط عتب بني هاشم عنها.

فلنضع في بالنا أنهم في فترة لاحقة قاموا بالتفاوض فعلًا وقدموا عروضًا له عليه الصلاة والسلام، ولكن ليس في هذه المرحلة التي كان أبو طالب فيها لا يزال على قيد الحياة..

ما ثبت هنا في هذه المرحلة هو هذه الشكاية إن جاز التعبير إلى عمه أبي طالب.

*** هناك من يخلط بين هذا القول وبين مقولة أخرى وردت بسند ضعيف (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته)- سلسلة الأحاديث الضعيفة ٩١٣ ولكن يبدو لي أن السياقين مختلفان، فهنا لا يوجد مطالبة بالرسول، بينما السياق الآخر سيكون فيه مطالبة بتسليم الرسول عليه الصلاة والسلام وسيأتي ذكره.**

(١) مسند البزار ٢١٧٠ وصححه الألباني في صحيح السيرة.

ثم بدأ التغير بالحدوث، حيث بدأ عليه الصلاة والسلام يواجه الأذى على نحو شخصي وبأكثر من مجرد الاستهزاء والسخرية السابقين.

غالبًا كان ذلك بعدما تلقت قريش صفعة لم تكن في بالها من هجرة الحبشة؟

* * *

ربما كانت حادثة وضع سلا الجزور والرفث، على الرسول عليه الصلاة والسلام بينما هو ساجد في الكعبة، وضحك ملأ قريش منه، واحدة من أكثر الحوادث استفزازًا. و«سلا الجزور» هي المشيمة وما يحيط بجنين الشاة بعد ولادتها.

كان عليه الصلاة والسلام يصلي في الكعبة، وجَمْعٌ من سادة قريش ينظرون إليه ويسمونه «المرائي»، فاقترح أحدهم أن يأتي بما ينتج من الشاة بعد ولادتها توجد في بيت من بيوتات مكة كانت قد ولدت قبل فترة قليلة على ما يبدو، وقام فعلًا أحدهم (عقبة بن أبي معيط)[1] وجلب سلا الجزور وتحين سجود الرسول عليه الصلاة والسلام فألقاها عليه..

وثبت عليه الصلاة والسلام ساجدًا في موضعه، أمام الجميع، بينما تضاحك مجرمو قريش حتى مالوا ضحكًا، وعبد الله بن مسعود راوي الحادثة يشاهد ولا يستطيع أن يفعل شيئًا خوفًا من بطش الملأ القريشي وليس له منعة[2]، وتهرع جويرية لتخبر من في بيته عليه الصلاة والسلام، فتأتي فاطمة عليها السلام وهي لا تزال في حوالي العاشرة من العمر فتزيل ما وضعوه على الرسول وهي تسبهم، ويكمل عليه الصلاة والسلام صلاته ثم بعد أن ينهيها يدعو الله رافعًا صوته «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش» ثم يسمي منهم «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَعُمَارَةَ بْنِ الوَلِيدِ**»[3]

في هذا الموقف نرى الملأ القريشي، في سبعة من سادته ممن ينتمون إلى بطون (بني عبد شمس / مخزوم / جمح) وربما هم السبعة الأشد عداوة -على الأقل في هذه المرحلة- وهم يسخرون من صلاة الرسول عليه الصلاة والسلام في الكعبة، ويسمونه «المرائي»...

ثم تأتي الفكرة السافلة: آل فلان لديهم شاة (أو بعير) قد ولدت ولا تزال مشيمتها ومخلفات ولادتها في الطريق، فلنضعها على محمد وهو ساجد في صلاته..

---

(١) صحيح البخاري ٣١٨٥.

(٢) صحيح البخاري ٢٤٠.

(٣) صحيح البخاري ٥٢٠.

فلنتذكر أن هؤلاء هم سادة قريش، لم يكونوا من رعاع القوم أو أوباشهم، وهذا التصرف ما كان سيصدر من سادة مكة في الأحوال العادية، أي لو كان بينهم وبين شخص ما عداوة عادية، لكن الأمر معه عليه الصلاة والسلام كان قد وصل بحيث أفقد قريش عاداتها، استنفدت قريش وسائلها فلجأت إلى هذا السلوك السافل..

والأمر الذي فعلته قريش ظاهره سخرية وهدفه الإهانة وإضحاك من يشاهد الأمر..

ولكن ربما كان هناك أمر أعمق: كان كبرياء قريش قد جُرح بالهجرة إلى الحبشة، فواحدٌ من المشاركين هنا (عتبة بن ربيعة) ذهب ابنه إلى الحبشة...

كانوا يضحكون لكن الضحك كان يخفي دموع الجرح...

فلنتذكر أنهم أسموه المرائي، وسيتبين لنا الآن إن كان مرائيًا حقًا أم لا، لو أنه ترك صلاته فور وضع سلا الجزور عليه، لكان الأمر محتملًا.. ترك صلاته لأن سلا الجزور أزعجته، أي عبادة هذه؟

لكنه عليه الصلاة والسلام بقي ثابتًا ساجدًا، لم يتحرك.

ربما كان بإمكانه أن يقوم من سجوده فتسقط سلا الجزور من على كتفيه وظهره وينتهي الأمر، وتدل إزالة فاطمة لها لاحقًا أنها لم تكن ثقيلة.

لكنه فضل أن يبقى ساجدًا، أقرب لله، بينما هم يريدون إظهاره يريد نفسه: مرائيًا..

هل كان ذلك الضحك الهيستيري حتى صار (بعضهم يميل على بعض)[1] تغطية على فشلهم في تحقيق هدفهم الحقيقي؟ أو تغطية على صفعة الحبشة؟

هل كان مجرد بقائه عليه الصلاة والسلام ساجدًا يحقق المزيد من الاستفزاز لهم..

هل بدا سجوده تجاهلًا لهم؟ احتقارًا لهم؟

ثم جاءت فاطمة عليها السلام تشتمهم وأزالت سلا الجزور..

ثم أكمل الرسول عليه الصلاة والسلام صلاته كأن شيئًا لم يكن.

المزيد من الاستفزاز إذن.

ثم عندما أكمل صلاته، رفع صوته بالدعاء عليهم «اللهم عليك بقريش».. ثلاثًا.

ثم حدد أسماءهم؛ سبعة من سادة قريش، رفع صوته بالدعاء عليهم.

فاطمة عليها السلام شتمتهم وسبتهم، والرسول عليه الصلاة والسلام دعا على «قريش كلها»، ثم دعا على سبعة من قادتها بالأسماء، حدث هذا وثبت بالصحاح.

---

(١) صحيح مسلم ١٠٧.

هناك محاولات لتقديم صورة مبالغة في «مسالمتها» للمرحلة المكية، كما لو أنه عليه الصلاة والسلام كان يتلقى كل ما يفعله كفار مكة بصدر رحب مع ابتسامة لا تفارق شفتيه.

هذا أمر، ببساطة، خارج طبيعة الأشياء وخارج منطقها، وهو يفترض طبيعة غير بشرية للرسول عليه الصلاة والسلام..

نعم كانت الدعوة في مكة دعوة «مسالمة» بمعنى أنها لم تستخدم «القوة الجسدية أو أدواتها» -ولا أريد استخدام لفظ السلمية هنا لأن الإسقاطات السياسية المعاصرة مخربة للمعنى- ولكن هذه المسالمة لا تنتهك برد لفظي على إهانة وجهها الكفار، ولا بشتيمة تخرج من المؤمنين عند تعرضهم للإيذاء.

كما يجب أن نتنبه هنا إلى أن صورة المؤمن المثالية الذي لا يسب ولا يشتم في المطلق غير واقعية، وتخرج من صورة المثالي إلى صورة المستكين المبالغ في الضعف، نعم هناك حدود في تكرار الاستخدام وفي عدم الفحش في السب والدخول في الأعراض، لكن هذا يبقى أكثر واقعية من الصورة الذهنية المرسومة للمؤمن، والتي تكذبها حوادث في السيرة أصلًا لم ينه الرسول فيها عن رد الفعل اللفظي الموجه للكفار.

الأمر الثالث هنا هو أن بعض كتاب السيرة يرى حاجة إلى التبرير لهذا الدعاء بالقول أنه عليه الصلاة والسلام لم يغضب لإيذائهم له بل كانت غضبته لله..

هل هناك حاجة لهذا التبرير؟ هل هناك حدود أصلًا تفصل بين كرامة الإنسان وحقوقه وحقوق الله؟

* * *

نحتاج أن نقف عند اسمين ممن شاركوا بوضع سلا الجزور على الرسول عليه الصلاة والسلام أثناء سجوده.

مقترح الأمر[1] أبو جهل عمرو بن هشام.

ومنفذه عقبة بن أبي معيط.

الاثنان قرشيان من البطون المهمة، عقبة من بني عبد شمس وأبو جهل من بني مخزوم، وهما البطنان الأكثر ثراءً في قريش آنذاك، والثراء بمعايير قريش وربما بمعايير كل مكان يعني القوة والسلطة، بنو عبد شمس من ولد قصي، وبنو مخزوم من عشائر قريش الأخرى التي تلتقي مع أولاد قصي في جد بعيد هو كعب بن لؤي، لكن ما أحرزته بنو مخزوم من ثراء جعلها في مقدمة عشائر قريش.

(١) صحيح مسلم ١٧٩٤.

راجع المفاتيح/ المفتاح الخامس/ أولاد قصي.

راجع المفاتيح/ المفتاح الثاني/ كعب بن لؤي.

أبو جهل يملك من الأسباب ما يفسر عداءه المستميت لمحمد عليه الصلاة والسلام، لا أقصد الأسباب التي يشترك فيها كل ملأ قريش من التمسك بدين الأجداد أو بالتجارة التي يفترضون أن دعوة محمد تهددها، بل أقصد شيئًا شخصيًا كان يجعل عداءه لمحمد عليه الصلاة والسلام يمتلك طابعًا أكثر قوة وحدة وإصرارًا..

أبو جهل هو ابن هشام بن المغيرة[1]، الذي كان سيد بني مخزوم وقت حرب الفجار، والذي أرخت قريش بموته*، أي أنه كان زعيمًا لكل قريش وليس سيد قومه فقط، وكان يسمى «فارس البطحاء»[2] ولعل زعامة أبيه جعلت أبا جهل يحلم بزعامة شخصية مماثلة، علمًا أنه كان يصعد لها فعلًا وبخطى متسارعة لدرجة أنه دخل دار الندوة وهو لا يزال فتيًا بعد، رغم أن قوانينها كانت أن لا يدخلها من غير ولد قصي إلا من يبلغ أربعين سنة[3] وقيل عنه آنذاك: عليكم بالحديد الذهن، الحديث السن[4].

هل كان أبو جهل يخشى على خطط زعامته من صعوده عليه الصلاة والسلام؟

أم أنه كان يرغب في استخدام حربه ضد دعوته عليه الصلاة والسلام كي يكرس ويقوي زعامته؟

ربما فكر: إذا كانت حرب الفجار ضد «عدو خارجي» هو قبيلة قيس عيلان قد سهلت زعامة أبيه، فإن الحرب ضد الرسول بالنسبة لمشركي مكة لم تكن أقل شأنًا وإن كانت داخلية..

وهكذا نراه يتوعد (علنًا) بأنه سيطأ رقبته عليه الصلاة والسلام أو يعفر وجهه في التراب إن رآه يصلي في الكعبة[5]، ثم لا يفعل ذلك، لكنه قد أعلن الأمر على نحو يجعل الكل يعرفون أنه الأشد عداءً للرسول، وأنه ربما الأكثر استحقاقًا بين سادات مكة لنيل زعامتها ما دام هو أكثر من يدافع عنها..

كما نراه في أكثر من مرة سببًا مباشرًا في أسباب نزول الآيات مثل «كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى...»[6]

هذا يفسر شدة عداء أبي جهل.

لقد كانت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام تقوض أحلام زعامته الشخصية.

فماذا عن عقبة بن أبي معيط؟

---

(١) وهو جد عمر بن الخطاب لأمه.

* أرخت بموته أي اتخذت من تاريخ وفاته علامة زمنية دالة، كأن يقال حدث لسنتين بعد وفاة هشام بن المغيرة.. إلخ.

(٢) إمتاع الأسماع الجزء السادس صفحة ٢٢٠.

(٣) أخبار مكة للأزرقي الجزء الأول صفحة ١٠٩.

(٤) الرسائل للجاحظ الجزء الأول صفحة ٣٠٠.

(٥) صحيح مسلم ٣٨.

(٦) صحيح مسلم ٣٨.

عقبة كان عدوًا سفيهًا، عداؤه كان يختلف عن عداء أبي جهل، ربما لأن شخصيته كانت مختلفة تمامًا عن شخصية أبي جهل.

في حدث آخر، كان عقبة منفردًا فيه، قام ربما بأشد أفعال المشركين أذى ضد الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لقي عقبة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يصلي بفناء الكعبة فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا[1] حتى جاء أبو بكر وأزاحه عنه عليه الصلاة والسلام.

لماذا كان عقبة يفعل هذا ويكرره، لماذا عقبة دونًا عن الجميع؟

غالبًا نجد التفسير في أول مرة بدأ فيها الأمر.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ سورة الفرقان (٢٧)، قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَ يَجْلِسُ مَعَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- بِمَكَّةَ لَا يُؤْذِيهِ، وَكَانَ رَجُلًا حَلِيمًا، وَكَانَ بَقِيَّةُ قُرَيْشٍ إِذَا جَلَسُوا مَعَهُ آذَوْهُ.

وَكَانَ لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ خَلِيلٌ (صديق) غَائِبٌ عَنْهُ بِالشَّامِ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: صَبَأَ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، وَقَدِمَ خَلِيلُهُ مِنَ الشَّامِ لَيْلًا، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ: أَشَدَّ مَا كَانَ أَمْرًا، فَقَالَ: مَا فَعَلَ خَلِيلِي ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ؟ فَقَالَتْ: صَبَأَ، فَبَاتَ بِلَيْلَةِ سُوءٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَاهُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَحَيَّاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ، فَقَالَ: مَا لَكَ لَا تَرُدُّ عَلَيَّ تَحِيَّتِي؟ فَقَالَ: كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْكَ تَحِيَّتَكَ وَقَدْ صَبَوْتَ؟ قَالَ: أَوَقَدْ فَعَلَتْهَا قُرَيْشٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا يُبْرِئُ صُدُورَهُمْ إِنْ أَنَا فَعَلْتُهُ؟ قَالَ: تَأْتِيهِ فِي مَجْلِسِهِ، فَتَبْزُقُ فِي وَجْهِهِ، وَتَشْتُمُهُ بِأَخْبَثِ مَا تَعْلَمُ مِنَ الشَّتْمِ، فَفَعَلَ، فَلَمْ يَزِدْ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ مَسَحَ وَجْهَهُ مِنَ الْبُزَاقِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِنْ وَجَدْتُكَ خَارِجًا مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، أَضْرِبُ عُنُقَكَ صَبْرًا»[2]

وفي رواية أخرى

(١) صحيح البخاري ٤٨١٥.

(٢) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد الجزء الثالث صفحة ٣٥١ وذكره الألباني في صحيح السيرة صفحة ٢٠٠.

قَالَ ابْن عَبَّاس: كَانَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْط لَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا صَنَعَ طَعَامًا فَدَعَا عَلَيْهِ النَّاسَ جِيرَانَهُ وَأَهْلَ مَكَّةَ كُلَّهُمْ وَكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُعْجِبُهُ حَدِيثُهُ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ فَقَدِمَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ سَفَرِهِ فَصَنَعَ طَعَامًا ثُمَّ دَعَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى طَعَامِهِ فَقَالَ: «مَا أَنَا بِالَّذِي آكُلُ طَعَامَكَ حَتَّى تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ» فَقَالَ: اطْعَمْ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَفْعَلُ حَتَّى تَقُولَ. فَشَهِدَ بِذَلِكَ فَطَعِمَ مِنْ طَعَامِهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أُبَيَّ بْنَ خَلَف فَأَتَاهُ فَقَالَ: صَبَوْتَ يَا عُقْبَةُ وَكَانَ خَلِيلَهُ. فَقَالَ: لَا وَاللهِ مَا صَبَوْتُ وَلَكِنْ دَخَلَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَأَبَى أَنْ يَطْعَمَ مِنْ طَعَامِي إِلَّا أَنْ أَشْهَدَ لَهُ فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي قَبْلَ أَنْ يَطْعَمَ؛ فَشَهِدْتُ لَهُ فَطَعِمَ. فَقَالَ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَرْضَى عَنْكَ أَبَدًا حَتَّى تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ وَتَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ. قَالَ: فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ وَأَخَذَ رَحِمَ دَابَّةٍ فَأَلْقَاهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا أَلْقَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عَلَوْتُ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ[1].

ما الذي نفهمه من كل هذا؟

عقبة بن أبي معيط كان لديه مركب نقص يجعله يرغب في إرضاء الجميع، لا يجد الرضا عن ذاته إلا عبر الحصول على موافقة الجميع، غالبًا يحدث هذا نتيجة أسباب غائرة العمق في الطفولة.

لم يكن عقبة بن أبي معيط حليمًا إذن عندما كان يجالس الرسول ويلاطفه، كان فقط يتصرف بطبعه الذي يبحث عن قبول الناس له، كان يجمع «قبولات» من الجميع حتى لو كان هذا يجمع بين تناقضات.

ولائمه التي كان يقيمها عندما كان يعود من السفر دليل آخر على ذلك، وواضح من سياق نقل الخبر أن الأمر لم يكن معتادًا عند أهل مكة، وأن تلك كانت عادته هو، كان يريد أن يجمع الناس ويولم لهم كي يحصل على رضاهم وقبولهم له، بل إنه كان مستعدًا لقول الشهادة فقط ليحضر محمدًا عليه الصلاة والسلام إلى الوليمة، أي شخص يحضر كان يعني بالنسبة له المزيد من الشعور بالأهمية والرضا عن ذاته.

وعندما أخبره أمية بأن قريشًا لن «تقبله» إلا إذا سب وشتم بل وبصق على وجه الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن عقبة وجدها فرصة لينال قبول قريش الجماعي عبر النيل منه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ٤٠١.

لذا فقد فاق الكل في إساءاته للرسول عليه الصلاة والسلام... حتى إنه صار ينفذ ما يفكرون به من إساءات، بينما يتحرجون هم..

عقبة كان يتحرك ضد الرسول عليه الصلاة والسلام بضعف شخصيته.

بالضبط على العكس من أبي جهل.

* * *

فلننتبه هنا إلى أمرين:

الأول- سياق قصة عقبة بن أبي معيط وتغيره يشير إلى أن الأمر كله قد حدث قبل حصار شعب بني طالب، هناك تتابع في الأحداث ولا يوجد انقطاع فيها بسبب حصار لمحمد عليه الصلاة والسلام في الشعب.

ماذا يعني هذا؟

يعني أن هذه الحادثة كانت قبل السنة السابعة للبعثة، وهي سنة بدء الحصار.

وهذا ينسجم مع ما نقوله من أن تصعيد قريش ضد الرسول عليه الصلاة والسلام كان بعد هجرة الحبشة.

وأن «شكايتهم» لأبي طالب كانت لرفع العتب عندما يحدث ما يسوء أبا طالب.

وكذلك يعني هذا أن وجود أبي طالب لم يعد يمنحه المنعة التي كان يتمتع بها سابقًا.. تغير الأمر في مرحلة ما بعد الحبشة.

كيف وهناك حديث يقول: **مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شيئًا أَكْرَهُهُ حَتَّى مات أبو طالب**[1]؟

ولكن الرسول تعرض -ومعه كل بني هاشم والمطلب- إلى الحصار ولمدة يقال أنها وصلت إلى ثلاث سنوات رغم أن أبا طالب كان لا يزال على قيد الحياة، أي أن الأذى كان موجودًا فعلًا قبل وفاة أبي طالب، ولذا علينا أن ننتبه أن متن الحديث ليس بإطلاقه، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول هنا أن قريش لم تنل منه شيئًا يكرهه حتى مات أبو طالب، وهذا لا يعني أنها لم تنل منه أي شيء... بل كانت هناك أشياء نالتها دون أن تؤثر فيه، لكن قريش لم تمس الرسول عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة إلى الحبشة، حسبما قالت أم سلمة وحسبما يبدو متسقًا مع الأحداث.

الثاني- أن نزول آية «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا» مرتبط حسب الروايات السابقة بموقف عقبة بن أبي معيط من الرسول عليه الصلاة والسلام.

والآية من سورة الفرقان، وهي بتسلسل ٤٢ حسب ترتيب النزول.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي محققًا، الجزء الثاني صفحة ٣٥٠.

أي أنها بعد سورة البلد بالتسلسل ٣٥ (التي فيها ما يفهم من الهجرة إلى الحبشة) وقبل سورة الإسراء بالتسلسل ٥٠ (وهي في السنة العاشرة للبعثة).

نحن نسير على طريق متناسق متماسك بين السيرة وترتيب نزول القرآن.

* * *

ما فعلته قريش هنا كان لا بد أن يؤدي بالمقابل إلى شيء آخر.

أكثرُ من حدث، ربما لا يمتلك درجةً قوية من صحة الإسناد، يشير إلى أن رد فعل المسلمين تجاه ما حدث من إساءات للرسول عليه الصلاة والسلام كان قويًّا وأدى بدوره إلى المزيد من التفاعلات.

نعم الحدث الذي سأنقله هنا لم يصنف كحديث صحيح.. لكنه يبدو لي منسجمًا جدًا مع مجمل الأحداث التي أحاطت بهذه الفترة.

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: لَمَّا اجْتَمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانُوا ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا أَلَحَّ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الظُّهُورِ.

فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّا قَلِيلٌ» فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُلِحُّ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى ظَهَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ كُلُّ رَجُلٍ فِي عَشِيرَتِهِ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، فَكَانَ أَوَّلَ خَطِيبٍ دَعَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَثَارَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ فَضَرَبُوا فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ ضَرْبًا شَدِيدًا وَوُطِئَ أَبُو بَكْرٍ وَضُرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا فَدَنَا مِنْهُ الْفَاسِقُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَيْنِ وَيُحَرِّفُهُمَا لِوَجْهِهِ وَنَزَى عَلَى بَطْنِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَا يُعْرَفُ وَجْهُهُ مِنْ أَنْفِهِ، وَجَاءَتْ بَنُو تَيْمٍ يَتَعَادَوْنَ وَأَجْلَتِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَحَمَلَتْ بَنُو تَيْمٍ أَبَا بَكْرٍ فِي ثَوْبٍ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَنْزِلَهُ، وَلَا يَشُكُّونَ فِي مَوْتِهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ بَنُو تَيْمٍ فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ وَقَالُوا وَاللهِ لَئِنْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ لَنَقْتُلَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ فَرَجَعُوا إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَجَعَلَ أَبُو قُحَافَةَ وَبَنُو تَيْمٍ يُكَلِّمُونَ أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَجَابَ فَتَكَلَّمَ آخِرَ النَّهَارِ[1]...

السياق يضيف في نهايته: **وَقَدْ كَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَسْلَمَ يَوْمَ ضُرِبَ أَبُو بَكْرٍ.**

---

(١) من حديث خيثمة بن سليمان الجزء الأول صفحة ١٣٦.

أي أن هذه الحادثة قد تزامنت مع إسلام حمزة بن عبد المطلب.

ما الذي نعرفه عن إسلام حمزة؟

«كَانَ إِسْلَامُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَحِمَهُ اللهُ حَمِيَّةً، وَكَانَ رَجُلًا رَامِيًا، وَكَانَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَرَمِ فَيَصْطَادُ، فَإِذَا رَجَعَ مَرَّ بِمَجْلِسِ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا يَجْلِسُونَ عِنْدَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَيَمُرُّ بِهِمْ فَيَقُولُ: رَمَيْتُ كَذَا، وَصَنَعْتُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ يَنْطَلِقُ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَأَقْبَلَ مِنْ رَمْيِهِ ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، مَاذَا لَقِيَ ابْنُ أَخِيكَ مِنْ أَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ؟ وَتَنَاوَلَهُ وَفَعَلَ بِهِ وَفَعَلَ. فَقَالَ: «هَلْ رَآهُ أَحَدٌ؟» قَالَتْ: إِي وَاللهِ لَقَدْ رَآهُ نَاسٌ. فَأَقْبَلَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ عِنْدَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَإِذَا هُمْ جُلُوسٌ وَأَبُو جَهْلٍ فِيهِمْ، فَاتَّكَأَ عَلَى قَوْسِهِ، فَقَالَ: «رَمَيْتُ كَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا»، ثُمَّ جَمَعَ يَدَهُ بِالْقَوْسِ، فَضَرَبَ بِهَا بَيْنَ أُذُنَيْ أَبِي جَهْلٍ، فَدَقَّ سِيَتَهَا، ثُمَّ قَالَ: «خُذْهَا بِالْقَوْسِ، وَأُخْرَى بِالسَّيْفِ، أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ»

* * *

ومن المنطقي جدًا أن المسلمين الآخرين كان يطالهم نفس ما يطاله عليه الصلاة والسلام في حالة «إظهارهم» للإسلام والصلاة كما كان يفعل.. أو حسب الحماية العشائرية لكل منهم..

لكن ما تعرض له خباب بن الأرت كان سابقة ربما أوحت بتصعيد من نوع آخر حدث فعلًا لاحقًا..

كان خباب يعمل حدادًا في مكة، وكان لديه عمل للعاص بن وائل السهمي، فاجتمع له مبلغ لدى سعيد فذهب يتقاضاه، فقال العاص: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد!

فقال له خباب: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّى تَمُوتَ، ثُمَّ تُبْعَثَ!

قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟

قال خباب: «نَعَمْ»

فقَالَ العاص: فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ، فَأَقْضِيكَ[1].

أي أنه قال أنه سيعطيه حقه بعد أن يبعث بعد الموت...

لقد وجد العاص أنه من السهل التحايل على حقوق المسلمين بحجة إسلامهم، خصوصًا أولئك الذين لا عشائر لهم تحميهم..

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٧٥.

وبرر خروجهم عن دين الآباء أي ظلم يتعرضون له...

وكان هذا مقدمة لما سيحدث لاحقًا..

كذلك كان على قريش أن تستلم ضربة موجعة أخرى بعد إسلام حمزة...

ضربة أكثر وجعًا...

* * *

هذه المرحلة أيضًا، التي تلت هجرة الحبشة الأولى، شهدت شيئًا مختلفًا وجديدًا في النسق القرآني النازل على الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد بدأت فيها طوال السور بالنزول.

طيلة السنوات الخمس السابقة، كانت السور النازلة من قصار السور؛ كان فيها ما تجاوزت الخمسين آية، وحتى الستين، لكن الغالب عليها كان قصار السور، معدل عدد الآيات في السور بين العلق (السورة الأولى في النزول) وانتهاء بسورة القمر (تسلسل ٣٧) كان ٢١ آية، وأغلب قصار السور التي نعرفها والتي في جزء عم هي ضمن هذه الفترة، مع وجود استثناءات تضع بعض السور القصيرة في فترة لاحقة مثل سورة الانشقاق في أواخر الفترة المكية وحتى في الفترة المدنية (مثل سورة الزلزلة).

لكن النسق العام بدأ بالتغير في هذه المرحلة.

مع سورة ص (٨٨) آية، بدأت سور أطول نسبيًا بالنزول...

تلتها سورة الأعراف (٢٠٦) آية... ولاحقًا نزلت سورة مريم(٩٨) آية... سورة طه (١٣٥)... وهكذا...

معدل عدد الآيات في السور التي نزلت بين سورة ص وسورة الإسراء كان: (١٠٥) آية للسورة.

ثمة شيء تغير هنا...

كما لو أن مرحلة المواجهة الشرسة مع مشركي قريش تتطلب نفسًا أطول، تتطلب سورًا أطول...

والسور الطويلة كما هو واضح دخلت في قصص الأنبياء أكثر، كما لو أنها تَشُدُّ عضد محمد بهم.. كما لو أنها تزيده قوةً عبر تمريره فيما مروا به من معاناة وجبهات ومواجهات... وقوة.

تزيد من قوة الجميع ..

وليس من قوته هو فحسب، عليه الصلاة والسلام...

* * *

واحد من أسباب نزول مطلع صورة ص، التي نزلت بالتسلسل (٣٨) حسب ترتيب النزول، يكاد يتطابق مع فكرتنا عن ارتباط السور الطويلة بتصعيد قريش ضد الرسول عليه السلام، باعتبار أن الشكاية لأبي طالب كانت لغرض رفع العتب عند التصعيد...

عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب، فأتته قريش، وأتاه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يعوده، وعند رأسه مَقْعدُ رجلٍ، فقام أبو جهل فقعد فيه، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا، قال: ما شأن قومك يَشكُونك؟ قال: «يا عم، أريدهم على كلمة واحدة تَدين لهم بها العرب وتؤدِّي العجمُ إليهم الجزية»، قال: ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فقالوا: أجَعَلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا؟ قال:/ ونزل ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكر﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]سورة ص (٥)

ربما هناك بعض التفاصيل في الحادثة لا تصح، لكن الفكرة الأساسية هي أنهم كانوا يحاولون التواصل مع أبي طالب، تمهيدًا لتصعيدهم القادم...

السيرة ونزول القرآن، يسيران بتوافق...

(١) مسند الإمام أحمد ٢٠٠٨ وصححه الترمذي وضعفه الألباني.

إسلام بيضة القبّان

في الأحوال العادية، فإن أصحاب العمل والشركات الجديدة، يعلنون عن فرص عمل جديدة متوفرة لديهم، ومن ثم يبدؤون في فرز طلبات التقديم، بالنظر في سير المتقدمين وخبراتهم.

وفي الأحوال العادية أيضًا، فإن الجامعات تستلم طلبات المتقدمين للدراسة فيها، فتنظر في علاماتهم للسنوات الأخيرة، وفي توافق تفوقهم مع التخصص الذي يرغبون في التقدم له، ومن ثم تفرز الطلبات فرزًا تنافسيًا..

لكن في الأحوال غير الاعتيادية، الأحوال التي يرغب أصحابها أن تكون أكثر نجاحًا وتميزًا، فإن الشركات الجديدة التي ترغب في إحداث بصمة غير عادية في مجالها، تتحرى من لديهم إمكانيات يمكنها أن تساهم في إنجاح وتحقيق رؤية الشركة، حتى لو لم يقم هؤلاء بالتقديم للعمل فيها، تذهب لهم، تُغريهم، تُقدم لهم عروضًا تجعلهم يفكرون أن مكانهم الحقيقي سيكون في الشركة الجديدة، أنهم سيحققون أنفسهم أكثر.. ليس فقط في الجانب المادي.

وفي الأحوال غير الاعتيادية، حيث ترغب الجامعات في الحصول على «أفضل الطلبة» وأكثرهم تميزًا، فإنها تتجاوز أمر الطلبات المقدمة وعلامات السنة الأخيرة من الثانوية العامة ونتائج الامتحانات العامة، بل تذهب لتقتنص المتميزين وهم لا يزالون في المدرسة وقبل سنوات من وقت التقديم الاعتيادي للجامعات، تقدم لهم منحًا دراسية مجانية، لكي تضمن أن ينضموا لها لاحقًا...

أصحاب المؤسسات الطموح، لا تنتظر الناس المميزين لينضموا لها..

بل تذهب إليهم وتحاول جذبهم إليها..

كذلك أصحاب الدعوات والقضايا..

يبحثون عمن يتوسمون فيه التميز، من يرون فيه ما ليس في غيره..

من يعتقدون أنه يمكن أن يكون إضافة لمشروعهم، تختصر الكثير...

* * *

منذ مرحلة مبكرة، والرسول عليه الصلاة والسلام، يستهدف أشخاصًا يمكن أن يضيفوا للدعوة.. يمكن أن يؤدي إسلامهم إلى إسلام سواهم، يمكن أن يكونوا نموذجًا جاذبًا لغيرهم، يمكن أن يكون إسلامهم صدمة تجعل من حولهم يعيدون التفكير في إسلامهم هم..

ما هي المعايير؟

واسعة ومتنوعة بالتأكيد.. لكن مكانة الرجل بين قومه كانت مهمة بالتأكيد، ولا يعني ذلك الثراء فقط، وإن كان الثراء مهمًا ولا يمكن تجاهله إن وظف المال على النحو الصحيح وإن كان لم يجعل من صاحبه يتكبر على سواه.

لكن المكانة لا تتأتى من المال فقط، بل أيضًا من الحكمة، والشرف، والرأي السديد.

وكل هذه ميزات كان يمكن أن تضيف للدعوة، لو أن من يمتلكها انضم للدعوة، وقد كان هناك من امتلكها بالفعل من أوائل من أسلم، مثل أبي بكر الصديق، والذي أدى فعلًا إلى أن يؤمن الكثيرون عن طريقه.

* * *

كان الإسلام للجميع بالتأكيد.

الغني والفقير وعزيز القوم واللصيق بهم.

لكن موازين القوى كانت مختلة لفترة ما، على نحو يجعل الإسلام بحاجة إلى نوع معين، يوازن الأمر..

فلنتذكر قول عبد الرحمن بن عوف عندما أتى النبي عليه الصلاة والسلام هو وأصحاب له فقال للنبي: «يَا نَبِيَّ الله كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً[1]»

كانت الموازين تتجه إلى ما قال عبد الرحمن وما شعر به..

صحيح أن قريش تلقت ضربة مباغتة بالهجرة إلى الحبشة، ولكن هذا جعلها تُصَعِّد عنفها ضد الرسول عليه الصلاة والسلام شخصيًا بعد أن كان في مأمن من ذلك.. وكان التصعيد ضد كل المتبقين ولا بد...

أي أن كلام بن عوف، كان لا يزال مستمرًا.. (علمًا أنه كان من ضمن مهاجري الحبشة الأوائل)...

أو هكذا على الأقل كان يشعر المسلمون: «أنهم في ذل».

كان الميزان يحتاج إلى تعديل...

كان الميزان بحاجة إلى عزة..

بعبارة أخرى: كان الإسلام بحاجة إلى «أحد العُمَرين»..

* * *

(١) المستدرك على الصحيحين ٢٣٧٧.

صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ»[1]

عندما يربط الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام «عز الإسلام» بإسلام فرد، هو واحد من اثنين، إما عمرو بن هشام -أبو جهل- أو عمر بن الخطاب[2]، فلا بد أنه قد رأى فيهما الكثير..

أي مقارنة بين الرجلين حاليًا، ستكون غير واقعية، لأن عمر بن الخطاب هو عمر وكفى، بينما عمرو بن هشام هو أبو جهل!

لكن علينا أن نمسح كل ما نعرفه عن مصير الرجلين، وكل ما حدث لاحقًا، ونفكر كما كان يمكن النظر إلى هذين الرجلين آنذاك، ست أو خمس سنوات بعد البعثة...

عمرو بن هشام كان أصغر سادة قريش سنًا، فكل الباقين كانوا أسن منه، ويليه أبو سفيان بن حرب، الذي يكبره باثني عشر عامًا، وكان أبو جهل يصغر الرسول عليه الصلاة والسلام بعامين، حيث ولد بعد عام الفيل بعامين، أي أنه لم يكن يبلغ الأربعين بعد عندما بدأت البعثة. ولعله الآن في أوائل الأربعينات في هذه المرحلة.

ولعل صغر سنه النسبي جعله أكثر قدرة على مواجهة المسلمين، وهم في غالبيتهم كانوا من الشباب الأصغر سنًا..

مرَّ كيف أنه تسلق سلم الرئاسة في مكة مبكرًا، فقد كان من أعراف مكة أن لا يدخل دار الندوة من هو دون الخمسين من العمر، لكنه دخلها وهو في الخامسة والعشرين استثناء، لا نعرف السبب، لكن في تلك الفترة تقريبًا أعيد بناء الكعبة وربما كان له دور مهم في ذلك.

ونحن نعرف بطبيعة الحال أن هذا الاستثناء لا يمنح فقط للحكمة وسداد الرأي، لكن هناك أيضًا- بالضرورة- علاقات ودهاء في استخدام بعض ما هو متوفر منها.

وهذا يدل على أنه كان شخصًا قياديًا، متصدرًا، ويمكن أن نقول أن كل الأشخاص «القياديين» يمكن أن يكون لديهم حب للزعامة، وليس هذا بالضرورة أمر سلبي، لكنها صفة شديدة الوضوح في عمرو بن هشام.

وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام بـ«فرعون هذه الأمة»[3]، وهذا الوصف يؤكد الصفة القيادية ويضيف عليها صفات أخرى كالتجبر والتكبر ومعرفة الحق وغمطه.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف ذلك.

---

(١) سنن الترمذي٣٦٨١ وصححه الألباني.

(٢) السلسلة الصحيحة ٣٢٢٥.

(٣) أبو داوود ٣٢٦ .

لكن، كما كان موسى يأمل أن يؤمن فرعون، كذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو الله أن يهدي واحدًا من هذين؛ عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب.

وكما كان موسى يعلم أن إيمان فرعون سيقلب كل الموازين، فإن عمرو بن هشام؛ سيد مكة الصاعد، لو أسلم، لَقَلَبَ الموازين في مكة..

فوق كل هذا، لا يكون القيادي حقًا إن لم يكن ذكيًا، لديه قضية يستغرق بها.

وكان لدى عمرو بن هشام كل هذا، لكنه استخدمه بطريقة جعلت اسمه يتغير من أبي الحكم إلى أبي جهل.

* * *

هذا عن أبي جهل..

فماذا عن عمر بن الخطاب..

بعض كتب السير تذكر «إليه كانت السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشًا كانوا إذَا وقع بينهم حرب، أوْ بينهم وبين غيرهم، بعثوه سفيرًا»[1]، لكن هذا لم يثبت، بالإضافة إلى أنه لم يحدث، فآخر حرب خاضتها قريش كانت حرب الفجار، وغالبًا ولد عمر خلالها أو كان صغيرًا جدًا أثناء وقوعها، فأي حرب هذه التي كان عمر سفيرًا فيها؟ بالإضافة إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يستخدمه قط في شيء كهذا، وعلى كثر مواهبه،فإن التفاوض الدبلوماسي -إن جاز التعبير- لم يكن موهبة أصيلة عنده.

ما الذي كان في عمر بن الخطاب الذي جعل إسلامه -بنظر الرسول عليه الصلاة والسلام- يكون بأثر إيمان فرعون بموسى؟

* * *

قبل أن أدخل في صفات شخصية يمكن أن تكون مشتركة دفعت الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جمع الاثنين في دعاء واحد، لا بد من ذكر رابطة دم مشتركة بينهما.

كان والد أبي جهل هشام بن المغيرة، واحدا من سادات قريش المعدودين الذين كانت تكن لهم كل الاحترام.

توفي قبل البعثة، كان الرسول عليه الصلاة والسلام في أواخر العشرينات من عمره.

ولعل احترام هذا الرجل ومكانته وقوة شخصيته قد جعلت الرسول عليه الصلاة والسلام يقول أنه كان يمكن أن يكون مؤثرًا في موازين القوى لو أنه كان على قيد الحياة، وأسلم.

---

(١) أسد الغابة طبعة الدار العلمية ٣٨٣٠.

من الطبيعي جدًا أن يبحث عن صفاته في ابنه عمرو بن هشام، الذي كان على ما يبدو لديه بعض صفات والده، على الأقل قوة الشخصية والقيادة.

لكن ما دخل عمر بن الخطاب في هذا؟

هشام بن المغيرة هو جد عمر بن الخطاب لأمه. فأم عمر هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة، أخت أبي جهل.

وأبو جهل هو خال عمر بن الخطاب.

عندما نظر الرسول عليه الصلاة والسلام في نسل هشام بن المغيرة، وجد اثنين مميزين من ناحية الشخصية.. يمكن لهما أن يحدثا فرقًا بإسلامهما..

عمرو ابنه، وعمر حفيده لبنته..

* * *

ما المشترك بين الرجلين؟

من السهل الحديث عن قوة الشخصية، كاريزما القيادة، والذكاء. وهي أمور كانت تتوفر حتمًا في الرجلين.

ولكن هل كانت لا تتوفر إلا فيهما فقط؟!

واضح تمامًا أن الرسول كان يبحث عن مجموعة من الصفات التي يندر اجتماعها في شخص، كما لو أنه قد حدد عليه الصلاة والسلام أن اجتماع هذه الصفات في شخص واحد سيجعل منه بيضة قبان يحتاجها أي ميزان ليعتدل، وذهاب هذه البيضة إلى أي كفة من كفتي الميزان سيعني حتمًا أن الميزان سيميل لصالح هذه الكفة.

ولم يكن الوضع آنذاك معتدلًا في مكة، بل كان يميل لصالح مشركي قريش وبشدة.

إسلام بيضة القبان سيغير الوضع تمامًا.

كان عليه الصلاة والسلام يبحث عن رجل لديه صفات بيضة القبان..

ووجدها في رجلين...

* * *

ما هي صفات بيضة القبان، وقد عرفنا أنها لا بد أن تكون نادرة؟

لو تحدثنا بلغة معاصرة -لا بد من الحديث بها لفهم الموضوع- فإننا نتحدث عن أربع صفات شخصية مهمة...

الأولى- أن يكون منبسطًا، منفتحًا* بمعنى أنه يجد قوته وطاقته الداخلية من الجموع ومن التفاعل مع الناس.

الثانية- النظر إلى الصورة الكبيرة للأمور وليس في تفاصيلها؛ رؤيته العامة هي التي تمده بالمعلومات وليس المعلومات المحسوسة، وقد يسمى ذلك في أحيان كثيرة: «الحدس».

الثالثة- قراراته عقلانية منطقية ولا تخضع للعاطفة.

الرابعة- يرى نظامًا وخطة في العالم ويجب أن يسير كل شيء حسب هذا النظام وهذه الخطة، فإن لم يكن هناك نظام فهو يصنعه، وإن لم تكن خطة فهو يضعها.

هذه الصفات الأربع، ليس من السهل اجتماعها في شخص واحد، ولكنها عندما تجتمع فإنها تشكل شخصية فريدة، فائقة التأثير على الآخرين وعلى تنظيم محيطها بشكل عام.

أزعم أنا أن عمر بن الخطاب كان من هذا النوع من الشخصيات وأن كل سيرة حياته ومنجزاته الشخصية الحافلة تصب في تأكيد هذا الزعم.

لا نعرف ما يكفي عن أبي جهل، لكن ما نعرفه يكفي ليضعه كمرشح في هذه الخانة.

الصفات ليست مهمة بحد ذاتها، كل الصفات الشخصية ليست مهمة، المهم كيف تستعمل...

ولقد رأينا كيف أن نفس الصفات قادت واحدًا ليكون عمر الفاروق.

وقادت آخر ليكون أبا جهل.

* * *

علينا أن نتذكر هنا أن عمرو بن هشام كانت لديه ميزتان في التأثير تفوقان عمر بن الخطاب، لكنهما لم تكونا ميزتين في شخصيته، بل في مكتسبات موروثة.

أبو جهل كان ينتمي لبني مخزوم، وكان هؤلاء يتنازعون السلطة والثراء مع بني أمية في تلك الفترة، وقد حازوا على ذلك عبر ثرائهم، رغم أنهم ليسوا من أولاد قصي.

بينما عمر كان ينتمي لبني عدي، وهم من البطون الأقل شأنًا من بني مخزوم.

أيضًا لم يعرف عن عمر بن الخطاب أنه كان ثريًا.. أو على الأقل لا يمكن أن يقارن ثراءه بثراء أبي جهل. والثراء، مثل المكانة الاجتماعية، يمكن أن يكون له أثر كبير في عملية «عز الإسلام»...

---

* الكلمة هنا ترجمة لكلمة extrovert والتي تشير إلى شخصية تتعامل بسهولة مع الأشخاص الآخرين دون تحفظ وتجد طاقتها في التفاعل مع الجموع.

لكن غالبًا كان عمر يتفوق على أبي جهل في ميزات شخصية أخرى، جعلته يكون في مستوى المقاربة والتأثير فيما لو أسلم.

وقد كان.

* * *

هناك مشترك مهم آخر في إسلام أي من الرجلين.

وكان سببًا في الصدمة التي حدثت في مكة عندما أسلم عمر فعلًا.

الرجلان كانا ضد الإسلام، ضد دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يكونا محايدين ولا ساكتين بتحفظ، لم يكونا مجرد مشاركين لحملة العداء ضد الرسول عليه الصلاة والسلام.

كانا «ضد» جدًا.

ولذلك فإن إسلام أي منهما، كان سيشكل صدمة لمكة.

لو أنهما كانا بلا موقف معلن مسبق، لو أن موقفهما كان غير معلن ولا واضح، لما كانت هناك صدمة كبيرة.

لكن هذا التغيير..

هذا الانقلاب بحد ذاته كان سيحدث تأثيرًا كبيرًا في مكة، كان سيجعل الناس يقفون ليتساءلوا مع أنفسهم، ومع بعضهم البعض، ما الذي حدث؟ ما الذي وجده الرجل في محمد لكي ينقلب هكذا؟ ما الذي استجد؟ كيف تغير هكذا وقد كان يراه جديرًا بالعداء والسخرية والرفض؟

أسئلة مهمة كانت ستطرح فور دخول أي من الرجلين الإسلام، وما كانت ستطرح لو أنهما لم يكن لديهما المشتركات التالية:

أولًا–موقف سابق معلن وشديد ومضاد للإسلام.

ثانيًا- رجاحة العقل والحكمة، لو أنهما كانا معروفين بسرعة تغيير الرأي أو التهور أو العجلة في إصدار الأحكام لما حقق إسلام أي منهما صدمة، فالناس تميز أصحاب الرأي الراجح والثابت، ولو أنهما كانا غير ذلك لما كان موقفهما المضاد للإسلام مهمًا، ولا انقلابهما عليه أيضًا.

ثالثًا- أنهما معًا كانا ينتميان لعشيرتين مضادتين تقليديًا لبني هاشم / أو العشيرة الأكبر بني عبد مناف. فبنو مخزوم (عشيرة أبي جهل) وبنو عدي (عشيرة عمر) كانا ضمن حلف الأحلاف مع بني عبد الدار ضد بني عبد مناف.[1]

---

[1] حلف المطيبين وحلف الأحلاف. راجع المفاتيح/ المفتاح السابع.

كثيرًا ما كان الانتماء العشائري المقرب لبني هاشم أو المتحالف معها يفسر -بالنسبة للمشركين على الأقل- إيمان البعض برسالته عليه الصلاة والسلام. وهذا قد يفسر إيمان المجموعة الأولى المبكرة جدًا من المؤمنين، إذ إنهم كلهم كانوا ضمن تحالف العشائر مع عبد مناف، ولكن تدريجيًا لم يعد الأمر قاصرًا على هؤلاء ودخل في الإسلام من هو في عشائر ضمن التحالف الآخر ومن نفس عشيرة أبي جهل بل وفي بيت عمر بن الخطاب كما نعرف.

الفكرة هنا أن الإيمان كان أكبر من العشائرية وتحالفاتها، لكن العداء العنيف ضد الإيمان لم يكن كذلك تمامًا.

آمن بالرسول من كل العشائر، وكفر به وكذبه من كل العشائر.

لكن حدة الكفر وشدة العداء لم تكن خارج العشائرية تمامًا.

إذن عندما يأتي الانتقال من العداء إلى الإيمان، من عشيرة متقاربة مع عشيرة النبي فهذا سيكون مفهومًا وليس صادمًا.

لكن الانتقال هنا جاء من عشيرة معادية تقليديًا. الانقلاب ١٨٠ درجة جاء من عشيرة لا يتوقع منها انقلابات كهذه.

هذه الصفات المشتركة بين عمرو بن هشام، الشهير بأبي جهل، وعمر بن الخطاب، المعروف بالفاروق، ربما ساهمت أكثر في أن تضعهما معًا في دعاء الرسول.

وفي تفسير الصدمة التي حدثت بإسلام عمر.

* * *

لا نعرف بالضبط كيف دخل عمر في الإسلام..

فقد كان أولًا من أشد أعدائه... ولكنه فجأة أخذ يرق، وفي لحظة حاسمة انقلب انقلابًا كبيرًا زلزل مكة، وكان انقلابًا في موازينها ولاحقًا في سياستها تجاه الدعوة.

ولعل أولى مؤشرات رقته أحستها إحدى مهاجرات الحبشة وهي ليلى بنت أبي حثمة إذ قالت:

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي إِسْلَامِنَا، فَلَمَّا تَهَيَّأْنَا لِلْخُرُوجِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، جَاءَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَنَا عَلَى بَعِيرِي أُرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّهَ فَقَالَ: أَيْنَ يَا أُمَّ عَبْدِ اللهِ؟ فَقُلْتُ: آذَيْتُمُونَا فِي دِينِنَا، فَنَذْهَبُ فِي أَرْضِ اللهِ، حَيْثُ لَا نُؤْذَى فِي عِبَادَةِ اللهِ، قَالَ: صَحِبَكُمُ اللهُ، ثُمَّ ذَهَبَ، فَجَاءَنِي

زَوْجِي عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ رِقَّةِ عُمَرَ، فَقَالَ: تَرْجِينَ أَنْ يُسْلِمَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللهِ لَا يُسْلِمُ حَتَّى يُسْلِمَ حِمَارُ الْخَطَّابِ(١)

ليلى هذه زوجة عامر بن ربيعة، وهو أخو عمر بن الخطاب بالتبني، وكان التبني لا يزال قائمًا آنذاك، فكان يسمى عامر بن الخطاب(٢) وهي نفسها عدوية من نفس عشيرة عمر، أي أن شدته عليهما كانت ضمن حملات الأذى العائلية التي حدثت للمسلمين أول الأمر..

الهجرة كانت سرًا... فلماذا عمر يعرف بها؟

لا بد أن الخبر تسرب له من هذه العلاقات المتداخلة، فأخوه يكاد يهاجر، ومع المهاجرين أيضًا أم سلمة وهي ابنة عم أم عمر..

ولعله رأى في صلابتهم على مبدئهم ما رق له قلبه..

ثم كانت الشرارة التي فجرت موقفه تجاه كل شيء، كان عمر يريد أن يقتل الرسول عليه الصلاة والسلام حرفيًا، ربما لأنه رآه المتسبب بكل ما يحدث في مكة من خلافات وتصدعات بين الأشقاء والأبناء، ولكن رجلًا ما يناوره فيقول له بما معناه الزم أهل بيتك أولًا، إذ إن أختك فاطمة وزوجها أسلما...

ثم يتصاعد الموقف إلى مواجهته لفاطمة وزوجها، ومن ثم اصطدامه بآيات من القرآن، يذكر أنها من سورة طه*...

* * *

شخص (منبسط extrovert) يجد طاقته في التفاعل مع الآخرين ما كان يمكنه إلا أن يشهر قرار إسلامه على النحو الذي فعله عمر، الأشخاص من النوع (الداخلي introvert) سيأخذون قرارهم إلى خلوتهم، إلى أسرهم، إلى صديق مقرب..

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٤٧ ورواه الألباني في صحيح السيرة.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٥٥٣٣.

* لكني أجد أن هذا يتصادم مع ترتيبها، حيث إن تسلسلها هو ٤٥، على بعد خمس سور من سورة الإسراء التي نزلت في السنة العاشرة، فتكون (طه) في السنة التاسعة مثلًا وليس أقل من ذلك، وهو أمر لا يتناسب مع كونها كانت تقرأ وقت إسلام عمر، الذي كان غالبًا في السنة السادسة للبعثة، إذ إنه أسلم بعد أربعين رجلًا، أي أنه أسلم بين الهجرة الأولى والثانية للحبشة لأن الهجرة الثانية تضمنت أكثر من ٨٠ رجلًا ونحن نعرف أن سورة مريم كانت نزلت قبل الهجرة الثانية للحبشة أو على الأقل خلالها لأنها قرئت على النجاشي، وسورة مريم نزلت قبل سورة طه مباشرة حسب ترتيب النزول.

.... وعلى هذا يكون ثمة خطأ في ترتيب النزول هنا (تسلسل سورة طه أو سورة الإسراء) أو تكون السورة التي قرأها عمر عند أخته فاطمة سورة مختلفة.

لكن عمر ذهب إلى الحد الأقصى من الجهة المقابلة..

(قال: يا رسول الله إني لا أدع مجلسًا جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام فأتي المسجد وفيه بطون قريش متحلقة، فجعل يعلن الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًارسول الله)[١]..

عمد عمر فيما ينقل ابن إسحاق[٢] عن قصة إسلامه إلى أن يذهب إلى أحد أكثر الأشخاص نقلًا للأخبار في مكة، وهو جميل بن معمر الجمحي، ليقول له خبر إسلامه، وانطلق الرجل إلى المسجد الحرام فورًا لينقل للناس وهم في أنديتهم حول الكعبة خبر «أن عمر قد صبأ» وعمر خلفه يقول: «كذب! بل أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.. »

وهجم الناس على عمر يقاتلهم ويقاتلونه، حتى جاء شيخ من أشياخ قريش ووقف عليهم: «ما شأنكم؟» فقالوا له: «صبأ عمر.»

فرد عليهم: «فمه؟ رجل اختار لنفسه فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم؟ »وأشار بيديه: هكذا عن الرجل فانصرف الجميع عن عمر[٣].

كان هذا أول مؤشر على أن لإسلام عمر ما بعده من نتائج على قريش.

لماذا؟

لأن هذا الشيخ الذي أمر الناس بالكف عن عمر هو العاص بن وائل السهمي، الذي مر بنا أنه هو الذي عاير الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه أبتر، وهو الذي قيل أن سورة الماعون نزلت فيه، وهو الذي غمط حق خباب بن الأرت وقال أنه سيدفع له أجره يوم الحساب.

سيد بني سهم ووالد عمرو بن العاص والذي كان واحدًا من أشد أعداء الدين الجديد، يقول اليوم:

رجل **«اختار دينًا لنفسه»**[٤]... **فماذا تريدون؟** بتعبيرنا المعاصر هو يقول: هذه حرية شخصية.. ما شأنكم؟

ولكن ما يبدو أنه صدفة من مرور العاص بن وائل أثناء قتال الناس لعمر قد لا يكون كذلك، ففي صحيح البخاري أن عمر قد حصل على حماية العاص بن وائل قبل أن ينزل لمواجهة الناس، قال له: **زَعَمَ قَوْمُكَ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونِي إِنْ أَسْلَمْتُ، قَالَ: لاَ سَبِيلَ إِلَيْكَ، بَعْدَ أَنْ قَالَهَا أَمِنْتُ، فَخَرَجَ العَاص**

(١) المعجم الأوسط للطبراني ١٣٤٧ وذكره الألباني في صحيح السيرة.

(٢) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٨٥.

(٣) صحيح ابن حبان ٦٨٧٩ وحسنه الألباني.

(٤) صحيح ابن حبان ٦٨٧٩.

فَلَقِيَ النَّاسَ قَدْ سَالَ بِهِمُ الوَادِي، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ فَقَالُوا: نُرِيدُ هَذَا ابْنَ الخَطَّابِ الَّذِي صَبَا، قَالَ: لاَ سَبِيلَ إِلَيْهِ فَكَرَّ النَّاسُ.[1]

لقد استخدم عمر الأمر بذكاء، لم يقل لمن يقاتله لقد أجارني العاص بن وائل... بل وضع العاص بن وائل في مواجهتهم..

جعل قريشًا تعي تصدعها على نحو مباشر...

كان ذلك أول الغيث.

* * *

أسلم عمر بعد أربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة[2].

كان ذلك في السنة السادسة تقريبًا.

هجرة الحبشة الثانية حدثت بعد أقل من عامين، وربما عام واحد، وكان عدد من هاجر أكثر من ثمانين رجلًا ونساءهم[3].

هذا عدا من بقي في مكة من المسلمين، إذ لم يهاجر الجميع بطبيعة الحال.

العدد إذن وصل أكثر من الضعف في هذه الفترة.

ما الذي حدث؟

هذا الذي حدث.

إسلام رجل واحد، كان مثل بيضة القبان في ميزان لم يكن معتدلًا...

* * *

كيف حدث هذا بالضبط *؟

لا نعرف، لكن من المؤكد أن المسلمين يومها اعتبروا إسلام عمر قد حقق العزة لمسلمي مكة، حيث قال ابن مسعود «ما زلنا أعزة منذ أن أسلم عمر»[4]

وقال أيضًا أنهم لم يستطيعوا أن يصلوا ظاهرين في الكعبة حتى أسلم عمر فصلى وصلوا معه[5]..

---

(١) صحيح البخاري ٣٨٦٤.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٣٦٦٠٠.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٤٠٠ .

* للمزيد عن إسلام عمر، راجع كتاب استرداد عمر من السيرة للمسيرة، للمؤلف.

(٤) صحيح البخاري ٣٨٦٣.

(٥) المستدرك على الصحيحين ٤٤٨٧.

ولعل هذا الظهور قد شجع الكثير من المترددين في قبول الإسلام على حسم أمرهم وإعلان إسلامهم، متقوين بالوضع الجديد للمسلمين بعد إسلام عمر... فلنتذكر هنا أن وضع عمر كان مختلفًا مثلًا عن وضع أبي بكر الصديق: أبو بكر الصديق ساهم في إسلام كثيرين بقابلياته على الإقناع الشخصي، فردًا لفرد، عمر ساهم في دخول الناس في الإسلام بقوة إسلامه، بحضوره.

كان الأمر ضربة موجعة لقريش حتى إن المشركين قالوا وقتها: «انتصف القوم منا[1]».

هذه الضربة جعلت قريشًا تفكر في تغيير أسلوب المواجهة مع الرسول عليه الصلاة والسلام...

إسلام عمر جعلها تعي أن محمدًا عليه الصلاة والسلام أصبح يكسب المواجهة على نحو لم يكن متوقعًا منها.

بدأت تعي أنها تواجه صراعًا من أجل بقائها... على الأقل بقائها كما هي...

* * *

هل يستطيع فردٌ واحد أن يحدث هذا الفرق؟

نعم، أحيانًا يستطيع ..

نبالغ أحيانًا في الحديث عن الجماعة، وروح الفريق وننسى دور الفرد، ننسى أنه أحيانًا ثمة فرد ممكن أن يحدث فرقًا كبيرًا..

تحولت موازين القوى في مكة بإسلام فرد واحد هو عمر..

لكنه كان فردًا بإمكانيات كبيرة...

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤٤٩٤.

كل شيء هادئ في شعب أبي طالب

ثلاثة أحداث متتالية -أو متداخلة زمنيًا مع بعضها البعض- جعلت قريشًا تمضي خطوة أبعد كثيرًا من كل سابقاتها.

الحدث الأول كان إسلام عمر بن الخطاب، وقد كان الحدث مثل الزلزال الذي ضرب مكة، لأنه أول المنقلبين من معسكر العداء الشديد إلى الإيمان الشديد، ولقوة شخصيته، وجعل هذا وضع المسلمين يختلف تمامًا عما سبقه، وجعل «المترددين» يحسمون ترددهم ويعلنون إسلامهم على نحو جعل عدد المسلمين يزداد في فترة قصيرة.

كان هذا اختراقًا في جبهة قريش الداخلية.

الحدث الثاني كان أنه عليه الصلاة والسلام قد بدأ يجد آذانًا صاغية عند العرب ممن يقدمون إلى مكة لغرض التجارة أو الحج.

وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام قد قابل وفدًا من الأوس كان جاء مكة وأن واحدًا على الأقل من هذا الوفد قد أسلم[1] كما سيأتي لاحقًا.

كما أن هذه الفترة قد شهدت إسلام أحد سادات قبيلة دوس، وهو الطفيل بن عمرو الدوسي، الذي روى قصة إسلامه عَبْد الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ الدَّوْسِيِّ وَكَانَ لَهُ حِلْفٌ فِي قُرَيْشٍ قَالَ: كَانَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرو الدوسي رجلًا شريفًا شاعرًا مليئًا كَثِيرَ الضِّيَافَةِ فَقَدِمَ مَكَّةَ وَرَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِهَا فَمَشَى إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا: يَا طُفَيْلُ إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلادنَا وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بِنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتَ أَمْرَنَا وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسِّحْرِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِه. إِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مِثْلَ ما دخل علينا منه فَلا تُكَلِّمْهُ وَلا تَسْمَعْ مِنْهُ. قَالَ الطُّفَيْلُ: فوالله مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَجْمَعْتُ أَنْ لا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلا أُكَلِّمُهُ. فَغَدَوْتُ إِلَى المسجد وقد حشوت أذني كرسفًا. يعني قطنًا. فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ حَتَّى كَانَ يُقَالُ لِي ذُو الْقُطْنَتَيْنِ. قَالَ فَغَدَوْتُ يَوْمًا إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ الله -صَلَّى

---

(1) مسند الإمام أحمد ٢٣٦١٩.

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَقُمْتُ قَرِيبًا مِنْهُ فَأَبَى اللهُ إلا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ فَسَمِعْتُ كَلامًا حسنًا فقلت في نفسي: وا ثكل أُمّي.

وَاللهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيَّ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ فَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ؟ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قبلتُهُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُهُ.

فَمَكَثْتُ حَتَّى انصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ ثُمَّ اتَّبَعْتُهُ حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ مَعَهُ فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا لِلَّذِي قالوا لي. فوالله مَا تَرَكُونِي يُخَوِّفُونِي أَمْرَكَ حَتَّى سَدَدْتُ أُذُنِي بِكُرْسُفٍ لأَنْ لا أَسْمَعَ قَوْلَكَ. ثُمَّ إِنَّ اللهَ أَبَى إلا أَنْ يُسْمِعَنِيهِ فَسَمِعْتُ قَوْلًا حَسَنًا فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمْرَكَ. فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الإِسْلامَ وَتَلا عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَقَالَ: لا وَاللهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا وَلا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ. فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقِّ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قومي وأنا راجع إليهم فداعيهم إِلَى الإِسْلامِ فَادْعُ اللهَ أَنْ يَكُونَ لِي عَوْنًا عَلَيْهِمْ فِيمَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ[1]...

فهنا وصلت الدعوة لواحد من سادات قبيلة دوس في اليمن وبدا مستعدًا لنشر الدعوة إلى قومه*

كان هذا اختراقًا من جبهة علاقات قريش مع العرب.

الحدث الثالث كان في فشل وفد قريش في محاولته إرجاع المهاجرين من الحبشة، كانت تلك إهانة كبيرة لقريش، ويمكن تخيل كيف كانت قريش محرجة من الأمر وانتشار خبره بين قبائل العرب.

كان ذلك اختراقًا من جهة علاقات قريش الخارجية مع غير العرب.

هذه الاختراقات الثلاثة حدثت بين عامي ٦ و٧ للبعثة تقريبًا، كان واضحًا أن ما بدا مثارًا للضحك والسخرية قبل سنوات، صار يهدد قريشًا ويحصل في كل يوم على نقاط جديدة.

أحست قريش أنها تحاصر بالتدريج.

فقررت أن تحاصر حصارها.

* * *

---

(١) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الرابع صفحة ١٧٩.

* توضع الحادثة في الكثير من كتب السيرة في وقت لاحق، رغم عدم وجود ما يدل على ذلك، ولعل هذا خلط بين إسلام الطفيل وبين عرض قدمه لاحقًا للرسول عليه الصلاة والسلام، كما سنرى لاحقًا، بكل الأحوال فالثابت أن الرسول كان يلتقي بالوفود من خارج مكة في هذه الفترة، فوفد الأوس من يثرب ثابت أنه التقي قبل السنة الثامنة للبعثة.

أيقنت قريش أن البطش بأتباع محمد عليه الصلاة والسلام، لن يؤدي إلى أي نفع حقيقي.

كذلك كانت جربت حربها الإعلامية لدفع الناس عنه دون نتائج تذكر.

بقي أمامها أن تواجه حقيقة أن القضاء على هذه الدعوة، يتطلب القضاء على محمد نفسه.

أي قتله.

لكن قتل محمد، لو حدث، سيكون بمثابة الانتحار لها، وكانت قريش تعي ذلك جيدًا.

كانت بنية قريش الاجتماعية قائمة على مجموعة متداخلة من التحالفات بين العشائر على نحو يجعل أي خرق لهذه التحالفات يمكن أن يفتح باب خروقات لا تنتهي.

كان الأمر متشابكًا مثل مجموعة قطع دومينو تستند واحدة إلى الأخرى، لو أزيحت أي من هذه القطع، فإن كل القطع الأخرى ستقع أيضًا.

على سبيل المثال: كان هناك حلف الفضول، الذي يضم هاشم والمطلب* وتيم وزهرة وأسد.

ومر الحديث عن حلفي قريش الأساسيين: حلف المطيبين (الذي يضم بني عبد مناف بن قصي مع بني أسد بن عبد العزى، بني زهرة بن كلاب، بني تيم بن مرة، بني الحارث بن فهر) وحلف الأحلاف (الذي يضم بني عبد الدار بن قصي مع بني مخزوم بن يقظة، بني سهم بن عمرو، بني جمح بن عمر، وبني عدي بن كعب).

وهكذا فإن أي تعرض بالقتل للرسول عليه الصلاة والسلام (وهو من بني هاشم بن عبد مناف) كان يمكن أن يجر تحالفات هاشم وعبد مناف إلى مواجهة مع القبائل الأخرى، خاصة أن هذه التحالفات كانت تضم عشيرة زوجته السيدة خديجة، وعشيرة أخواله، وأيضًا عشيرة أبي بكر الصديق.

بعبارة أخرى: التعرض للرسول بالقتل، كان يمكن أن يشعل نزاعًا داخل قريش، يقضي عليها.

كانت قريش تعرف أن دعوة محمد ستقضي على بنيتها الاجتماعية.

لكن تعقد هذه البنية، كان سيجعل القضاء على محمد قضاء على نفس البنية الاجتماعية التي تريد قريش المحافظة عليها.

أدركت قريش في هذه المرحلة أن مواجهتها مع الرسول قد أضحت صراعًا من أجل البقاء.

وأي صراع من هذا النوع كان يتضمن مخاطرات كبيرة.

وهذا بالذات ما كانت قريش على وشك الدخول فيه.

---

* علينا أن نتذكر هنا رفعًا للبس شائع أن بني المطلب هم ليسوا بني عبد المطلب جد النبي، بل أولاد المطلب وهو عم عبد المطلب، وقد سمي عبد المطلب هكذا لأن عمه رباه واسمه الأصلي شيبة. أي أن هاشمًا والمطلب أخوة من أبناء عبد مناف، بالإضافة إلى نوفل وعبد شمس.

لا يمكن قتل محمد عليه الصلاة والسلام لأن هذا سيجعل بني هاشم في المواجهة.

إذن، كان الحل هو أن **يقوم بنو هاشم أنفسهم بالتخلي عنه**، عليه الصلاة والسلام.

عندها، لن يكون هناك داع لاستدعاء التحالفات، لأن هاشم نفسها تكون شريكة في الأمر.

كانوا يريدون من هاشم، تحديدًا من أبي طالب سيد قومه، أن يسلمهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

* * *

فلنر كيف تطور أمر مطالبة بني هاشم بالرسول عليه الصلاة والسلام...

ولكن لفهم أدق للموضوع علينا أن ننتبه إلى الانتماءات العشائرية للأفراد المشاركين في الأمر سلبًا أو إيجابًا...

التحرك كان عشائري الطابع، لذا ففهمه من هذه الناحية مهم جدًا.

مَشَى رِجَالٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ إلَى أَبِي طَالِبٍ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ، وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بن عبد مناف بن قصي، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ -وَاسْمُهُ الْعَاصُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَأَبُو جَهْلٍ- وَاسْمُهُ عَمْرُو بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بن مَخزوم، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَنُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ، ابْنَا الْحَجَّاجِ بْنِ عَامِرِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْمٍ، وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْمٍ.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ أَوْ مَنْ مَشَى مِنْهُمْ.

فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ إنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلِهَتَنَا، وَعَابَ ديننا وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فَإِمَّا أَنْ تَكُفَّهُ عَنَّا، وَإِمَّا أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَإِنَّكَ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ فَنَكْفِيكَهُ؟

فَقَالَ لَهُمْ أَبُو طَالِبٍ: قَوْلًا رَفِيقًا، وَرَدَّهُمْ رَدًّا جَمِيلًا فَانْصَرَفُوا عَنْهُ[1].

أشراف القوم هذه المرة جاؤوا من عشائر مختلفة، وليس من حلف معين، هناك من أبناء عبد مناف (أولاد عبد شمس -المعروفون لاحقًا أكثر بجزء بني أمية منهم- وبنو أسد بن عبد العزى) مع بني مخزوم، وبني سهم. ولم يحدث سابقًا تحالف بين بني عبد مناف مع مخزوم وسهم، فمخزوم

(١) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٤٨.

وسهم هم حلفاء بني عبد الدار، الطرف الآخر من أبناء قصي، ولكن الوضع الجديد يفرز تحالفات جديدة.

كما لو أن الموقف ضد الرسول عليه الصلاة والسلام يشكل حلفًا جديدًا من تحالف المال والثروة، حيث إن بني مخزوم وبني سهم وبني عبد شمس هم من الأكثر ثراءً في مكة.

هذه المرة لا يعرضون على أبي طالب أن يؤثر على الرسول عليه الصلاة والسلام، كما لا يعرضون على الرسول عليه الصلاة والسلام أي مغريات للكف عن دعوته.

هم يريدون أن **«يخلي بينهم وبينه»**.

يريدون منه أن يتخلى عنه، لكي لا تزاح قطعة الدومينو من البناء القريشي المبني على مجموعة من قطع الدومينو.

كان أبو طالب رفيقًا مهذبًا. لكنه لم يقبل بطبيعة الحال.

ثم..

وَمَضَى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، يُظْهِرُ دِينَ الله، وَيَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ اشْتد الْأَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَتَّى تَبَاعَدَ الرِّجَالُ وَتَضَاغَنُوا، وَأَكْثَرَتْ قُرَيْشٌ ذِكْرَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهَا.. فَحَضَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ مَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالُوا لَهُ:

يَا أَبَا طَالِب، إِنَّ لَكَ سِنًّا وَشَرَفًا وَمَنْزِلَةً فِينَا، وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَهُ عَنَّا، وَإِنَّا وَاَللَّهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا، حَتَّى تَكُفَّهُ عَنَّا، أَوْ نُنَازِلَهُ وَإِيَّاكَ فِي ذَلِك، حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ... ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ، فَعَظُمَ عَلَى أَبِي طَالِبٍ فِرَاقُ قَوْمِهِ وَعَدَاوَتُهُمْ، وَلَمْ يَطِبْ نَفْسًا بِإِسْلَامِ (بتسليم) رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ وَلَا خِذْلَانِهِ[1].

وبعدها...

عن ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ الْأَخْنَس، أَنَّهُ حُدِّثَ أَنَّ قُرَيْشًا حِينَ قَالَتْ لِأَبِي طَالِب هَذِهِ الْمَقَالَةَ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاءُونِي فَقَالُوا كَذَا وَكَذَا فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ أَنَا وَلَا أَنْتَ، فَاكْفُفْ عَنْ قَوْمِكَ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ قَوْلِكَ،

(١) سيرة ابن هشام الجزء الأول صفحة ٢٦٥-٢٦٦.

فَظَنَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ، وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ وَضَعُفَ عَنِ الْقِيَامِ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَمِّ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي مَا تَرَكْتُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْ أَهْلِكَ فِي طَلَبِه» ثُمَّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَكَى، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ لَهُ حِينَ رَأَى مَا بَلَغَ الْأَمْرُ بِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا ابْنَ أَخِي فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «امْضِ عَلَى أَمْرِكَ وَافْعَلْ مَا أَحْبَبْتَ، فَوَالله لَا أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا»[1]

ويبدو أن هذه هي الفترة التي عرض فيها المشركون هذا الشيء الغريب...

قَالُوا: لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ ظُهُورَ الإِسْلَامِ وَجُلُوسَ الْمُسْلِمِينَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ. فَمَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ حَتَّى دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: أَنْتَ سَيِّدُنَا وَأَفْضَلُنَا فِي أَنْفُسِنَا. وَقَدْ رَأَيْتَ هَذَا الَّذِي فَعَلَ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ مَعَ ابْنِ أَخِيكَ مِنْ تَرْكِهِمْ آلِهَتَنَا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا. وجاؤوا بِعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ(من بني مخزوم) فَقَالُوا: قَدْ جِئْنَاكَ بِفَتَى قُرَيْشٍ جَمَالًا وَنَسَبًا وَنَهَادَةً وَشِعْرًا نَدْفَعُهُ إِلَيْكَ فَيَكُونُ لَكَ نَصْرُهُ وَمِيرَاثُهُ وَتَدْفَعُ إِلَيْنَا ابْنَ أَخِيكَ فَنَقْتُلُهُ. فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِلْعَشِيرَةِ وَأَفْضَلُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ مَغَبَّةً.

قَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَالله مَا أَنْصَفْتُمُونِي. تُعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ وَأُعْطِيكُمُ ابْنَ أَخِي تَقْتُلُونَهُ؟ مَا هَذَا بِالنَّصَفِ. تَسُومُونَنِي سَوْمَ الْعَزِيزِ الذَّلِيلِ!

وَقَالُوا: لا نَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا. وَمَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُغْتَالَ مُحَمَّدٌ[2]

عرضوا على أبي طالب أن يأخذ عمارة بن الوليد بن المغيرة من بني مخزوم -أخو خالد بن الوليد- وقد كان أجمل شباب قريش، ويعطيهم محمدًا عليه الصلاة والسلام ليفعلوا به ما يشاء، ورغم غرابة هذا الأمر الآن، فيبدو أنه كان من عادات الجاهلية في ظروف معينة، ربما بديلًا عن الثأر...

نلاحظ أن بعض أبناء عبد مناف قد خذلوا أبا طالب هنا.. إذ ينقل ابن إسحاق..

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي الجزء ٢ ص ١٨٧ وقد ضعفه الألباني السلسلة الضعيفة ٩١٣، وينبغي القول هنا أن هذه الفترة لا توجد فيها أي أحاديث صحيحة. ويمكن النظر إلى الأحاديث الضعيفة -ما دام لا يوجد في سندها كذاب- لضرورة أن نجد ما يعطينا لو لمحة عن الفترة.

(٢) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٥٨.

قال له المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: لقد أنصفك قومك يا أبا طالب؛ وما أراك تريد أن تقبل ذلك منهم، فقال أبو طالب للمطعم بن عدي: والله ما أنصفتموني ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[(١)]

فَلَمَّا كَانَ مَسَاءُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ فُقِدَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَجَاءَ أَبُو طَالِبٍ وَعُمُومَتُهُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَلَمْ يَجِدُوهُ. فَجَمَعَ فِتْيَانًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ثُمَّ قَالَ:

لِيَأْخُذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ حَدِيدَةً صَارِمَةً ثُمَّ لِيَتْبَعْنِي إِذَا دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ. فَلْيَنْظُرْ كُلُّ فَتًى مِنْكُمْ فَلْيَجْلِسْ إِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَائِهِمْ فِيهِمُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ. يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ. فَإِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ شَرٍّ إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ.

فَقَالَ الْفِتْيَانُ: نَفْعَلُ.

فَجَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَوَجَدَ أَبَا طَالِبٍ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. فَقَالَ: يَا زَيْدُ أَحْسَسْتَ ابْنَ أَخِي؟

قَالَ: نَعَمْ كُنْتُ مَعَهُ آنِفًا. فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: لا أَدْخُلُ بَيْتِي أَبَدًا حَتَّى أَرَاهُ.

فَخَرَجَ زَيْدٌ سَرِيعًا حَتَّى آتِيَ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم- وَهُوَ فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ يتحدثون. فأخبره الخبر. فجاء رسول الله إِلَى أَبِي طَالِبٍ.

فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَيْنَ كُنْتَ؟ أَكُنْتَ فِي خَيْرٍ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: ادْخُلْ بَيْتَكَ. فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَالِبٍ غدا النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَوَقَفَ بِهِ عَلَى أَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ. وَمَعَهُ الْفِتْيَانُ الْهَاشِمِيُّونَ وَالْمُطَّلِبِيُّونَ. فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَلْ تَدْرُونَ مَا هَمَمْتُ بِهِ؟ قَالُوا: لاَ. فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ. وَقَالَ لِلْفِتْيَانِ:

اكْشِفُوا عَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ. فَكَشَفُوا. فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَعَهُ حَدِيدَةٌ صَارِمَةٌ.

فَقَالَ: وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُمُوهُ مَا بَقَّيْتُ مِنْكُمْ أَحَدًا حَتَّى نَتَفَانَى نَحْنُ وَأَنْتُمْ. فَانْكَسَرَ الْقَوْمُ وَكَانَ أَشَدَّهُمُ انْكِسَارًا أَبُو جَهْلٍ.[(٢)]

---

(١) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٥٢.

(٢) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول ١٥٨-١٥٩.

يبدو أن هذه هي نقطة الذروة العليا التي وصلت لها الأمور في احتدامها بين أبي طالب ومن معه وبين قريش من جهة أخرى.

وهي النقطة التي كانت تريد قريش تجنبها، لأنها نقطة تقود إلى انهيار البناء كله...

هذه هي النقطة التي حددت من سيكون مع أبي طالب: بنو هاشم سيكون معهم أولاد عمهم بنو المطلب، وسيتخلف عنهما أولاد عمومتهم الآخرين: بنو نوفل وبنو عبد شمس، وقد سبق لوجوه منهما أن بينوا موقفًا ليس مؤيدًا لبني هاشم في مطالبات قريش بتسليمه.

سيواجه تحالف بني هاشم وبني المطلب قريشًا بأسرها.

فَلَمَّا عَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَكْتُبُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ أَنْ لَا يُنْكِحُوهُمْ وَلَا يُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ، وَلَا يُبَايِعُوهُمْ وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ، وَعَمَدَ أَبُو طَالِبٍ فَأَدْخَلَهُمُ الشِّعْبَ* شِعْبَ أَبِي طَالِبٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ مَكَّةَ، وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا[1]

«وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا وَكِنَانَةَ، تَحَالَفَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ: أَنْ لَا يُنَاكِحُوهُمْ وَلَا يُبَايِعُوهُمْ، حَتَّى يُسْلِمُوا إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2]

وكتب الصحيفة منصور بن عكرمة[3] من بني عبد الدار.

وقيل أنهم قالوا « لا صلح بيننا وبينكم ولا رحم إلا على قتل هذا الصبي السفيه»[4]... يقصدونه عليه الصلاة والسلام، حاشاه.

وكان الحصار شاملًا لكل بني هاشم وبني المطلب مؤمنهم وكافرهم إلا أبو لهب[5] لعداوته المعروفة للرسول عليه الصلاة والسلام.

الصحيفة حددت قريشًا وكنانة في التحالف ضد بني هاشم وبني المطلب، بل إن الصحيفة وقعت بخيف (وادي) بني كنانة... وكنانة هي القبيلة الأكبر التي تفرعت منها قريش، وهي التي حاربت معها قريش حرب الفجار ضد قبائل قيس عيلان، لماذا تحالفت قريش مع كنانة (وهي قبيلة كبيرة جدًا وتضم قبائل كثيرة) ضد عشيرتين من أبناء عبد مناف لا يمكن أن تقارن بعدد رجالها بقبيلة كنانة؟

* الشعب هو الطريق بين الجبال وكانت قريش تسكن في بعضها بين جبال مكة.

(١) السنن الكبرى للبيهقي ١٣٠٧٦ .

(٢) صحيح البخاري ١٥٠٩.

(٣) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٦٧.

راجع المفاتيح/ المفتاح السادس/ الصراع بين بني عبد الدار وبني عبد مناف.

(٤) ابن إسحاق الجزء الأول ص ١٦١.

(٥) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٦٣.

أولًا- ربما لإحكام السيطرة على بني هاشم وبني المطلب وعدم تسرب شيء إليهم من المؤونة من خارج مكة.

ثانيًا- لإحداث نوع من التوازن فيما لو استطاع بنو هاشم إحياء تحالفهم مع قبيلة خزاعة ¶، وهو التحالف الذي شكله عبد المطلب واستطاع عبره توطيد وضعه في مكة ضد بقية قبائل قريش.

خزاعة لن تستدرج بسهولة إلى حرب ضد كنانة.

وهكذا أُطبق الحصار على بني هاشم وبني المطلب: حصارٌ اجتماعيٌ يتمثل في عدم التزاوج منهم، بل إن بعض النصوص زادت حدة الحصار إلى **«لَا يُجَالِسُوهُمْ وَلَا يُخَالِطُوهُمْ وَلَا يُبَايِعُوهُمْ وَلَا يَدْخُلُوا بُيُوتَهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْقَتْلِ»**(١)

وحصارٌ اقتصادي يتمثل في عدم البيع لهم أو الشراء منهم، وهو الأقسى والأكثر تأثيرًا.

«وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى جَهِدُوا جَهْدًا شَدِيدًا».

الصمود لسنتين أو ثلاث* يعني أن الحصار لم يكن مطبقًا تمامًا، وأن ثمة تسريبًا مستمرًا كان يصل إلى بني هاشم وبني المطلب، ولعل المسلمين من بقية العشائر كانوا يساعدون في ذلك بالإضافة إلى القرابات المتداخلة حتى مع مشركي مكة، ورغم وجود بعض الأخبار التي تفهم بأن المسلمين من بقية العشائر قد انضموا إلى الشعب مع بني هاشم وبني المطلب (مثل سعد بن أبي وقاص(٢) وهو من بني زهرة، وعتبة بن غزوان(٣) وهو من حلفاء بني عبد شمس)فإني لا أرى أن ذلك منطقيًا أو متسقًا مع بقية الأخبار، خاصة أن خبر سعد ضعيف، وخبر عتبة لا يحدد إن كان جوعه بسبب الحصار أو بلاء عام، المنطقي أن يبقى المسلمون من العشائر الأخرى خارج الحصار ما دام ذلك ممكنًا، ليساعدوا من في الشعب، لا أن يتطوعوا للذهاب إلى الحصار كما توحي بعض التفسيرات.

ورغم أن المسلمين من بقية القبائل كانوا حتمًا تحت رقابة أكثر من غيرهم لكي لا يسربوا الطعام والمؤونة للشعب، فإنهم كانوا بالتأكيد يتمكنون من تسريب بعض المواد بطريقة أو بأخرى.

¶ راجع المفاتيح/ المفتاح الثاني عشر/ تحالف عبد المطلب مع خزاعة.

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ٢٠٥.

* أغلب المؤرخين يشيرون إلى أن الحصار استمر ثلاث سنوات، وأميل إلى أنه كان أقل من ذلك، أو أن فترة التشدد فيه كانت أقل من ذلك، ربما صحيفة المقاطعة لم تحدث فورًا، بل بعد فترة من بدء الحصار الذي لم يكن مشددًا في البداية.

(٢) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٩٤.

(٣) صحيح مسلم ٢٩٦٧.

كما أن بعض الأخبار تشير إلى أن المحاصرين لم يكونوا يخرجون من الشعب إلا من «**من موسم إلى موسم**»[1] وقد يعني ذلك أنه موسم الحج أو أعياد للجاهليين كانت تقام فيها مواسم، فربما كانت قريش محرجة من فرضها حصارًا على بني هاشم أمام كل العرب، ولكن هذه الفترة كانت تعينهم في الصمود حتمًا علمًا أن قريش كانت تشتري بأسعار أعلى من التجار القادمين من خارج مكة لكي لا يتمكن المحاصرون من شرائها، حيث «**نادى منادي الوليد بن المغيرة في قريش(أبو خالد بن الوليد، من بني مخزوم): أيما رجل (من المحاصرين) وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه**»[2].

وكان أبو لهب بالذات يضمن عدم خسارة هؤلاء التجار بأن يشتري منهم بأسعار مضاعفة[3]

* * *

ربما يجب أن نقف هنا عند موقف أبي لهب.

موقفه هنا ليس مجرد موقف شخص مُعادٍ للدعوة وللرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، الأمر كان هنا مختلفًا، أبو لهب تخلى عن عشيرته -مؤمنهم وكافرهم- وتركهم يعانون الحصار في شعب أبي طالب. الأمر هنا عشائري بحت، وله علاقة بالرجولة والنخوة أكثر مما له علاقة بموقف من الرسول عليه الصلاة والسلام ودعوته.

نستطيع أن نفهم موقفه الأول، موقف الرفض للدعوة، حاله هنا كان مثل حال الكثيرين من ملأ قريش، رفضوا الرسالة والرسول وبعنف، ولم يكن لقرابته أي تأثير ملطف على ذلك، بل نستطيع أن نفهم لو كان لقرابته للنبي تأثير سلبي، كأن يحاول إظهار المزيد من الرفض أمام قريش لكي يبعد عن نفسه تهمة التعاطف مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

ضمن هذا السياق تبدو «تبًا لك سائر اليوم» -وأمام كل قريش- مفهومة، الرجل يريد أن يعلن عداوته لمحمد عليه الصلاة والسلام، أمام الجميع.

لكن نحن الآن أمام موقف لا يمكن فهمه بهذا.

لم يكْتَفِ بالتخلي عن عشيرته في حصارها، بل هو يزايد على الجميع في إظهار العداوة والأذى، يزيد عليهم سعر الطعام كي يجوّعهم أو يضرهم.

ما الذي يحدث هنا؟ حتى حسب قيم الجاهلية، هذا الذي يفعله أبو لهب يعد منقصة بحقه.

ثمة شيء خطأ في نفسية أبي لهب. الأمر أعقد من أن يكون مجرد الكفر في عداء الإيمان.

---

(١) الطبقات الكبرى الجزء الأول صفحة ١٦٣.

(٢) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول ص ١٦١.

(٣) الروض الأنف الجزء الثالث صفحة ٢١٧.

ينقل ابن هشام في سيرته: **أَنَّ أَبَا لَهَب لَقِيَ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ بْن رَبِيعَةَ، حِينَ فَارَقَ قَوْمَهُ، وَظَاهَرَ عَلَيْهِمْ قُرَيْشًا، فَقَالَ: يَا بِنْتَ عُتْبَةَ، هَلْ نَصَرْتِ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَفَارَقْتِ مَنْ فَارَقَهُمَا وَظَاهَرَ عَلَيْهِمَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا يَا أَبَا عُتْبَةَ**[1].

أبو لهب يذهب إلى هند بنت عتبة ليسألها، كما لو كان يسترضيها، كما لو كان يريد أن يتأكد أن ما يفعله يجعل قريشًا راضية عنه.

لكن هذا يبدو مخزيًا، الأمر مخز ومعيب، يتجاوز رفض دعوة الرسول إلى نوع من العلاقة المريضة مع عشيرته، لا بد لمن يتصرفَ على هذا النحو مع عشيرته أن يكون لديه كم من الرفض والحقد عليها.

لا بد أن ثمة شيئًا في أبي لهب جعله يتصرف على هذا النحو.

ممكن أن يفسر هذا بسيطرة زوجته أم جميل أروى بنت حرب بنت أمية عليه، وهذا وارد طبعًا.أم جميل كانت أخت أبي سفيان الذي كان أحد أعضاء جناح الحمائم في الجبهة المعادية للرسول، وكانت تتحدث عن كونها بنت سيد قريش «**قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا**[2]» لذا فدعوة محمد قد تفسر من قبلها بكونها جزءًا من التنافس على الزعامة بين بني عبد شمس وبني هاشم[†]، وهي منحازة لبني عبد شمس دون أي تحفظ ودون اكتراث لزوجها الهاشمي وأولادها الهاشميين.

حسنًا، ممكن أن يكون أبو لهب ضعيفًا أمام زوجته وأن تكون زوجته متسلطة وظالمة.

لكن هذا سيبرر موقفه المعادي للرسول والرافض له، لكنه لن يبرر مزايداته في ذلك ومغالاته في العداء والتخلي عن كل قومه.

وأيضًا لن يبرر مواقفه المبالغة في علنيتها، يريد أن يرضي زوجته، ممكن، فلماذا هند بنت عتبة أيضًا؟

ثمة شيء أعقد في أبي لهب، ربما بدأ قبل كل هذا بفترة طويلة.

* * *

عندما تحالف عبد المطلب مع خزاعة[†]، كان الحلف انتصارًا لعبد المطلب ضد أعمامه من بني نوفل ضد كل من لم ينصره من عموم قريش، ومن بقية بني عبد مناف (أي بني عبد شمس) حيث إن بني المطلب حضروا الحلف.

---

(١) سيرة ابن هشام الجزء الأول صفحة ٣٥١.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣٣٧٦.

[†] راجع المفاتيح/ المفتاح التاسع/ التنافس داخل بني عبد مناف.

[†] راجع المفاتيح/ المفتاح الحادي عشر/ تحالف عبد المطلب مع خزاعة.

عقد الحلف في دار الندوة، وكان نص العقد يشير صراحة إلى تحالف بين بني عمرو (خزاعة) وعبد المطلب بن هاشم ضد كل من سواهم، أي ضد كل العرب!

علقت وثيقة الحلف في الكعبة، في تحدٍ واضح لكل قريش.

ويوم الحلف، وتأكيدًا لمعانيه، تزوج عبد المطلب من ابنتي سيدين من سادة خزاعة، الأولى هي لبنى بنت هاجر بن ضاطر، والثانية ممنعة بنت عمرو بن مالك بن مؤمل الحبتري[1].

ممنعة أنجبت له ابنه مصعب، وغلب عليه اسم الغيداق، وتوفي صغيرًا.

أما لبنى فقد ولدت له ابنه عبد العزى.

الشهير بأبي لهب.

* * *

ولد أبو لهب نتيجة لحلف أبيه مع خزاعة ضد كل قريش، لم يستطع على ما يبدو أن يتخلص من هذا.

لم يستطع أن يتخلص من فكرة أن قريش تفكر به باعتباره تذكارًا لحلف عبد المطلب مع خزاعة ضد كل قريش لم يستطع على ما يبدو التخلص من فكرة أنه كان ذكرى لانتصار أبيه على قريش، وإذلاله لهم.

عاش حياته كلها ليثبت لهم العكس، ليثبت إخلاصه لهم.

وعندما جاء محمد عليه الصلاة والسلام بدعوته، كانت الفرصة له لكي يثبت ذلك.

وقف ضده، أهانه علنًا، أجبر ابنيه على طلاق ابنتي محمد، بالغ في عدائه كما لو كان يقول لقريش: «أترون؟ أنا معكم. أنا لست معهم».

وتخلى عن كل عشيرته وهم في الحصار، جالبًا لنفسه عار نقص النخوة والرجولة بين العرب.

وزايد في السعر على لقمة تدخل إلى عشيرته...

كل ذلك كرد فعل نفسي على شعوره العميق بالخزي تجاه تحالف عبد المطلب مع خزاعة ضد قريش.

هذه كلها احتمالات تفسر موقف أبي لهب المبالغ في العداء، المبالغ في الاسترضاء لقريش.

* * *

---

(١) المنمق في أخبار قريش ٨٧-٨٨.

يبدو أن استمرار الصمود قد نبه قريشًا إلى التسريب الموجود، وجعلها تشدد رقابتها على مخارج الشعب، وأدى هذا إلى حدوث مواجهات سرعان ما تراكمت وقادت إلى تصدع الحصار ونقض الصحيفة.

واحدة من هذه المواجهات تروي أن أبا جهل قد لقي حكيم بن حزام بن خويلد وهو يحمل الطعام إلى عمته السيدة خديجة، فشتمه أبو جهل وحاول منعه، فتصدى له أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد وضربه[1] (وهذان من بني أسد بن عبد العزى، عشيرة السيدة خديجة، الداخلة أصلًا في حلف المطيبين والفضول مع بني هاشم).

وكان أن اجتمع خمسة رجال من قريش لنقض الصحيفة علنًا ووضع قريش أمام الأمر الواقع..

الأول- هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث من بني عامر بن لؤي، وكان والد هشام أخًا من الأم لنضلة بن هاشم بن عبد مناف، أي أن جدة هشام بن عمرو كانت متزوجة من بني هاشم ولديها أحفاد منهم، وكان هشام واصلًا لبني هاشم وهم من أقارب أبيه.

الثاني-زَمعَة بن الأسود بن المطلب بن أَسد بن عبد العُزَّى، وهو من بني أسد بن عبد العزى، والسيدة خديجة هي ابنة عم أبيه.

الثالث- زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمة النبي عاتكة بنت عبد المطلب، وأخو أم سلمة.

الرابع -المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

الخامس-أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى (والسيدة خديجة هي ابنة عم أبيه).

وهكذا وُضعت قريش فعلًا أمام واقع نقض الصحيفة بعد أن أعلن هؤلاء براءتهم منها...

فلننتبه هنا أن كل هؤلاء كانوا مشركين وبعضهم بقي مشركًا بل وقتل في بدر مع المشركين... لكن موقفهم هنا كان حمية عشائرية- أخلاقية بلا أي دافع عقائدي من أي نوع، لكنها ساهمت في حماية الرسول عليه الصلاة والسلام وساهمت في إنهاء المعاناة التي كان بنو هاشم وبنو المطلب يمرون بها...

فلننتبه أيضًا إلى أن ثلاثة من أصل الخمسة الذين نقضوا الصحيفة هم من حلف المطيبين (عبد مناف وبني أسد بن عبد العزى)، الرابع منهم كان من بني عامر التي كانت على الحياد بين الأحلاف، والخامس كان ينتمي لحلف الأحلاف المضاد لكن أخواله كانوا محاصرين في الشعب.

(١) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٦١.

راجع المفاتيح/ المفتاح السابع/ حلف المطيبين والأحلاف.

كما يجدر الانتباه إلى دور قرابات الأم أو المرأة عمومًا في كل هذا، في أربع حالات من الخمس شخصيات التي نقضت الصحيفة كان جزء القرابة المباشرة الذي يحرك أمر النقض هو جزء خاص بالمرأة، أخ لأم، عمة، ابنة عم... إلخ.

كان العرب يستخدمون المرأة لتكوين أحلاف بين عشائر مختلفة عبر الزواج، لكن الأمر كان يقود إلى تكوين روابط جديدة تتفوق على روابط العشيرة الأصلية، زهير بن أبي أمية المخزومي مثلًا هنا ينحاز إلى أخواله بني هاشم، بينما بنو مخزوم عادة في المعسكر المعادي لبني هاشم (حلف الأحلاف الذي يضم بني مخزوم ضد حلف المطيبين الذي فيه بنو هاشم)..

أقول هذا والكل في هذه الحالة مشركون، لو كانوا مسلمين لقلنا أن العقيدة انتصرت على العشيرة، لكنهم سواء في الشرك،رابطة الأخوال لعبت دورًا واضحًا في تفتيت الرابطة العشائرية التقليدية، كما لو أنها تمهد لشيء مختلف، لرابطة على أسس مختلفة...

حاول مشركو مكة، خصوصًا أبا جهل، استخدام عشائرية قريش لمحاصرة بني هاشم، للقضاء على محمد عليه الصلاة والسلام..

وكانت النتيجة أن العشائرية نفسها فتحت الحصار عن بني هاشم وبني المطلب.

«**هَذَا أَمْرٌ قُضِيَ بِلَيْلٍ**[1]» هكذا قال أبو جهل وهو يرى أولئك الذين نقضوا الصحيفة وهم يعلنون الواحد تلو الآخر براءتهم منها، كما لو أن وجودهم في الكعبة كان مصادفة، وتأييدهم الواحد للآخر كان مجرد اتفاق في الرأي.

أصبت أبا جهل. قُضِيَ بِلَيل.

ما لم تكن تعرفه حتى اللحظة، أنه سيقضي عليك.

* * *

لماذا لا نرى إشارات واضحة لكل هذا الحصار ومعاناته في القرآن الكريم؟

حسب منطقنا القاصر، يفترض أن الوحي ينزل لكي يرفع الروح المعنوية ويقوي المسلمين في ظل هذه الظروف الصعبة.

لكن منطق الوحي الإلهي مختلف.

وأقوى حقنة مقوية قد تكون عبر عدم التفكير المباشر بالظروف المباشرة وتفاصيلها، بل في أفكار أخرى، في تجارب مختلفة؛ في قصص الأنبياء وتجاربهم..

غالبًا نزلت سورة النمل بالتسلسل ٤٨ في تلك الفترة.. تخيل أي وقع لهذه الآيات -وهي تتحدث عن تجربة أخرى- عندما تتنزل على أولئك المحاصرين في الشعب..

---

(١) سيرة ابن إسحاق الجزء الأول صفحة ١٦٦.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾ النمل (٤٨:٥٣)

لا يقول لهم سأفعل كذا وكذا بالرهط الذين تآمروا عليكم، لا... فقط يحدثهم عن رهط آخرين، يجعلهم ينتبهون إلى النمط المتكرر من الأحداث..

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٥٧) النمل (٥٦، ٥٧)

وكانت آية مشابهة نزلت سابقًا في سورة الأعراف بالتسلسل ٣٩، لكنها حتمًا تبدو اليوم مختلفة، التطهر صار معناه أوسع بكثير مما بدا يوم نزلت الأعراف...

وكيف تبدو هذه...

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ النمل (٦٢)

وكذلك سورة القصص، بالتسلسل ٤٩.. غالبًا كانت في هذه الفترة...

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)﴾ القصص (٤، ٥)

فرعون الذي علا في الأرض... لا بد أن هذا أحضر «فرعون هذه الأمة»... أبو جهل كما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام... لا بد أن هذا كان يحضر في الذهن.. لا بد أن المقارنات كانت تتشكل... لا بد أن الصور كانت تتكامل..

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ القصص (٨)

هل سيكون هناك عدو وحزن لفرعون هذه الأمة ضمن نفس عدته ومن جيشهم معه؟

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ القصص (٣٩، ٤٠)

في لحظة ما، كانوا هنا، عالقين بين آيتين؛ الاستكبار حدث ولا يزال يحدث..

ولكن الآية التالية لم تحدث بعد، لم نر بعد عاقبة الظالمين، ولكنهم كانوا يعرفون أنها لا بد ستحدث، بطريقة ما، في وقت، في مكان ما..

* * *

انكسر الحصار فجأة.

كان انكساره نصرًا لبني هاشم ولا شك.

لكنهم خرجوا منهكين اقتصاديًا، إذ عطل الحصار كل أعمالهم وتجارتهم.

لكن قصص المعاناة التي حدثت في داخل الشعب شحيحة جدًا، بل تكاد تكون معدومة. لا خبر صحيح يروي لنا ما كان يحدث خلال هذه السنوات..

لماذا يا ترى؟

هل لأنهم قرروا طي الصفحة؟

هل لأنهم قرروا أن لا يتوقفوا طويلًا عند تلك المعاناة؟

هل لأنهم قرروا أن الأمر عادي، وأنه حدث ويحدث عبر التاريخ؟

هل لأنهم كانوا أعزاء نفس على نحو لا يسمح لهم بالبوح بما حدث؟

أم لأن الأمر كان مؤلمًا جدًا بحيث إنهم فضلوا السكوت؟

ربما كل هذا...

سأعيش وأموت في جلباب أبي!

النفس البشرية غامضة.

ما يحدث فيها لا يخضع لمنطق. لا يخضع لقانون. ولا يمكن لنا أن نفسره دومًا بالورقة والقلم.

كيف يكون الإنسان أحيانًا قويًا جدًا، صلبًا جدًا في أعتى المواجهات، أمام أصعب الأعداء... ثم يجد نفسه ضعيفًا خائرًا أمام نفسه؟

كيف يقف صلبًا أمام جبابرة واقعيين؟

ويتخاذل أمام أشخاص لم يعد لهم وجود حقيقي؟

كيف تنتصر على جمعهم الكبير، بكل ما أعدوه لك، وواحدهم يكفي لكي ينتصر على جمع، ثم تأتي لتنهزم، وتقف خائفًا مرتعدًا... أمام شبح! شبح لا وجود حقيقي له.

يا أبا طالب...

كيف فعلتها؟ كيف جمعت نصرك العظيم وهزيمتك العظيمة في شخص واحد؟ كيف تمكنت من أن تكون قويًا لهذه العظمة.. وضعيفًا لهذه الدرجة في الوقت ذاته؟

كيف وقفت أمام قريش وكنانة وحدك؟ كل قريش وخلفها كل كنانة، قبيلتان يمكن لهما أن تحاربا معًا كل العرب.. وأنت.. ليس معك سوى بني هاشم وبني المطلب، بضع عشرات من الرجال ليس إلا.

كيف وقفت وحدك أمام أكبر قبيلتين؟ وحدك. ليس معك حتى إيمانك بالله-على الأقل ليس كما نفهم نحن ذلك- كيف صمدت، ومن ثم انتصر صمودك، وانكسر جبروتهم...

ثم...

بعد كل ذلك النصر، وكل تلك القوة..

وقفت أمام شبح أبيك المتوفى منذ أكثر من أربعين عامًا..

وانهزمت؟

كيف كيف كيف؟

* * *

غريبة هي النفس البشرية. تضعنا في اختبارات غريبة.

وغريبة هي الحياة تضع أمامنا نفوسًا بشرية في حالة اختبار، فيكون مجرد ذلك اختبارًا لنا أيضًا.

تتداخل اختباراتنا مع اختبارات الآخرين، مع تناقضاتنا وتناقضاتهم، مع قوتنا وقوتهم. ضعفنا وضعفهم... خياراتنا وخياراتهم وتقاطعات كل ذلك.

ويصبح كل ذلك اختبارًا لنا أيضًا..

أحيانًا نصبح طرفًا في الأمر لمجرد أننا نشاهده، ولو عن بعد، ننفعل، نتفاعل، نرى معارك القوة والضعف، ومناوشات النصر والهزيمة، فنصبح طرفًا لمجرد المشاهدة والحماس..

فكيف يكون الأمر عندما تربطنا بهذا الذي تدور في داخله المعركة روابط تجعلنا طرفًا في المعركة داخلنا؟ شئنا أم أبينا... وشاء هو أم أبى..

وماذا نقول لقلبنا؟ وهو يشهق جزعًا ويرتعد خوفًا من كل ما يدور...

وكيف نطمئنه؟ وهو يعرف أن نتيجة صراع القوة والضعف سيكون جنة... أو نار..

* * *

لا ريب أنه عليه الصلاة والسلام كان يريد أن يؤمن الجميع.. الجميع دون استثناء.

هذا طبيعي، وكان يعرف أيضًا أن هذا ما كان له أن يحدث. طبيعي أيضًا.

لا بد أنه سيكون هناك من يكفر بما جاء به، هذه طبيعة الأشياء، هناك من سيؤمن، وهناك من سيكفر.. وهناك من لن يؤمن ولن يكفر، سيكون لا مباليًا بالأمر، سينتظر ما يحدث عند الجميع ليفعله.

ولكن لا بد أنه عليه الصلاة والسلام، يفضل أن يؤمن به «الجيدون»، أصحاب المواقف المبدئية القوية، المعروفون بالمروءة ومكارم الأخلاق.. ليس لأن هذا سيقوي الدعوة إلى الدين الجديد فحسب، بل لأنه الشيء الصحيح أيضًا، الشيء الذي يتسق مع كونهم «أفضل».

وبالتأكيد كان يريد ذلك لمن كان يحبهم وارتبط بهم بمشاعر مودة ووفاء وذكريات، وأشياء كثيرة أخرى كالتي تنشأ بين كل البشر في تخالطهم وتفاعلهم مع بعضهم..

وأبو طالب كان الاثنين معًا، كان الرجل صاحب المروءة والأخلاق والمكارم، وكان أيضًا كل من كفله ورعاه وكان له كالأب..

وليس هذا فقط..

كان هو من حماه من بطش قريش طيلة هذه السنوات، لم يؤمن، ولم يكذبه في الوقت نفسه، لكنه وقف معه ضد بطش قريش إلى الحد الأقصى.

لم يؤمن، لكن إيمان الجميع كان سيصبح أصعب لولا موقفه الداعم والمدافع.

وكان عليه الصلاة والسلام يتألم حتمًا، لأن عمه الحبيب، صاحب هذه المواقف، لم يؤمن...

كان مثل أنه يرى هذا الرجل وهو يحميه من أذى قريش، بينما هو -عليه الصلاة والسلام- لا يستطيع أن يحميه من أذى أكبر بكثير... أذى النار...

* * *

لكن كل ما فعله أبو طالب سابقًا، كان لا يقارن بما فعله في سنوات الحصار المرة.

كل شيء قبل الحصار.. وموقفه هنا في هذه المرحلة، ووقفته لحماية الرسول عليه الصلاة والسلام، لهفته عليه يوم افتقده، قلقه وهو ينتظر، وذهابه إلى نادي الملأ من قريش ليهددهم وهو الشيخ الكبير الحليم... ومن ثم إصراره على أن يراه بنفسه لكي يطمئن عليه.. ومن ثم تصاعد الموقف إلى أن يأمر كل العشيرتين هاشم والمطلب بالدخول إلى الشعب والتحصن فيه حماية للرسول.. وخذلان أبناء العم (نوفل وعبد شمس) وتواطؤ كل الباقين على ذلك... والجوع... والسنوات تمر... والصمود، كما لو كان يتمسك بالحياة إلى أن ينتهي الحصار كما لو أنه يخاف أنه لو مات فإن أحدًا من الباقين سيسلم محمدًا إلى قريش...

وكل هذا وهو غير مؤمن..

وكل هذا وهو سيذهب إلى النار!

يا لقلبك يا محمد، يا لقلبك وأنت تحتمل صمود أبي طالب بوجه دعواتك، بالضبط مثل صموده بوجه قريش.. يا لقلبك الملآن بالحب والخوف والجزع واللهفة وكل ما نعرف ولا نعرف من مشاعر على الشيخ الذي كان لك الأب والسند والحماية، والذي يكاد وقته يشرف على الانتهاء وهو يرفض أن يعطي لقلبك فرصة الراحة من هذا القلق عليه..

كان الشيخ قلقًا على دنياك، كان يريد حمايتك في الدنيا..

وكنت قلقًا على آخرته... تريد حمايته هناك...

يا لقلبه، عليه الصلاة والسلام، وهو يدرك بالتدريج أن أبا طالب قد نجح في مهمة حمايته عليه الصلاة والسلام.. أكثر مما بلغ عليه الصلاة والسلام مهمته في حمايته في الآخرة...

والوقت يمر..

* * *

كل ذلك الصمود أمام قريش كان ينبع من نفس مصدر ضعفه.

ذلك النبع الذي مده بالقوة أمام قريش، هو أيضًا الذي جعله ضعيفًا أمام نفسه.

مصدر القوة والضعف كان عبد المطلب.

الشيخ الذي كان يتحكم من قبره بأبي طالب كما لو كان يمتلك جهازًا للتحكم من بعد، الشيخ الذي كان قد دفن في مقابر المعلاة في مكة، ولكنه في الحقيقة استمر في الوجود في رأس أبي طالب.

هو الذي جعل أبا طالب يقف ضد قريش، فكر أن عبد المطلب ما كان سيسلم محمدًا مهما حدث،ولقد سبق له أن وقف بوجه قريش كلها مستعينًا بخزاعة.

فكر أبو طالب: ما كان عبد المطلب سيفعل ذلك، مهما كلف الأمر، ولهذا وقف هذا الموقف الصلب، مستمدًا صلابة موقفه من أن عبد المطلب كان سيفعل ذلك.

كان يشعر أنه يفعل ما كان عبد المطلب سيفعل أو يأمره هو أن يفعل.

لكن أن يغير دينه؟ بدا أبو طالب غير مقتنع أن عبد المطلب كان سيفعل ذلك، الأمر مُنته أصلًا. مات عبد المطلب على دينه ولا فرصة لتغيير ذلك الآن. ولا فرصة، ولا أي احتمال لأن يسّلك أبو طالب طريقًا آخر غير الذي سار عليه عبد المطلب، هذا أصلًا من غير المفكر فيه.

في الحقيقة، كان كل ما يفعله أبو طالب، يريد أن يرضي فيه عبد المطلب، صعب الإرضاء، مثل كل القادة الكبار الذين يريدون لابنائهم أن يحققوا أكثر مما حققوا هم.

كانت الحياة في ظل أب عملاق مثل عبد المطلب، عبئًا كبيرًا على أبي طالب، كان الرجل قد حقق من المنجزات في مكة خلال حياته ما جعله أقرب إلى الأسطورة، وكان هناك، بعد الرحيل، هاجس المقارنة الدائم بين الأب العملاق صاحب المنجزات، وبين من خلفه من أولاده..

وكان أبو طالب في وجه هذه المقارنات دومًا، فقد كان أكبر من بقي من أبناء عبد المطلب عندما توفي، وكانت المقارنة ظالمة لأبي طالب، لفارق الإمكانات والظروف، لكن لا أحد يفكر بذلك عندما يقارن، وظل شبح المقارنات يطارد أبا طالب، شبح عبد المطلب العملاق يسكن رأسه ولا يبدو راضيًا أبدًا مهما فعل أبو طالب، دومًا يبدو ضعيفًا بمعايير الأب العملاق صعب الإرضاء، دومًا أقل قوة وحزمًا مما يجب، اللين والحلم اللذان كان يوصف بهما أبو طالب ربما كان سيصفهما عبد المطلب بالضعف والهوان.. ربما.

هنا فقط، في موقفه في الحصار، شعر أبو طالب أنه ربما كان يرضي عبد المطلب الذي يسكن في رأسه.. شعر أنه ربما تمكن أن يرتفع إلى معايير عبد المطلب في الحزم والقوة، عندما وقف مهددًا بوجه قريش وساداتها وجامعًا فتيان بني هاشم وبني المطلب خلفه، ذلك الموقف الحازم كان سيرضي عبد المطلب...

ولعل هذا دفعه إلى المضي في الدرب إلى النهاية، يريد أن يحصل على رضى عبد المطلب صعب الإرضاء في داخله.

لم يقرر أبو طالب أن يعيش في جلباب أبيه. لم يكن ذلك خيارًا أصلًا بالنسبة له. لم يكن هناك شيء آخر بالنسبة له.

لكنه قرر أن يموت أيضًا بجلباب أبيه، قرر أن يأخذه معه وهو يموت.. أن يكون كفنه بطريقة ما.

قال له محمد عليه الصلاة والسلام بما معناه أن هذا سيأخذه إلى النار.. ولكن أبا طالب هز رأسه كما لو أنه يقول، لا بأس، إن كان ذلك يرضي عبد المطلب.

عمليًا، كان أبو طالب واعيًا تقريبًا أنه يريد أن يذهب إلى النار فقط ليرضي أباه.

ها أنا في النار أبتاه. هل أرضاك هذا؟

* * *

.. ها هو أبو طالب على فراش موته. كل الدلائل تشير إلى أنه يحتضر.

يذهب عليه الصلاة والسلام، فيجد عنده عبد الله بن أبي أمية[1] المخزومي (ابن عاتكة بنت عبد المطلب، أبو طالب خاله).

ومن معه؟

أبو جهل!

أبو جهل يصر أن يكون موجودًا في هذه المناسبة.

مناسبة وفاة أبي طالب.

لا ريب أن وجود أبي جهل كان مزعجًا للرسول عليه الصلاة والسلام، هو يعرف تمامًا لماذا تعمد أبو جهل أن يأتي إلى فراش موت أبي طالب.

وكان عليه الصلاة والسلام يريد حتمًا أن ينفرد بعمه في هذا الوداع...أن لا يؤثر عليه أبو جهل ومن معه. وكان يعرف تمامًا ماذا سيستخدم أبو جهل من مؤثرات على أبي طالب.

وكان أبو جهل أيضًا يعرف لماذا جاء عليه الصلاة والسلام، لقد سبقه إلى هنا كي يعكر عليه ما سيفعله...

قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«يَا عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»**[2]

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: «يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟»

لم يكن عبد المطلب مهمًا حقًا بالنسبة لهما.. ولا ملته.. ولا مصير أبي طالب.

---

(١) صحيح البخاري ١٣٦٠.

(٢) صحيح البخاري ١٣٦٠.

كان المهم بالنسبة لهما، أو على الأقل بالنسبة لأبي جهلٍ هو أن لا ينتصر محمد هنا، أن لا يكسب جولة إضافية تضاف إلى سجل انتصاراته التي يحاصر قريشا بها بالتدريج.

لكنه عليه الصلاة والسلام لا يلتفت إليهما.

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ[1]

كلمة واحدة يا عماه.. كلمة واحدة.. قلها يا عماه.. لا تدع هذا اللقاء يكون لقاءنا الأخير.. دع ثمة أملًا أن يكون هناك لقاء لاحق في مكان أفضل. كلمة واحدة يا عماه.. قلها لكي أحاجج بها ربي.. يكاد يقول له أن يقولها حتى لو لم يقتنع.. قلها كلمة وأنا أشهد بها..

ولكن ها هو أبو جهل وصاحبه يصران على استحضار شبح عبد المطلب إلى فراش الموت. يستحضران نقطة ضعفه، يحب محمدًا بالتأكيد، لكنه عبد لعبد المطلب. وها هما يعيدان عليه القول... **وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ**[2]... **عبد المطلب. عبد المطلب. عبد المطلب.**

ويستمر عليه الصلاة والسلام، وهو يدرك أن الوقت يتسرب، والفرصة تتسرب، وهذا الرجل الذي كان السند والدعم والأب والحِجر، يتسرب...

وهو يقول: كلمة واحدة يا عماه... كلمة واحدة.

وعلى الطرف الآخر يقال له: عبد المطلب، عبد المطلب، كما لو كانا يكرران تعويذة سحر أسود...

ثم يأتي صوت الرجل المحتضر في قوله الأخير ليعلن المنتصر في هذه الجولة..

لكنه المنتصر الذي سيكون خاسرًا في الجولة النهائية، لاحقًا...

حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ[3]

لا بد أن أبا جهل قد ابتسم ابتسامة المنتصر وهو يسمع كلمات الرجل المحتضر، لا يهمه أبو طالب في قليل أو كثير... بل يريد أن ينكسر قلب محمد عليه الصلاة والسلام.. لعله كان على وشك أن يقول: هذه بتلك، وسيقصد انتصار فك الحصار ونقض الصحيفة... انتصرت يومها يا محمد.. وها هو عمك يخذلك الآن في المواجهة الأخيرة.

لم يخذله أبو طالب قط قبل هذه المرة، لم يشمت به قريش قط.. هذه هي المرة الأولى والأخيرة، ولكنها النهائية أيضًا.

---

(١) صحيح البخاري ١٣٦٠.

(٢) صحيح البخاري ١٣٦٠.

(٣) صحيح البخاري ١٣٦٠.

... وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ[1]

ما أغربك، عماه.

قضيت عمرك في العطاء والكرم، ثم بخلت بكلمة واحدة.. كلمة واحدة.

لكن الأمر لم ينته بالنسبة له عليه الصلاة والسلام.. الأمر انتهى هنا بالنسبة لأبي جهل وصاحبه..

هذه نقطة النهاية بالنسبة لهما، على فراش الموت.

لكن ليس بالنسبة له، عليه الصلاة والسلام...

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»

الأمر ينتهي هناك، وهناك يبت فيه.

* * *

لا بد أنه عليه الصلاة والسلام ذهب حزينًا إلى خديجة.. وهو يحمل قلبه المنكسر، المليء بذكريات ومواقف ومشاعر..

لا أشك أنه بكى..

ولا أشك أنها واسته، سيدة الحكمة.. رضي الله عنها... وواست نفسها أيضًا... ولعلها فكرت أن القادم سيكون مختلفًا جدًا... لكن ربما لم يخطر ببالها كم سيكون مختلفًا...

ولعلها كانت بجانبه لحظة نزلت مواساة الرحمن للقلب المنكسر الحزين...

* * *

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القصص (٥٦)[2]

نعم.. للأسف نعم..

نزلت الآية في أبي طالب، تواسي قلبه عليه الصلاة والسلام..

تربت على كتفيه.. تقول له خفف عنك.

إنك لا تهدي من أحببت...

نعرف نحن ذلك... الهداية أمر معقد جدًا، ليست بأيدينا... والمحبة كذلك، ليست بأيدينا.

والربط بينهما بالتأكيد ليس بأيدينا..

(١) صحيح البخاري ١٣٦٠.

(٢) صحيح مسلم ٣٩.

القلب البشري غامض، والنفس البشرية غامضة، والإيمان يتحرك أحيانًا بطرق غامضة...

تتفطر قلوبنا عندما يصر بعض من نحب على المضي في الاتجاه المؤدي إلى الهاوية..

ونواسي أنفسنا عندما يكون الأمل قد فات أوانه، بما واسى الرسول عليه الصلاة والسلام، تلك الليلة..

إنك لا تهدي من أحببت...

* * *

لكن العزاء الحقيقي للرسول عليه الصلاة والسلام، كان في حقيقة أنه حاول بأقصى ما يستطيع... ظل حتى اللحظة الأخيرة، بل ما بعد الأخيرة، وهو يحاول...

لم يستسلم من أول مرة ويقول، إنك لا تهدي من أحببت، لقد فعلت ما بوسعي..

لا... لم يكن ذلك ما حدث معه عليه الصلاة والسلام..

* * *

آية سورة القصص تواسي الذين تنفطر قلوبهم لأن من أحبوا أصر على المضي في طريق الهاوية...

لكنها لا تواسي ألم الفراق، والافتقاد، ووجع الشوق...

سيكون لذلك موقف آخر...

لن يبعد كثيرًا عن وفاة أبي طالب...

يتيم مجددًا..

بدت الأمور صعبة عند وفاة أبي طالب.

لكن هذا قياس نسبي جدًا، متغير جدًا.

وما كان صعبًا جدًا في مرحلة ما، قد يكون يسيرًا بالمقارنة بمصاعب لاحقة.

تعلمنا الحياة أن لا نطلق أحكامًا مطلقة من هذا النوع، لكننا لا نتعلم أبدًا: نقول صعب، ونقول لن نحتمل، ونقول ونقول... ثم ننظر إلى الوراء لاحقًا، ونقول: لم نكن نعلم ماذا سنرى لاحقًا.

الرسول عليه الصلاة والسلام كان أكثر حكمة من ذلك، من قبل النبوة، وهو يدرك جيدًا أن الفراق يمكن أن يكون هو القاعدة، واللقاء هو الاستثناء العابر.

بدأ الأمر في وعيه مع فِراقه لحليمة وزوجها اللذين كانا يعتبرهما أبويه، ثم مع آمنة، وفهم معنى أنه فارق أباه قبل أي لقاء أصلًا، ثم فارق عبد المطلب...

وكل ذلك في ثماني سنوات فقط.

كان أبو طالب هو الاستثناء الأول، وكان لا بد أن يأتي وقت فراق صعب، خاصة أن أبا طالب أصر على أن يغادر وهو على ملة عبد المطلب..

لكن فراق خديجة، كان حتمًا أمرًا مختلفًا...

* * *

ربما عليه الصلاة والسلام لم يكن يعرف أن وفاة عمه، ستكون مثل تدريب لفقدان أكبر وأصعب سيحدث لاحقًا... بعد أشهر فقط...

كل شيء يحدث لحكمة.. وكل شيء يحدث وفق ترتيب.. كانت حكمته عز وجل، تصنع محمدًا عليه الصلاة والسلام.. لم تنته عملية الصنع.. كان في الخمسين صلاة ربي وسلامه عليه.. لكنه لا يزال يصنع، الكثيرون يتوهمون أن عملية صنع الإنسان تنتهي في عمر مبكر، وأن شخصية الإنسان قد تكتمل في العقد الثالث من العمر، لكن التجارب التي يمر بها الإنسان تستمر في صنعه وصياغته ما دام هو يتفاعل معها..

وها هو عليه الصلاة والسلام، في الخمسين، تصنعه تجربة عام الفقدان وتعده لما هو أقوى.. تعده لمرحلة مختلفة تمامًا..

بالنسبة له عليه الصلاة والسلام، ورغم أنه ولد يتيمًا وفقد والدته في عمر صغير، فإن الخطة الإلهية له أعطته بدائل دائمة... جده عبد المطلب... عمه أبا طالب... ومن ثم لاحقًا السيدة خديجة..

اليوم، الخطة الإلهية تريد منه أن يجد البدائل على نحو مختلف...

اليوم ستسحب الخطة الإلهية منه البدائل السابقة.. ستحرمه منها..

لا عقوبةً.. ولكن تقوية له وحثًا على الاستعداد لمرحلة جديدة..

يحدث هذا دومًا بالمناسبة... يمنحنا الله في رحلة حياتنا الكثير من المعونات والإمدادات، ثم في مرحلة ما نفقدها... ليس هذا عقوبة بالضرورة... ولكن الإمدادات بطبيعتها تكون مرحلية ومؤقتة.. وإذا بقيت الحاجة لها طيلة الرحلة فهذا يعني أننا قد اعتمدنا عليها أكثر مما يجب..

على العكس، فقدانها يجب أن يجعلنا نجد الإمداد في دواخلنا..

وهكذا كان في تلك الرحلة العظيمة التي قطعها عليه الصلاة والسلام.. كان عليه أن يفقد مصادر الدعم التي سارت معه الرحلة في السنين السابقة..

حساب اليوم، شيء ثانٍ...

* * *

فلننتبه هنا إلى أن الدعم الذي قدمه أبو طالب كان مختلفًا جدًا عن دعم السيدة خديجة..

دعم أبي طالب كان دعمًا خارجيًا.. كان دعمًا بمواجهة العالم المحيط.. بمواجهة قريش والملأ المتحكم فيها وسطوته.. كان دعم مكانة واحترام ووجاهة..

دعم السيدة خديجة كان أكبر بكثير داخليًا... صحيح أنه اشتمل على الدعم الخارجي (ممثلًا في مكانتها الاجتماعية وقدرتها المادية) لكن الجزء الأهم كان الدعم الداخلي...

.. النساء عمومًا حباهن الله بالقدرة على الاحتواء والدعم، ربما كجزءٍ من متطلبات الأمومة ونتائجها... وربما هذا جزء مما أثبتته الدراسات بأن النساء عمومًا يسجلن نقاطًا أعلى من الرجال فيما يعرف بالذكاء العاطفي، وهي قدرة الشخص على التعامل مع عواطفه وعواطف الآخرين.. وهذا يشتمل على التعاطف، والفهم الاجتماعي..

الفرق بين دعم أبي طالب ودعم خديجة هو الذي جعل محمدًا يهرع إليها يوم جاءه الوحي.. لم يذهب إلى عمه.. بل لم يفكر بذلك.. نزل ليلتها مسرعًا من الغار وهو يريد خديجة.. لأنه يعرف أن ما جاءه كان يحتاج إلى هذا الدعم الداخلي الذي يمده بالقوة من الداخل...

سيدة نساء الأرض كانت سيدة الاحتواء والدعم والاحتضان... دعمها كان الفهم والتفاهم والتواصل والإسناد والتشجيع والإيمان.. الإيمان بمعنى أنها آمنت بمحمد عليه الصلاة والسلام قبل

أن يؤمن هو بنفسه يوم عبر لها عن خشيته على نفسه أن يكون قد مسه شيء يوم جاءه الوحي أول مرة... فقالت له كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ...

لقد دخل عليه الصلاة والسلام مهمة النبوة وهناك من يؤمن به سلفًا ويمده بدعم كهذا..

وهذا ما سيفقده بموتها...

سيفقده من أجل الإعداد لمهمة أصعب، سيكون هو من يقدم الدعم والاحتواء فيها للآخرين...

بل لجموع الآخرين..

* * *

لا نعرف الكثير عن موتها.. ولم ينقل لنا شيء عن لحظاتها الأخيرة كما نقل عن وفاة أبي طالب..

ولهذا فالغالب أنها ماتت فجأة.. دون مقدمات مرض أو تدهور في الصحة..

موت الفجأة قد يكون سهلًا على الراحلين.. يرحلون دون ألم أو معاناة.. دون أن يمروا بالحاجة إلى رعاية الآخرين، بكل ما يحمل ذلك لبعضهم من شعور صعب بتغير أحوالهم...

لكن موت الفجأة هو الأصعب على من يحبونهم... خاصة عندما يكون من غادر من طراز السيدة خديجة في الدعم والإسناد...

فجأة يفقد المحبون الكتف الذي كان يمدهم بالحنان والفهم والقوة والدعم.. فجأة ينطفئ الضوء دون استعداد مسبق.. فجأة يصبح العالم مظلمًا.. دون أن تكون قد هيأت نفسك لتقبله بالتدريج...

.. كانت تواسيه قبل أشهر عندما فقد عمه...

كلماتها كانت لا تزال ترن في أذنيه عندما ذهبت هي الأخرى..

* * *

ماتت رضي الله عنها في الليلة العاشرة من رمضان، في السنة العاشرة للبعثة[1].

هل بقيت الليلة العاشرة من رمضان في الأعوام التالية جرحًا في ذاكرته عليه الصلاة والسلام؟

لا نعرف...

الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل شيئًا.

---

(١) الطبقات الكبرى الجزء الثامن صفحة ١٤.

لكن ابن أخيها، حكيم بن حزام، قال أنهم خرجوا بها من منزلها، ودفنوها في مقبرة المعلاة بالحجون، ولم تكن صلاة الجنازة قد أصبحت سنة بعد يومئذ[1].

قال حكيم أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام، نزل معها في «حفرتها».

دفنها بيديه.

ربما دفن معها جزءًا من قلبه...

* * *

يوم ماتت قال عليه الصلاة والسلام: «**أريت لخديجة بيتًا من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**»[2]

بيت القصب هذا هو بيت من اللؤلؤ.. وعدت به السيدة خديجة في الجنة..

فلنتأمل في معنى هذا..

البيت.. يعني الأمان والحماية والاحتضان..

أليس هذا ما كانته السيدة خديجة له هو شخصيًا عليه الصلاة والسلام؟

واللؤلؤ؟

اللؤلؤ كما هو معلوم حجر كريم ينشأ داخل القواقع...

فهو يرمز إلى قوة داخلية.. من الخارج يبدو الغلاف مجرد قوقعة عادية..

لكن في الداخل ثمة حجر كريم نادر.. من أصل كل ١٠٠ ألف قوقعة فارغة... هناك واحدة فقط فيها لؤلؤة...

بيت اللؤلؤ الذي ستناله أم المؤمنين خديجة سيكون المعادل الموضوعي لما فعلته في حياتها معه -عليه الصلاة والسلام-..

قدمت الدعم والحماية والاحتواء كما تفعل البيوت...

وكشفت عن قوة داخلية نادرة... ندرة اللؤلؤ بين القواقع..

ومنحتها له... عليه الصلاة والسلام..

* * *

(١) الطبقات الكبرى الجزء الثامن صفحة ١٥.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٩٧١٩.

لقد فقد خديجة..

رفيقة الدرب، التي آمنت به قبل أن يؤمن بنفسه.. المرأة التي يوم قررت أن تتزوجه، تغير عالمه...

خديجة.. الزوجة والأم والحبيبة وكل ما يمكن لامرأة أن تكون..

خديجة تذهب...

ويعود عليه الصلاة والسلام يتيمًا من جديد.. يعرف هذه المرة معنى اليتم الحقيقي بكامل وعيه...

في عام واحد يفقد دعم عشيرته، ودعم زوجته..

يعود وحيدًا.. كما لو أنه -عز وجل- يعده لمرحلة أخرى مختلفة تمامًا..

* * *

لا نعرف شيئًا عن الليلة الأخيرة معها.. لا نعرف شيئًا عن آخر حديث بينهما... ربما كان كحديث أي زوجين.. شيء عن بناتهما.. عن رقية في غربتها.. عن خطبة مرتقبة لأم كلثوم.. أو عمن تراه مناسبًا لفاطمة... شيء عن صعوبات الحياة بمكة ومضايقات الجيران المحيطين بهم، أبي لهب، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن الحمراء.. هل شكت من تعب أو إرهاق.. هل بدا عليها شيء؟ لا نعرف.

.. ولا نعرف أيضًا أي شيء عن الليلة الأولى من دونها.

لا نعرف..

لكن من المؤكد أن البيت كله بدا يتيمًا مظلمًا وقد غادرته..

الليلة الأولى من بعد كل فقدان تكون صعبة جدًا.. فكرة أنها كانت تملئ البيت أمس، وتبيت الليلة تحت التراب، فكرة صعبة، يتجرعونها بمرارة وهم غير مصدقين، ويستيقظون فجرًا بعد نوم متقطع وهم يتمنون لو أن الأمر كله مجرد كابوس... ولكنهم يكتشفون أن الأمر ليس كابوسًا، بل هو واقع يمر به الجميع وعلينا قبوله رغم مرارته...

من المؤكد أن فاطمة كانت تبكي، وأم كلثوم كذلك... ومن المؤكد أن العاص بن الربيع قد ترك زينب تأتي لبيت أمها وخالته.. رغم الخلاف الحاصل من بقائه على دين قريش.. جاءت أمه السيدة هالة بنت خويلد حتمًا، تبكي أختها وتضم بناتها إلى صدرها...

رقية كانت مع عثمان في الحبشة... سيصلها الخبر لاحقًا بالتأكيد.. وخبر كهذا يكون طعمه أشد مرارة في الغربة...

كانت ليلة باردة. ليس فقط لأنها صادفت فبراير بالتقويم الميلادي. بل لأن الدفء غادر مع خديجة...

البيت* من دون خديجة، حتمًا بدا مختلفًا... موحشًا... كل ركن كان يحتويها ويضم أثرًا لها... هنا -على المصطبة- كانت ترضع القاسم وتلاعبه.. وهنا بكت يوم فقدته.. وهنا كانت ترضع عبد الله... وهناك في الحجرة الخلفية كانت تشرف على تجارتها... وهنا اعتادت أن تجلس مع بناتها في حجرتهن.. وهنا في حجرتها كانت تجالسه عليه الصلاة والسلام، تحادثه ويحادثها.. هنا دثرته وهنا صبت عليه الماء يوم جاء بالوحي أول مرة... وهنا سحبته وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة..

كانت في كل مكان.. بفارق أنها لم تعد موجودة...

* * *

لعله لم يبك أمام بناته، كي يمنحهن القوة..

حبس دموع عينيه، ولكن قلبه... قلبه لا بد أجهش وشهق بالبكاء..

لا نعرف ماذا قرأ من القرآن تلك الليلة..

لا نعرف أي الآيات واسته وربتت على كتفه ومسحت دموعه..

لا نعرف إن كان الوحي قد جاء ليلتها..

لا نعرف بم دعا لها في سجوده..

لا نعرف.. لم يخبرنا عليه الصلاة والسلام..

لم يشأ أن يبكي أمام بناته كي لا ينهرن.. القوة بالتقوي والصبر بالتصبر...

كذلك لم يشأ أن يبكي أمامنا... لم يرو لنا شيئًا عن تلك الليلة المظلمة التي غابت فيها خديجة..

تعرفون، هي أمنا أيضًا...

ولم يشأ أن نبكي...

* * *

هل كانت خاتمة سورة القصص، التي نزلت في تلك الفترة بتسلسل ٤٩، تقويه في تلك الليلة..

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ...﴾ **القصص (٨٥)**

هل هو الموعد الذي سيلتقي فيه مجددًا بخديجة التي غادرت للتو؟

هل هذا هو الوعد الذي شد من أزره وقواه ليلتها؟

الوداع مؤقت، وثمة موعد مؤكد..

---

* الوصف كما وصفه الرحالة محمد لبيب البتنوني في الرحلة الحجازية، وتنقيبات الدكتور سامي عنقاوي.

بيقين الوعد الإلهي..

قال ابن عباس في تفسير الآية: رادك إلى مكة، رغم أن السورة مكية.

لكن خديجة أيضًا كانت بطريقة ما «مكة».. بل كانت مثل مكة كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يحب أن تكون.. كانت السيدة خديجة مثل مدينة كاملة احتضنته وأيدته..

* * *

والآيات التي بعدها؟

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص (٨٨)...

هل نزلت بعد وفاتها.. تهوّن عليه وطأة قانون الحياة...

لا نعرف...

ولا نعرف إن كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقصد تلك الليلة عندما قال...

«أتاني جبريل، فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت، فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به »[١]...

هل أتاه جبريل يواسيه في تلك الليلة التي غابت فيها خديجة؟

ودرس الحياة هذا، أحبب من شئت فإنك مفارق، هل جاءه ليلة الفراق الصعبة تلك؟

ربما...

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٨٣١.

أحداث غير مرئية

عندما نتحدث عن المحطات المهمة في حياتنا، فإننا عادة نتحدث عن ولادتنا، تخرجنا وحصولنا على الشهادة الدراسية، وإضافتنا لشهادة أخرى أو أكثر عليها، أول عمل، زواجنا... إنجاز كبير في مجال العمل أو تقدير حصلنا عليه...

هذه عادة تكون «أحداث الحياة»، أشياء كبيرة فاصلة يمكن تحديد تاريخها بالضبط وأن تملك صورًا لها أثناء حدوثها..

لكن ثمة أحداثًا في حياتنا، قد تكون أهم بكثير من كل ما سبق، أحداث قد لا تكون مرئية، ولا يمكن تحديد تاريخ لها، ربما لأنها حدثت بالتدريج أو ربما لأنها يوم حدثت لم تتوقع أن يكون لها ذلك الأثر الكبير فلم تحفظ تاريخ اليوم...

أحداث غير مرئية، لكنها ربما غيرت المسار المرئي كله، ربما الكثير من أحداث العمر (الرسمية-المرئية) نتجت عن حدث غير مرئي.. لا تعرف له تاريخًا محددًا..

ربما كتاب عثرت عليه بالصدفة، وبقي على رف الكتب لفترة طويلة دون أن تقرأه، ثم مددت يدك إليه ذات ملل... فإذا به يغير كل أفكارك..

ربما صديق تعرفت عليه، وكان حدث صداقتكما التدريجي نقطة تحول في كل حياتك..

ربما كان محاضرة حضرتها بالصدفة، أو برنامج سمعته على غير قصد، أو جملة قالها أمامك من لا تعرفه..

ربما لأنهم سخروا منك ذات مرة... أو قال لك الأستاذ شيئًا عن موهبة لك..

أشياء صغيرة، أو ستبدو صغيرة، أو قد لا تبدو على الإطلاق، لكن أثرها عليك يمكن أن يكون أكثر من أثر حرب كبيرة مرت بها بلدك، أو شهادة علمية حصلت عليها لكنك لم تستفد منها بشيء..

* * *

أهم ما حدث في السيرة، هو هذه الأحداث غير المرئية التي لا تذكر عادة ضمن السيرة...

لكن هذه الأحداث، كانت المحرك الأساسي لكل شيء، كانت روح ما يجري وطاقته وقوة دفعه..

لا وقت محدد لها، ولا نستطيع أن نضع لها نقطة على الخط الزمني المتسلسل للأحداث، لأنها موجودة على الخط كله، أفقيًا وعموديًا، طولا وعرضًا وعمقًا وبكل الاتجاهات..

هي الأحداث التي ينغمس فيها المسار كله...

* * *

نتحدث عن حدث غير مرئي، له أسماء عديدة.. أكثرها شهرة هو الإيمان..

لم يكن الإيمان مجرد تصديق بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام قد أتاه الوحي.

بل كان تحملًا لكل ما ينتج عن ذلك من تبعات، الإيمان بكل ما سيقوله الوحي تباعًا.

وما نتج عن ذلك كان تغييرًا كبيرًا في كل شيء..

يمكن أن نقول تغييرًا في رؤية الحياة.. في طريقة التفكير...

لكن ذلك كله سيبدو كلمات استهلكت أمام حقيقة ما حدث..

علينا أن نضرب بعض الأمثلة..

* * *

الإيمان كان يمثل انتقالًا بالتفكير من مرحلة تشبه مرحلة «العد بالخرز»..

إلى مرحلة الكمبيوتر الشخصي، الماك أو الويندوز ١٠، دون أي تدرج في الأمر.

ليس الأمر تحديثًا في نظام الويندوز.. ليس الانتقال من ويندوز ٨ إلى عشرة مثلًا..

بل هو نظام الويندوز نفسه، مقابل لا شيء قبله!

* * *

لم تكن الأصنام والأوثان التي تعبد لها العرب في الجاهلية مجرد رموز دينية، تسد حاجة الإنسان وفطرته إلى علاقة بمعبود وخالق، في الحقيقة إن هذا البعد كان يحتل جزءًا صغيرًا من علاقة العرب بأوثانهم، مقابل طغيان أجزاء أخرى اجتماعية واقتصادية على هذه العلاقة.

والحقيقة أن المتفحص المدقق لعلاقة قريش بأصنامها لا يلاحظ عاطفة دينية عميقة رغم كل ما فعلته في التمسك بها والدفاع عنها، لكن لا شغف، لا علاقة حميمة كالتي يمكن أن تربط المتدينين بإلههم، ولم ينقل حدوث صدمة أو حزن على نطاق واضح عندما تحطمت في فتح مكة.

وهذا لا ينفي أبدًا وجود «بُعْد غيبي» يتمثل في التعبد لها والإيمان بأنها تضر وتنفع وتتدخل في أقدار الناس، ولكن الدفاع المستميت عنها لم يتطرق غالبًا لهذه الجوانب، بل ركز على «الآبائية»..

نقاش الآبائية احتل جزءًا كبيرًا من النقاش مع مشركي مكة، أكثر من ٤٠ آية كانت تتضمن إشارة مباشرة لهذا الأمر..

في الحقيقة، لم يصرح المشركون بشيء آخر تقريبًا دفاعًا عن مصداقية أو حقيقة أصنامهم، كان الأمر مرتبطًا فحسب بأنها ما عبد الآباء والأجداد، الجزء الباقي من نقاشهم كان منصبًا على الهجوم على الدعوة الجديدة ورسولها ومطالبتها بأدلة، لكن لم يكن هناك تقريبًا حجة في الدفاع عن الأصنام سوى أن الآباء عبدوها.

الأوثان التي جاء الإسلام ليزيلها، والتي كانت تمثل الجزء الرئيسي من منظومة التفكير ورؤية العالم لدى العرب في الجاهلية، لم تكن مجرد أحجار يريد الإسلام إزالتها بل كانت رمزًا رباعيًا لما يريد الإسلام أن يزيله من حياة العرب، أو على الأقل يريد أن يعيد ترتيبه وموضعته من جديد.

أولًا- البعد الديني/ الغيبي وكان يتمثل في عدد كبير من الأوثان التي لا تربط بينهما رابطة (لا توجد قصة مشتركة تربط بينهم كما في قصص الخلق الإغريقية التي تجد دورًا لكل إله مرتبط ببقية الآلهة ضمن أرضية مشتركة) والتي نشأت في أماكن مختلفة وأوقات متباعدة. بعض هذه الأصنام ترمز لنجوم، وبعضها لجن، وبعضها لرجال أو نساء، أو لجمادات، وكان يعتقد أن هذه الأوثان تجلب الحظ السعيد أو المطر، أو تحدد إن كان السفر مناسبًا أم لا أو غيرها من القرارات، بل وحتى تحدد إن كان الطفل الوليد هو ابن لأبيه أم لغيره، ويتم كل ذلك عبر الاستقسام بالأزلام وتكون عملية تقريب القرابين ممهدة غالبًا للطلب.

لا يوجد ما يدل على إيمان العرب بأن أيًا من هذه الأصنام كان لها أي دور في قصة الخلق، بل في الحقيقة لا توجد قصة خلق واضحة في وعي الجاهليين، ولكن هناك مفهوم عام عن كون الله هو الخالق دون تفاصيل على ما يبدو.

ثانيًا- البعد الآبائي: ولا يتمثل هذا فقط في اتباع ما كان يعبده الآباء، بل في أن بعض الأصنام أصلًا كانت ترمز، في بداية نشوئها على الأقل إلى الآباء والأجداد، وهي ظاهرة كانت شائعة في المجتمعات البدائية، ويبدأ الأمر بتعظيم الموتى ولأن الاحتفاظ بأجسادهم كان أمرًا صعبًا بسبب التحلل فقد كانوا يقومون بتعظيم واحدة من متعلقاتهم الشخصية ومن ثم يتطور الأمر إلى أن يتعبد لرمز يتعلق بهم. ويبدو أن هذا المفهوم كان واضحًا حيث روي عن عبيد الله بن عمير: **أول مَا حدثت الْأَصْنَام على عهد نوح وَكَانَت الْأَبْنَاء تبر الْآبَاء فَمَاتَ رجل مِنْهُم فجزع عَلَيْهِ فَجعل لَا يصبر عَنهُ فاتخذوا مِثَالًا على صورته فَكلما اشتاق إِلَيْهِ نظره ثمَّ مَاتَ فَفعل بِهِ كَمَا فعل حَتَّى تتابعوا على ذَلِك فَمَاتَ الْآبَاء فَقَالَ الْأَبْنَاء مَا اتخذ آبَاؤُنَا هَذِه إِلَّا أَنَّهَا كَانَت آلِهَتهم فعبدوها**[1] ويمكن فهم أن

(١) أخبار مكة للفاكهي صفحة ١٤٠.

التشدد بتسوية القبور الذي أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام كان يرتبط بوجود ظاهرة تعظيم القبور وعبادتها، وقد ذكر أن قبيلة تميم قد عظمت قبر جدها تميم بن مر، كما يذكر أن صنم اللات كان في الأصل قبرًا لرجل[١] ثم تحول إلى صنم مع الأيام، كما كانت قبيلة قضاعة تمارس طقوسًا إلى قبر جدها الذي دفن في أعلى جبل[٢].

وكان هناك صنم قديم عند العرب اسمه «جد» اشتركوا فيه مع الكثير من الشعوب السامية التي عرفت ظاهرة عبادة الأجداد، واندثرت عبادته ولكن بقيت آثار له في بني عبد الجد الذين كانوا في تهامة، وآل عبد الجد الذين قال عنهم الهمداني أنهم كانوا من ملوك بلد «حكم»، كما أن هذا الصنم كان يعد الإله الحارس للمدينة في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية[٣].

وكذلك عرف العرب صنمًا اسمه «الجُثَي» وهو صنمٌ يعبر عن قبور الآباء، حيث كان شكله على شكل حجارة متجمعة كالقبر، وكان العرب ينحرون النسك عنده[٤].

كما عرف العرب اسم عبد جد، وعبد الجد.

ويمكن الربط بسهولة بين عبادة الآباء على شكل أصنام (أي عبادة مباشرة)، وبين التمسك بما عبدوه على نحو كالذي فعله مشركو مكة، دون أي دفاعٍ حقيقي عن محتوى «العبادة» نفسها. كان هذا شكلا من أشكال عبادة الآباء، وعلى نحو أكثر شغفًا من عبادة الأصنام.

ثالثًا–<u>البعد العشائري/ القبلي</u>: لم يشترك العرب جميعًا في عبادة كل الأصنام الموجودة في الكعبة أو كل الأصنام التي وصلت أسماؤها لنا، بل كان لكل قبيلةٍ صنمها المفضل، وأصنام أخرى ثانوية قد تكون أصنامًا مفضلة أو مركزية لقبائل أخرى. فقريش مثلًا كانت تعظم «العزى»، وتعظم أيضًا اللات، وبدرجة أقل «مناة».

وصنم ثقيف المركزي كان «اللات»، أما صنم الأوس والخزرج المركزي فقد كان «مناة»، وكانت ثقيف والأوس والخزرج يعظمون «العزى» أيضًا[٥].

وكانت قبيلة كنانة تعبد «هبل» ولأن قريش كانت جزءًا من كنانة ومتحالفة معها (كما في حرب الفجار) فقد كانت تعظم «هبل» وبالمقابل كانت كنانة تعظم «العزى» صنم قريش[٦]، أي أن تعظيم الأصنام الأخرى كان يعبر عن علاقات وتحالفات عشائرية.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب الجزء ١١ - صفحة ٤٩.
(٢) المفصل في تاريخ العرب الجزء ٩ صفحة ١٧٦ .
(٣) معجم آلهة العرب قبل الإسلام - جورج كدر - المادة جد.
(٤) معجم آلهة العرب قبل الإسلام- جورج كدر- المادة الجثى.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء ١١ - صفحة ٢٣٩.
(٦) المحبر صفحة ٣١٨.

ولعلنا هنا نذكر صيحة أبي سفيان الشهيرة يوم أحد «أُعْلُ هبل» [١]، وهبل هو صنم كنانة المركزي كما مر، وكانت كنانة حليفة لقريش وشاركتها في يوم أحد. فأبو سفيان ينادي بهبل لأنه الصنم المشترك بينه وبين حلفائه.

ويبدو أن التشارك في تعظيم أصنام بعينها كان يعتمد بدرجة كبيرة على أماكن وجودها، والعلاقات بين القبائل التي تعظمها، لذا كانت أصنام اللات والعزى ومناة وهبل مُعَظَّمة جميعها عند قريش وثقيف والخزرج [٢].

لكن أصنامًا أخرى، لم تحز على نفس التعظيم لأنها كانت تخص قبائل أقل تأثيرًا على قريش، على سبيل المثال: «جهار» كان صنمًا لهوازن، «ذو الخلصة» لخثعم وزبيد، «ذو الكفين» لخزاعة ودوس، «المحرق» كان لربيعة، و«ذريح» لكندة، و«مرحب» لأهل حضرموت. وكثير غيرها، وهذه وجدت لها مكانًا في الكعبة مع بقية أصنام العرب ولكنها لم تكن تنال تعظيمًا خاصًا من قريش.

الأصنام هنا تلعب دور الهوية العشائرية التي تشد أفراد القبيلة بعضهم إلى بعض، وتجعل لهم كيانًا يميزهم عن سواهم وفي الوقت ذاته يربطهم برابطة مع عشائر أخرى تتحالف معهم.

الصنم في هذه الحالة يعبر برأيي عن الإله الحقيقي بالنسبة لعرب الجاهلية، ألا وهو النظام العشائري الذي كان أغلب العرب يدينون له بالولاء والطاعة على نحو صارم، النظام العشائري كان ضرورةً للبقاء على قيد الحياة في ظروف الصحراء القاسية، مقابل الحياة، كان النظام العشائري يسلب «الفردية» من الأشخاص ويجعلهم يعيشون داخل أطر القبيلة وقوانينها وما تقرره ويكون الخروج عن ذلك من الأمور التي لا يمكن التفكير فيها أصلًا.

رابعًا—<u>البعد الاقتصادي</u>: استخدمت الأصنام منذ البداية كوسيلة لجذب العرب إلى مكة، وكان مجيء العرب إليها لغرض التعبد لأصنامهم يعني أيضًا تبضعهم منها، وكان هذا يدر الأرباح إلى مكة.

قريش لم تبدأ الأمر بل وجدته هكذا، وتقول الروايات أن الأصنام دخلت مكة مع سيطرة خزاعة عليها مطلع القرن الرابع الميلادي، ولكن المؤكد أن الاستثمار «القُرَشي» في الأمر جعل الأصنام أكثر عددًا في الكعبة وجعل الأمر يبدو كما لو كان مهرجانًا أو كرنفالًا للأوثان حول الكعبة، كان عدد الثلاثمائة والستين صنمًا [٣] الموجودة حول الكعبة يوم فتح مكة يشير إلى أن قريشًا كانت قد حاولت تحويل «ما حول الكعبة» إلى شيء يشبه معبد البانثيون في روما الذي يضم كل الآلهة التي تعبد لها الرومان.

<u>لماذا أقول أن قريشًا هي التي زادت هذا العدد؟</u>

---

(١) صحيح البخاري ٣٠٣٩.

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم صفحة ٤٩١-٤٩٣.

(٣) معجم الطبراني الكبير ١٠٦٥٦.

لأن مكة تحولت في عهد قريش إلى مركز تجاري مهم يربط بين الشام واليمن والحبشة والحيرة، وما كان لهذا أن يحدث لولا معاهدات الإيلاف التي عقدت وقت هاشم بن قصي

ما علاقة معاهدات الإيلاف بزيادة عدد الأصنام في الكعبة؟

معاهدات الإيلاف كانت معاهدات مع القبائل التي تمر عليها قوافل تجارة مكة، بحيث تضمن قريش عدم تعرض قوافلها لخطر قطع الطريق من قبل هذه القبائل، وكان ذلك مقابل إشراك هذه القبائل في أرباح التجارة.

في الغالب هذه الاتفاقات الجديدة أدت إلى وضع أصنام هذه القبائل على طرق تجارة رحلتي الصيف والشتاء في الكعبة، ومن غير المعقول عدم حدوث ذلك، وهذا يعني أن كل القبائل التي على خط سير الرحلتين (تغطي شمال وجنوب وشرق الجزيرة) أصبحت مرتبطة بمعاهدات أمان مع قريش، وأصبح لها حضور وثني في الكعبة.

وكانت الدعوة إلى إزالة الأوثان بالنسبة لقريش بمثابة نقض لمعاهدات الإيلاف، لأنها كانت ستقوم بإزالة أصنام القبائل ويشكل ذلك استفزازًا لهذه القبائل، وبذلك تخسر قريش أهم مصدر من مصادر ثروتها.

ربما من الممكن هنا الربط بين وظيفة هذه المعاهدات وتسميتها بهذا الاسم، وبين وجود صنم باسم «إيلاف» من أصنام العرب كان يعتبر إله القوافل التجارية والموكل بحمايتها، هذا الصنم القديم الذي لا نعرف إن كان قد استمر بالوجود إلى ظهور الإسلام كان له تسميات عديدة منها «أبو إيلاف»، «إيلف»، «إيلاف» وكذلك عرف الصنم «سلمان» بنفس الوظيفة وكان يسمى أيضًا«أبو إيلاف»[2].

من الصعب تجاوز التشابه بين الاسم والوظيفة لهذا الصنم وبين اسم المعاهدات ودورها، علمًا أن الآية القرآنية حددت إيلاف قريش -وليس أي إيلاف آخر- عندما خاطبت قريشًا، وإيلاف قريش لم يكن صنمًا، بل كانت معاهدات.

* * *

الأصنام إذن كان لها هذه الأبعاد الأربعة..

البعد الغيبي / الديني المجرد، وهو الأكثر ظهورًا ولكن الأقل عمقًا في رأيي، البعد الآبائي، ويمثل نوعًا من عبادة الآباء الأكثر عمقًا من عبادة الأصنام على نحو مباشر، ومن ثم البعد العشائري، حيث

---

(١) راجع المفاتيح/ المفتاح الثامن/ هاشم.

(٢) معجم آلهة العرب قبل الإسلام- جورج كدر/ مادة إيلاف/ مادة سلمان.

تمثل الأصنام هوية عشائرية تشد أفراد القبيلة إلى بعضهم البعض، وتعبر عن تحالفاتهم أيضًا، وعن قوة وصرامة النظام العشائري الذي يكاد يكود إلهًا بالنسبة للعشيرة.

وأخيرًا: البعد الاقتصادي الخاص بقريش، حيث تلعب الأصنام دور الجاذب لرؤوس الأموال، وتلعب أيضًا دورًا في ضمان سلامة القوافل التجارية.

هذه هي أهمية الصنم بالنسبة لقريش...

موجودٌ حرفيًا في كل جوانب حياتها.. حياتها تستند عليه...

ثم يأتي محمد عليه الصلاة والسلام ليدعو لتحطيم الأصنام...

بالنسبة لقريش: كانت إزالة الأوثان تعني إزالتها هي من الوجود.

أو هذا ما فهمته من الأمر...

* * *

قريش فهمت الأمر على نحو صحيح تقريبًا.

ثلاثة من الأبعاد الأربعة للصنم كانت ستنسف فعليًا مع الدعوة لإزالة الأصنام.

بعد واحد لن ينسف تمامًا، بل سيستخدم في عملية نسف الأبعاد الأخرى.

ومن ثم يعاد تسكينه.

الأبعاد التي ستنسف هي البعد الغيبي، والآبائية، والاقتصادي.

البعد العشائري سيفك ارتباطه بالأصنام، لكنه لن يلغى تمامًا.

* * *

بدلًا عن الرؤية السطحية لعالم مشتت يتحكم فيه ٣٦٠ صنمًا، هناك رؤية متماسكة لعالم مترابط فيه إله واحد، هو الخالق والمتحكم وهو أيضًا من أرسل الرسالة.

وبدلًا عن الأجسام التي تقرب لله زلفى، هناك التواصل المباشر معه، بعيدًا عن أي شكل من أشكال الوساطة...

وبدلًا عن الرؤية التجسيمية القاصرة، هناك مفهوم جديد لله لا يقبل أن يكون في أي قالب مشابه لشيء، أول وآخر وظاهر وباطن وليس كمثله شيءٌ..

* * *

وبدلًا من عبادة الآباء، كان هناك حسمٌ لا يقبل المساومة مع الماضي... كان هناك ردٌّ مؤلم وحاد مثل مشرط الجرّاح: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[1]

لم يكن الهدف هو إدخال شخص بعينه من الآباء إلى النار، بل إنهم عمليًّا كانوا من أهل الفترة* الذين ينطبق عليهم قوله تعالى:

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا الإسراء (١٥)

ولكن الهدف كان إدخال فكرة «الآبائية» نفسها إلى النار، كان من المهم نسف عبادة الآباء وليس الآباء أنفسهم، كان المهم حرق صفحة الماضي والاستعداد للبدء من جديد، من صفحة جديدة..

لذلك كان لا بد من هذا الحسم القاطع.. «في النار»... لا مجال لترك الباب مفتوحًا قليلًا عندما يطرح سؤال إن كان هذا الأب أو ذاك في النار أو في غيرها، الجواب هو في النار كي يقطع السؤال... كي نستطيع أن نبدأ من جديد...

* * *

إلغاء الأصنام كان يقضي بالتأكيد على معاهدات «الإيلاف».

لكن هذا الإلغاء كان مصحوبًا بتقديم رابطة جديدة، رابطة الإيمان الموحدة للجميع، لا حاجة لأصنام في الكعبة «تؤلف» قبائل العرب، سيكون هناك شيء آخر مختلف تمامًا، الرابط سيكون من نوع مختلف وسيكون في القلوب والعقول ولكن لن يكون له شكل ماديٌّ محدد.

* * *

إلغاء الأصنام كان يلغي ارتباط الهوية العشائرية بالصنم بالتأكيد، لكنه لم يلغ النظام العشائري نفسه.

ولو أنه فعل، لكان نتائج ذلك كله كارثية على المشروع الجديد ككل...

لو أن النظام العشائري نسف -على فرض أن ذلك كان ممكن الحدوث- لكان الانهيار عشوائيا بحيث يسقط البناء كله على رؤوس الجميع، دون إمكانية حدوث بناء بديل...

الذي حدث هنا أن النظام العشائري نفسه اسْتُخدم -من خلال آليات التحالف والجوار والعلاقات العشائرية- كأداة لهدم مسيطر عليه ومدروس بحيث لا ينهار كل شيء مرة واحدة بل يزال البناء القديم بالتتابع وبأقل قدر ممكن من الخسائر، وعلى نحو يسمح ببناء جديد.

---

(١) صحيح مسلم ٣٤٧.

* أهل الفترة: الذين جاؤوا في وقت على «فترة» من الرسل أي لم تبلغهم الرسالة.

لم يكن الأمر سهلًا بالتأكيد، كان دقيقًا جدًا وخطرًا جدًا، لكن العلاقات العشائرية المتداخلة، والتي افترضت قريش أنها ستكون كفيلة بالقضاء على الدعوة الجديدة، كانت واحدة من أهم أدوات هدم الأصنام وما يتعلق بها... وقد رأينا ذلك في كل ما مر حتى الآن...

في النهاية، كان النظام العشائري لا يزال موجودًا، ولكن هيمنته قلت، لم يعد الإله الذي يسيطر على الأفراد..

لم تعد العشيرة هي الإطار العام الذي يحدد كل شيء.

بل أصبحت حجرًا ضمن البناء الاجتماعي.

وصارت هناك معايير أخرى، تقوم بدور الإطار والفضاء الذي يتحرك المجتمع فيه ومن خلاله.

* * *

وهذا يذكرنا بما يحدث كثيرًا في النظرة السائدة عند بعض التيارات التي تنظر بمنظار الأبيض والأسود في كل شيء، إما أن يكون كل شيء على شرع الله بالضبط، أو فهو كله جاهلي لا يمكن التعامل معه، وهي النظرة التي نتج عنها تكفير المجتمعات «حرفيًا»، أو تكفيرها ضمنًا دون نطق كلمة الكفر.

السيرة توضح لنا أن هذه النظرة بعيدة تمامًا عن فهمه عليه الصلاة والسلام للجاهلية، ولفكرة تغيير المجتمعات... لم يكن التغيير عملية تفجير شاملة لكل مؤسسات الجاهلية، بل كانت هناك عملية فلترة بلا شك / نسف حتمي لبعضها، خاصة للمرتبطة بالوثنية، وتجفيف لمنابع البعض، مثل العبودية والرق، وترك لبعضها دون مساس مباشر، مثل العشائرية، لكن دورها كان سيقل حتمًا بالتدريج.

وكانت هذه كلها أحداث غير مرئية..

لكنها ربما أهم من المعارك والغزوات...

* * *

النقلة الكبيرة الأهم التي حدثت في وعي الفرد قيد التكوين كانت في الإيمان بالبعث والحساب.

الفرد الجاهلي كان لا يؤمن ببعث أو حساب.. كل شيء سيذهب إلى العدم، كل شيء محض هباء وسيتحلل في التراب ويكون كما لو أنه لم يكن أصلًا.

ليس سوى هذه الحياة الدنيا، وبعدها لا شيء.

ثم جاء الوعي الجديد ليقول له أن هذا ليس كل شيء بالضبط، وأن ثمة بعثًا وحسابًا وثوابًا وعقابًا، بدلًا من ذلك العبث والهباء...

صار هناك إيمان بالهدف، بالغرض، بالجدوى..

وكان ذلك محركًا كبيرًا سيفسر جزءًا مهمًا مما حدث لاحقًا خلال العقدين التاليين..

* * *

كان للقرآن أيضًا أثرٌ كبيرٌ في هذه الأحداث غير المرئية التي غيرت من مسار الأحداث في مكة..

العربي خرج (رسميًا) في هذه الحالة من الحالة الأمية، الأم التي ليس لها كتاب، إلى الأم الكتابية، وهي درجة من درجات التطور لم يحْظَ العرب بها سابقًا، بالنسبة للعرب وما يحيطهم، كانت كل الأمم التي لها كتاب، تفوقهم في كل شيء، ولا أعني هنا فقط اليهودية والمسيحية ـ بل حتى المجوسية، فقد كان لهم كتاب مقدس هو الأفيستا.

انتماؤه للأمم الكتابية زوده بوعي تاريخي، القرآن جعله يرى الأمم في صعودها وفي انهيارها، وهذا الوعي التاريخي جعله يملك نظرة مستقبلية شاملة، يرى من خلالها كيف يمكن أن يساهم في صعود أمته.. في تأخير انهيارها...

نظرة العربي لنفسه، عندما صار مسلمًا تغيرت، صار يشعر بأنه غدا أكثر أهمية وله دور، وأن السماء تخاطبه على نحو مباشر..

صار له مكان على الخريطة... بعد أن كان مجهولاً تمامًا..

وهذا كان حدثًا غير مرئي آخر.. لكنه على قدر كبير من الأهمية...

* * *

ضمن هذه الرؤية المختلفة التي صار المسلم ينظر بها إلى العالم، يمكننا فهم الكثير من المتغيرات التي حدثت في سلوكياته لاحقًا..

موقفه من المرأة مثلًا، خلال سنوات، لم يتحول الموقف فقط من التوقف عن الوأد واعتباره جريمة بعدما كان سلوكًا شائعًا، إلى منح المرأة الكثير من الحقوق التي كانت تعد ريادية جدًا في سياق عصرها.

كذلك موقفه من العبيد والموالي، والتغير الذي طرأ على نظرته لهم وتعامله معهم وصولاً إلى مصاهرتهم كان يعكس التغير الكبير الذي طرأ على أولوياته

موقف العربي أيضًا من الهجرة من مدينة إلى أخرى، كان البدوي يتنقل من مكان لآخر وكان هذا جزءًا من هويته، لكن العربي الحضري، لم يكن يفكر في الخروج من مدينته، كان هذا الأمر خارج نطاق تفكيره.. لكن هذا حدث فعلا وفي هجرتين مثلت كل منهما نقطة تحول في مسار الأحداث، وفي طبيعة الفكر المسلم قبل ذلك..

طريقة العيش ضمن مجتمعات صغيرة منفصلة عما سواها، مدن مثل مكة والطائف ويثرب، لم تنضم يومًا تحت إدارة مشتركة، بل كانت منفصلة مثل القبائل التي تعيش في البادية ولكل منها قانونها وعرفها الخاص، الانتقال من هذا التفكك إلى إمكانية وجود رابطة جامعة موحدة كان يعكس تغيرًا كبيرًا في نمط التفكير كذلك..

* * *

من أكثر قصص تعامل السلف الصالح مع القرآن شيوعًا وتأثيرًا هي أن بعضهم كان يصل إلى حد الموت من الخشوع أو كان يصعق فيغشى عليه..

لن أناقش هنا صحة هذه القصص أو أهميتها..

فقط أذكر أن تعامل الصحابة- الجيل الأول مع القرآن كان مختلفًا تمامًا.. بل معاكسًا...

لم يُمِتهم القرآن خشوعًا..

بل أحياهم...

بثَّ فيهم الحياة والحيوية..

كان مثل الرجة الكهربائية التي تعيد النبض إلى القلب الواقف..

لم تكن الدموع هي العلامة الأهم على التفاعل مع القرآن...

التغير الأكبر، كان تغييرًا لا يرى بالعين المجردة، تغييرًا في الأفكار، في نمط التفكير، في رؤية العالم...

وكان هذا أهم حدث غير مرئي.. استمر طيلة فترة السيرة.. طولًا وعرضًا وعمقًا..

وبجميع الاتجاهات..

ونتج عنه كل شيء...

ذات ليلة مختلفة جدًا...

يقال عادة أن الإسراء والمعراج حدث مواساة للنبي عليه الصلاة والسلام بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها.

والحقيقة أن الحدث كان لا يقل في رهبته عن ليلة الوحي الأولى التي هرع فيها إلى السيدة خديجة...

لكن هذه المرة لم تكن زوجه هناك تنتظره لكي تقف معه كما فعلت دائمًا.

كما لو أنه سبحانه وتعالى يريده هذه المرة أن يتحمل الأمر كاملًا وحده.

كما لو أن المرحلة القادمة كانت تتطلب ذلك، أن يكون وحيدًا، أن يتسلم مهامه وحيدًا..

كما لو أنه ما كان له أن يدخل هذه المرحلة إلا بعد أن يزاح عنه درعا الحماية اللذان لازماه سنوات البعثة الأولى... درع الحماية الخارجية، ممثلًا في أبي طالب... ودرع الحماية الداخلية، ممثلًا في السيدة خديجة..

الآن... هذه التجربة، تتطلب أن يفعل كل شيء بنفسه.

صلى الله عليه وسلم.

* * *

كذلك يعامل الكثيرون الإسراء والمعراج كما لو كان معجزة من معجزات الرسل.

والحقيقة أن «الإسراء والمعراج» أكبر بكثير..

وأيضًا أصعب بكثير... ولا يمكن تصنيفهما ضمن نفس التصنيف الذي يمكن أن توضع فيه معجزات بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

المعجزة يجب أن تحتوي على العناصر التالية لكي يتحقق عنصر الإعجاز: حدث خارق للطبيعة والعادة إضافة إلى حدوث هذا أمام المكذبين تحديًا لهم ثم «يعجزهم» الأمر فيصدقون أو يكذبون حسب تفاعلهم مع الأمر.

هكذا حدث مع عصا موسى، مع إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص.. مع كل المعجزات..

لكن في الإسراء والمعراج... هناك عنصر مفقود.

حدث خارقٌ جدًا، لكن لم يره أحد...

ولكنك مطالبٌ بتصديقه...

هذا الحدث قد لا ينطبق عليه التعريف التقليدي للمعجزة، المستند إلى وصف بقية معجزات الرسل، عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

هو شيء آخر، أشبه بالامتحان.

أن لا ترى ما حدث.

وأن يكون ما حدث خارقًا جدًا، لم يحدث من قبل ولن يحدث من بعد...

وأن تصدق وتؤمن أنه حدث...

لا، ليس معجزة شاهدتها وأعجزك ما تشاهده فسلمت وآمنت.

بل امتحان..

امتحانٌ لإيمانك..

بعد عشر سنوات، من البعثة، تعرض المسلمون لهذا الامتحان..

ونتعرض له نحن بطريقة أو بأخرى..

* * *

قبل أن نتحدث عن الإسراء والمعراج، لعله من المناسب أن نلقي نظرة على الوضع المحيط به عليه الصلاة والسلام قبل الإسراء، بعد فقدانه لأبي طالب والسيدة خديجة..

ذاك العام الذي سماه المؤرخون لاحقًا بعام الحزن...

لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِب وَخَدِيجَةُ بنت خويلد. وكان بينهما شهر وخمسة أَيَّام. اجْتَمَعَتْ عَلَى رَسُولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُصِيبَتَانِ فَلَزِمَ بَيْتَهُ وَأَقَلَّ الْخُرُوجَ وَنَالَتْ مِنْهُ قُرَيْشٌ مَا لَمْ تَكُنْ تَنَالُ ولا تطمع به. فبلغ ذلك أبو لَهَبٍ فَجَاءَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ امْضِ لِمَا أَرَدْتَ وَمَا كُنْتَ صَانِعًا إِذْ كَانَ أَبُو طَالِبٍ حَيًّا فَاصْنَعْهُ. لا وَاللاتِ لا يُوصَلُ إِلَيْكَ حَتَّى أَمُوتَ!

وَسَبَّ ابْنُ الْغَيْطَلَةِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو لَهَبٍ فَنَالَ مِنْهُ. فَوَلَّى وَهُوَ يَصِيحُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ صَبَأَ أَبُو عُتْبَةَ!

فَأَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتَّى وَقَفُوا عَلَى أَبِي لَهَب. فَقَالَ: مَا فَارَقْتُ دِينَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَكِنِّي أَمْنَعُ ابْنَ أَخِي أَنْ يُضَامَ حَتَّى يَمْضِيَ لِمَا يُرِيدُ. قَالُوا: قَدْ أَحْسَنْتَ وَأَجْمَلْتَ وَوَصَلْتَ الرَّحِمَ. فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَذَلِكَ أَيَّامًا يَذْهَبُ وَيَأْتِي لا يَعْتَرِضُ لَهُ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ. وَهَابُوا أَبَا لَهَبٍ. إِلَى أَنْ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ إِلَى أَبِي لَهَبٍ فَقَالا لَهُ:

أَخْبَرَكَ ابْنُ أَخِيكَ أَيْنَ مَدْخَلُ أَبِيكَ؟

فَقَالَ لَهُ أَبُو لَهَبٍ: يَا مُحَمَّدُ أَيْنَ مَدْخَلُ عبد الْمُطَّلِبِ؟

قَالَ: مَعَ قَوْمِهِ.

فَخَرَجَ أَبُو لَهَبٍ إِلَيْهِمَا فَقَالَ: قَدْ سَأَلْتُهُ فَقَالَ مَعَ قَوْمِهِ.

فَقَالا: يَزْعُمُ أَنَّهُ فِي النَّارِ.

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَيَدْخُلُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ النَّارَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ. وَمَنْ مَاتَ عَلَى مِثْلِ مَا مَاتَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ دَخَلَ النَّارَ.

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: وَاللهِ لا بَرِحْتُ لَكَ عَدُوًّا أَبَدًا. وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ فِي النَّارِ! فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ هُوَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ[1].

سند القصة فيه ضعف، ولكن ربما تساعدنا في إلقاء الضوء على ما كان يحدث آنذاك.

أبو لهب أصبح كبير بني هاشم بعد وفاة أبي طالب.

والرسول عليه الصلاة والسلام يتعرض لإساءات أكبر من قريش بعد أن غاب أبو طالب، وربما تقوت قريش أصلًا بكبير بني هاشم الجديد، أبي لهب، المعروف بعدائه لمحمد عليه الصلاة والسلام، بل والذي تنصل وتخلى عن قومه عندما حاصرتهم قريش.

لكن حمية أبي لهب تتحرك، ربما ليس لمحمد عليه الصلاة والسلام، ولكن لصالح «أناه الشخصية»، لصالح مكانته وهيبته: كنتم تهابون أبا طالب ولكن لا تحسبون لي حسابًا؟

لذلك يقدم أبو لهب غطاء حماية للرسول عليه الصلاة والسلام، ولعله كان ضيق الصدر بهذا الغطاء أكثر من قريش..

(١) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٦٤-١٦٥.

ابن الغيطلة، وهو أحد سادات قريش، واسمه الحارث بن قيس بن عدي السهمي (من بني سهم، أي حلف الأحلاف مع بني مخزوم وبني جمح وعبد الدار ضد بني عبد مناف) يتعرض للنبي ويسبه، ويستفز ذلك أبا لهب فيذهب له ويسبه، وينطلق الرجل محرجًا لأبي لهب بالقول أنه قد صبأ.

أبو جهل، يحفظ لأبي لهب مكانته ولكنه يحرضه على محمد، اسأله أين عبد المطلب الآن؟

وأبو لهب يسأله عليه الصلاة والسلام، وربما يطمع في مساومة تخرجه منتصرًا أمام قريش: أين عبد المطلب؟

والرسول عليه الصلاة والسلام يرد، وأتخيل أنه قالها دون أن ترمش عيناه: «**في النار.. عبد المطلب في النار.. هو ومن معه على دينه في النار.. يا عم**»

لا مساومة في ذلك، ربما لم يكن يهمه عليه الصلاة والسلام أن يحدد أين عبد المطلب حقًا، والأمر كله لله من قبل ومن بعد، لكن يهمه أن تتقبل قريش أن الآباء كانوا على ضلالة وأن ضلالتهم في النار.

أبو لهب أصبح في حل من حمايته لمحمد بعد هذا، حميته لعبد المطلب أهم من حميته لمحمد.

كان مسرورًا غالبًا لتخلصه من عبء حمايته عليه الصلاة والسلام ومواجهة قريش، هو الذي قضى عمره يسترضيها ويحاول أن يثبت إخلاصه لها.

أبو لهب لم يرفع حمايته فحسب.. بل صار يشارك مع قريش في أذاهم للرسول عليه الصلاة والسلام... فرصة أخرى لإثبات ولائه لهم.

هكذا كان الوضع قبل الإسراء...

* * *

ما الذي حدث في الإسراء، والمعراج؟

فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ[١]

«ثم أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ»، قَالَ: «فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ»، قَالَ: «فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ»قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ[٢]

(١) صحيح البخاري ٣٣٤٢.
(٢) صحيح مسلم ٢٥٩.

وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ، جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ -يَعْنِي نَفْسَهُ- فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ[1]

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ قَالَ: مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ: مَعِي مُحَمَّدٌ، قَالَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَافْتَحْ، فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ فَفَتَحَ»قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ إِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يُثْبِتْ لِي كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ: أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّادِسَةِ، وَقَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِإِدْرِيسَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا إِدْرِيسُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا مُوسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ عِيسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ مَنْ هَذَا، قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ»[2]

فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنَ ابْنٍ وَنَبِيٍّ، فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ، وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ وَوَرَقُهَا، كَأَنَّهُ

(١) صحيح مسلم ٢٧٨.

(٢) صحيح البخاري ٣٣٤٢.

آذَانُ الفُيُولِ فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ: فَفِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاَةً، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاَةً، قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ، عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَسَلْهُ، فَرَجَعْتُ، فَسَأَلْتُهُ، فَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، ثُمَّ ثَلاَثِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عِشْرِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عَشْرًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مِثْلَهُ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ جَعَلَهَا خَمْسًا، فَقَالَ مِثْلَهُ، قُلْتُ: سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ، فَنُودِيَ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الحَسَنَةَ عَشْرًا[1]

ثم مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم.

فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم[2]

ثم رأيت رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار.

فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهميتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟![3]

هذا هو أهم ما جاء في الصحيح من أحاديث الإسراء والمعراج...

الرسول عليه الصلاة والسلام ينشق عنه السقف في بيته بمكة، ويأخذه جبريل، وتحدث له عملية تطهير قلبه عبر غسله بماء زمزم وملئه بالحكمة والإيمان*، ومن ثم يركب دابة تأخذه إلى بيت المقدس،

---

(١) صحيح البخاري ٣٢٠٧.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٥٣٣ مسند أحمد ١٣٣٤٠.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٩١ مسند أحمد ١٢٢١١.

* أميل إلى اعتبار شق الصدر وتطهير القلب الذي حدث ليلة الإسراء وتمهيدًا لها هي حادثة شق الصدر الوحيدة التي تعرض لها عليه الصلاة والسلام، رغم وجود حديث صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه يفيد بتعرضه لذلك بينما هو في مضارب بني سعد عندما كان طفلًا في الرابعة، لكن هذا يتناقض مع ما عرفناه من رد فعل الرسول عليه الصلاة والسلام من نزول الوحي لأول مرة الذي احتاج إلى ورقة بن نوفل ليؤكد له الأمر، بينما يفترض حسب حديث شق الصدر في الطفولة أنه عليه الصلاة والسلام عرف أن جبريل هو الذي فعل ذلك، كذلك فإن شق الصدر ليلة الإسراء أمر له ما بعده، إذ هو تمهيد لرحلة الإسراء والمعراج بينما لم يكن له دور في الطفولة، كما أن عملية تطهير قلب يقوم بها جبريل يفترض أن لا تحتاج إلى إعادة، عدا عن أنه عليه الصلاة والسلام لم يشر إلى أمر شق الصدر في الطفولة عندما حدثت واقعة شق الصدر ليلة الإسراء، كما أن صيغة الحديث عن أنس لا تفيد بأن المتكلم هو الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن شخصًا ثالثًا حضر الواقعة وكان غلامًا من غلمان بني سعد، ونحن لا نعرف من يكون ولم يذكر له اسم، كما أن حديث أنس يفيد بوجود أثر في صدره عليه الصلاة والسلام من الحادثة، وهو ما لم يذكر في وصف الرسول من قبل بقية الصحابة، علمًا أن تقنيات الجراحة الحديثة يمكنها أن تتعامل مع آثار العمليات على نحو لا يترك أثرًا، فهل الملائكة يعجزون عن أن تكون العملية بلا أثر، وهل تطهير القلب يحتاج إلى تدخل مادي؟ الأمر مع الإسراء مفهوم لأنه في سياق أحداث مشابهة تجمع بين أحداث رمزية وواقعية في آن واحد.

ويخيره جبريل بين الخمر واللبن فيختار اللبن، وهناك يصلي ركعتين، ويشاهد الأنبياء ويصلي بهم وإن كان ربما لم يميزهم إلا لاحقًا، ثم يرتفع إلى السماوات الواحدة تلو الأخرى ويشاهد الأنبياء ويسلم عليهم، ويشبه بعضهم بمن يعرفه من الناس في مكة، ثم يصل إلى سدرة المنتهى، وهي أعلى نقطة في السماء، ويشاهد الجنة، وتفرض الصلاة- كانت خمسين صلاة في اليوم أول مرة، لكن موسى عليه السلام أخبره أن قومه لن يطيقوا ذلك، فبقي يراجع حتى أصبحت خمسًا، ومن المحتمل أنها كانت خمسًا منذ البداية، لكن الأمر كان ليستفيد عليه الصلاة والسلام من خبرة سيدنا موسى عليه السلام في صراعه المرير مع الطبيعة البشرية.

ثم يشاهد أقوامًا يتعرضون للعذاب، وتعذيبهم هو على استخدام اللسان، مرة في الخوض في أعراض الناس، والمرة الأخرى على القول منفصلا عن العمل.

وكل هذه التفاصيل مليئة بالرموز.

وعندما أقول رموزًا فأنا لا أقصد أنها لم تحدث، بل أقصد أنها حدثت ولكن كل ما حدث فيه معان أكبر من مجرد وقوعه المباشر، وهذا نفس ما قاله جبريل في الحديث بالضبط: قال للرسول عليه الصّلاة والسلام عندما اختار اللبن، لقد اخترت الفطرة، وهذا يعني أن اللبن ليس مجرد لبن عادي، بل له معنى أكبر وهو الفطرة.

كذلك كل شيء في تفاصيل قصة الإسراء والمعراج، فغسل قلب الرسول بماء زمزم هو عملية تطهير نهائية مرتبطة بالبئر الذي ارتبطت قصته بالنبي إبراهيم وبناء الكعبة، وملؤه بالحكمة والإيمان بعد عملية تطهيره أيضًا يشير إلى ما سيحرك قلب محمد في الفترة القادمة: الحكمة والإيمان.

رمزية بيت المقدس واضحة أيضًا، فهو تكريس للانضمام إلى منظومة أهل الكتاب، بل وقيادتها أيضًا عبر رمزية التقدم للصلاة كإمام بالأنبياء.

رحلة المعراج كلها تُعَبِّر عن أقصى اقتراب ممكن لرسول / وبالتالي لإنسان أن يصله من الله سبحانه وتعالى... ولقد بدأت الرحلة إلى المعراج منذ فترة طويلة جدًا، من قبل الوحي، عبر ممهدات التحنث والتخلق، ومن ثم جاء الوحي لينقل هذه الرحلة إلى أبعاد أخرى أعمق وأبعد، وخلال العشر سنوات كان عليه الصلاة والسلام في رحلة عروج مستمر أوصلته إلى المزيد والمزيد من الاقتراب منه عز وجل، ولا بد أن فترة الحزن النفسي على وفاة عمه ومن ثم زوجته خديجة قد ساهمت أكثر وأكثر في ترسيخ معراجه الداخلي..

إلى أن فرج سقف بيته في مكة ذات ليلة... ونزل جبريل.. ليأخذه معه...

* * *

الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه، كان مدركًا تمامًا لصعوبة تصديق الأمر ربما حتى من قبل المؤمنين.. ينقل هو بنفسه هذه المشاعر التي يرويها ابن عباس:

لَمَّا كان ليلة أُسْرِي بِي، وأصبحتُ بمكةَ فَظِعْتُ بِأَمْري، وعَرَفتُ أَنَّ الناسَ مُكَذِّبِيّ. فَقَعَدَ معتزلًا حزينًا[1]..

فلننتبه هنا إلى أن الأمر هو في اليوم التالي للإسراء والمعراج، أي أنه عاد من رحلته تلك، الرحلة الأعظم التي حصل فيها على المرتبة الرفيعة، لكنه صباحًا كان معتزلا حزينًا، حاملا هم ماذا سيقول للناس، ولننتبه أيضًا أنه قال «عرفتُ أن الناس مكذبي» كما لو أنه يقصد كل الناس!

فلنسجل هنا إلى أن هناك ما يمكن أن يفهم على أن التجربة التي مر بها قبل يوم كانت قد أنهكته جسديًا، وربما أدت إلى ارتفاع ضغط دمه، إذ صح أنه قال أن الملائكة يومها كانت توصيه (عليك بالحجامة)[2] والنظرة السطحية قد تفهم أن الأمر ترويج للحجامة كطب صالح للعمل في كل زمان ومكان.. والحقيقة أن الأمر ليس على هذا النحو، الحجامة كانت ممارسة طبية شائعة عند العرب آنذاك، وكانت جزءًا من معارف العرب يومها، ولو أن الإسراء والمعراج حصل في مرحلة زمنية مختلفة لكانت توصية الملائكة مختلفة حتمًا، المهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مجهدًا من الرحلة -نفسيًا وجسديًا- ومجهدًا من الحمل الذي عليه أن يواجه الناس به...

(تراه قال في نفسه.. لو أن خديجة هنا.. عليه الصلاة والسلام)..

وهنا يأتي أبو جهل، وقد لاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام في وضع مختلف...

فَمَرَّ عدوُّ اللهِ أبو جَهْلٍ، فجاء حتى جلس إليه، فقالَ له -كالمستهزِئ-: هل كانَ من شيءٍ؟

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

نعم.

قال: ما هو؟

قال: إنه أُسْرِيَ بي الليلةَ.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحتَ بين ظَهْرانَيْنَا؟

قال: نعم.

فلم يَرَ أنه يُكَذِّبُهُ مخافة أن يجْحَدَهُ الحديثَ إذا دعا قومَهُ إليه.

قال: أرأيت إن دعوتُ قومَكَ تُحَدِّثُهُم ما حَدَّثْتَنِي؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

نعم.

(١) مسند أحمد ٢٨١٩ السلسلة الصحيحة ٣٠٢١.

(٢) السلسلة الصحيحة ١٨٤٧مسند أحمد ٣٣١٦ .

فقال: هَيَّا مَعشَرَ بني كعب بن لُؤيٍّ! فانتفضت إليه المجالس،وجاءوا حتى جَلَسُوا إليهما، قال: حَدِّثْ قومَكَ بما حَدَّثتَني.

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إني أُسْرِيَ بي الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيتِ المقدس.

قالوا: ثم أصبحتَ بين ظَهْرَانَيْنا؟

قال: نعم.

قال: فَمِنْ بين مُصَفِّق، ومن بين واضعٍ يَدَهُ على رأسِهِ متعجبًا للكذب؛ زعم!

قالوا: وهل تستطيعُ أن تَنْعَتَ لنا المسجد-وفي القومِ مَنْ قَد سافَرَ إلى ذلك البلد ورأى المسجد-؟!

فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:

فذهبتُ أنعتُ، فما زلتُ أَنْعَتُ حتى الْتَبَسَ عليَّ بعضُ النَّعْتِ.

قال: فَجِيءَ بالمسجد وأنا أنظُرُ حتى وُضِعَ دُونَ دار عقال-أوعقيل-، فنعتُّه وأنا أنظرُ إليه- قال: وكانَ مع هذا نعت لم أحفظه-قال: فقَالا لقوم: أما النَّعت؛ فوالله! لقد أصاب.[1]

رأى أبو جهل أنه ربما وجد فرصة عمره في الصراع مع الرسول عليه الصلاة والسلام..

لا يظهر عدم التصديق أولًا، كما لو أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيخدع بذلك، ويسأل الرسول إن كان مستعدًا لإعادة ما قاله، ثم يجمع القوم كلهم ليسمعوا... كما لو أنه يريد أن تكون الضربة القاضية أمام الجميع ...

هل أراد الرسول عليه الصلاة والسلام عرض الأمر هكذا؟ السياق يدل أنه لم يكن قد أخبر أحدًا بعد. لم يخبر أيًا من المؤمنين. حتى أبو بكر سيعرف بالأمر من خلال استهزاء المشركين كما سنرى لاحقًا.. لماذا اختار عليه الصلاة والسلام هذه الطريقة في طرح ما حدث معه؟

لعله فضل أن يكون الأمر هكذا، أن يكون وحيدًا بلا أي سند من المؤمنين، لعله يريد أن يؤكد أن التجربة التي مر بها قد جعلته يتخطى تمامًا الحاجة للبوح والسند.. ها هو اليوم بعد الإسراء أصبح أقوى من أي وقت مضى..

كان رد الفعل عنيفًا فعلًا وكما توقع عليه الصلاة والسلام، ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام كان صادمًا وغير متوقع.. والناس كانت بين مصفق استهزاءً وبين من وضع يده على رأسه تعجبًا مما سمع..

---

(١) السلسلة الصحيحة ٣٠٢١.

ليس هذا فقط، بل لقد صح عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن هناك ممن آمنوا به وصدقوه ارتدوا هنا[١]، بل وقد بقوا على ارتدادهم وحاربوا في بدر مع المشركين وقتلوا حالهم حال أبي جهل[٢]!

تخيلوا أن هناك مسلمين، كانوا قد آمنوا في مكة، في العشر سنوات الأولى من البعثة، وسط كل ما عاناه مسلمو مكة آنذاك، ولكنهم عندما وصلوا حادثة الإسراء.. توقفوا... ورجعوا الطريق، ارتدوا..

ليس هذا فقط، بل تحولوا إلى حرب المسلمين، وبعد خمس سنوات تقريبًا خرجوا مع قريش للقضاء على الإسلام علمًا أنه لم يكن هناك تجنيد إجباري آنذاك، أي أنهم خرجوا بملء إرادتهم!

تخيلوا...

لكن لماذا؟ لماذا كان الأمر صادمًا لهذه الدرجة..

نحن طبعًا لُقِّنَّا الإيمان بالأمر، ولم يكن لدينا خيار، لكن تخيلوا أننا لا نزال في مكة وفي تلك الفترة، الأمر ليس سهلًا... الرسول عليه الصلاة والسلام كان يدرك ذلك تمامًا وقاله..

مرة أخرى.. لماذا؟

لسبب بسيط..

طيلة العشر سنوات السابقة من البعثة، لم يكن هناك حدث واحد خارق للطبيعة قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام أنه حدث له، لا معجزات بالمعنى المادي للكلمة كما حدث مع بقية الأنبياء... كل شيء كان «عقلانيًا» إلى حد بعيد..

ثم تأتي هذه الحادثة، ولا يرونها أصلًا..

لهذا كان الامتحان...

وهو امتحان لنا أيضًا.. امتحان مستمر...

كثيرًا ما نحاول أن «نعقلن» الإسلام، وليس هذا خطأ في رأيي لأن الإسلام ونصوصه الثابتة فيها ما يساعد في ذلك، وأنا من المتهمين بذلك في أوساط تعتبر الأمر «تهمة»، لكن هذه العقلنة يجب أن يكون لها حدودها وتوازناتها.. ما دمنا نؤمن أنه دين.. ونؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالحساب (مهما اختلفنا في تفاصيل ذلك) فعلينا أن نتقبل ونقر بوجود بُعد غير خاضع للعقل.. بُعد لا يمكن عقلنته لأننا لو وصلنا لهذا الأمر صار الدين بلا لون ولا طعم ولا رائحة..

---

(١) السلسلة الصحيحة ٣٠٢.

(٢) مسند أحمد ٣٥٤٦ وصححه الألباني.

نعم البعد اللاعقلاني في الإسلام ضيق وهو أضيق بكثير مما هو في بقية الأديان، لكنه موجود.. وعندما أقول لا عقلاني فأنا أقصد أنه غير خاضع للعقل، ولكنه ليس مضادًا له بالضرورة، وهذا موضوع آخر تمامًا ويعتمد على تعريفنا للعقل ومفهومنا له.

هناك محاولات كثيرة لإخراج حادثة الإسراء والمعراج من هذا البعد بأقوال مختلفة، مثل أن الموضوع كان منامًا أو أن المسجد الأقصى ليس في بيت المقدس ولكن قرب الطائف، وكلام من هذا النوع..

لو كان الأمر منامًا، فأين سبب الصدمة والاستهزاء والسخرية والردة التي حدثت؟

يمكن لأي منام أن يحدث مهما كان غرائبيًا.. ولا يسبب عندما يرويه صاحبه أي رد فعل...

* * *

أبو بكر جاء بجوهر الأمر وباختصار وبساطة.

قال ببساطة:

«إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة[1]»

إذا كنا نصدق حقًا أنه وحي من السماء...

فالأمر لا يقل غرابة..

وهو بالتأكيد لا يخضع للعقل كما نعرفه..

* * *

قد يطرح سؤال هنا: لماذا الحديث هنا عن الإسراء والمعراج، مختلف عن «انشقاق القمر»؟ لم كان الأمر هناك باتجاه إنكار الوقوع المادي، والأمر هنا باتجاه الإثبات التام؟

في رأيي المقارنة أصلًا ظالمة لعدة أسباب.

أولًا- حادثة الإسراء ذكرت في النص القرآني بوضوح غير قابل للتأويل. بينما انشقاق القمر ورد في صيغة مستخدمة كثيرًا للدلالة على يوم القيامة.

ثانيًا- الأحاديث التي ذكرت حادثة الإسراء والمعراج كثيرة وأكثر بكثير من أحاديث انشقاق القمر (رغم أن الحادث الثاني أمر يفترض أن يكون مشاهدًا) ومن روى الحادثة ممن كان حاضرًا هو عبد الله بن مسعود فقط بينما البقية نقلوا عنه، أما أحاديث الإسراء فهي متواترة بمجموعها، ومن الصحابة الذين رووها أنس بن مالك، بريدة بن الحصيب الأسلمي، جابر بن عبد الله، حذيفة بن

(١) السلسلة الصحيحة ٣٠٦.

اليمان، سعد بن مالك بن سنان (أبو سعيد الخدري)، شداد بن أوس، عبد الله بن عباس، أبو هريرة، عائشة أم المؤمنين، أم هانئ بنت أبي طالب، أبو بكر الصديق، أنس بن مالك، أبو ذر الغفاري، مالك بن صعصعة، أبي بن كعب[١].

ثالثًا- أحاديث الإسراء والمعراج فيها الرسول عليه الصلاة والسلام يروي الأمر تفصيلًا، بينما أحاديث انشقاق القمر تروي الحادثة والتعليق الوحيد للرسول عليه الصلاة والسلام كان «اشهدوا».. أي أنه لم يقل هذا انشقاق للقمر.

رابعًا- انشقاق القمر له تبعات (مادية) على كوكب الأرض من فيضانات وعواصف وأعاصير... وهي أمور لم تحدث ولم يذكر قط أنها حدثت، أما حادثتا الإسراء والمعراج فلا تبعات لها خارج ما يخصه عليه الصلاة والسلام.

* * *

فلننتبه هنا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فيما قاله لأبي جهل ومن ثم لقريش في اليوم التالي كان يخص الإسراء فقط، أسري به إلى بيت المقدس، ولم يقل شيئًا عن المعراج، وليس من المطلوب منه أن يقول كل شيء..

هل اكتفى عليه الصلاة والسلام بالحديث عن الإسراء جسًا للنبض؟

أم لأن طبيعة المعراج مختلفة؟

أم للسببين معًا؟

* * *

لكن لماذا تحدث الرسول عليه الصلاة والسلام أصلًا عن الأمر؟

لا نعرف أمرًا واضحًا وجه له بالحديث عن التجربة، والآية الكريمة ذكرت الأمر ولكن دون أي تفصيل.

وهو كان يعرف أن الأمر سيكون له عواقبه..

فلماذا قال؟ ولماذا فورًا؟ في اليوم التالي؟

غالبًا لأنه أراد للعواقب أن تحدث.

---

(١) العقائد السلفية بأدلتها العقلية والنقلية الجزء ٢ صفحة ١٥٧.

من لم يصدق به ممن آمن سابقًا يمكنه أن يرتد الآن. أمامنا طريقٌ صعب وأصعب مما كان سابقًا. ومن المهم أن نعرف من سيكون معنا حقًا.

وقد كان.

* * *

فلننتبه هنا إلى عدة أمور في تفاصيل حادثة الإسراء والمعراج:

أولًا- الأنبياء الذين التقى بهم، هناك أنبياء آخرون ذكروا أكثر في القرآن الكريم ولم نرهم هنا، بينما نرى إدريس الذي ذكر اسمه مرة واحدة فقط، حتى يحيى وهارون لم يأخذا مساحة كبيرة بينما هناك أنبياء آخرون غابوا عنها..

من هؤلاء الأنبياء: نوح، لوط، صالح، هود.

وكلهم لديهم مساحة أكبر من إدريس أو يحيى أو هارون، عليهم السلام أجمعين.

ما الأمر هنا؟ لو قيل أن كلهم من نسل إبراهيم عليه السلام لاختلف آدم وإدريس عن ذلك، لأنهما سبقا إبراهيم عليه السلام أجمعين..

الغالب والله أعلم أن هؤلاء الأنبياء الذين التقى بهم هم الأنبياء الذين لم تنتهِ قصصهم بهلاك أقوامهم.

بينما الأنبياء الذين غابوا انتهت قصصهم مع أقوامهم بالعذاب بأشكال مختلفة.

كما لو أن الرسالة للرسول الكريم هي أنت مع هؤلاء.. أنت مع من لن تنتهي قصصهم بإهلاك أقوامهم..

ثانيًا- أنه عليه الصلاة والسلام هنا، بينما هو يتدرج في السماوات، فهم أن مكانته ستكون هي الأعلى بين كل هؤلاء الرسل، خاصة أنه أمهم وصلى بهم، كما لعله فهم هنا أنه سيكون الخاتم بينهم (الآية التي وضحت ذلك مدنية)، أي أنه يحمل مسؤولية الفرصة الأخيرة للبشر مع رسالات الله المباشرة.

ثالثًا- الصلوات الخمس، مرحلة جديدة مقبلة للمسلمين، فيها الصلاة أصبحت «فرضًا» بعدد محدد وأوقات محددة.

مرحلة جديدة إذن، قوامها التنظيم والالتزام، وهو أمر سيهذب الطبيعة البشرية ويروضها، ويساهم في متطلبات مرحلة مختلفة تمامًا.

رابعًا- تشبيهه عليه الصلاة والسلام للأنبياء برجال يعرفهم (موسى لرجال قبيلة شنوءة، عيسى لعروة بن مسعود الثقفي وإبراهيم له هو شخصيًا) هذا التشبيه كان له هدف هو كسر الحاجز الذي ربما يمكن أن يكون موجودًا بينه وبين بقية الأنبياء الذين تتنزل قصصهم عليه بالتدريج.

الآن هذه القصص لها وجوه تشبه وجوهًا يعرفها، وهذا يسهل التفاعل معها حتمًا.

خامسًا- أن النقاش حول ما إذا كانت الرؤيا رؤية عين أم منامًا ليس نقاشًا مستحدثًا، فقد ثبت عن ابن عباس أنه قال أنها رؤية عين[1] مما يدل أنه كان هناك نقاش عن الأمر، لكن النقاش لم يكن عن الإسراء إلى بيت المقدس، بل عن المعراج والحوادث فيه.

بمعنى آخر: الإسراء كان بالجسد والروح.

المعراج كان ببعد آخر تمامًا، بعد يتجاوز أبعادنا المادية المعروفة، وبالتالي حديث الروح والجسد لا محل له هنا...

أو.. هذا ما أراه يتسق مع كل ما سبق... والله أعلم.

* * *

المؤكد أن مرحلة الإسراء قرآنيًا كانت مختلفة تمامًا عما قبلها.

خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من تجربة الإسراء والمعراج وهو أقوى وبطاقة مختلفة وعلى نحو يستوجب التوقف.

قبل الإسراء، نزل الوحي بـ٤٩ سورة في عشر سنوات، من ضمنها سنوات فتور الوحي.

علمًا أن هذه السور تضم الكثير من قصار السور.

بعد الإسراء، نزلت ٣٧ سورة في ثلاث سنوات فقط، من وقت الإسراء في السنة العاشرة للبعثة إلى الهجرة، ولا يوجد منها سورة واحدة من قصار السور.

هذا المعدل المختلف، المتسارع، ما كان يمكن أن يحدث لولا أنه عليه الصلاة والسلام قد شهد تغييرًا كبيرًا على المستوى الشخصي مكنه من تحمل هذا الحمل الثقيل كما وصفته سورة المزمل.

تغيير أحدثته تجربة الإسراء والمعراج.

* * *

على قمة العالم يقف، يقولون، وهم يصفون شخصًا ناجحًا أو حقق نجاحًا كبيرًا وتفوقًا وتميزًا دنيويًا ملحوظًا.

---

(١) صحيح البخاري ٣٨٨٨.

لكنه عليه الصلاة والسلام تجاوز قمة العالم بكثير.

ذهب إلى سدرة المنتهى.. هناك حيث أعلى نقطة يمكن لبشر رسول أن يصل.

لكنه لم يبق هناك.. بل وصل ليتقوى وينزل مجددًا إلى الأرض.

حتى السورة، سورة الإسراء، افتتحت بخبر إسراء الرسول عليه الصلاة والسلام، في آية واحدة، ثم انتقلت مباشرة إلى صراع بني إسرائيل مع النفس البشرية..

وإلى النسخة الإسلامية من الوصايا العشرة (الآيات ٢٣- ٣٩)*...

كما لو كان الأمر يقول، لا يمكن أن نبلغ أصلًا مراتب عليا، دون أن نحقق هذه الأساسيات أولًا.

* * *

الإسراء والمعراج امتحاننا نحن..

كان رحلة للرسول عليه الصلاة والسلام.. لكنه رحلة مستمرة لنا أيضًا، نرحل فيها إلى مكة في السنة العاشرة للبعثة..

هل كنا سنصدق بما قال...

أم كنا مع الذين قتلوا مع أبي جهل...

* التوحيد، بر الوالدين، إيتاء الحقوق أصحابها، عدم التبذير وعدم البخل، عدم القتل إلا بحق، عدم الزنا، الوفاء بالكيل، وعدم الاتباع من غير علم، وعدم التكبر.

الطريق إلى الخطة ب

مكة، بعد الإسراء.

العالم الداخلي للرسول عليه الصلاة والسلام صار أقوى وأكثر صلابة بعد رحلة الإسراء والمعراج، كذلك وعيه بدوره ومكانته بين الرسل.

لكن العالم الخارجي، لم يكن بنفس المستوى.

مكة الآن صارت أشد وأصعب. أبو لهب، سيد بني هاشم الجديد، رفع حمايته عنه وصار يشارك قريش علنًا في الإساءة له..

وحادثة الإسراء جعلت البعض يرتد عن الإسلام. صحيح أنه عدد قليل لم نعرفه بالضبط، لكن عدد المسلمين لم يكن يحتمل الخسارة- وإن كانت المرحلة القادمة تتطلب نوعية أعلى، وليس عددًا أكبر.

ولا نعرف من أسلم في هذه المرحلة. كل من كان يملك ما يجعله متقبلًا للإسلام أسلم فعلًا خلال العشر سنوات السابقة، خاصة بعد إسلام عمر... ولكن الآن، لا جديد.. على الأقل لا نعرف عن ذلك...

الوضع «الخارجي» في مكة، في هذه المرحلة، لم يكن لصالحه عليه الصلاة والسلام على الإطلاق...

* * *

في هذه الأجواء نزلت ثلاث سور متتابعة، وترتيبها في القرآن -وهو ترتيب توقيفي- جاء متتابعًا أيضًا، كترتيب نزولها.. وهو أمر نادر ولا بد أن ذلك قد حدث لحكمة، كما لو أنه لتنبيهنا لهذا الترتيب وأهميته..

السور التي نزلت كانت بعد الإسراء، وترتيبها حسب النزول هو ٥١، ٥٢، ٥٣...

السور هي:

يونس، هود، يوسف.

نزلت بهذا الترتيب في تسلسل الوحي، وهي بهذا الترتيب في القرآن الكريم..

ليس هذا وحده ما يميز هذه السور المتسلسلة.. بل هي أيضًا تنتهي بسورة يوسف وهي السورة الوحيدة في القرآن التي تتكلم من بدايتها إلى نهايتها عن قصة نبي، من البداية إلى النهاية، بينما تأتي كل قصص الأنبياء الآخرين في سور متفرقة..

هود ويونس كانتا مليئتين بقصص عذاب الأقوام التي كذبت رسلها.

ثم جاءت سورة يوسف.

مختلفة جدًا.

هنا لا عذاب في نهاية السورة، لا عذاب في خاتمة الأحداث..بل نجاح، ووصول إلى أعلى المراتب في أرقى حضارات الزمان...

ليس هذا فقط..

بل صلح مع الأخوة الذين تآمروا عليه..

وهناك قال لهم ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف (٩٢)

تراه فكر بقريش التي عادته وحاربته..

تراه فكر أنه يمكن أن يقف معهم مثل موقف يوسف مع أخوته ويعفو عنهم ويقول لا تثريب عليكم..

كان عليه الصلاة والسلام بالتأكيد يفضل هذا..

ولعله تفحص آيات سورة يوسف وهو يبحث عن علامات التشابه والاختلاف... لعله تفحص البئر، ورأى فيها ملخصًا لما حدث معه في أحيان كثيرة... لعله رأى حصار الشعب في سجن يوسف...

وعندما تفحص السورة بحثًا عن علامة فارقة وجدها حتمًا.

لقد نجح يوسف في مكان آخر... في بيئة أخرى غير بيئته...

كانت الرسالة واضحة له عليه الصلاة والسلام..

عليه أن يحاول في مكان آخر..

* * *

وفي نفس الفترة تقريبًا، مرحلة ما بعد الإسراء، ذهب عليه الصلاة والسلام إلى الطائف.

صدفة؟

لا، قطعًا لا.

كان الطريق إلى خارج مكة، يبدأ بسورة يوسف.

وكانت الطائف هي المحطة الأولى.

* * *

والطائف مدينة تبعد حوالي ٩٠ كيلومترًا جنوب مكة، وتعتبر أيضًا المنافسة التاريخية لها بين الحواضر في الجزيرة العربية، وتقع في منطقة ترتفع عن سطح البحر ١٧٠٠- ٢٢٠٠ متر، وقد منحها هذا مناخًا مختلفًا عما يحيطها من الجزيرة ومكن لها الزراعة وعمليات تصنيع مرتبطة بها مثل تجفيف الفواكه، كما جعل هذا الطبيعة الاجتماعية في الطائف مختلفة، متقبلة للحرف اليدوية والعمل الزراعي على العكس من أهل مكة مثلًا... وكان أهل الطائف يحسنون بناء بيوتهم على نحو أكثر تطورًا من مكة وسواها، وهي المدينة الوحيدة في الجزيرة العربية التي حصنت بسور يحيط بها[1].

وكان أهل الطائف يتنافسون مع أهل مكة تجاريًا بالأساس، ونتج عن ذلك التنافس التجاري تنافس «ديني» لجذب الحجاج، فكان في الطائف معبد للات يسمونه «بيت الربة» وكانوا يريدون منافسة الكعبة به[2]..

وقد تمكنوا من تغيير طرق التجارة فعلًا وقت سيطرة الفرس على اليمن حيث أخذت قوافل اليمن تمر بالطائف بدلًا من مكة لكن أهل مكة قاموا بإقراض أهل الطائف الأموال لزيادة تجارتهم، كما قاموا بشراء الأراضي فيها ليكونوا شركاء في ازدهار الطائف.

ويتهم أهل الطائف بالتعاون مع أبرهة الذي كان يرغب في هدم الكعبة، وكان هذا التعاون يحقق هدفين: ينجيهم هم من أبرهة وجيشه، ويهدم الكعبة التي كانت مركز جذب تجاري لمكة على نحو يجعل الطائف في مكانة أعلى، وقصة أبي رغال* الذي كان دليلًا لأبرهة في الطريق إلى مكة قصة ربما تكون دخلتها الكثير من الإضافات التي تعبر عن طبيعة العلاقة التنافسية- المتأزمة بين المدينتين.

وكانت قبيلة ثقيف تسيطر على الطائف وتسودها، ومن أهم الشخصيات التي تنتمي لها: أمية بن أبي الصلت الشاعر الموحد قبل الإسلام، والحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور صاحب بعض الحكم الطبية التي تنسب أحيانًا للرسول عليه الصلاة والسلام: مثل المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء.

هذه هي الطائف إذن..

مدينة منافسة لمكة.. وثقيف منافسة لقريش..

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء الثالث ص ١٥١-١٥٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ١١ صفحة ٢٣١.

* رمز الخيانة عند العرب، وكان يشاع أنه من ثقيف، وصار قبره يرجم لكونه دليل أبرهة في الطريق إلى مكة.

وهذا يجعل اختيارها مناسبًا.

كما أنه يجعل هذا الاختيار مغضبًا لقريش، أنت تذهب إلى منافسينا.

* * *

ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام يعرض على أهل الطائف وسادتها الإسلام.

ذهب وحيدًا تقريبًا، لم يكن معه أحد غير ابنه بالتبني زيد بن حارثة، وكان وقتها لا يزال زيد بن محمد.

يمكن لنا أن نتساءل عن السبب الذي لم يجعله يأخذ معه بعض أصحابه ممن كانوا يعتبرون من المؤثرين والمهمين في قريش.. أبو بكر، عمر، حمزة مثلًا..

لكن سؤالًا كهذا يعني أننا لم نستوعب بعد دقة الوضع وصعوبته في مكة.

رحلته عليه الصلاة والسلام إلى الطائف كانت سرية تقريبًا. أو حاول هو أن تكون كذلك قدر الإمكان..

الخروج بوفد من المسلمين ما كان يمكن أن يبقى سريًا... وكانت قريش ستعرف مبكرًا على نحو يجهض الرحلة قبل أن يتمكن عليه الصلاة والسلام من عرض ما عنده على أهل الطائف، وكانت ستزيد أذاها لو عرفت برحلته إلى الطائف...

* * *

قال ابن إسحاق:

وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْأَذَى مَا لَمْ تَكُنْ تَنَالُ مِنْهُ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الطَّائِفِ، يَلْتَمِسُ النُّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ، وَالْمَنَعَةَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَرَجَاءَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[1]..

... ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليالٍ بقية من شوال سنة عشر من حين نبئ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه[2]

ثم عَمَدَ إلَى نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، هُمْ يَوْمَئِذٍ سَادَةُ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافُهُمْ، وَهُمْ إخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ: عَبْدُ يَالِيلَ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عُقْدَةَ بْنِ غِيَرَةَ بْنِ عَوْفِ

(١) سيرة ابن هشام ت السقا الجزء الأول ٤١٩-٤٢٠.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي المقدمة صفحة ٦٦.

بْن ثَقِيف، وَعِنْدَ أَحَدِهِمْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْش مِنْ بَنِي جُمَح، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الله، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَام، وَالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ:

هُوَ يَمْرُطُ* ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إنْ كَانَ اللهُ أَرْسَلَكَ.

وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا وَجَدَ اللهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ!

وَقَالَ الثَّالِثُ: وَاَللهِ لا أُكَلِّمُكَ أَبَدًا. لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنْ الله كَمَا تَقُولُ، لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ الْكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْتَ تَكْذِبُ عَلَى الله، مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمَكَ.

فَقَامَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَقَدْ يئس من خبر ثقيف، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ: إِذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي. وَكَرِهَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ عَنْهُ، فَيُذْئِرَهُمْ (فيثيرهم) ذَلِكَ عَلَيْهِ.

فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ، يَسُبُّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَأَلْجَئُوهُ إلَى حَائِطٍ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَهُمَا فِيهِ، وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ مَنْ كَانَ يَتْبَعُهُ، فَعَمَدَ إلَى ظِلِّ حَبَلَةٍ مِنْ عِنَبٍ، فَجَلَسَ فِيهِ. وَابْنَا رَبِيعَةَ يَنْظُرَانِ إلَيْهِ، وَيَرَيَانِ مَا لَقِيَ مِنْ سُفَهَاءِ أَهْلِ الطَّائِفِ.[1]

فلننتبه هنا إلى بعض الأمور...

الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المرة يحدث أشخاصًا غرباء، لا يعرفهم ولا يعرفونه، وبالتالي فهم أمام شخص لم يعرفوا صدقه وأمانته كما كان الأمر في مكة مع مشركي قريش.. وهذا يجعل الأمر بالنسبة له أصعب بكثير، مع مشركي قريش كان يمكن أن يسألهم ببساطة: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»[2] فيردون: «نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا»[3] بناء على رصيد التجارب السابق معه.

* يمرط أي ينزع.

(١) سيرة ابن هشام ت السقا الجزء الأول صفحة ٤١٩-٤٢٠.

(٢) صحيح البخاري ٤٧٧٠.

(٣) صحيح البخاري ٤٧٧٠.

هنا لا تجارب تسمح له بطرح السؤال، ربما كان بعضهم قد سمع به من قبل، لكن الأمر مختلف جدًا عن المعرفة الحقيقية، ومع عشر سنوات من تشويه السمعة من قبل قريش... الأمر أصعب جدًا.. ولا يشبه الأمر حديثه سابقًا مع من كان يأتي مكة في الحج أو التجارة، القادم إلى مكة هو من جاء، ومحمد بين قومه، ويمكن أن يسأل عنه ويعرف عنه بكل سهولة.

هنا الرسول الكريم يذهب إلى ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه، وهو لا يدعوهم إلى الإيمان به وبما يدعو إليه فقط، بل يدعوهم أيضًا إلى أن يقدموا له الحماية والمنعة.

لعشرة أيام وهو يفعل ذلك، وكان في الخمسين آنذاك، يذهب إلى أشراف القوم وسادتهم، ويقول لهم أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله إليكم، آمنوا بي وتخلوا عن دين آبائكم وعن أصنامكم، وأعطوني الحماية...

لعشرة أيام وهو يفعل ذلك...

هل يمكننا أن نتخيل صعوبة الأمر وحرجه بالنسبة لشخص كريم عزيز النفس مثله عليه الصلاة والسلام؟ هل يمكننا أن نتخيل ثقل أن تعرض ما تحمل على من لا يقدرك حق قدرك، ولا يعرف مكانتك السابقة بين قومك، وأنت الآن طريد مرفوض منهم.

لا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كان قد وصل إلى مرحلة قصوى من إنكار «الأنا» في داخله، لا يمكن أن يتحمل كل هذا إلا إذا كان قد روض «الأنا» على النحو الذي يجعلها تتحمل كل هذا...

هل حدث الأمر في شق الصدر ليلة الإسراء، يوم طهر قلبه؟ أم ترك الأمر لكي يتطهر بنفسه عبر السنوات العشر، ومن ثَمَّ جاءت هذه الأيام العشرة لينهي كل ما يمكن أن يكون قد بقي من ذلك.

تخلص من أناه، ليس عنده أي شيء سوى ما يحمله من رسالة.

لعشرة أيام، يفعل ذلك، ويجد الرفض والصدود والسخرية. ويحتمل.

ثم يذهب، في نهاية رحلته على ما يبدو، إلى الأخوة الثلاثة، ويبدو أنه فضل أن يؤجل دعوته لهم لأن زوجة واحد منهم من قريش من بني جمح (عشيرة أمية بن خلف، المشاركة في حلف الأحلاف ضد حلف المطيبين، أي ضد عشيرته) ولعله كان يأمل -حتى تلك اللحظة- أن لا يتسرب الخبر إلى قريش... ولم يرغب في أن تسربه المرأة الجمحية.

يتناوب الأخوة الثلاثة في الرفض الساخر. فيطلب منهم عليه الصلاة والسلام في أن «يكتموا عنه» على الأقل، أي أن لا ينشروا خبر أنه جاءهم... كي لا يزيد الأمر صعوبة مع قريش..

لكنهم يتصرفون على نحو أسوأ، فيوعزون لعبيدهم وصبيانهم بسبه وتوجيه الإهانات له.. وكما يفعل قطيع البشر دومًا، عندما يرى من يستضعف وتوجه له إهانات ولا يستطيع ردها، زاد عدد من يفعل ذلك، وتكاثر الناس عليه، وصاروا يركضون خلفه في شوارع الطائف وكما يفعل القطيع

دومًا.. كانوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه، وكان زيد يقيه بنفسه فشق رأسه[1].. ولا بد أن القطيع كان يضحك ويسخر بينما يحدث ذلك...

ثم يلتجئ إلى بستان يملكه قريشيان في الطائف، عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، عتبة بن ربيعة -أبو هند زوج أبي سفيان، وأبو حذيفة أحد مهاجري الحبشة- وكان عتبة وشيبة جالسين في بستانهما.. وكانا ينظران إلى ما يحدث عن بعد. لا نعرف أنهما شاركا بشيء أو أظهرا أي شماتة.

لكنه عليه الصلاة والسلام تيقن الآن أن الأمر واصل لقريش.. بل هو وصل عيانًا لواحد من أهم ساداتها...

يا لقلبك يا محمد. يا لقلبك يا ابن عبد المطلب. يا لقلبك أيها الصادق الأمين.. يا عزيز القوم.. كيف مر على قلبك كل هذا؟ ماذا كنت تشعر في داخلك؟ عشر سنوات من الرفض في مكة كانت صعبة، لكن عشرة أيام في الطائف كانت أصعب منها بكثير.

ورقة حذرك منذ البداية.. منذ اليوم الأول.. لكن علمك المسبق بما قد يحدث لا يشبه أبدًا أن تمر به...

عليك الصلاة والسلام، بم كنت تفكر؟

* * *

بم كان يفكر؟

كان يدعو الله...

يقال أنه صلى ركعتين في ظل شجرة... ثم قال هذا الدعاء مذهل الأبجدية عميق البوح...

«اللهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي..

وَقِلَّةَ حِيلَتِي...

وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ...

أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ..

إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟

إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي

أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي

(١) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٦٥.

إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانًا عَلَيَّ، فَلَا أُبَالِي

إِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي

أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ

لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ[1]»..

مر الملايين على هذا الدعاء، ربت على أكتافهم المنهكة واحتوى دموعهم المكبوتة وقدم لهم منديلًا يمسحونها به، صار دعاء كل عزيز قوم ذل، وكل من تقطعت به السبل، وتغلقت بوجهه الأبواب، ولم ترد على رقم هاتفه هواتف من يمكن أن يمد له يد العون.

كل أولئك المكلومين المجروحين المتكبرين على جراحهم، الذين تمنعهم عزة أنفسهم من أن يظهروا قروح الدمع تحت أقنعة التماسك التي يضطرون لارتدائها طيلة الوقت، كل مكسوري القلوب الذين يصرون أن هذا الكسر سيلتئم مع الوقت، دون ضماد، دون جبيرة، سيجدون أنفسهم في الدعاء، سيصمدون عند «ضعف قوتي»، ويحاولون التماسك مع «قلة حيلتي» لكن غالبًا «هواني على الناس» ستضغط على زر ما في أعماقهم.. وتنهمر الدموع إلى حيث الشمس والوجه الحقيقي كما لم تفعل من قبل..

عند الفواتير المتراكمة، وصاحب البيت يدق الباب يريد إيجار، وأمر المحكمة بالإخلاء، ولا بديل لها ولليتامى الذين عندها غير الشارع، صبيحة النطق بحكم تعرف سلفًا بأنه ظالم على جريمة لا تعرف عنها شيئًا.. عند النصيب الواقف والحال الواقف والخاطب الذي لا يجيء، وكل من أصغر منها تزوج وأنجب وهي لا تزال تنتظر من لا يجيء.. عند مشاعر أمومة مضطرمة مع كل طفل يمر.. عند أب انصرف عنه جميع أولاده، لا يلوم ولا يعتب، بل يتبرع بالأعذار لكل من يسأل عنهم.. ولكن.

عند باب المشرحة، قبل أن تفتح.. عند نظرات الشماتة.. وسؤال بارد اللؤم لمعتقلة خرجت للتو: كم مرة اغتصبوك؟

عند غرباء المنافي والقارات السبعة.. الغربة صعبة ولكن العودة إلى الوطن أصعب.. عند ذلك الشعور المزمن بأنك ستموت غريبًا في بلاد غريبة، وستكون محظوظًا لو وجدت من يصلي عليك.

ضعف قوتي.

وقلة حيلتي.

وهواني على الناس يارب. هواني على الناس. هواني على الناس.

* * *

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٨١.

سند هذا الدعاء لم يصح.. وما لم يصح لا يعني أنه لم يحدث.. فقط إن إثباتات أنه قاله ليست كافية.

والدعاء لغويًا ينضح بأسلوبه في الكلام... وبعمق التجربة التي مر بها...

* * *

وما لم يثبت أيضًا قصة عداس.. التي فيها أن عتبة وشيبة بن ربيعة لما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام يستريح بعدما حدث له، تحركت «رحمهما» تجاهه (جدهما عبد شمس هو شقيق هاشم جد النبي) فأرسلا غلامًا لهما هو عداس بقطفة عنب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ يَدَهُ، قَالَ:

بِاسْمِ اللهِ، ثُمَّ أَكَلَ، فَنَظَرَ عَدَّاسٌ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاَللَّهِ إنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ، وَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: نَصْرَانِيٌّ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، فَقَالَ لَهُ عَدَّاسٌ: وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكَ أَخِي، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ، فَأَكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ[1]..

القصة لم تصح للأسف! وما لم يصح لا يعني أنه لم يحدث... ولكن وجب التنبيه...

* * *

ما حدث في الطائف، وصفه الرسول لاحقًا بكونه أشد أيام حياته.

سألته السيدة عائشة، إن كان قد لقي يومًا أشد من يوم أحد..

فقال لها أنه قد لقي ما لقي، ومن أشد ما لقي كان ما حدث في الطائف[2]...

عن عائشة أنها قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي،

---

(١) سيرة ابن هشام ت السقا الجزء الأول صفحة ٤٢١.

(٢) صحيح البخاري ٣٢٣١.

فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1]

يمكن أن نلاحظ بقايا الألم والمرارة في «عرضت نفسي» على ابن عبد ياليل...

ثم حدث ما حدث... فترك الطائف يسير مهمومًا يمشي دون أن ينتبه إلى الطريق حتى وصل قرن الثعالب*، وهي منطقة تبعد الطائف بكيلومترات بعيدة.

الملك يعرض عليه أن ينهي الأمر كما انتهت قصص الكثير من الأنبياء...

يعطيه الخيار...

(ربما هو اختبار.. لا نعرف)..

لكنه عليه الصلاة والسلام قد خرج من مكة، بحثًا عن خيار آخر... خرج لأنه لا يريد لمكة أن تصبح كمدين وكعاد وثمود...

لا.. لا يريد هذه النهاية...

لعل يأتي جيل آخر منهم.. يكون مختلفًا...

وقد شاء الله أن يكون الأمر أقرب مما قال عليه الصلاة والسلام..

* * *

ودارت الأيام، كما تفعل دائمًا، وبعد زمن غير بعيد التقى الرسول عليه الصلاة والسلام بالمرأة الجمحية، زوجة واحد من أبناء عبد ياليل في الطائف الذين التقى بهم وطلب أن يكتموا عنه ولم يفعلوا..

التقى بها، ولم يزد أن قال لها: **مَاذَا لَقِينَا مِنْ أَحْمَائِكَ (أي أهل زوجك)؟**[3]

كل تلك المعاناة، أشد يوم في حياته، لم يعلق عليه غير بهذا السؤال، ولعله كان يبتسم ابتسامة حزينة لتلك الذكرى المرة..

كل المعاناة تخف.. كل الألم يزول.. كل شيء يمر ويصبح ذكرى في النهاية.

---

(١) صحيح البخاري ٣٢٣١.

* ميقات أهل نجد- تسمى أيضًا قرن المنازل وتبعد بحوالي ٥٥ كيلومترًا عن الطائف.

(٣) سيرة ابن هشام تحقيق السقا الجزء الأول صفحة ٤٢٠.

نبكي ونجهش بالبكاء عند «ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس»...
ثم تمر الأيام..
كله يمر...

* * *

ضيعت الطائف الفرصة النادرة من يديها...
ضيعت الفرصة التاريخية التي حملها الرسول عليه الصلاة والسلام..
كان يمكن للطائف أن تصبح هي «المدينة»...
وكانت تملك مقومات تبدو للوهلة الأولى أهم من مقومات يثرب...
لكنها ضيعت الفرصة.. إلى الأبد...

* * *

يا ترى لو كنا في الطائف... آنذاك.. أين سنكون؟
مع ابن عبد ياليل؟
مع صبية القطيع وهم يرشقونه عليه الصلاة والسلام بالحجارة؟
مع عداس؟
... أين يا ترى؟
هل ننصت للفرص وهي تدق على أبوابنا؟ هل ننتظرها أن تدق ثانية؟
هل ننتبه لفكرة جديدة فنستهزئ بها ونرفضها..
ثم نراها قد نجحت وسادت... ونقول... لو..
هل ننتظر من ساعي البريد أن يدق الباب مرتين وثلاثًا.. قبل أن نفتح له؟
ساعي البريد الذي يحمل الفرص النادرة... يدق الباب مرة واحدة فقط...

* * *

وَأَقَامَ (عليه الصلاة والسلام) بِنَخْلَةَ أَيَّامًا (وهي على بعد ليلة من مكة) فَقَالَ لَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ: كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ. يَعْنِي قُرَيْشًا. وَهُمْ أَخْرَجُوكَ؟
فَقَالَ: يَا زَيْدُ إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَى فَرَجًا وَمَخْرَجًا وَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ وَمُظْهِرٌ نَبِيَّهُ.

ثُمَّ انْتَهَى إِلَى حِرَاءٍ.

فَأَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ إِلَى مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ: أَدْخُلُ فِي جِوَارِكَ؟[1]

دخول مكة أصبح خطرًا جدًا وقد عرفت قريش ولا بد أنه حمل الدعوة إلى الطائف... كان لا بد من وجود حماية عند الدخول...

إرسال رجل من خزاعة يمكن أن يكون له دلالته، فقد تحالفت مع عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام ضد قريش كلها.. وربما هنا رسالة ضمنية... هل ستتركوني إلى خزاعة لأتحالف معها؟ لدي هذا الخيار. أنا ابن عبد المطلب!

ومطعم بن عدي هو حفيد نوفل أخي هاشم جد النبي (أي أن عبد المطلب هو ابن عم مباشر لأبيه) وقد سبق أن ساهم في نقض صحيفة المقاطعة كما مر... لكنه في نفس الوقت نوفل الذي كان تنازع مع عبد المطلب وأدى إلى تحالف الأخير مع خزاعة، فالرسول عليه الصلاة والسلام باختياره شخص من خزاعة بالذات، يرسل إلى المطعم بالذات، يوحي لقريش أن خياراته تتعدى الطائف وتستحضر خزاعة التي كانت تسيطر على مكة إلى أن طردها قصي![*]

والرسالة الموجزة التي بعثها له تحمل قدرًا كبيرًا من كرامة النفس.. لا إطالة ولا تذكير بشيء من قرابة أو سابق مودة.. أبدًا.

أدخل في جوارك؟

إيجاز الرسول هنا يحمل قدرًا كبيرًا من أشياء كثيرة. هناك عزة نفس وهناك شجن وهناك صلابة ورباطة جأش وتماسك وهناك صبر وصل لحدوده العليا ولم يعد يحتمل المزيد.

وهناك هذا الوضوح الذي يجعله يمضي إلى ما يريد.

هل نتخيل أيضًا صعوبة طلب الجوار بالنسبة له؟ عزيز القوم وحفيد عبد المطلب يطلب الجوار. هل نتخيل كم هي مؤلمة هذه الجملة القصيرة التي بعثها.

أدخل في جوارك؟

ويأتي الرد...

(فَقَالَ: نَعَمْ.

وَدَعَا بَنِيهِ وَقَوْمَهُ فَقَالَ: تَلَبَّسُوا السِّلاحَ وَكُونُوا عِنْدَ أَرْكَانِ الْبَيْتِ فَإِنِّي قَدْ أَجَرْتُ مُحَمَّدًا.

---

(١) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٦٥.

[*] راجع المفاتيح/ المفتاح الرابع/ قصي.

فَدَخَلَ رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. فَقَامَ مُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَنَادَى: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ مُحَمَّدًا فَلا يَهْجُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ. فَانْتَهَى رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَانْصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ. وَمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَوَلَدُهُ مُطِيفُونَ بِهِ[1]).

دخل مكة..

كان الخبر قد وصلها بالتأكيد. مرت أيام على ما حدث في الطائف، وقريش غاضبة حتمًا.. خطوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت غير مسبوقة ومستفزة، صحيح أن الخطوة لم تؤت بما كان يريده عليه الصلاة والسلام، لكنها خطوة خطيرة على أي حال.. قريش كانت مستفزة وغاضبة، وتريد على الأقل أن تظهر الشماتة وتهين محمدًا عليه الصلاة والسلام، وربما أكثر... لا أشك أن أبا جهل -مثلا- كان يعتبر أن هذه هي اللحظة المناسبة للتخلص منه عليه الصلاة والسلام كان بلا حماية حتى اللحظة، كبير بني هاشم يشارك قريشًا في أذاها له، وسيبدو التخلص منه بالقتل وإحياء مطالبة قريش القديمة التي أدت إلى حصار الشعب -بعد الطائف- مبررًا جدًا.

دخل مكة، وبدلًا من أن يدخلها خائفًا يترقب كما هو متوقع، بدلًا من أن يتسلل تحت جنح الظلام ويذهب إلى دار مطعم حيث يعلن جواره له، ذهب إلى الكعبة، أمام الجميع، بوجه لا أشك برباطة جأشه.. لعل قريش كانت تتوقع ملامح انكسار أو هزيمة، لعلها كانت تريد أن تنقض عليه عندما ترى ذلك في وجهه، لكنه لم يمنحهم هذه الفرصة.. هناك كان مطعم بن عدي وأولاده ينتظرون وقد توشحوا سيوفهم، ويعلنها مطعم بن عدي أنه قد أجار محمدًا ويحذرهم من هجائه، أي أن حماية مطعم لم تكن من القتل أو التعرض للأذى الجسدي، بل شملت حتى التعرض للرسول بكلام مسيء.

وضع ذلك قريشًا أمام الأمر الواقع، فاتت فرصة التخلص منه عليه الصلاة والسلام.

انتهى إلى الركن اليماني في الكعبة وصلى هناك.. كان يتحداهم بعلاقته بربه، وكانوا يرون أنه لن ينكسر ولن يعطيهم فرصة الشماتة.

ركعتان في الكعبة، عند الركن اليماني.. بعد رحلة العذاب إلى الطائف، استمرت أسبوعين على أقل تقدير.

لا نعرف ماذا دعا في السجود... هل أعاد ذلك الدعاء.. أم أنه في مرحلة أخرى الآن..

وانصرف إلى بيته وهو بحماية مطعم وأولاده.

مطعم؟!

---

(١) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الأول صفحة ١٦٥.

هل هو «قريب ملكته أمري يا رب»؟

لكن.. حتى لو كان...

إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانًا عَلَيَّ، فَلَا أُبَالِي

إِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي

أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ.. أن تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى..

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ..

وأغلق الباب عليه.

صقور وحمائم عاد وثمود

في كل صراع يحدث بين طرفين، ثمة صقور وحمائم في كل طرف.

هذا أمر من طبيعة الأشياء.

والصقور والحمائم غالبًا يكون لديهم هدف مشترك. خلافهم دومًا يكون في طريقة الوصول لهذا الهدف.

الصقور يريدون استخدام القوة دومًا. الكثير منها. يريدون التدخل العسكري. لا يمانعون من خوض الحروب في سبيل تحقيق مآربهم، مهما كلف الأمر.

الحمائم يريدون الوصول إلى الهدف ذاته ولكن دون استخدام نفس القدر من القوة. يفضلون الضغط. التهديد. التلويح بالقوة. الإغراء.

في الغالب، الصقور صوتهم أعلى ويتمكنون من قيادة فريقهم نحو ما يريدون.

ولكن عندما لا تنجح طرقهم في الوصول إلى الهدف. يطل الحمائم برؤوسهم وهم يقولون: لقد أخبرناكم!

ويتولون إدارة الصراع.

* * *

هل كان في جبهة قريش المعادية للرسول عليه الصلاة والسلام صقور وحمائم؟

نعم بالتأكيد، كما في كل الصراعات الإنسانية.

رؤيتنا التي تصور الأمر بالأبيض والأسود قاصرة وتعجز عن رؤية طيف متدرج من العداء والرفض للرسول عليه الصلاة والسلام.

لم يكن كل كفار مكة نسخة من أبي جهل بالتأكيد.

ولم يكن كل أعداء الرسول عليه الصلاة والسلام يتعاملون معه بنفس الطريقة.

كلهم كانوا يريدون القضاء على دعوته بطريقة أو بأخرى.

لكن أساليبهم في الوصول لذلك كانت مختلفة، واختلافها هو التدرج، هو الفرق بين الصقور والحمائم.

* * *

يذكر المؤرخون سبعة وعشرين شخصًا[1] من أعداء الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة.

هؤلاء تصدروا وقادوا وبدت منهم العداوة على نحو جعل أسماءهم تذكر ضمن أسباب نزول الآيات... أي أن هؤلاء نزل فيهم قرآن يهددهم ويعلق على أفعالهم.

من بني هاشم: أبو لهب.

من بني المطلب بن عبد مناف: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب.

من بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي (أخو مطعم)، الحارث بن عامر بن نوفل.

من بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام بن الحارث، الأسود بن المطلب بن أسد.

من بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف (وهو ابن خال الرسول عليه الصلاة والسلام).

من بني عبد شمس: الحكم بن أبي العاص بن أمية، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، العاص بن سعيد بن أمية، عقبة بن أبي معيط.

من بني عبد الدار: النضر بن حارث بن علقمة بن كلدة.

من بني مخزوم: عمرو بن هشام أبو جهل، الوليد بن المغيرة، أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، زهير بن أبي أمية (ابن عاتكة عمة النبي عليه الصلاة والسلام)، هبيرة بن أبي وهب المخزومي.

من بني سهم: العاص بن وائل، الحارث بن قيس بن عدي، منبه ونبيه ابنا الحجاج بن عامر.

من بني جمح: أمية وأبي بن خلف.

من خزاعة: الحارث بن مالك (وقيل عمرو بن مالك) وهو ابن الطلاطلة، عدي بن الحمراء.

من المحالفين: الأخنس بن شريق وهو ثقفي محالف لبني زهرة.

* * *

وبنظرة سريعة، سنرى تناصفًا في جبهة العداء بين الحلفين: المطيبين والأحلاف.[؟]

اثنا عشر من كل حلف، وثلاثة من خارج الحلفين.

---

(١) إمتاع الأسماع- الجزء الأول صفحة ٤١-٤٢.

[؟] راجع المفاتيح/ المفتاح السابع/ حلف المطيبين وحلف الأحلاف.

العداء كان موزعًا على الجميع.

لكن أين تركز الصقور وأين تركز الحمائم؟

نستطيع أن ندقق في الأسماء قليلًا لنصل إلى ذلك.

يحدد حديث صحيح خمسة أسماء[1] شديدة العداء من ضمن المجموعة الأكبر للعداء أي بعبارة أخرى قائمة الصقور من ضمن جبهة الأعداء.

هذه الأسماء هي: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ المخزومي، وَالْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ الزُّهْرِيُّ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَالْحَارِثُ بْنُ عَيْطَلٍ السَّهْمِيُّ، وَالْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ.

ونستطيع أن نضيف اسم أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي، وأمية بن خلف الجمحي، لتكون قائمة الصقور مسيطر عليها من قبائل حلف الأحلاف (٥ مقابل ٢).

وأين الحمائم في جبهة الأعداء؟

هناك اثنان في القائمة مثلًا ساهما في نقض صحيفة المقاطعة (زهير بن أبي أمية من بني مخزوم وأبو البختري من بني أسد بن عبد العزى) والاثنان لهما قرابة بالرسول عليه الصلاة والسلام (زهير ابن عمته وأبو البختري قريب للسيدة خديجة).

هذان مثلًا من الحمائم بلا شك. واحد منهما ينتمي لعشيرة ضمن حلف الأحلاف والآخر لحلف المطيبين.

عتبة وشيبة ابنا ربيعة، أيضًا كانا ألين في موقفهما في الطائف رغم كل شيء، كانا ينظران دون مشاركة للغوغاء، وتقول الرواية أنهما أرسلا بقطفة عنب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

هذان ضمن الأعداء حتمًا لكنهما من الحمائم، وهما من عبد شمس، من ضمن حلف المطيبين.

ورغم أن اسم أبي سفيان بن حرب لم يذكر في قائمة الأعداء فإنه كان ضمن جبهة الأعداء بالتأكيد، وكان ضمن الحمائم حتمًا، ونعرف مواقف كثيرة له ضمن هذا الاتجاه، أبسطها موقفه عندما دعا عليه الصلاة والسلام على قريش **فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى أَكَلُوا الجُلُودَ وَالمَيْتَةَ وَالجِيَفَ، وَيَنْظُرَ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرَى الدُّخَانَ مِنَ الجُوعِ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ**

(١) السنن الكبرى للبيهقي ١٧٧٣١.

تَأْمُرُ بِطَاعَةِ الله، وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ لَهُمْ»[١].. وهو موقف ما كان سيفعله أبو جهل أو أمية أو العاص بن وائل تحت أي ظرف، ونعرف لاحقًا كيف سارت الأمور عندما قضت بدر على جناح الصقور، وقاد أبو سفيان الأمور إلى استسلام قريش بظروف مشرفة في فتح مكة.

* * *

ملخص ما سبق: العداء كان متوزعًا بالتساوي ضمن عشائر قريش بحلفي المطيبين والأحلاف.

لكن جبهة الصقور كانت أكثر ضمن حلف الأحلاف.

وجبهة الحمائم أكثر ضمن حلف المطيبين.

* * *

يعتبر المقريزي أن أعدى أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم، كانوا ثلاثة أشخاص، بناءً على طريقة تعاملهم معه عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء الثلاثة كانوا أبا جهل عمرو بن هشام، وعقبة بن أبي معيط، وأبا لهب[٢].

وقد مررنا على كل واحد من هؤلاء، وتوضح لنا احتمالية وجود «أسباب نفسية» خفية تفسر «شدة العداء» الذي يختلف عن العداء العادي، الرافض لعجزه عن التصديق أو لا مبالاته، أو لتمسكه بدين الأجداد.

لكن في رأيي ثمة اختلاف كبير بين عداء كلٍ من هؤلاء.

أبو جهل كانت مشكلته في أناه المتضخمة التي جعلته عاجزًا عن القدرة على تصور أن ثمة شخصًا أفضل منه، إقراره بأن الله اختار محمدًا ليكون رسولًا يعني مباشرةً أن محمدًا أفضل منه، وهذا ما عجز عن تقبله، أن يكون ثمة من هو أفضل منه، وأن يطيح هذا الأفضل بأحلام زعامة مكة التي كان يخطط لها.

داخل كل كافر ثمة أبو جهل صغير، يختلف حجمه بحجم الأنا التي يحملها والتي ترفض الرضوخ والإقرار بنبوة محمد، لأن هذا يعني ببساطة أن ثمة من هو أفضل منه، وثمة بشر لديهم أنا عملاقة لا تحتمل مجرد فكرة وجود شخص أفضل.. الكلام يخص كل الكافرين وليس فقط المعاصرين للرسول عليه الصلاة والسلام.. ولكن أبا جهل ربما وصل إلى نقطة عليا في هذا.

---

(١) صحيح البخاري ١٠٠٧.

(٢) إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع- المقريزي الجزء الأول صفحة ٤١.

عقبة بن أبي معيط كانت تحركه عقدة النقص والرغبة في أن يتقبله الناس ويحترموه ويرضو عنه، ولقد اكتشف أنه كلما أساء لمحمد فإن أشخاصًا معينين من قريش، ممن يرغب في الحصول على قبولهم له، سيرضون عنه، أو سيقبلونه بينهم.

أبو لهب ليس بعيدًا عن هذا بكثير، لقد ولد نتيجة تحالف أبيه عبد المطلب مع خزاعة ضد قريش، كان رمزًا للإذلال الذي لحق بقريش.. كبر وهو يشعر بذلك، وربما تحول الأمر معه إلى عقدة ذنب لم يقترفه هو ولكنه يعتقد أن عليه أن يكفر عنه، وعاش عمره يريد أن يثبت لقريش أنه مخلص لها وأن صفحة خزاعة طويت.. ولقد فعل ذلك فعلًا، بأكثر مما يحتاج بكثير.

بين هؤلاء، لا يمكن اعتبار أي منهم من ضمن الصقور إلا أبا جهل... أبو لهب وعقبة أساءا للرسول عليه الصلاة والسلام وبالغا في عداوته، لكن الصقر ليس مجرد «عدو فاجر أو سفيه».. وبالتحديد ليس عندما يكون عداؤه لإرضاء طرف آخر... كما في أبي لهب وعقبة.

بل هو قائد لفريقه. عداؤه نابع من داخله على نحو يقود الآخرين.

وهو ما لم يكن متوفرًا في عقبة أو أبي لهب.

وحده أبو جهل كان صقرًا بين هؤلاء.

لكن بدا أن جبهة الصقور كانت قد استنفدت فرصها في هذه الفترة..

جبهة الحمائم تريد أن تجرب فرصها...

* * *

من أمثلة تنازع الصقور والحمائم على إدارة المواجهة معه عليه الصلاة والسلام ما حدث في واقعة «لقد جئتكم بالذبح» الشهيرة.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي، حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ، قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، ثُمَّ مَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ، فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا

فقال: «تسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ»

فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ* بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِدًا، فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولًا.

قَالَ: فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ، اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عليهم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ»، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، قَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، دُونَهُ، يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ [غافر: ٢٨]؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ[٢]

وفي صحيح ابن حبان فإن أبا جهل هو الذي يقول للرسول عليه الصلاة والسلام: ما كنت يَا مُحَمَّدُ، مَا كُنْتَ جَهُولًا، فيرد عليه رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»[٣]، أي أنك أنت ممن جئتهم بالذبح!

ما الذي يحدث هنا بالضبط ؟

قريش تبدو حائرة في أي جهة تذهب بالضبط، الصقور أو الحمائم، الصقور أنفسهم لا يبدون واثقين مما يريدون عندما يواجههم الرسول عليه الصلاة والسلام بلغة مختلفة الحسم واللهجة، يلمزونه مرة واثنتين وثلاثًا. فيرد عليهم: لقد جئتكم بالذبح!

لأكثر من عشر سنوات وهم يلمزونه.. لكنه اليوم يستخدم لغة مختلفة؛ يهددهم.

لهجته وثقته بما يقول والطريقة التي قالها بها لا بد أنها أثارت رعبهم فورًا.. حتى الصقور منهم صاروا يلطفون الجو، كما لو أنهم أدركوا أنهم قد يواجهون «غضب الحليم» لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يبدو مكترثًا لمحاولات التلطيف.

---

* يرفؤه: يرفق به.

(٢) مسند الإمام أحمد ٧٠٣٦ وذكره الألباني في صحيح السيرة.

(٣) صحيح ابن حبان ٦٥٦٩ وحسنه الألباني.

لكن حيرة الصقور كان عند الصدمة الأولى بما قاله لهم.. لاحقًا يستعيد كل فريق مواقعه، وفي اليوم التالي، يتعمدون أن يجعلوا الرسول عليه الصلاة والسلام هو من يعيب آلهتهم (أنت من يقول هذا في آلهتنا؟). والصادق الأمين لا يكذب. فيقول نعم أنا.

ربما هذه حيلة قريشية للتهرب من مساءلة مطعم بن عدي الذي أجاره عليه الصلاة والسلام، هنا يبدو محمد هو الذي تعدى، وكان موقفها دفاعيًا فحسب.

ثم يذهب عقبة بن معيط إلى أقصى جهة في الإيذاء.. مع دوافع الحصول على رضا وقبول من حوله من الناس.

وتشير الآية التي يقولها أبو بكر في خضم الحادثة وأثناء دفاع عنه عليه الصلاة والسلام إلى الموعد التقريبي لكل هذا الذي يحدث.. الآية من سورة غافر. وترتيب نزولها هو ٦٠.. نحن بعد الإسراء وبعد الطائف... وقريش لا تزال تتنازعها الرغبة في احتواء محمد، وفي القضاء عليه.

وعليه الصلاة والسلام يصعد لهجته.. كما لو أنه يدرك الآن أكثر من أي وقت مضى -خاصة بعد الطائف- لا جدوى ما استخدم من لهجات سابقة.

* * *

لهجة الإنذار المتصاعد هذه ربما تكون واضحة في موقف معروف عندما نادى عليه الصلاة والسلام عشائر قريش ليقدم لها إنذارًا صريحًا...

صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» -لِبُطُونِ قُرَيْشٍ- حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»[1]

ورغم أن الحدث يقدم أحيانًا كما لو كان مرتبطًا بنزول آية سورة الشعراء «وأنذر عشيرتك الأقربين»، فإن الحديث لا يوجه الإنذار «لعشيرته الأقربين» بل يتحدث مع عموم قريش ومع بطون بعيدة من ناحية القرابة، هذا عدا عن أن ترتيب نزول سورة الشعراء (٤٧) يجعل هذا الموقف صعبًا من ناحية التوافق الزمني مع الأحداث، حيث يفترض أن سورة الشعراء ربما نزلت أثناء حصار شعب أبي طالب، وهذا يجعل وقوف النبي عليه الصلاة والسلام على الصفا على هذا النحو أمرًا مستبعدًا.

(١) صحيح البخاري ٤٧٧٠.

ويقدم هذا الحدث أيضًا باعتباره السبب في نزول سورة المسد عندما قال أبو لهب للرسول عليه الصلاة والسلام: **تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟**[1]. فنزلت السورة، لكن من غير المتناسق أن تكون سورة المسد قد نزلت متأخرة إلى هذه الفترة ليس فقط لأن ترتيب النزول يضعها بالرقم ٦، بل لأن موقف أبي لهب الحاد لا يمكن أن يكون متأخرًا إلى هذه الفترة، خاصة أن أبا لهب أجبر ابنه على طلاق رقية بنت الرسول، ونحن نعرف أنها تزوجت عثمان وهاجرت إلى الحبشة وكل ذلك قبل سنة ٥ للبعثة، بينما الأحداث هنا تتجاوز السنة العاشرة للبعثة، ولا يمنع أن تكون هناك حادثة مشابهة حدثت مبكرًا لكنها بالتأكيد لا تحمل نَفَس الإنذار الذي تصاعد في هذه المرحلة.

لكن هذا الحدث أيضًا يقدم وهو مرتبط بنزول آية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾سبأ (٤٦) كما في صحيح البخاري ٤٨٠١ الذي قدم الواقعة ضمن باب الآية الكريمة، **صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهْ»*، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، قَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»**.

ولأن سورة سبأ نزلت بالتسلسل ٥٨، بعد الإسراء وبعد الطائف، فإن موقع هذه الحادثة ضمن هذا التسلسل يبدو منطقيًا جدًا، ومناسبًا للغة الإنذار التي أصبحت متصاعدة في هذه الفترة من جهته عليه الصلاة والسلام.

* * *

بالنسبة لقريش، كان ذهاب محمد عليه الصلاة والسلام إلى الطائف خطوة خطيرة جدًا وجريئة جدًا، ومختلفة جدًا.

وكان اختياره للطائف، المنافسة التقليدية لمكة، يشكل تحديًا واضحًا لقريش؛لم يعد محمد يكترث لأمور معينة كان قد حافظ على مسافة معينة منها ولفترة طويلة... اللجوء إلى الطائف وثقيف طلبًا للنصرة كان يعد بالنسبة لقريش عملًا عدائيًا مباشرًا، وذهاب محمد عليه الصلاة والسلام بنفسه إليها، يدل على جدية الأمر..

---

(١) صحيح البخاري ٤٧٧٠.

* يا صباحاه كلمة تقال للإشعار بإغارة العدو لأن الغالب في الإغارة أن تكون وقت الصباح كما يقولها من أصابه شيء مكروه للاستغاثة.

هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت أمرًا مختلفًا تمامًا، ورغم أن قريش لم تتلق الأمر بصدر رحب وحاولت ردهم، فإن الأمر كان متعلقًا بسمعتها وكرامتها أمام العرب أكثر مما يتعلق بخطورة مباشرة شكلها المهاجرون عليها من الحبشة، كان مهاجرو الحبشة أبعد عن أي دائرة تأثير محتملة على قريش ومصالحها المباشرة..

لكن الطائف، أمر مختلف تمامًا..

وفشل المهمة مرة لا يعني فشلها دومًا، وإن كانت فشلت مع الطائف فهذا لا يعني أنها ستفشل مع سواها لو حاول عليه الصلاة والسلام ذلك..

الأمر لم يعد متعلقًا بكرامة قريش أو تجارتها أو سمعتها أو دين الآباء أو أي أمور «غير مادية» أخرى..

الأمر صار متعلقًا على نحو مباشر بوضع قريش المباشر.. بوجودها نفسه...

صحيح أنه من المستبعد أن أيًا من كبار رجالات الملأ المكي قد أدرك تمامًا كيف ستؤول الأمور وأبعادها النهائية، لكن من الواضح أنهم أدركوا أن محمدًا قد نقل الصراع إلى حلبة أخرى مختلفة تمامًا...

وأن عليهم أيضًا أن ينتقلوا إلى هذه الحلبة..

هنا، وهنا فقط وليس قبل ذلك، في مرحلة ما بين الطائف وما حدث مع الأنصار لاحقًا، قررت قريش أن تفاوض محمدًا عليه الصلاة والسلام حقًا وتقدم له بعض التنازلات الحقيقية..

قريش تتفاوض؟ بالتأكيد. هذا ما تفعله الحمائم.

تريد أن تصل لنفس النتيجة التي يريدها أبو جهل، ولكن بطرق أخرى...



كل ما قيل عن مفاوضات سابقة قبل هذه المرحلة لا يبدو لي مفاوضات حقيقية، هنا وهنا فقط كانت قريش تبدو جادة في التفاوض ولديها استعداد لتقديم التنازلات...

لماذا لا أرى أن هناك مفاوضات حقيقية قبل مرحلة ما بعد الطائف؟

أولًا- النص الثابت الصحيح هو أن قريش اشتكت إلى أبي طالب الرسولَ عليه الصلاة والسلام وطلبت منه أن يكف عن أذاها، ولم يكن هذا تفاوضًا، بل كان شكوى وطلب، وكانت قريش تعرف جيدًا موقفه عليه الصلاة والسلام، لذا فقد بدا الطلب أقرب إلى «تبليغ» أبي طالب بأنهم سيقومون بالتصعيد ضد محمد وأن العتب مرفوع عنهم.

ثانيًا- النصوص الأخرى التي تشبه الواقعة أعلاه، وتزيد عليها عروضًا قدمتها قريش لكي يقدم عليه الصلاة والسلام بعض التنازلات، لم تكن نصوصًا صحيحة السند، وعند التعارض فإن النص الصحيح سيكون أكثر تناسقًا وواقعية، كما أن هناك ما قدم على أنه عروض من قروش لكن لا يمكن أخذها على محمل الجد مثل التناوب بين دينهم ودينه بين عام وآخر، أو ما روي عن عرض قريش الملك عليه، فلم يكن هناك ملك لقريش كي تعرض عليه ذلك أصلًا.

ثالثًا- النص الصحيح الذي أثبت وجود عرض للتفاوض من قريش، وسيأتي بعد قليل، يستخدم مقدمة سورة قرآنية ترتيب نزولها متأخر نسبيًا، وهي سورة فصلت، ترتيب نزولها ٦١، أي أنها نزلت بعد سورة الإسراء التي بالترتيب ٥٠، وبعد سورة يوسف بالترتيب ٥٣ التي ربطناها برحلة الطائف. كما أن بعد سورة فصلت عن سورة يوسف قليل نسبيًا (٥٣ مقابل ٦١) مما يوحي أننا في المرحلة نفسها تقريبًا، خاصة أن هذه المرحلة كان نزول السور فيها كثيفًا ومتتابعًا، وإذا كانت الطائف قد حصلت بعد سورة يوسف كما سبق واقترحنا، ولا يشترط هذا مباشرةً تمامًا، فإن سورة فصلت غالبًا نزلت بعد العودة منها.

كما أن هذا النص الصحيح الذي ثبت فيه وجود عرض تفاوضي من قريش كان يتضمن تلميحًا إلى أنه عليه الصلاة والسلام ربما كان «أعزبَ»في تلك الفترة، أي أنها مرحلة ما بعد وفاة خديجة. والسيدة خديجة توفيت في نفس سنة أبي طالب، حوالي ١٠ للبعثة.

رابعًا- حتى لو افترضنا عدم دقة ترتيب نزول سور القرآن الذي وصلنا، فإن تقديم قريش لتنازلات مبكرة «قبل الطائف» أمر لا معنى له.. كل ما سبق الطائف كان مرحلة اضطهاد وتسفيه وصد متصاعد وصولًا إلى محاولة القتل، والمرحلة كلها كانت متشابهة أيضًا من جانب الرسول عليه الصلاة والسلام بمعنى أنه في السنوات العشرة الأولى من البعثة، قبل رحلة الطائف، كان ملتزمًا فقط بنشر الدعوة في مكة رغم كل ما واجهه من صدود. لم يفعل شيئًا غير هذا.

الانتقال إلى الطائف والدعوة خارج مكة كان يتطلب أسلوبًا جديدًا من قريش.. خاصة أنه الآن في جوار وحماية مطعم بن عدي، سيد بني نوفل.

الآن أصبح هناك ما تخاف منه أكثر..

حان وقت التفاوض.

* * *

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: «اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا فَقَالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسِّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالشِّعْرِ، فَلْيَأْتِ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتْ أَمْرَنَا وَعَابَ دِينَنَا فَلْيُكَلِّمْهُ وَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ.

فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ.

فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ.

فَأَتَاهُ عُتْبَةُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الله؟

فَسَكَتَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟

فَسَكَتَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْكَ فَقَدْ عَبَدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَهَا، وَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمْ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ. إِنَّا وَالله مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً* قَطُّ أَشْأَمَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْكَ... فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتَ أَمْرَنَا وَعِبْتَ دِينَنَا وَفَضَحْتَنَا فِي الْعَرَبِ حَتَّى لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنَّ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا، وَالله مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحُبْلَى أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّى نَتَفَانَى أَيُّهَا الرَّجُلُ... إِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْبَاءَةُ فَاخْتَرْ أَيَّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ وَنُزَوِّجُكَ عَشْرًا، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ جَمَعْنَا لَكَ حَتَّى تَكُونَ أَغْنَى قُرَيْشٍ رَجُلًا وَاحِدًا.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفَرَغْتَ؟

قَالَ: نَعَمْ.

فَقَرَأَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» حَتَّى بَلَغَ «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» فصلت (٣)

فَقَالَ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ حَسْبُكَ مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هَذَا؟

قَالَ: لَا.

---

* السخلة هي ولد الشاة من الضأن والمعز ساعة الولادة، ويقصد عتبة هنا أن الشؤم جاء منذ ولادته، حاشاه.

فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟

قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا وَقَدْ كَلَّمْتُهُ بِهِ

فَقَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَا وَالَّذِي نَصَبَهَا بَيِّنَةً مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ،

قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالْعَرَبِيَّةِ لَا تَدْرِي مَا قَالَ؟

قَالَ: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ»[١]

* * *

قريش تجتمع وتقرر التفاوض، غياب أبي جهل يبدو غريبًا فهو دومًا متواجد طالما كان للأمر علاقة به عليه الصلاة والسلام..

لكنها مرحلة تنحي الصقور لصالح الحمائم، لذا فغياب أبي جهل يبدو متسقًا مع هذا الواقع الجديد.

عتبة بن ربيعة كان حتمًا من حمائم قريش مقارنة بأبي جهل وأمية بن خلف مثلًا.

ليس هذا فقط، فعتبة واحد من سادة قريش الكبار، هو صاحب مقترح الصلح الذي أنهى حرب الفجار قبل حوالي خمسين عامًا، وهذا يعني أنه عتيق في جبهة الحمائم، ومكانته متأتية من حكمته ومحاولته فض النزاعات، وليس من ثراء، على الأقل ليس في بدايته، إذ انتشر قول «لم يسد قريش مملق إلا عتبة وأبو طالب»..

الأهم من هذا أنه من بني عبد شمس بن عبد مناف، أي أنه يرتبط بقرابة معه عليه الصلاة والسلام، حيث هاشم (جد عبد الله والد النبي) هو عم عتبة.

مرة أخرى: عتبة هو والد هند زوج أبي سفيان والصحابي حذيفة بن عتبة وهو الذي تحركت رحمه وأخوه في الطائف عندما رأى ما تعرض له الرسول عليه الصلاة والسلام وأرسلا عداس بقطفة عنب في القصة التي لم تثبت.

* * *

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣٦٥٦٠ وصححه الألباني في صحيح السيرة.

ما الذي يقوله عتبة لمحمد عليه الصلاة والسلام..

البداية تقليدية جدًا ـ أنت خير أم عبد الله.. أنت خير أم عبد المطلب، استخدام مستهلك لعاطفة لم يعد لها كبير رصيد عنده عليه الصلاة والسلام في حسابات الإيمان..

لا يرد عليه الصلاة والسلام على هذين السؤالين.. الأمر لا ينفع معه نعم أو لا، لأن عتبة يتحدث بطريقة ووفق منهج لم يعد ينفعه مجرد الرد بنعم أو لا..

يكمل عتبة، اللهجة المستخدمة في الكلام تشير إلى أن قريش وصلت إلى أقصى حدودها في التوتر من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وما وصلت له..

وصف عتبة الرسول عليه الصلاة والسلام حاشاه بكونه «أشأم سخلة» يشير إلى أن قريش مضطرة إلى التفاوض، مع إشارات إلى «فضيحة قريش» مما يوحي إلى أثر رحلة الطائف على قريش... والاحتقان الموجود بين قريش (شتت أمرنا، يقوم بعضنا لبعض بالسيوف..) وخطر السيوف والقتال لم يظهر إلا في مرحلتين، ما قبل الحصار، عندما ذهب أبو طالب مع فتية بني هاشم وبني المطلب لكي يهدد رجالات قريش لو تعرض عليه الصلاة والسلام لسوء، والمرحلة الأخرى هي عندما ارتدى مطعم بن عدي الأسلحة مع أولاده وأعلنوا حمايتهم له عليه الصلاة والسلام، ولا يعقل أن تكون هذه المفاوضات قد حدثت في مرحلة الحصار إذ إن أبا طالب كان على قيد الحياة وسيكون الحوار معه مباشرةً، وهذا يعضد أن التفاوض جاء بعد مرحلة الطائف، كذلك ربما كانت هنا إشارة لتهديده لهم بالذبح، وهذا أيضًا حدث في نفس هذه الفترة، حيث الواقعة ترتبط بإشارة من سورة غافر التي سبقت سورة فصلت بالنزول مباشرة.

فلننتبه هنا إلى قوله **«وَاللهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحُبْلَى أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّى نَتَفَانَى أَيُّهَا الرَّجُلُ»**.

وصيحة الحبلى هي صيحة المرأة عندما يأتيها المخاض، أي أنها أمر حتمي وسيحدث ولا بد، أي أن قريش كانت ترى أمر محمد يكبر وسيقود حتمًا إلى الاقتتال داخل قريش.

ما الذي تعرضه قريش حقًا لكي تتخلص من صيحة الحبلى؟

المال، أولًا.

قريش تعرض المال بحيث يكون محمد هو الأغنى بين كل رجالات قريش، وهذا يعني أن الملأ قد اتفقوا على أن يتنازلوا عن نسبة من أموالهم لمحمد عليه الصلاة والسلام، مقابل أن يكف عن دعوته.

ثانيًا، أن يتزوج أجمل نساء قريش، عشرًا منهن!

هل يحتمل أن يقدم العرض وخديجة على قيد الحياة؟ نعم، فلا قيد على تعدد الزوجات عند قريش.. لكن مع مكانة خديجة الاجتماعية وأثرها على محمد عليه الصلاة والسلام، هل يعقل أن يكون العرض في حياتها ووجودها؟ مرة أخرى هذه دلالة على أن التفاوض جاء في مرحلة متأخرة.

العرضان، المال والزواج، جعلا قريش تبدو أنها رغم إدراكها للخطر عل مكانتها، فإنها غير مدركة لحقيقة دعوته وعمقها.

العرضان يصدران من عقلية لم تضع احتمالًا واحدًا لصدق دعوى محمد عليه الصلاة والسلام في أنه رسول من الله!

قال له الرسول الكريم بعد أن أكمل كلامه: **أفرغت؟ هل هذا كل ما لديك؟**

رد عتبة بالإيجاب وهو يعتبر أن ما قدمه هو أكثر ما يمكن أن يقدم.

فيرد الرسول الكريم لا بكلامه، بل بسورة فصلت..

﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ فصلت (١: ١٣)

لا بد أنه قالها على نحو صاعق، كما لو أن الصاعقة تضرب عتبة في رأسه الآن...

قال عتبة: حسبك حسبك.. الكلام يكاد يضربه في رأسه.. ما عندك غير هذا؟ **أليس عندك كلام آخر، أقل صعقًا؟**

قال عليه الصلاة والسلام كلمة واحدة: لا.

لقد وصلت قريش إلى مرحلة صاعقة عاد وثمود..

ليس لديه هو ما يقول.. لا يوجد كلام غير هذا.. هو يتنحى جانبًا ويجعل المواجهة بين القرآن وبين عتبة بن ربيعة.

إنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

لم يحتمل عتبة كلمة واحدة بعد صاعقة عاد وثمود.. حسبك حسبك.

ولاحقًا قال لقريش أنه لم يفهم شيئًا مما قال غير الصاعقة.

كل الآيات كانت صاعقة بالنسبة له.



هل كانت قريش متفائلة حقًا بتفاوض عتبة بن ربيعة؟

لا أعتقد، لكني أعتقد أن جناح الحمائم (بنو عبد شمس خاصة) كانوا يعتقدون أن جناح الصقور (أبو جهل خاصة) قد أساء إدارة الصراع مع الرسول عليه الصلاة والسلام وأوصل الأمور إلى نقطة اللاعودة.

كانت تلك محاولة من جناح الحمائم، ولكنهم تعاملوا مع دعوة محمد كمشروع دنيوي قابل للتفاوض في كليته. بعقلية التاجر قدموا عرضًا دنيويًا تمامًا(مال كثير + عشر نساء) ويتوقعون أن تتم مساومتهم بطلب أعلى، يساومون عليه بدورهم إلى أن يصلوا إلى حل وسط، مكلف حتمًا، لكنه أفضل من صيحة الحبلى التي ينتظرونها.

لكن الرد منه عليه الصلاة والسلام كان سؤالًا: هل انتهى الكلام؟

نعم..

إذن.. صاعقة عاد وثمود.

* * *

وبينما تعرض قريش التفاوض..

فإن الخطاب القرآني تتصاعد لهجته... أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

هذه أول مرة يأتي هذا الإنذار القرآني، بعذاب دنيوي مباشر، وليس بإنذار قد يفهم منه في يوم القيامة...

وسبق ذلك لهجته عليه الصلاة والسلام: لقد جئتكم بالذبح!

بالنسبة لقريش، ربما كانت جبهة الصقور قد استنفدت فرصها..

لكن على الطرف الآخر، قريش كلها كانت تستنفد فرصها...

فلنتذكر، محطات تصاعد لغة الإنذار والتهديد..

سورة سبأ ارتبطت بجمعه عليه الصلاة والسلام لقريش وإنذاره لهم **﴿بين يدي عذاب شديد﴾ سبأ (٤٦)**.. وكانت تحمل التسلسل ٥٨.

السورة التي فيها ما قد يرتبط بالواقعة التي فيها «لقد جئتكم بالذبح» هي سورة غافر وتحمل التسلسل ٦٠.

السورة التي حملت هذا التهديد بالصاعقة كانت تحمل التسلسل ٦١..

اللهجة تتصاعد بثبات.

يمكننا أن نقارن هذه اللهجة بآيات نزلت مبكرًا مثل **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ الكافرون (٦)**، أو بواقعة تصدي الرسول عليه الصلاة والسلام لأغنياء قريش كما في **﴿عبس وتولى﴾ عبس (١)**

لقد تصاعدت اللهجة كثيرًا....

* * *

ينقل لنا القرآن الكريم شيئًا خاصًا عن دواخل الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة وما قبلها بقليل..

أتحدث هنا عن آيات نزلت على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام تخفف عنه حزنه على قومه الذين يسيرون بخطى واثقة نحو الهاوية.

ثمة صراع في داخل ذلك العالم المحمدي..

صراع؟ في داخل نفس أكمل البشر؟

نعم.. لأنه لم يصبح أكمل البشر إلا بوجود صراع كهذا..

كان عليه الصلاة والسلام يعاني من الحزن الشديد على كفار مكة..

لم يكن حزنه بسبب سلا جزور وضعها عليه عقبة بن أبي معيط أو بسبب أنه كاد يخنقه في مرة أخرى..

الحزن الأكبر في داخله عليهم هم.. على كفار مكة الذي صموا آذانهم وأبوا أن يسمعوا كلمة الحق لما جاءتهم...

بعض الآيات تشير إلى أنه عليه الصلاة والسلام يكاد يقتل نفسه همًا وحزنًا على هؤلاء الكفار... لا بد أنه كان ثمة حب لكل الناس يجعله «يكاد يقتل نفسه من أجل أن يسمعوا كلمة الحق»..

وهذا الحزن كان يولد صراعًا في داخله..

لعله كان يلوم نفسه لأنهم لم يؤمنوا.. لعل المشكلة كانت فيه، لعل أداءه لم يكن جيدًا بما فيه الكفاية لكي يجعلهم يؤمنوا... هل كان يجب أن يكون أكثر حسمًا، أم أكثر مسالمة..

كانت نفسه تكاد تذهب من الحسرة عليهم! هكذا وصفه القرآن..

أولى الإشارات كانت في سورة فاطر التي نزلت بالتسلسل ٤٣ وغالبًا في فترة حصار الشعب...

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فاطر (٨)

﴿وقال له الوحي مرة أخرى لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء (٣)

وتسلسلها ٤٧ وباخع تعني مهلك، فالآية تقول له إنك تكاد تقتل نفسك حزنًا وألمًا ولومًا لأنهم لم يؤمنوا بعد، خفف عن نفسك.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ النمل (٧٠) وتسلسلها ٤٨

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لقمان (٢٣) وتسلسل نزولها ٥٧

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف (٦) وتسلسل نزولها ٦٩

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ النحل (١٢٧) وتسلسل نزولها ٧٠

وهذه الإشارات التي تكاثرت على ما يبدو في أواخر العهد المكي أو في ثلثه الأخير لا تدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحزن على قومه قبل هذه الفترة، لكنها تدل على أن الوحي طالبه بأن يخفف من هذا الذي هو فيه من حزن وحسرة لأنهم لم يؤمنوا... ببساطة لأن عليهم الآن أن يفكروا هم بأنفسهم لا أن يستمر هو بالتفكير بهم على نحو يؤذيه شخصيًا... كانت الآيات تقول له أن يقلب الصفحة. لقد أدى ما عليه، وفوق الزيادة.

تصاعد الحزن في داخله.. ليس بالرغم من تصاعد اللهجة المهددة والمنذرة في القرآن...

بل بسبب تصاعد هذه اللهجة..

صار أكثر حزنًا عليهم، وهو يرى تناقص فرصهم أكثر وأكثر...

* * *

في نفس الفترة تقريبًا، حدث أن دعا الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه.

كيف يحبهم ويدعو عليهم؟

لم يدع عليهم بالهلاك.

بل دعا بـ «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**»[1]

عينه على نهاية سورة يوسف. على الخاتمة التي يتمناها لمكة. على الصلح مع الأخوة.

السبع سنوات من الجفاف والقحط التي دعا الله بها كانت لتنبيههم. لذا قال «أعني عليهم»... وليس «**لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**» مثلًا...

* * *

آخر مرة قالت له الآيات أن لا يحزن عليهم في الفترة المكية كانت في سورة النحل. التسلسل ٧٠..

السورة التي نزلت بعدها تمامًا كانت سورة نوح..

نوح الذي قضى ألف سنة إلا خمسين مع قومه، وجرب كل الطرق والأساليب في دعوتهم.. ولم يؤمنوا...

أحيانًا الأمور تسير هكذا... عليك تقبل هذا...

وضمت السورة أيضًا... «**لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**» ..

* * *

في هذه الفترة تقريبًا، تزوج عليه الصلاة والسلام من السيدة سودة بنت زمعة، وخطب السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق...

وبدأ الأمر بأن تحدثت معه خولة بنت حكيم السُلَمية (زوجة عثمان بن مظعون وواحدة من مهاجرات الحبشة) بعد وفاة السيدة خديجة واقترحت عليه أن يتزوج« **إِنْ شِئْتَ بِكْرًا، وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا** »[2]... عائشة... أو سودة...

---

(١) صحيح البخاري ٤٧٧٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٥٧٦٩.

كل النقاش الذي يدور عن سن السيدة عائشة وقت خطبتها، وزواجها الذي تم لاحقًا بعد الهجرة، نقاش لا معنى له لأنه يسقط مقاييس معاصرة على عصر آخر، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل لنا في حديث شريف تزوجوا الفتيات صغيرات السن، لكنه فعل ما كان مقبولًا في سياق مجتمعه؛ لذلك فالحديث عن صغر السيدة عائشة ليس بموضوع هنا على الإطلاق، في الحقيقة إن النقاش وقتها بين أبي بكر وزوجته أم رومان كان على شيء مختلف تمامًا، فقد كانت السيدة عائشة مخطوبة لجبير بن مطعم بن عدي (ومطعم هو الذي أجار النبي عند دخوله مكة بعد عودته من الطائف)، ومجرد كونها مخطوبة (سابقًا) في سنها فهذا يعني أن الأمر كان شائعًا جدًا ومقبولًا وليس خاصًا به على الإطلاق.

أما السيدة سودة بنت زمعة فقد كانت مكية من بني عامر بن لؤي، وأمها من بني النجار[١] في يثرب، من مهاجرات الحبشة أيضًا -مثل خولة التي تعرض خطبتها- مات عنها زوجها السكران بن عمرو في الحبشة (وهو أخو سهيل بن عمرو المعروف بكونه مفاوض قريش في صلح الحديبية) وكان لها أولاد منه، كانت متقدمة في السن[٢]، ووصفت بأنها «جسيمة»[٣] أي ضخمة الجسم «ثبطة»[٤] أي بطيئة الحركة ولكنها -من مواقف كثيرة نقلت عنها لاحقًا- كانت واعية حكيمة، وكان بيت الرسول عليه الصلاة والسلام يحتاج إلى ذلك بعد غياب خديجة...

لا شيء سيعوض عن غيابها، ولن يكون هناك مثل خديجة.. لكن هذا لا ينقص البتة من قدر سودة.. خديجة هي التي كانت استثنائية على نحو استثنائي...

أما عائشة، فهي لن تكون خديجة، لكنها ستكون عائشة الصديقة، سيدة الفقه التي نقلت لنا الكثير من سنته عليه الصلاة والسلام مع فهم عميق شامل...

رضي الله عنهن أجمعين..

* * *

أتساءل إن كان عليه الصلاة والسلام قد لمس هذا الذكاء عند عائشة وهي صغيرة في بيت أبيها، واختارها وقد عرف أن ذكاءها هذا، مع صغر سنها، سيتيح لها فرصة أن تكون الناقل الأمين لسنته بعد وفاته..

كل من نقل الكثير من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وسننه، عاشوا إلى فترة متقدمة (عائشة توفيت ٥٨ هجرية، أبو هريرة ٥٩ هجرية، عبد الله بن عمر ٦٨ هجرية، ابن عباس ٧٣ هجرية) وهذا

(١) الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الثامن صفحة ٤٢.
(٢) أسد الغابة الجزء السابع صفحة ١٥٧.
(٣) صحيح ابن حبان ١٤٠٩ وصححه الألباني.
(٤) سنن ابن ماجة ٣٠٢٧ وصححه الألباني.

هو سبب أنهم رووا الكثير، لأنهم ببساطة من القلة التي بقت، بينما توفي أغلب الكبار من الصحابة في وقت أبكر بكثير.

أتساءل إن كان قد نظر بحكمته النبوية إلى اقتراح خولة بنت حكيم -عندما اقترحت عليه الزواج من عائشة أو من سودة- ورأى أن تلك الفتاة الصغيرة الذكية ستكون خير من ينقل سنته من أقرب مكان يمكن أن تنقل منه... من داخل بيته... عليه الصلاة والسلام.

هو مجرد تساؤل، لكن السيدة عائشة قامت بهذا الدور بالفعل.

رضي الله عنها...

* * *

واحدة من الأسانيد التي تنقل قصة خطبة عائشة وسودة تنقل لنا أيضًا تفصيلًا صغيرًا في الحوار بين خولة بنت حكيم والرسول عليه الصلاة والسلام...

تفصيل صغير يشي بالكثير..

قالت له: **يَا رَسُولَ الله كَأَنِّي أَرَاكَ قَدْ دَخَلَتْكَ خَلَّةٌ لِفَقْدِ خَدِيجَةَ.**

والخلة هي النحافة من شدة الحزن...

فَقَالَ: أَجَلْ... كَانَتْ أُمَّ الْعِيَالِ وَرَبَّةَ الْبَيْتِ[1].

أم العيال...

وربة البيت...

لا تعليق...

---

(١) الطبقات الكبرى الجزء الثامن صفحة ٤٦ وقال ابن حجر سنده قوي مع إرساله.

قاب قوسين أو أدنى... من نقطة التحول

أغلب عمليات التحول أو التغيير التي تحدث في العالم تكون عمليات تحول بطيء، تدريجي، وتأخذ وقتًا كبيرًا من الزمن كي تظهر آثارها بوضوح.

لكن هناك عمليات تحول أخرى تحدث بسرعة فائقة، تنتشر انتشار النار في الهشيم.. كما ينتشر وباء ليصيب ملايين البشر، بعد أن كان محصورًا في أفراد قليلين.

يمكن أن يكون الأمر متعلقًا بفكرة جديدة، بعقيدة، أو بسلعة... أو بنمط غنائي جديد... أو بكتاب...

ليس المهم هنا ما الذي انتشر هذا الانتشار السريع..

بل كيف انتشر... كيف تحول من النسبة التي لا تكاد تذكر، إلى مرحلة الانتشار في الهشيم.

ما هي «نقطة التحول»؟

* * *

يذكر مالكوم غلادويل في كتابه «نقطة التحول: كيف تحدث الأشياء الصغيرة تأثيرًا كبيرًا»[1] ثلاثة قوانين أساسية ينبغي توفرها لحدوث نقطة التحول.

القانون الأول هو قانون القلة، ويتعلق بالأفراد الذين ينقلون «العدوى» إلى الآخرين، أو ينشرون الفكرة ويروجون لها، هؤلاء يجب أن تكون عندهم قدرات على إقناع الآخرين، والتواصل معهم، والقدرة على جمع المعلومات التي تخدم عملية الانتشار.

القانون الثاني هو قانون الالتصاق، ويتعلق بالمادة المروجة نفسها وطريقة عرضها، كيف يمكن لها أن تلتصق بالناس، كيف تتحول إلى جزء من حياتهم، كيف «يعتنقونها» بقوة.

القانون الثالث هو قانون قوة السياق ويتعلق بالظروف المحيطة بالقانونين الأولين، هل هي مناسبة لانتشار المادة المروج لها أم أنها ستكون صادة ومانعة لها.

يمكننا أن نأخذ هذه القوانين الثلاثة لفهم ما حدث في مكة، وما لم يحدث فيها أيضًا.

---

(١) The Tipping Point: How Little Things Can Make Big Difference, Malcolm Gladwell.

في مكة، تحقق القانون الأول والثاني، رأينا كيف أن القلة الذين آمنوا في البداية تمكنوا من توصيل ما آمنوا به لآخرين وعلى نحو منجز، رأينا أبا بكر وجعفر وخديجة. طبعًا هذا عدا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

رأينا أيضًا كيف أن «المحتوى» كان لا يلتصق بالناس فقط بل كان يخترقهم من النخاع ويغير حياتهم من الوريد إلى الوريد، يحقق انقلابًا تامًا في حياتهم ويجعلهم ينقلبون على عشائرهم وأسرهم وكل حياتهم السابقة.. عمر بن الخطاب ربما كان واحدًا من أهم الأمثلة على القانون الثاني.

لكن القانون الثالث لم يكن يعمل لصالح نقطة التحول في مكة.

كان السياق مضادًا وصادًا للتغيير الكبير، كان محاربًا له وبشدة تصاعدت أكثر فأكثر مع الوقت.

لعشر سنوات، كان السياق في مكة، الظروف المحيطة بالقانونين الأولين، تحاصر أي فرصة لحدوث نقطة التحول.

وكان لابد من البحث عن سياق آخر..

* * *

بعض الأفراد، تكون لديهم قدرة مبكرة على رؤية نجاح كامن لفكرة في بدايتها... يلتقطون مبكرًا كهارب الاحتياج داخل مجتمعهم وسياقهم لهذه الفكرة، ويؤمنون مبكرًا وقبل أن ينتبه أحدٌ إلى أن هذه الفكرة هي بالضبط ما يحتاجه المجتمع ...

من هؤلاء، في قصة يثرب، جندي شبه مجهول، لم نسمع به كثيرًا.. اسمه إياس بن معاذ...

حدث الأمر قبل الهجرة بخمس سنوات أو أكثر بقليل، ربما في السنة السابعة قبل حصار شعب أبي طالب...

كان الأوس والخزرج في يثرب لا يزالون على عدائهم المرير، وكانت كل قبيلة منهما تعد لحرب ضد الأخرى، وتبحث عن تحالفات لمعركة فاصلة..

جاء وفد الأوس إلى مكة لغرض التحالف مع قريش ضد الخزرج، فسمع الرسول عليه الصلاة والسلام بمجيئهم فذهب إليهم ليعرض عليهم الإسلام..

فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟»

قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: «أَنَا رَسُولُ الله، بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ كِتَابٌ» ثُمَّ ذَكَرَ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ،

فَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ، وَكَانَ غُلَامًا حَدَثًا: أَيْ قَوْمِ، هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ[1]

إياس بن معاذ: غلام حدث.. رأى فيما قاله عليه الصلاة والسلام «خيرًا مما جاء له القوم»..

القوم كانوا في حالة حرب، وقد جاؤوا من أجل التحالف مع قريش في حربهم ضد الخزرج..

لكنه رأى في كلام الرسول عليه الصلاة والسلام شيئًا أفضل من التحالف مع كبرى قبائل العرب.. رأى فيه قوة أكبر وأهم.. رأى فيه ما هو أهم من الحرب نفسها.. من فخر الانتصار على الخزرج أو عار الهزيمة أمامها...

رأى في كلام الرسول عليه الصلاة والسلام شيئًا مختلفًا جدًا عن كل شيء، شيء يكون بديلًا عن الحرب نفسها... رأى فيه الاحتياج الحقيقي للمجتمع الذي سيغنيه عن الاستمرار في مسلسل الحرب والثأر إلى ما لا نهاية.

خير مما جئتم له..

لكن رئيس الوفد، واسمه أبو الحيسر، انتهره ورمى التراب بوجهه وقال: **دَعْنَا مِنْكَ فَلَعَمْرِي لَقَدْ جِئْنَا لِغَيْرِ هَذَا**[2]

فصمت إياس، وقام عنهم الرسول عليه الصلاة والسلام...

ثم وقعت المعركة التي كانوا يعدون لها، يوم بعاث (قبل خمس سنوات من الهجرة).. ومات فيها إياس بن معاذ... ولا يشك قومه أنه مات مسلمًا لأنه لم ينقطع عن التكبير والتسبيح والتهليل والحمد أثناء موته..

لقد التقط الإسلام من تلك الجلسة..

وقرر أنه أفضل من الحلف مع قريش بالنسبة ليثرب..

ثم ذهب ووضع البذرة التي التقطها في يثرب.. ومات...

مات كما يموت آلاف الموهوبين المبدعين، أصحاب الرؤى، في حروب عبثية...

* * *

لا بد أن في يثرب وضعًا خاصًا، وضعًا معقدًا وصل إلى مرحلة، جعلت «إياس»، ومن بعده عدد ليس قليلًا على الإطلاق، يحتضنون الرسول والرسالة، بعد أن كانا طريدين تمامًا في أرضهما...

---

(١) مسند أحمد ٢٣٦١٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٤٨٣١.

ثمة شيء كان مهيئًا في يثرب أكثر من سواها.. لاستقبال الرسالة..

* * *

الصلة اليهودية بالموضوع واضحة ومعروفة، ورغم أننا تعودنا أن تكون «الصلة اليهودية» ذات آثار سلبية، أحيانًا فقط بدافع نظرية المؤامرة، فإن الأثر الإيجابي للصلة اليهودية هذه المرة لا يمكن التهرب من الإقرار به.. حتى لو لم يكن مقصودًا من اليهود..

ما أقصده هنا تحديدًا وعلى نحو مباشر أن وجود اليهود في يثرب، وهم أصحاب وحي وديانة إبراهيمية -توحيدية- كتابية، مثل الإسلام، جعل الأوس والخزرج أكثر تقبلًا لفكرة الوحي والرسالة والنبوة، أهل مكة كانوا يعرفون اليهود بالتأكيد من خلال العلاقات التجارية ومن خلال كون مكة مركزًا تجاريًا مهمًا، وكان لدى أهل مكة حتمًا فكرة عامة عن الديانة اليهودية، لكن وجود اليهود في مكة كان عابرًا، لم نسمع قط عن وجود سكان يهود في مكة، أو عن حي يهودي فيها وهذا يجعل من تأثيرهم محدودًا وعابرًا.

لكن الوجود اليهودي في يثرب كان مختلفًا جدًا.

وفي الحقيقة، ورغم أن هذا لن يعجب الكثيرين، فإن كل المصادر التاريخية تشير إلى وجودهم في يثرب قبل الأوس والخزرج، هذا لا يعني أنه لم تكن هناك قبائل عربية سبقتهم في يثرب، إلا أنه بالمقارنة مع الأوس والخزرج، فوجود اليهود التاريخي في يثرب سابق لهما[1].

والأوس والخزرج هما قبيلتان من أصول تعود إلى اليمن، هجرت اليمن عقب انهيار سد مأرب وسيل العرم حوالي ٤٠٠ سنة قبل البعثة، وهما أصلًا أبناء عمومة، أي أن أوس وخزرج شقيقان، وفي التفصيل أن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة عزم الخروج بعد السيل وباع ماله بمأرب، فتفرق أولاده، نزل أوس وخزرج وأولادهما في يثرب، وغسان في الشام، والأزد في عمان، وخزاعة في تهامة.

في يثرب كان اليهود هم أصحاب الأرض الزراعية وعمل الأوس والخزرج في البداية أجراء عندهم، لكنهم تمكنوا بالتدريج من تنمية ثرواتهم ومنافستهم، ومن ثم أصبحت لهم الغلبة عليهم حين استعان «مالك بن العجلان الخزرجي» بـ«أبي جبيلة» من ملوك بني غسان الذي جمع أشراف اليهود ورؤوسهم في دعوة منه ثم قام بقتلهم جميعًا فتحققت الغلبة للأوس والخزرج على يثرب[2]، ويبدو أن هذه الحادثة لم تكن بعيدة عن البعثة إذ إن لمالك هذا أولادًا شهدوا بدرًا.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ٧ صفحة ١٢٩.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ١٢ صفحة ٩٥.

ولسنا هنا بصدد تقييم ما فعله الأوس والخزرج أخلاقيًا باليهود إذ إنهم يتحججون بتعرض نسوة من الأوس والخزرج للاعتداء من قبل اليهود.

ما يهم هنا هو توضيح أن أثر اليهود كان أساسيًا في يثرب لأنهم ببساطة كانوا في البداية الأكثر عددًا وكانوا أصحاب الأرض والعمل، وهذا يجعل فكرة الوحي والنبوة والرسالة والكتاب كلها أمور موجودة ضمن الحياة اليومية في يثرب، وعلى نحو يجعلها أكثر تقبلًا بالنسبة للأوس والخزرج.

ومن المؤكد أن اليهود كانوا يعدون أنفسهم، ويعدهم الأوس والخزرج أيضًا أكثر تطورًا وتمدنًا من الأوس والخزرج وبقية قبائل العرب، فقد كانوا أكثر تنظيمًا وأمهر في الكثير من الحرف، ولعل هذا كان يرتبط في ذهن الأوس والخزرج بوجود ديانة توحيدية نظمت حياتهم، كما أن عدم وجود حروب بين قبائل اليهود أنفسهم، بينما العداء مستعر بين الأوس والخزرج وهم أبناء عمومة، جعل من الديانة التوحيدية تبدو كرابط موحد أقوى من الرابطة القبلية.

زد على ذلك أن اليهود، وغالبًا بعدما تعرضوا لما فعله بهم أبو جبيلة، كانوا يتوعدون الأوس والخزرج بنبي اقترب زمانه وسيقفون معه ليقتلوا الأوس والخزرج «قتل عاد وإرم»[1].

كل هذا جعل الأوس والخزرج ينظرون لإيجابيات الديانات التوحيدية، ويتقبلون فكرة الوحي أكثر، كما أن فكرة «النبي القادم الذي سيقتلهم قتل عاد وإرم» ربما جعلتهم مترقبين لمجيء هذا النبي، ومتحينين لأن «يأخذوه قبل اليهود».. وربما كان اليهود يقولون هكذا تهديدًا فقط دون جدية في الأمر.

ولعل من أهم الآثار التي نتجت عن وجود اليهود في يثرب ضعف صلة الأوس والخزرج بأوثانهم، صحيح أنهم كانوا يتعبدون للأوثان مثل بقية العرب ويعظمونها -خاصة مناة- إلا أن عدم وجود معبد لها في يثرب، أو عدم وجود أي وثن في مكان عام، كما هو الحال في الطائف ومكة، هو أمر لا يمكن أن يعزل تمامًا عن الأثر اليهودي الذي ربما منع في فترة ما وجود شيء كهذا، وربما ساهم لاحقًا في تحجيم الصلة بالأوثان، ربما كان الأوس والخزرج يخافون من سخرية اليهود منهم إذا بنوا بيتًا لمناة..

لذلك كانوا يكتفون بالتعبد لها في بيوتهم، وفي بيتها على ساحل البحر الأحمر، يذهبون له بعد الحج ولا يحلقون إلا عندها..

(١) صحيح السيرة النبوية للألباني ص ٥٧.

لكن مجرد أن لا يكون ثمة بيت علني لمناة في يثرب، أو أي صنم آخر..
يدل على أن عبادتهم لها كانت هشة..

* * *

لكن هذا كله لا يفسر ما حدث..
لا يفسر انتشار الإسلام السريع، كالنار في الهشيم...
نعم وجود اليهود سيجعل ثمة تقبلًا لفكرة الوحي.. تقبل عقلاني منطقي..
لكن ما حدث كان أكبر بكثير من مجرد تقبل العقل للأمر..
لا بد أن هناك أيضًا شيئًا آخر..

* * *

ذلك العداء المستعر المرير بين الأوس والخزرج، كان قد أنهك البنية الاجتماعية للقبيلتين على نحو جعل الكثيرين يشعرون بضرورة التغيير.

الحروب بينهما كانت قديمة ومتراكمة، وأسبابها المعلنة شديدة التفاهة، ولكنها أدخلت القبيلتين في دوامة لا تنتهي من الثارات المتبادلة، الزعامة والرغبة في السيطرة والمزيد منها سبب أكيد خلف الأسباب المعلنة، لكن الحرب كانت قد أنهكت الطرفين، أوصلتهما إلى حالة الشعور بعبثية كل ما يدور...

بالضبط الشباب كانوا أكثر استشعارًا لهذا.. كما يحدث دومًا.. تكون رغبتهم في الثأر أقل حدة، ويرغبون في حياة أكثر استقرارًا وأقل دموية.. خاصة أن القبيلتين تسكنان في المدينة نفسها..

كان شعور الشباب أنه لم يعد الاستمرار ممكنًا في النظام القديم، النظام العشائري القبلي الذي لم يتمكن من حماية أبناء العمومة من الانجرار لحمام الدم، في حروب استمرت لأكثر من عقدين (ابتدأت بحرب اسمها حرب سمير[1] كان سببها المعلن أن أحدهم شتم سميرًا!) هذا النظام بدا للشباب معطوبًا وغير قابل للإصلاح..

كانت الأمور قد وصلت نقطة اللاعودة.. العتبة التي لا تعود فيها هناك إمكانية للاستمرار في نفس طريقة الحياة..

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السابع صفحة ١٣٨.

كان الشباب يستشعرون هذا، لهذا قال إياس بن معاذ: هذا خير مما جئتم له!لأنه بديل كامل عن موضوع الحرب... وليس مجرد حلف يساعدهم في تحقيق نصر في معركة..

ولهذا قال العباس لاحقًا عن الأنصار عند بيعة العقبة وهو يرى من جاء للبيعة: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث![1]

نعم.. كانوا هم الأكثر إدراكًا لحاجة الوضع إلى تغيير شامل..

ثم حدث ما سهل أمرهم...

حدث ما جعل الأمر في يثرب مختلفًا تمامًا..

حدث ما جعلها لا تتقبل الدعوة فقط..

بل تراهن عليها، وتنطلق فيها..

ماذا حدث؟

* * *

تقول السيدة عائشة بعبقرية نادرة عن الأمر: «**كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ، يَوْمًا قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلَامِ**»[2]

تقول أن يوم بعاث كان هدية من الله للرسول عليه الصلاة والسلام..

لماذا؟

لأن هذه الحرب قضت على كل صناديدهم من الكبار، كل كبار القوم وأشرافهم ممن كان من المتوقع معارضتهم للرسول، كلهم قضوا في الحرب...

لم يبق إلا الشباب...

تخيلوا مكة بلا أبي جهل ولا أمية بن خلف ولا عتبة بن ربيعة ولا العاص بن وائل..

---

(١) مسند أحمد ١٤٦٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٣٧٧٧.

أكيد سيكون هناك معارضون آخرون، لكن تخيلوا مجتمعًا نزعت منه رؤوس حرابه... وبقي فيه شباب متطلع إلى مستقبل أفضل..

أكيد سيكون تغير هذا المجتمع أيسر..

شعور الشباب بضرورة التغيير.. ونقطة اللاعودة..

ثم يوم بعاث، يزيل كل العقبات..

كان موعدًا مع التغيير..

ولو اتفقتم، لاختلفتم في الميعاد..

ولكن مواعيد التغيير لا يمكن التهرب منها، عندما تأتي.

* * *

يقول ماكس بلانك، الفيزيائي الألماني صاحب نظرية الكم: الأفكار الجديدة لا تنتشر باقتناع المعارضين لها بالحجج والبراهين..

بل يموت هؤلاء، ويأتي جيل جديد أكثر تقبلًا للفكرة الجديدة..

هذا القول، سبقته به السيدة عائشة...

* * *

من عمق الخراب، يمكن أن ينشأ أمل جديد..

من عمق الخراب، يمكن أن يولد شعور يجب استثماره، بأنه لا بد من إزالة كل ما أدى للخراب..

من عمق الدمار، يمكن لشعور جديد أن يولد.. بأن كل المنظومة القديمة يجب أن تزال..

قليلون يستشعرون هذا قبل أن يأتي الخراب.. كلامهم يكون كلامًا في الهواء عادة...

لكن الخراب يجعل الناس تتقبله أكثر..

ويصبح كل شيء.. قاب قوسين أو أدنى، من نقطة التحول..

عقبتان ونقطة تحول

وجود العقبات على الطريق أمر طبيعي جدًا، جزء من الطريق نفسه، ولا يتوقع أي راكب طريق أن لا يجد في دربه عقبات، بل تكون جزءًا من توقعاته على مختلف أنواعها، وغالبًا ما يكون متخذًا لاستعدادات عديدة لمواجهتها.. بعض من هذه الاستعدادات تكون مادية، وبعضها تكون نفسية... مجرد أن تكون مستعدًا لفكرة العقبات في دربك يعني أن تخطيها سيكون أسهل وأيسر..

وهذه العقبات غالبًا ما تنفع راكب الطريق على المدى البعيد.. تعلمه دروسًا لم تكن في حساباته، تشد من أزره وتزيد عوده صلابة..

وفي مسيرته عليه الصلاة والسلام عقبات، كما مع كل صاحب قضية ورسالة.. أكثر حجمًا ومعاناةً بسبب حجم رسالته وأثرها..

ولكن كان هناك أيضًا عقبات مختلفة..

عقبات استثنائية، ما أوتيت إلا له عليه الصلاة والسلام..

عقبات غيرت المسار تمامًا...

كانت عقبتين أولى وثانية...

فتحتا طريقًا جديدًا، مختلفًا تمامًا..

* * *

طيلة سنوات الدعوة كان عليه الصلاة والسلام يحدث الناس في الحج وفي عكاظ وفي مجنة، يحدثهم عن الإيمان بالله ويطلب منهم أن ينصروه «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟»، حتى إن القادم إلى مكة من اليمن أو من مضر كان يأتيه قومه فيقولون له احذر غلام قريش، لا يفتنك ويمشي عليه الصلاة والسلام بين رجالهم وهو يقول لهم ما يقول، وهم يشيرون إليه بالأصابع[1]..

---

(١) مسند أحمد ١٤٤٥٦.

وتنقل الأخبار أن عم الرسول (عليه الصلاة والسلام) أبا لهب كان يسير خلف الرسول عليه الصلاة والسلام ويقول: **لَا يَصُدَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِ آلِهَتِكُمْ**[1]، **أو إنه صابئ كاذب**[2]، وعندما يأتي هذا الكلام من عمه، فالأمر بالنسبة للعرب كما لو كان رفضًا وطعنًا من أقرب الناس له.. المنطق السائد كان يفترض أنه لو كان صادقًا لكان قومه وعمه أول من صدق وآمن به..

وكذلك كان أبو جهل يحثو التراب عليه ويقول: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ، وَتَتْرُكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى**[3] **وعليه الصلاة والسلام لا يرد عليه..**

كان الرسول يدعو الناس وهو يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**» **وَيَدْخُلُ فِي** فِجَاجِ منى وَالنَّاسُ مُتَجمعون عَلَيْهِ..

ولا أحد من الناس يَقُولُ شَيْئًا...

وَهُوَ لَا يَسْكُتُ[4]، **يستمر في دعوة الناس.**

بالتأكيد كان هناك من يسمع له ويصدقه.. ولكنه صار الآن -في مرحلة ما بعد الطائف- يبحث أيضًا عمن يؤويه.. عمن ينصره..

وفي حج السنة الحادية عشرة من البعثة، جاء المنعطف.

في تلك السنة بالذات، حدث شيء مختلف..

لَمَّا لَقِيَهُمْ (للخزرج) رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟

قَالُوا: بَلَى. فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ... فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْهِ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ.

---

(١) مسند أحمد ١٦٠٢١.

(٢) مسند أحمد ١٩٠٠٤.

(٣) مسند أحمد ١٦٦٠٣.

(٤) مسند أحمد ١٦٠٢٣.

ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا[1].

كانوا ستة، بينهم امرأة واحدة هي عفراء بنت عبيد.. ورافع بن مالك بن العجلان، ابن مالك بن عجلان الذي انتصر على اليهود في يثرب، وأسعد بن زرارة..

آمنوا به، وقد كان الإيمان ممهدًا في نفوسهم بسبب كل ما سبق شرحه من «الصلة اليهودية»، والشعور بعطب النظام الاجتماعي الذي قاد إلى الحرب المريرة بين الأوس والخزرج..

آمنوا، ووعدوا أن يقوموا بدعوة قومهم... ثم ذهبوا..

لكن هذا ليس كل شيء...

كان هناك من آمن أيضًا وعرض النصرة والمأوى على الرسول عليه الصلاة والسلام.. في نفس العام..

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْمَوْقِفِ فَيَقُولُ: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ: «مِمَّنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: مِنْ هَمْدَانَ قَالَ: «فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَخْفِرَهُ قَوْمُهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: آتِيهِمْ، فَأُخْبِرُهُمْ، ثُمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ، قَالَ: «نَعَمْ»[2]

من همدان، من قبائل اليمن..

قال أنهم سيحمونه ويمنعون الناس من أن يؤذوه..

ثم طلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يمهله حتى الموسم القادم.. أن يخبر قومه أولًا ثم يرجع له...

وفي نفس الوقت تقريبًا، جاء الطفيل بن عمرو الدوسي، الذي أسلم قبل ذلك في حوالي السنة السادسة أو السابعة للبعثة، لكن هذه المرة جاء يعرض حصنًا لقبيلة دوس على النبي عليه الصلاة والسلام[3].

لكن...

---

(١) سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق بإسناد حسن، بدء إسلام الأنصار، عن أكرم ضياء العمري، مصدر سابق.

(٢) مسند أحمد ١٥١٩٢.

(٣) صحيح مسلم ١١٦.

قبل أن يحين موعد عودة وفد همدان.. جَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ[1]

وعد من همدان بالقدوم بعد سنة، في موسم الحج القادم..

لكن وفد الأنصار يقتنص الفرصة، يأتي في رجب... بعد ستة أشهر.. وقبل ستة أشهر من الحج..

لا ينتظر شباب يثرب سنة كاملة..

كما لو أنهم يشعرون أن عليهم الإسراع باقتناص الفرصة قبل أن تذهب لسواهم..

كما لو أنهم كانوا يشعرون أن هذه السلعة يمكن أن تذهب لمكان آخر وتحقق نجاحًا ضاربًا هناك..

ويريدون هم أن يكونوا جزءًا من هذا النجاح.. يريدون أن يساهموا فيه وأن يحتضنوه عندهم.. أن ينطلق منهم..

هل ثمة اعتراض على استخدام لفظ السلعة والتعامل مع الأمر كما لو كان تجاريًا؟

لكنه كان هكذا بالضبط...

هذا هو التشبيه الأقرب لما حدث..

* * *

رغم أن وفد همدان لا يمكن الاستهانة بأهميته، وكذلك عرض الطفيل بن عمرو الدوسي (رغم أنه تبين لاحقًا أن قبيلته لم تكن قد آمنت بعد)، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفضل أن تسير الأمور باتجاه يثرب بالتأكيد، وذلك لعدة أسباب..

أولها- بُعد همدان ودوس (والقبيلتان في اليمن) عن مكة، والرسول عليه الصلاة والسلام كان يريد أن يبقى في دائرة التأثير على مكة بشكل أو بآخر، كان يعي أن التأثير على العرب بمجملهم يحدث بمكة، ولكي تؤثر على مكة لا يجب أن تبتعد عنها كثيرًا.

ثانيًا- علاقة القربى التي تجمعه ببني النجار من الخزرج، حيث يعد بنو النجار أخوالًا للنبي عليه الصلاة والسلام، والحقيقة أنهم أخوال جده عبد المطلب بن هاشم، حيث كانت إحدى زوجات هاشم بن عبد مناف من بني النجار وهي سلمى بنت عمرو،أم عبد المطلب والذي كان اسمه شيبة الحمد، ومات أبوه عنه وهو في الشام وتربى عند أخواله بني النجار في يثرب لفترة إلى أن أخذه عمه المطلب بن عبد مناف، ومن هنا جاءت تسمية «عبد المطلب».

هذا الأمر مهم جدًا ولا يجب أبدًا التقليل من أثره سواء في انتشار الإسلام في يثرب أو في اعتبار يثرب مكانًا جيدًا للهجرة، شعور أنهم «الأخوال» وأنه «ابن الأخت» حتى لو لم تكن هناك معرفة مباشرة كان يسهل مد جسور العلاقة الجديدة.

---

(١) مسند أحمد ١٥١٩٢.

ولا يمكن حذف هذه العلاقة وأثرها خاصة عندما نتذكر أن أوائل الأنصار، الستة الذين قابلوا النبي عليه الصلاة والسلام كانوا كلهم من الخزرج، وأن اثنين منهم كانوا من بني النجار، وكذلك كانت الامرأة التي معهم من بني النجار.

ثالثًا- التأثير اليهودي في يثرب كان يجعل الأوس والخزرج أكثر تقبلًا للدين والوحي من قبائل همدان ودوس(التي لا يستبعد وجود تأثير يهودي عليهما بسبب انتشار اليهودية في اليمن ولكن على نحو أقل وضوحًا من يثرب)، كما أن العداء اليهودي لم يكن قد تبين وتأكد في هذه المرحلة بعد، ولعل عليه الصلاة والسلام كان يأمل في إسلامهم.

كما أن حالة «المدنية» في يثرب ووجود عدة قبائل مستقرة في مكان واحد، كان يمنح فرصة أكثر تنوعًا وثراءً للمزيد من الانتشار بين القبائل الأخرى خارج يثرب، مما لو استقر الرسول عند قبيلة واحدة، هي همدان أو دوس.



أولئك الذين جاؤوا من يثرب في رجب من السنة الثانية عشرة للبعثة قاموا بفعل شيء غريب جدًا..

فلنتذكر أن أوائل المسلمين كانوا يعرفونه عليه الصلاة والسلام، ويعرفون أخلاقه مباشرةً، هو ابن مدينتهم.. وحتى من لم يتعامل معه مباشرةً، فقد كان معروفًا..

جزء كبير من تصديق وإيمان أوائل المسلمين في مكة كان راجعًا لأمانته وصدقه... محمد لا يكذب، هو يقول أن الوحي جاءه، وهو أيضًا ليس بمجنون، إذن هو صادق والوحي قد نزل عليه فعلًا..

هذا مع أوائل مكة..

أوائل يثرب كانوا موضوعًا مختلفًا..

لم يكن للمعرفة الشخصية أثر كبير في الأمر، حتمًا كان له كاريزما خاصة يوم جلس معهم أول مرة، لكنها كانت مرة واحدة، وليس كل من جاء في رجب كان قد رآه في تلك المرة..

لقد كان إيمانهم مبنيًا على أسس مختلفة... لقد ركزوا على الرسالة هنا في هذه المرحلة أكثر من الرسول... عليه الصلاة والسلام..

الصلة اليهودية لا بد أنها ساهمت في ذلك، وأيضًا شعورهم الحاد بعطب المجتمع والحاجة إلى شيء جديد مختلف كليًا... وإيمانهم بالآخرة وبثواب الجنة أيضًا..

لكن كان هناك أيضًا شيء مهم جدًا...

كان لديهم أيضًا هذا الاستعداد العالي للمخاطرة..

ما فعلوه كان مخاطرة بكل المقاييس وكل الأحوال...

مخاطرتهم كانت أعلى حتى من مخاطرة أوائل مكة.. على خطورته، كان الأمر في مكة في البداية لا يحتوي على كل تلك المخاطرة إذ إنه لم يكن من المعروف وقتها حجم الصد والعداء الذي ستبذله قريش.. أوائل مكة صدقوا بما قاله عليه الصلاة والسلام..

أما أوائل يثرب، الأنصار الأوائل، فقد كانوا يقدمون المأوى والنصرة لرجل كان قومه يحاصرونه، وهذا يعني أنهم في خطر مزدوج، من قومهم أولًا، فلم يكن الإسلام قد انتشر فيهم بعد، ومن قريش التي لا بد أنها ستعتبر نصرته عملًا عدائيًا ضدها..

والمخاطرة جزء من النجاح والريادة..

لا يمكنك أن تنجح جدًا أو تحقق تميزًا كبيرًا دون نسبة من المخاطرة..

وكلما كان موضوع المخاطرة كبيرًا، متعلقًا بالمجتمع وليس بفرد واحد أو مجموعة أفراد، كانت المخاطرة أكبر...

والأنصار الأوائل كانت مخاطرتهم تتعلق بمدينتهم كلها، بقبيلتين، بالعلاقة مع اليهود ومع قريش...

المخاطرة ليست جزءًا من أي نجاح فردي فقط، بل هي جزء أيضًا من تطور الإنسانية عبر التاريخ، والإنسان مفطور على أخذ بعض المخاطرات في حياته، منذ عهد الإنسان الأول، كان لا بد من المخاطرة من أجل شعلة نار، أو مواجهة حيوانات مفترسة، أو الانتقال إلى أرض جديدة..

لكن لماذا يقوم بعض البشر بذلك؟

لأن المخاطرة عندما تنجح، تنتج عن ثمرة كبيرة.. عن ثمن يستحق المخاطرة..

وكان الثمن الذي في بال الأنصار مزدوجًا.. ويستحق المخاطرة..

الأول هو الجنة، وكانت ركنًا ركينًا من الإيمان الجديد.

والثاني هو أن يكون الإسلام بديلًا أفضل لمجتمعهم...

* * *

كانوا اثني عشر رجلًا.. عشرة رجال من الخزرج، واثنان من الأوس.. أولئك الذين كانوا في بيعة العقبة الأولى.

التقوا بالرسول عليه الصلاة والسلام، وبايعوه.

نقولها الآن هكذا، كحدث تاريخي مر علينا.. هذه هي البيعة الأولى وقد بايع فيها اثنا عشر رجلًا من الأنصار الرسول عليه الصلاة والسلام.. إلخ.

لكنها كانت حدثًا فاصلًا..

هنا رجال جاءوا من مسافة ٤٠٠ كيلومتر ليبيعوا أنفسهم -حرفيًا، هي بيعة- لرجل لا يعرفونه تقريبًا...

عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ» فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ[1]..

للوهلة الأولى، ستبدو هذه أمورًا عامة ضمن مكارم الأخلاق، لا خطورة فيها.

الشيء الوحيد الذي يختلف عن مكارم الأخلاق عند العرب هنا كان نبذ الشرك، ولا يبدو الأمر خطرًا جدًا إذ الأمر كان في يثرب ليس بحدته في مكة.

لكن الأمر في جوهره كان يحمل أبعادًا أكبر..

كانت البيعة على هذا النحو بطريقة ما اختراقًا مباشرًا عمليًا لقيم الجاهلية... ولعل ذلك لم يحدث إلا الآن...

كانت البيعة عند العرب تقدم لسيد القبيلة أو العشيرة، أو للملك في المناطق النادرة التي نشأت فيها الممالك.. لم تقدم قط على أساس رابطة إيمان أو دين أو فكرة..

هذه الحادثة كانت سابقة في بلاد العرب...

أن يبايع أفراد من قبائل مختلفة، شخصًا من قبيلة مختلفة كليًا.. وعلى أساس «غيبي» تمامًا...

لقد هبت رياح التغيير...

* * *

---

(١) صحيح البخاري ١٨.

واختار الرسول عليه الصلاة والسلام مصعب بن عمير ليذهب مع الأنصار الأوائل، يعلمهم القرآن[١].

التفكير في السبب الذي جعل الرسول عليه الصلاة والسلام يختار «مصعب» سيفتح لنا نافذة على طريقة تفكيره...

كان مصعب من مهاجري الحبشة، وقد عاد منذ فترة يسيرة إلى مكة.

لا بد أن تجربة الهجرة قد صقلته وجعلته أكثر معرفة بطبائع البشر واختلافات عاداتهم، وهذا سيجعله أكثر قدرة على التعامل مع أهل يثرب.

فضلًا عن ذلك، مصعب بن عمير كان من أكثر شباب مكة وسامة واهتمامًا بأناقته[٢]، وليس هناك ما يدعو إلى التصور بأنه تغير بعد ذلك، ومن الصعب تحييد أثر الشكل على عملية إقناع الناس والتأثير فيهم، علمًا أن أهل يثرب كانوا معروفين بلطفهم ورقتهم مقارنة بأهل مكة نتيجة لاختلاف المناخ وكثرة البساتين حول المدينة، لذا فرقة ولطف مصعب ستكون مقدرة عندهم.

وربما كان غياب مصعب عن مكة، غالبًا سيفسر بعودته للحبشة، وهذا أمر يؤخر معرفة قريش بالأمر.

أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام لهم أيضًا، بعد مصعب، ابن أم مكتوم، ليقرئهم القرآن أيضًا.. ابن أم مكتوم الأعمى الذي عاتبه الله فيه.. كما لو أنه يقول لهم: لا تركزوا على الشكل والمظهر أكثر مما ينبغي.

وانتشر الإسلام في يثرب حتى «لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ»[٣].

بعبارة أخرى: لقد حدثت نقطة التحول.

السياق هذه المرة، كان مساعدًا لحدوثه.

* * *

ثم جاؤوا في موسم الحج التالي..

ثلاثة وسبعون رجلًا هذه المرة، وامرأتان[٤]: نسيبة بنت كعب.. وأسماء بنت عمرو..

---

(١) مسند أحمد ١٨٥١٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٤٩٠٤.

(٣) مسند أحمد ١٤٦٥٣.

(٤) سيرة ابن هشام تحقيق السقا الجزء الأول صفحة ٤٤١.

قابلوه في شعاب العقبة مستخفين متسللين بعيدًا عن الأعين.. وحضر العباس، عم الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يزال على دين قومه، ولكن يريد أن يستوثق مما يدور.. وهنا نظر العباس في وجوههم وقال هؤلاء أحداث.. لا أعرفهم (**هل يا ترى قال عليه الصلاة والسلام في نفسه: نعم عماه.. هؤلاء أحداث.. ولأنهم كذلك، فقد رأوا العالم بعين مختلفة..**)

فقالوا له: يا رَسُولَ الله، عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟

قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي الله لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ... وَلَكُمُ الْجَنَّةُ»[1]

هذه هي بيعة الحرب إذن.. أو هكذا صار اسمها.. بيعة أنهم سيدافعون عنه ويمنحونه المنعة والنصرة كي يوصل رسالة ربه...

هذه عملية بيع حقيقي.. لقد باعوا أنفسهم له بطريقة أو بأخرى، سمع وطاعة، نشاط وكسل، عسر ويسر، نصر ومنعة.

هذه بيعة نهائية.. البيعة الأولى كانت بيعة على التوحيد ومكارم الأخلاق، وأهميتها كانت في أنها «بيعة»...

لكن هذه؟ هذه ربطتهم به عليه الصلاة والسلام على نحو يجعل مصيرهم مرتبطًا به.. هذه بيعة على المعنى الحقيقي للشطر الثاني من الشهادة... أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ثم وقف أصغر السبعين، أسعد بن زرارة ليقول لهم، قبل أن يبايعوا أن يتنبهوا لما يقدمون عليه.. أنتم تختارون ما سيجعلكم ضد كل العرب.. وعليكم تحمل النتائج:

رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله، إِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً، فَخُذُوهُ

(١) مسند أحمد ١٤٥٦٣.

وَأَجْرُكُمْ عَلَى الله، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ الله قَالُوا: يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ (أي.. ابعد!)، فَوَالله لَا نَذَرُ هَذِه الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ* ،وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ[1]..

والله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها..

المباع لا يرد ولا يسترجع! مكتبة الرمحي أحمد

* * *

أفكر كيف كان يفكر يا ترى، كيف كان يشعر، عليه الصلاة والسلام، عقب بيعة كل رجل منهم.. واحدًا واحدًا...

لا أشك أن وجهه كان ينثر النور حوله.. ولا أشك أن وجهه كان هادئ القسمات... مطمئنًا.. وهو يأخذ البيعة منهم واحدًا واحدًا..

لكن أتساءل كيف كان يشعر من الداخل وهو يرى ثمرة جهده أخيرًا..

ثلاثة وسبعون رجلًا# وامرأتان، في ليلة واحدة..

احتاج الأمر سنوات طويلة في مكة للوصول إلى هذا العدد!

هل كانت رسالته تكبر لتسع الأرض أم أن الأرض كانت تصغر لتضمها الرسالة؟

حسب ترتيب النزول فإن سورة الأنبياء التي نزلت بالتسلسل ٧٣ قد نزلت في فترة مقاربة أو ضمن كل هذه الأحداث...

وكان فيها آية... **﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الأنبياء(٤٤)**

هذا ما كان يحدث بالضبط...

---

* والعباس شاهد على عقد البيع.

(١) مسند أحمد ١٤٥٦٣.

بعض المصادر تذكر أنهم كانوا سبعين، على عادة العرب في حذف كسور الأعداد.

ومطلع السورة التي نزلت بعدها.. بالتسلسل ٧٤... هل كان يصف المجتمع الجديد الذي بدأ بالتكون في يثرب...

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)﴾ الأنبياء (١:٨)

ربما..

* * *

أتخيل أنه كان يريد أن يفرغ من البيعة فقط ليذهب ويسجد سجدة طويلة لربه...

أتخيل أن خلاياه كانت قد سبقته بالسجود، بينما هو يأخذ البيعة.. أن روحه كانت قد شرعت بالسجود قبل جسده..

أحاول أن أتخيل ما قال ليلتها في سجوده... كيف حمده عز وجل... كيف شكره.. كيف كانت دموعه...

تراه تمنى لو أن خديجة كانت موجودة؟ لعله استغفر لها، وسالت دمعة مختلفة بين دموع تلك الليلة..

هل تذكر تلك السنوات الطويلة...اثنتي عشرة سنة... من الصدود... من الإهانات..من التجاهل.. من الصبر والإصرار على أن يجعلهم يقولون لا إله إلا الله..

أتمنى لو أعرف كيف أنهى سجوده تلك الليلة.. هل سقى الأرض بدموعه تلك الليلة..

هل نبت شيء ما هناك، لاحقًا...

صلى الله عليه وسلم...

تذكرة مرجعة من فضلك!

في السيرة النبوية نموذجان للهجرة.

نموذج من أجل الحياة ومن أجل أن تكون الحياة كريمة.. أي من أجل البقاء على قيد الحياة أولًا، ومن أجل أن تكون هذه الحياة كريمة.. وهو نموذج هجرة الحبشة، لم يقم الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا النوع شخصيًا لكنه لم يعارضه إطلاقًا.. بل لقد كان خيارًا اقترحه الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه وتكرر مرتين خلال سنوات مكة ولم ينته فور الهجرة إلى المدينة، بل عندما توفرت في المدينة «حياة كريمة»..

النموذج الآخر، هو هجرة المدينة، وقد كانت هجرة تأسيس وبناء، نعم طلب الرسول عليه الصلاة والسلام الحماية من الأنصار، لكنها حماية مختلفة عن تلك التي حصل عليها مهاجرو الحبشة.

مهاجرو الحبشة حصلوا على الحماية لكي يمارسوا معتقداتهم وحريتهم في العبادة دون أن تتعرض حياتهم للخطر، ودون أن ينالهم أحد أو ينال كرامتهم بسوء (حياة + حياة كريمة).

أما الحماية التي كانت مطلوبة من الأنصار، فقد كانت حماية «المشروع»، حماية «لا إله إلا الله» وهي تنتقل وتنتشر... بل في الحقيقة ليس حمايته فقط، بل تبنيه أيضًا..

الحمايتان مختلفتان تمامًا، والخلط بينهما قنبلة موقوتة، نراها في الكثير من دول اللجوء في الغرب.. حيث يذهب المهاجرون لطلب الحماية والحياة الكريمة، ومن ثم ينتقلون فجأة إلى مرحلة المدينة ويطالبون الحبشة أن تكون يثرب!

* * *

لم تكن قريش نائمة عن أمر الاتفاق مع الأوس والخزرج تمامًا...

فمنذ اليوم التالي لبيعة العقبة الثانية مباشرة، وقريش قد وصلها شيء ما...

يروي كعب بن مالك، أحد حضور البيعة، وهو الصحابي الذي عرف لاحقًا في قصة المخلفين:

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَاللهِ إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ، قَالَ: فَانْبَعَثَ مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا، يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ، وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا، قَالَ: فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ(١)

شيء ما تسرب إلى كبار قريش... محمد عليه الصلاة والسلام كان يدعو قبائل العرب علنًا، لم يخف ذلك، وكانت قريش تراهن على دعايتها المضادة لصرف العرب عنه... ربما رأى أحدهم مسلمي الأنصار وهم يتسللون ليلًا، فقدر أن الأمر مرتبط بشيء سري لابد أن يكون له علاقة بمحمد عليه الصلاة والسلام..

حلف لهم مشركو الخزرج أن الأمر لا صحة له، وكانوا صادقين إذ إنهم لا يعرفون شيئًا عن الأمر، وكان المسلمون منهم يتبادلون النظرات!

* * *

بكل الأحوال، بدأ المسلمون بالهجرة إلى يثرب.

ولم تكن هناك سياسة واضحة من قبل قريش لمنعهم من ذلك.. كل ما كان يحدث هو محاولة التنكيل قدر الإمكان وغالبًا من عشيرة الشخص المهاجر..

أبو سلمة مثلًا، الذي كان قد عاد من الحبشة قبل ذلك، ولقي العداء والأذى مجددًا من عشيرته، خرج إلى يثرب، كأول مهاجر إليها، وحتى قبل مصعب بن عمير، وفرقوا بينه وبين زوجته أم سلمة وبين ابنه سلمة، حتى صار كل منهم في مكان.. ورغم أنهم منعوه من أن يأخذ زوجته وابنه معه، فإنهم تركوه يمضي(٢)...

كذلك كان الأذى متفاوتًا على ما يبدو حسب قوة الشخص وعشيرته وعلاقته بمن حوله، صهيب الرومي مثلًا، ولأنه بلا عشيرة، تمت مساومته على الهجرة مقابل كل ماله..

عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، أَنَّ صُهَيْبًا حِينَ أَرَادَ الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ لَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: أَتَيْتَنَا صُعْلُوكًا، فَكَثُرَ مَالُكَ عِنْدَنَا، وَبَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ ثُمَّ تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ، وَاللهِ لَا يَكُونُ

---

(١) مسند أحمد ١٥٧٩٨.

(٢) سيرة ابن هشام الجزء الأول صفحة ٤٦٩.

ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ مَالِي أَتُخَلُّونَ سَبِيلِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُمْ مَالِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «رَبِحَ صُهَيْبٌ، رَبِحَ صُهَيْبٌ»[1]

بينما لم يحدث ذلك بالضبط مع سواه، ففي قصة عمر بن الخطاب[2] مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص ما يدل على بقاء مال عمر على حاله بعد هجرته، كما تدل نفس القصة على أساليب قريش في منع الهجرة (حبس هشام بن العاص قسرًا، واستخدام عواطف عياش تجاه أمه كي يرجع)، علمًا أن «عياش» هو أخو أبو جهل لأمه، أي أن أبا جهل كان في هذا الموضوع على نحو مباشر كالعادة..

* * *

تسرب المسلمون بالتدريج، وقريش تراقب ما يحدث وتنكل بهم قدر الإمكان.

خرج بلال بن رباح وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر بعد مصعب وابن أم مكتوم..

ومن ثم خرج عمر بن الخطاب مع عشرين شخصًا آخرين[3]، ومن الواضح أن هذه كانت خطة من الرسول عليه الصلاة والسلام لإجلاء عدد كبير من الصحابة مرة واحدة، ربما كان الأمر لأن قريش بدأت تصعد من تنكيلها لهم أو تفاديًا لمحاولة منعهم.

ويدل تعدد أخبار هجرة عمر عن وجود أكثر من جانب لها، فعمر هاجر مرة واحدة بالتأكيد، والصحيح والثابت أنه هاجر سرًا بعشرين من الصحابة، وبالجمع مع قصة أخرى عن هجرة عمر ربما كان يجب أن يكون هشام بن العاص وعياش بن أبي ربيعة[4] مع هؤلاء العشرين.. لكن قصة مشهورة عن تقلد عمر السيف في الكعبة وإعلانه لقريش أنه سيهاجر وأن من أراد أن تثكله وتترمل زوجته فعليه أن يلحقه «وراء هذا الوادي» في تحدٍ للجميع[5]..هذه القصة ضعيفة السند ولكنها لا تتعارض برأيي مع القصة الصحيحة عن هجرة عمر مع عشرين صحابيًا، في تصوري ربما ما فعله عمر كان «قنبلة دخانية» للتغطية على تسرب عشرين مهاجرًا وانتظارهم له في جهة معاكسة للوادي الذي أشار له...

* * *

(١) صحيح ابن حبان ٧٠٨٢.
(٢) مسند البزار ١٥٥ الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء الثالث صفحة ٢٠٥.
(٣) صحيح البخاري ٣٩٢٥.
(٤) مسند البزار ١٥٥ الطبقات الكبرى الطبعة العلمية الجزء ٣ صفحة ٢٠٥ .
(٥) كنز العمال ٣٥٧٩٦ .

كان عليه الصلاة والسلام، يفضل أحيانًا أن يكون في الظل..

نعجب بما قال عمر وتحدياته، نصفق لشجاعة علي، نشيد بحكمة أبي بكر، وكرم عثمان...

لكن في الحقيقة أنه كان موجودًا في كل هؤلاء.. كان القائد الذي يعلم الجميع كيف يقدمون كل ما عندهم، كان القائد الذي يعلم أن بناء المجتمع لا يمكن أن يكون وظيفة رجل واحد حتى لو كان الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه..

لذا نراه يترك لهم الهامش الذي يتحركون فيه فيكشفون عن رؤيتهم وقدراتهم..

فهذا ما سيساهم في جعل التذكرة مرجعة..

لا تكون مرجعة أبدًا، بجهود فردية..

* * *

مع عشرين مهاجرًا مرة واحدة، لا بد أن قريش أدركت الآن أن هذه هجرة مختلفة، وليست هجرة مثل سابقتها إلى الحبشة، ليست هجرة أفراد يرغبون في أوضاع أكثر أمانًا..

وأدركت أنها ربما كانت قد تأخرت كثيرًا في احتواء الموضوع وإيقافه عند حده.

هل كانت صفعة العشرين مهاجرًا في مرة واحدة هي التي أشعرت قريشًا بضرورة اتخاذ موقف؟

هل تسربت لها تفاصيل بيعة العقبة الثانية وأدركت أنها أمام تحدٍ وجودي؟

لا نعرف بالضبط... لكن قريشًا لم تبد معارضة شديدة لهجرة أفراد كثيرين إلى يثرب.. مساومات، مضايقات، ابتزاز عاطفي، لكن لا موقف موحد اجتمع عليه ملأ قريش.

الآن، يبدو لها الموقف يستحق وقفة أشد.

هل هو عدد المهاجرين الذي تجمع في يثرب؟

هل هي البيعة وقد عرفوا تفاصيلها وعرفوا أنها بيعة استعداد للحرب؟

أم هو شيء آخر، ربما يكون حدث، بل لا بد أن يكون قد حدث، وسهل عليهم أن يجتمعوا ليقرروا؟

* * *

في هذه الفترة تقريبًا، بينما المسلمون يهاجرون إلى المدينة.. وقريش حائرة في الموقف الذي عليها أن تتخذه تجاه ما يحدث..

نزلت سورة النبأ.. بالتسلسل ٨٠ حسب ترتيب النزول..

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾ النبأ (١:٥)

كانت الأيام حبلى بنبأ عظيم.. وكانت قريش تحدس أن ثمة ما يحدث وثمة ما سيحدث وتعرف أنه سيكون له عواقب... لكنها لم تكن تعرف كم هو عظيم هذا النبأ... أو النبأ العظيم النهائي.. النهائي جدًا...

* * *

العالم أيضًا كان يمر بأحداث مهمة في هذه الفترة.

كان الساسانيون (الفرس) يلحقون الهزائم منذ فترة بالروم البيزنطيين، لكنهم تمكنوا من تحقيق نصر غير مسبوق على البيزنطيين في هذه الفترة، حيث تمكنوا من احتلال أنقرة -وكانت وقتها قاعدة عسكرية مهمة في وسط الأناضول- كما أن جزيرة رودس وجزر أخرى في بحر إيجه سقطت في قبضة الساسانيين وأصبحت القسطنطينية نفسها مهددة بهجوم بحري[١].

حدث ذلك سنة ٦٢٢ ميلادية.

الهجرة حدثت سنة ٦٢٣ ميلادية.

وسورة الروم نزلت بالتسلسل ٨٤...

قبل الهجرة بسورتين فقط.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)﴾ الروم (٢: ٤)

كان الساسانيون يعيشون انتصاراتهم، ولم يكونوا يعرفون أن هذه السنة تحديدًا ستعتبر بداية مرحلة الانحدار والسقوط لإمبراطوريتهم، أولًا بهزائم على يد البيزنطيين يستردون ما فقدوه سابقًا، ومن ثم عندما يواجهون قوة جديدة لم تكن موجودة على خارطة الصراع في تلك السنة... ولم يكونوا يتخيلون أن أحداثًا تبدو غير مهمة تقع جنوب مناطق انتصاراتهم، وغير بعيدة عن مناطق سيطرتهم المباشرة، ستؤدي إلى أن تزال إمبراطوريتهم تمامًا خلال عقدين من الزمن فقط.

ولم يكونوا يعرفون أيضًا أن حالة الحرب المستمرة بينهم وبين البيزنطيين ستجعلهم منهكين على نحو يفسح المجال للقوة الجديدة، التي كانت لم تظهر بعد.

* * *

(١) https: //en. wikipedia. org/wiki/Byzantine%E٩٣%A٠%٢Sasanian_War_of_%٦٠٢E#٩٣٦٢٨%A٠%٢Climax_of_the_war

فرغت مكة تقريبًا من مسلميها.

لم يبق فيها إلا ثلاثة، غير من حبس من قبل عشيرته أو افتتن وقرر البقاء نتيجة ما لقي من عشيرته...

الثلاثة كانوا: الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبا بكر، وعلي بن أبي طالب[1].

وكان أبو بكر يريد أن يهاجر، فيطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يأذن له بذلك.

لكن عليه الصلاة والسلام كان يقول له: **«لَا تَعْجَلْ؛ لَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا»**[2]

وكان قلب أبي بكر يدق عندما يسمع هذه الكلمة.

طمعًا أن يكون هو -الرسول عليه الصلاة والسلام- هذا الصاحب.

---

(١) سيرة ابن هشام تحقيق السقا الجزء الأول صفحة ٤٨٠.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٤٦٢ .

أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟

منذ اليوم الأول للوحي، بينما هو لا يزال يرتجف من أثر اللقاء الأول.. كان يعلم عليه الصلاة والسلام أن هذا سيحدث..

لقد أخبره ورقة بن نوفل فورًا «ليتني أكون جذعًا إذ يخرجك قومك..»

لم يسأل عليه الصلاة والسلام عن شيء من كل ما قاله ورقة، وكان قد قال أيضًا عن «الناموس الذي جاء موسى»..

بل سأل عن هذا الأمر تحديدًا، عن الخروج من مكة..

«أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟»

هل سيخرجني قومي من مكة بسبب هذا؟

ويقول له ورقة «نعم..»، سيخرجونك... لم يكن يقرأ الغيب.. كان يستقرئ فقط النمط المتكرر من الأحداث والوقائع التي جرت مع بقية الأنبياء والرسل..

كان عليه الصلاة والسلام متعلقًا بمكة، وطنه، لدرجة أن أول سؤال سأله لورقة كان عن خروجه.. سؤال يعكس عدم رغبته بالخروج.

لثلاث عشرة سنة بعد جواب ورقة، ورغم أن كل ما فعله أهل مكة كان يؤيد قول ورقة، فإن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان يحاول أن يكون هناك جواب آخر لذلك السؤال.. أن يكون ورقة قد استعجل.. أن يكون ثمة استثناءات.

لثلاث عشرة سنة وهو يبحث عن جواب آخر..

لكن، كان ورقة على حق..

لقد آن أوان الخروج...

* * *

همس لها، لمكة... لاحقًا عندما عاد إليها بعد سنوات...

«مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»[1]

(١) سنن الترمذي ٣٩٢٦ وصححه الألباني.

أخرجوني منك..

هكذا قال لها... كما لو كان يكرر ما قاله له ورقة..

فلنتنبه هنا أنه يخاطب مكة ويقول لها ما أطيبك من بلد..

مكة التي لقي فيها الصدود والرفض والتكذيب والاستهزاء..

مكة التي حاربته ثلاثة عشر عامًا من حياته..

لكنه يحبها لا يزال..

ويقول لها ما أطيبك من بلد وأحبك إلي..

يكاد يتغزل بها هو الذي غادرها مضطرًا.

بعض الأمور عصية على التفسير، على العقلنة.. مشاعرنا أحيانًا لا تخضع لقوانين العقل الذي لو تدخل في أمر كهذا لحكم ضد ما تقول به العواطف..

نحب مدننا الأم، كما نحب أولادنا، مهما أساءت تلك المدن معاملتنا.. نحبها، حتى لو لم نشعر بها تبادلنا الحب... نحبها كقدر لا يمكن الخلاص منه.. نحمل حبها معنا مثل الوشم حتى لو هجرناها...

نهاجرها نعم... لكنها لا تهاجرنا..

تراه تجول في شوارعها قبل أن يغادر، احتضنها بعينيه ورئتيه وملأ كل ما يمكن من هوائها في رئتيه كما لو كان يختزن منها للقادم من الأيام..

مكة كانت بالنسبة له أمه التي يذكرها بالكاد.. أباه الذي لم يره..

مكة التي عاد إليها وحيدًا من تلك الرحلة التي دفن فيها أمه وهو ابن ست سنوات..

مكة كانت بالنسبة له خديجة التي كانت أجمل قدر له قبل أن يأتيه الوحي... غيرت حياته ووقفت بجانبه.. آمنت به قبل أن يؤمن بنفسه..

مكة كانت ولديه اللذين فارقاه مبكرًا، القاسم وعبد الله..

مكة كانت بناته، أشِعَّة من قبس خديجة، تنير البيت..

مكة كانت صديقه الذي صدق به بكل ما قال، حتى قبل أن يسمعه..

مكة كانت العم الذي تكفل به ووقف بجانبه..

مكة كانت المكان الذي التقاه فيه الوحي أول مرة.. التحم الوحي بالنسبة له فيها على نحو يجعل فراقها صعبًا كفراق الوحي..

مكة أيضًا كانت كل ما حاربه.. كانت الاستهزاء به.. والسخرية.. والتحذير منه عندما يأتي العرب للحج..

كانت سلا الجزور على رقبته وهو ساجد... وقميصه يشد على رأسه ليخنقه...

كانت عمه الآخر الذي أهانه وتبرأ منه علنًا..

وبنته تطلق انتقامًا منه..

كانت الحصار المرير، وصحيفة المقاطعة.. والقطن في آذان الناس كي لا يسمعوه...

وهي الوداع المرير لعمه وهو يرفض أن يقولها.. وحوله من يقول: عبد المطلب! عبد المطلب!

مكة هي ضحك الناس وتصفيقهم عندما عاد من الإسراء...

مكة كانت هي المدينة التي طلب الجوار ليدخلها بعد الطائف..

مكة هي رجال مثل مطعم بن عدي، ومثل عمه أبي طالب، رجال بمعدن نقي... وقفوا معه بشرف ونخوة... ولكن نقاء معدنهم لم يجعلهم يقولون الكلمة التي تنجيهم..

مكة هي كل من كان يتمنى أن يؤمن.. ولم يفعل..

مكة هي الخليط من كل ذلك..

ورغم ذلك...

يحبها.. بقي يحبها..

* * *

ومكة كانت ذكريات كل الوحي الذي أنزل عليه فيها..

هي الغار الذي شهد أول وحي نازل.. هي الطرقات لا تكاد تحمله وهو يأخذ الوحي الأول إلى المنزل.. هي دار الأرقم بن أبي الأرقم على جبل الصفا والآيات تقرأ فيه... هي كل ركن شهد آية أو سورة..

هي الكعبة، عند الركن اليماني، وسجدتان هناك.. مرة بعد أخرى...

* * *

والآن... الخروج منها.

نعم، كان الأمر صعبًا، كان عقله مقتنعًا تمامًا بضرورة الخروج بلا شك، لكن على الأغلب كان قلبه يتمزق.. مثل طفل يأخذونه من أمه مجددًا..

لعله كان يخاف أن يحل بهم العذاب لو خرج.. كما حدث مع الكثير من الأقوام...

كان يتمنى المزيد من الوقت لهم... لعل وعسى.. لعل وعسى...

في قرارة قلبه، كان قلبه وعقله يواسيان قلبه.. سأغادر مكة من أجل مكة..

سأعود إليها، وستكون أفضل..

لم تكن هجرته بتذكرة باتجاه واحد، ذهاب فقط، بلا إياب...

كانت تذكرته مرجعة..

ذهاب وإياب..

* * *

وفي النهاية... لم يخرج إلا بعد الإذن بالخروج...

ولم يأت الإذن إلا بعد أن قررت قريش قتله عليه الصلاة والسلام...

لقد أخرجوه... حرفيًا..

لم يكن هناك خيار...

سوى أن يخرج..

* * *

لا شيء ثابت عن تفاصيل قرار قريش بقتله عليه الصلاة والسلام.

الشيء الثابت الوحيد أنهم قرروا قتله بنص القرآن...

﴿وإِذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال (٣٠)

والآية هنا تشير إلى وجود خيارات متعددة لمشركي قريش: يثبتوك (الحبس)، ويقتلوك، ويخرجوك (النفي).

وهناك قصة مفصلة في السيرة عن اجتماع رؤوس قريش للتشاور في الأمر ووصولهم إلى هذه الاقتراحات الثلاثة. القصة سندها ضعيف ولكنها متماسكة في معظم أجزائها ومتوافقة مع الآية القرآنية...

في القصة شيء واحد غير منطقي وسأتركه كما هو وأعلق عليه لاحقًا...

«قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ... لَمَّا أَجْمَعُوا لِذَلِكَ، وَاتَّعَدُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ لِيَتَشَاوَرُوا فِيهَا فِي أَمْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَدَوْا فِي الْيَوْمِ الَّذِي اتَّعَدُوا لَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يُسَمَّى يَوْمَ الزَّحْمَةِ، فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي هَيْئَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ، عَلَيْهِ بَتْلَةٌ، فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الدَّارِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَاقِفًا عَلَى بَابِهَا، قَالُوا: مَنْ الشَّيْخُ؟

قَالَ: شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ سَمِعَ بِالَّذِي اتَّعَدْتُمْ لَهُ، فَحَضَرَ مَعَكُمْ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُونَ، وَعَسَى أَنْ لَا يُعْدِمَكُمْ مِنْهُ رَأْيًا وَنُصْحًا،

قَالُوا: أَجَلْ، فَادْخُلْ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا أَشْرَافُ قُرَيْشٍ، مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ ابْنِ رَبِيعَةَ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ. وَمِنْ بَنِي نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ: طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ. وَمِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى: أَبُو الْبَخْتَرِيِّ ابْنِ هِشَامٍ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ.

وَمِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ: النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ. وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ: أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ. وَمِنْ بَنِي سَهْمٍ: نُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ،

وَمِنْ بَنِي جُمَحٍ: أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَا يُعَدُّ مِنْ قُرَيْشٍ.

... فَتَشَاوَرُوا ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: احْبِسُوهُ فِي الْحَدِيدِ، وَأَغْلِقُوا عَلَيْهِ بَابًا، ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ مَا أَصَابَ أَشْبَاهَهُ مِنْ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ، زُهَيْرًا وَالنَّابِغَةَ، وَمَنْ مَضَى مِنْهُمْ، مِنْ هَذَا الْمَوْتِ، حَتَّى يُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ.

فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لَا وَاللهِ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ. وَاللهِ لَئِنْ حَبَسْتُمُوهُ كَمَا تَقُولُونَ لَيَخْرُجَنَّ أَمْرُهُ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ الَّذِي أَغْلَقْتُمْ دُونَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَلَأَوْشَكُوا أَنْ يَثِبُوا عَلَيْكُمْ، فَيَنْزِعُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثُمَّ يُكَاثِرُوكُمْ بِهِ، حَتَّى يَغْلِبُوكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، فَانْظُرُوا فِي غَيْرِهِ.

فَتَشَاوَرُوا ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: نُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَنَنْفِيهِ مِنْ بِلَادِنَا، فَإِذَا أخرج عنّا فوالله مَا نُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ، وَلَا حَيْثُ وَقَعَ، إِذَا غَابَ عَنَّا وَفَرَغْنَا مِنْهُ، فَأَصْلَحْنَا أَمْرَنَا وَأَلْفَتَنَا كَمَا كَانَتْ.

فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لَا وَاللَّهِ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيثِهِ، وَحَلَاوَةَ مَنْطِقِهِ، وَغَلَبَتِهِ عَلَى قُلُوبِ الرِّجَالِ بِمَا يَأْتِي بِهِ، وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ مَا أَمِنْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَيَغْلِبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ حَتَّى يُتَابِعُوهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسِيرُ بِهِمْ إِلَيْكُمْ حَتَّى يَطَأَكُمْ بِهِمْ فِي بِلَادِكُمْ، فَيَأْخُذَ أَمْرَكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثُمَّ يَفْعَلَ بِكُمْ مَا أَرَادَ، دَبِّرُوا فِيهِ رَأْيًا غَيْرَ هَذَا. فَقَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ: وَاللَّهِ إِنَّ لِي فِيهِ لَرَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ بَعْدُ، قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْحَكَمِ؟

قَالَ: أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلِيدًا نَسِيبًا وَسِيطًا فِينَا، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ فَتًى مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَعْمِدُوا إِلَيْهِ، فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ، فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ. فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ جَمِيعًا، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ قَوْمِهِمْ جَمِيعًا، فَرَضُوا مِنَّا بِالْعَقْلِ، فَعَقَلْنَاهُ لَهُمْ.

فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: الْقَوْلُ مَا قَالَ الرَّجُلُ، هَذَا الرَّأْيُ الَّذِي لَا رَأْيَ غَيْرُهُ، فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ»[1].

انتهت القصة كما أوردها ابن إسحاق، وهناك صيغة مختصرة لها ولكن بنفس الخطوط العامة أوردها عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه[2].

والقصة منطقية لكن وجود إبليس في سياقها لا معنى له، وهل يحتاج أصلًا إبليس أن يحضر وفي القوم أبو جهل؟ وكيف عرفوا لاحقًا أنه إبليس؟ في الغالب هذا الشيخ النجدي -فيما لو صح وجوده- هو رجل اتفق معه أبو جهل لكي يدخل في النقاش ويرجح ما سيقوله أبو جهل، وقد كان.

فلنتفحص الحاضرين من منظار التحالفات القديمة في قريش.

حلف المطيبين (الذي فيه بنو عبد مناف وضمنهم بنو هاشم) حضورهم العددي أكبر من حلف الأحلاف المضاد لحلف المطيبين.

عدد الحاضرين من حلف المطيبين هو ٩ مقابل ٥ فقط من حلف الأحلاف.

هل يبدو هذا الأمر لصالح حلف المطيبين؟

---

(١) سيرة ابن هشام ت السقا الجزء الأول صفحة ٤٨٠-٤٨٢.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٩٧٤٣.

فقط في السطح. لأن الحاضرين من حلف المطيبين على كثرة عددهم فهم لا يغطون كل العشائر في الحلف. حضر ممثلون عن ٣ عشائر فقط من أصل ٨... غاب بنو هاشم وبنو المطلب من بني عبد مناف، وغاب بنو تيم (عشيرة أبي بكر) وبنو زهرة (عشيرة آمنة بنت وهب) وبنو الحارث بن فهر.

بالمقابل فإن حلف الأحلاف لم يتغيب عنه غير بنو عدي (عشيرة عمر).

وهكذا فإن زيادة عدد ممثلي عشائر حلف المطيبين كانت فقط للتغطية على وجود ثغرة في عدم حضور كل العشائر للاجتماع.

ولكن لعل العدد كان مقلقًا بكل الأحوال لأبي جهل، فجاء بالشيخ النجدي ليعوض عن ذلك بتأييد ما سيذهب له.

ونحن هنا لا نقول أن الاجتماع كان على أساس التحالفات القديمة، ولكن هذه التحالفات بقيت تلعب دورًا في حدة وشدة العداء للرسول عليه الصلاة والسلام.

من الـ١٤ وجهًا من وجوه الذين حضروا الاجتماع، قتل ١١ منهم في بدر، كافرين في معسكر قريش.

ونجا ثلاثة فقط وأسلموا في فتح مكة وهم أبو سفيان وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام، وكلهم من عشائر المطيبين.

كما ينبغي أن ننتبه هنا أن النص لا يوحي بوجود سرية في الموضوع، فالحضور كثيرون، بل سمي اليوم «يوم الزحمة»! وهذا يعني أن قريش لم تكن مكترثة لتسرب الخبر، على الأقل ليس قبل أن تصل لقرار القتل.

كما يلاحظ غياب أبي لهب، عم النبي عليه الصلاة والسلام، رغم شدة عدائه، ولكن لعل قريشًا أرادت أن تحفظ له «ماء وجهه» أو ربما كي تدفع له الدية لاحقًا، فلم تحرجه بالحضور الذي يتطلب منه الموافقة على ما يصلونه من قرار.

لكن الأهم من كل ذلك..

محمد عليه الصلاة والسلام في جوار مطعم بن عدي..

فكيف يصدر قرار بقتله دون صدام مع مطعم، علمًا أن ابنه جبير كان حاضرًا عن بني نوفل؟

الجواب هو أن «مطعم» لا بد أن يكون قد توفي.

لا يمكن أن يصدر قرار كهذا يتجاهل جوار مطعم وحمايته للرسول عليه الصلاة والسلام، إلا إن كان مطعم بن عدي قد نزع جواره، أو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد نزع نفسه من هذا الجوار وهو ما لم يحدث، بدليل ثناء لاحق -بعد الهجرة- من الرسول عليه الصلاة والسلام بحق مطعم بن عدي. [1]

لا بد أن يكون مطعم قد مات حتى حدث كل هذا.. بل إن وجود ابنه في الاجتماع كوجه من وجوه بني نوفل في حياة أبيه أمر مستبعد عشائريًا، يمكن أن يحضر الاثنان، أما أن يحضر الابن ويغيب الوالد وهو حي، فهذا مستبعد.

متى مات مطعم بن عدي؟ لا شيء مؤكد، غير أنّا نرى الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال في يوم بدر، بعد سنتين من هذه الحادثة في حق أُسَارَى بَدْرٍ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[2]

أي أنه مات قبل ٢ هجرية، بعض الأخبار، دون سند، تقول أنه توفي بعد الهجرة بسنة، لكن الشيء الوحيد المنطقي هو أن يكون مطعم قد توفي قبل اجتماع قريش، بل أن تكون قريش قد تشجعت على اتخاذ خطوة ضد الرسول عليه الصلاة والسلام دون أن تؤدي إلى اقتتال داخلي بسبب وفاة مطعم بن عدي.

لذا أعتقد أن الحدث الذي جعل قريش تتخذ قرار القتل، هو زوال حماية مطعم بن عدي عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد توفي آخر كفار قريش «المحترمين».

---

(١) صحيح البخاري ٤٠٢٤.

(٢) صحيح البخاري ٤٠٢٤.

«سبلنا»

كانت ظهيرة حارة.

انتهت بعشاء أخير في مكة..

ظهيرة حارة أخبرتنا عنها السيدة عائشة[1] والرسول يزورهم فيها في وقت لم يكن يأتيهم فيه، بل في وقت لم يكن يعتبر وقتًا مقبولًا للزيارة عند أهل مكة.. كانوا يسمون الوقت «نحر الظهيرة»، أي عندما تبلغ الشمس منتهاها.

جاءهم عليه الصلاة والسلام في «نحر الظهيرة» وجاء متقنعًا كي لا يعرفه أحد، فيقول قلب أبي بكر **«وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ»**.

ولا يتأخر الجواب إذ يقول عليه الصلاة والسلام بعد أن تأكد من خلو الدار إلا من أهل أبي بكر: **قد أذن لي في الخروج..**

فيدق قلب أبي بكر وهو يقول: **الصحبة يا رسول الله؟**[2]..

فيقول عليه الصلاة والسلام، **نعم..**

كان أبو بكر ينتظر هذه اللحظة منذ أن أخبره الرسول عليه الصلاة والسلام أن لا يستعجل الهجرة «لعل الله يجعل لك صاحبًا»... بل إنه أعد راحلتين، واحدة له وأخرى للرسول عليه الصلاة والسلام، أعدهما لهذه الرحلة منذ أن أخبره الرسول أن لا يعجل.. لأربعة أشهر[3].

وإذا كانت مرحلة الوحي قد ابتدأت وأبو بكر فيها كأول من صدق من الرجال، فمرحلة يثرب تبدأ وأبو بكر هو الوحيد الذي يصحبه..

وسيكونان معًا في هذه الرحلة التي ستخلد صداقتهما وحيًا يقرأ إلى يوم الدين..

بجمع رواية السيدة عائشة في صحيح البخاري وابن عباس في مسند الإمام أحمد والمستدرك فإن ما حدث هو كالتالي: الرسول عليه الصلاة والسلام يخبر أبا بكر للتجهز والانطلاق، لكنه لا ينطلق معه من بيته..

---

(١) صحيح البخاري ٣٩٠٥.

(٢) صحيح البخاري ٥٨٠٧.

(٣) صحيح البخاري ٥٨٠٧.

«.. وَشَرَى عَلِيٌّ نَفْسَهُ، لَبِسَ ثَوْبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَامَ مَكَانَهُ، قَالَ: وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، وَعَلِيٌّ نَائِمٌ، قَالَ: وَأَبُو بَكْرٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، قَالَ: فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِ انْطَلَقَ نَحْوَ بِئْرِ مَيْمُونٍ... وَجَعَلَ عَلِيٌّ يُرْمَى بِالْحِجَارَةِ كَمَا كَانَ يُرْمَى نَبِيُّ اللهِ، وَهُوَ يَتَضَوَّرُ، قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ فِي الثَّوْبِ، لَا يُخْرِجُهُ حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَلَئِيمٌ، كَانَ صَاحِبُكَ نَرْمِيهِ فَلَا يَتَضَوَّرُ، وَأَنْتَ تَتَضَوَّرُ، وَقَدِ اسْتَنْكَرْنَا ذَلِكَ»[1].

فأبو بكر يذهب ليلًا إلى بيت النبي (بعد أن أنهى تجهيز الراحلتين والاتفاق مع الدليل)، فيجد علي بن أبي طالب قد اشترى نفسه ليفدي الرسول عليه الصلاة والسلام ونام مكانه ولبس بردته، ويحسبه أبو بكر النبي نفسه، لكن عليًا يخبره أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد انطلق إلى بئر ميمون (مما يلي جبل عرفة) فأدركه هناك بينما يبدو أن المشركين قد ذهبوا إلى بيت النبي لاحقًا بعد انطلاق أبي بكر إلى بئر ميمون، فكانوا يرمون عليًا بالحجر وهم يحسبونه الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد غطى رأسه كي لا يعرفوه[2].

لماذا كان المشركون يرمون الرسول بالحجارة؟ وتعليقهم لعلي أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتضور (أي يتلوى من الوجع) بينما علي تضور واستغرابهم من ذلك يدل أنهم كانوا دومًا يفعلون ذلك، حتى تعودوا عدم اكتراثه عليه الصلاة والسلام.

مرة أخرى.. لماذا كانوا يرمونه بالحجارة؟

لقتله؟ الحجارة لا تقتل هكذا، واتفاقهم على القتل كان بمشاركة كل عشائر قريش بضربة سيف واحدة..

غالبًا كانوا يراقبونه كل ليلة، حرصًا على عدم خروجه من مكة بانتظار حسم أمرهم بالقرار الذي توصلوا له فعلًا في دار الندوة.

وخلال ساعات الانتظار، كانوا يحاولون استفزازه برمي الحجارة عليه.. مجرد استفزاز وتحرش من هذا الذي يعمد له البشر عندما تتحكم فيهم غرائزهم السفلية في التنمر والاعتداء...

وكان عليه الصلاة والسلام يستفزهم بعدم اكتراثه...

* * *

(١) مسند أحمد ٣٠٦١.

(٢) مسند أحمد ٣٠٦١ المستدرك ٤٢٦٣، ٤٦٥٢ .

لكن لماذا كان يمكن للمشركين أن يطلوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بينما هو نائم؟

هل هذا طبيعي؟

أن يكون مكان نومه متاحًا لمن في الطريق؟

في الحقيقة إن حجرته عليه الصلاة والسلام -وهي الحجرة التي كانت للسيدة خديجة أيضًا- كانت (حسب وصف المؤرخين*) تقع في طرف قصي تصعب رؤيته من الخارج، وهذا طبيعي جدًا. كذلك الأمر مع الغرفة التي وصفت بأنه كان يتعبد ويختلي فيها، وهي ملاصقة لحجرة السيدة خديجة وأقرب إلى وسط البيت...

تبقى هناك الحجرة التي كان يستقبل فيها الرسول عليه الصلاة والسلام ضيوفه، وهي على يسار البيت ومطلة على الزقاق، ولكن لا كلام عن وجود نافذة يمكن لمن في الشارع أن يرى من خلالها، ولا يبدو أن ذلك من عادة المكيين آنذاك.

في الغالب إذن أنه عليه الصلاة والسلام كان نائمًا في الطرقة، وهي بمثابة الباحة في وسط البيت والتي تكون عادة غير مغطاة بسقف، والتي يمكن للجيران أن يطلوا عليها من بيوتهم، وباتجاهها كان يأتي الرمي من دار أبي لهب ودار عدي بن الحمراء جيرانه عليه الصلاة والسلام[1] وربما كان يمكن رؤية من في الباحة من الطريق لمن وقف على مرتفع فيه خاصة أن الطرقة فيها مصطبة بارتفاع ثلاثين سنتيمترًا.

لكن لماذا كان عليه الصلاة والسلام ينام هناك على نحو يمكن رؤيته للمارة أو لمن يتعمد ذلك منهم؟ ومن الواضح من حديث المشركين أن هذا ما «تعودوا» عليه.

غالبًا كان كل ذلك جزءًا من الخطة التي كان ينفذها عليه الصلاة والسلام منذ مدة على نحو يضلل المشركين. ينام لأيام أو أسابيع في الباحة، بحيث يعتاد المشركون ذلك، وهم يراقبونه أو يرمونه، وعندما يتسلل من مكة، يكون هناك من ينام مكانه، فيكون ذلك غطاءً له لبضع ساعات إلى أن يخرج من مكة ويبتعد عنها.

كذلك فلننتبه هنا إلى أن البيت لم يكن خاليًا، كانت السيدة فاطمة وأم كلثوم بنتا النبي لا تزالان فيه، أيضًا من المستبعد أن تكون زوجته السيدة سودة بنت زمعة قد سبقته بالهجرة، لذلك ربما كانت أيضًا في البيت وقت حدوث كل ذلك، علمًا أن الأخبار تقول أن العباس عم النبي قد اصطحبهن إلى المدينة لاحقًا[2].

* * *

* الوصف هو للرحالة البتنوني في كتابه الرحلة الحجازية وأيضًا تنقيبات وصور الدكتور سامي العنقاوي.

(١) أخبار مكة للفاكهي الجزء الثالث ٣٨٤.

(٢) سيرة ابن هشام تحقيق السقا الجزء ٢ صفحة ٤١٠.

ماذا عن القصة التي تروي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خرج أمام المشركين الذين يحاصرون بيته، ولكنهم لم يروه لأنه أخذ حفنة من التراب ونثرها على رؤوسهم وهو يقرأ من سورة يس فأخذ الله أبصارهم أثناء ذلك[1].

مشكلة هذه القصة ليس سندها الضعيف فقط بل معارضتها للصحيح من نص مسند الإمام أحمد.

فحسب النص الصحيح: أبو بكر يذهب إلى بيت النبي ويقابل عليًا الذي يخبره أن النبي قد سبقه إلى بئر ميمون. ولم يكن هناك مشركون أمام البيت.

وهذا يعني أن التسلسل هو كالآتي: الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج، أبو بكر يحضر، ومن ثم يذهب، ومن ثم يحضر المشركون الذين يتوهمون بقاء النبي في البيت بسبب مبيت علي في مكان نومه. أي أن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج مبكرًا قبل الموعد المعتاد لحضور المشركين.

بينما نص إذهاب البصر يفترض وجود المشركين أثناء خروج الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا يعني أنهم سيصادفون أبا بكر، وهذا ما سيجعل الأمر خطرًا جدًا إذ إنهم سيتابعونه حتمًا.

قصة إذهاب البصر لا داعي لها في سياق ما نعرف من أحداث ثابتة.

* * *

كل شيء بعدها يجري بسرعة.

ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ

(١) سيرة ابن هشام ت السقا الجزء الأول صفحة ٤٨٣.

اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيًا خِرِّيتًا، وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ[1].

الخطة معدة مسبقًا.

ثلاث ليالٍ في غار ثور عكس الاتجاه إلى يثرب.

عبد الله بن أبي بكر يتسلل ليلًا لينقل لهما أخبار مكة مما يمكن أن يكون خطرًا عليهما، ويذهب قبل الفجر بحيث يصبح في مكة كما لو أنه بات فيها.

عامر بن فهيرة - وهو واحد من العبيد السبعة الذين اشتراهم أبو بكر ليعتقهم- يترك الغنم تسرح قربهما (بين العشاء وآخر ظلمة الليل قبل الفجر) فيكون عندهما اللبن الذي يقيهما من الجوع، ويكون ذهاب عبد الله بن أبي بكر قبل أن يصيح عامر بن فهيرة للغنم كي يسحبها، فتغطي الغنم على آثار عبد الله.

لم يصح أن أسماء بنت أبي بكر كانت تأخذ الطعام إليهما* ولو حدث ذلك لكان مثيرًا للشك عند قريش، بل كان عامر هو راعي غنم أبي بكر أصلًا... وما يفعله لن يثير الشك، لأنه لم يكن يحمل الطعام أصلًا.

دليلهما كان ماهرًا خبيرًا بالطريق على دين المشركين.. خبرته أهم من دينه هنا... وكان فوق خبرته من حلفاء آل العاص بن وائل السهمي، أحد أكبر أعداء الرسول من أحد أهم العشائر المعادية له.. ويبدو الاختيار مقصودًا... لن يبدو حليف العاص بن وائل مشكوكًا به من قبل قريش.

لكن كيف أمناه؟ هو أجير وسيأخذ أجرته. ولكن قريش يمكنها أن تدفع أكثر! ببساطة لا شيء عندنا يرد على هذا السؤال. لكن أحيانًا مجرد النظر في وجه الرجل يمكن أن يكشف عن أخلاقياته التي لن تسمح له بأن يغدر باتفاقه.

بغض النظر عن دينه.

* * *

(١) صحيح البخاري ٣٩٠٥.

* ولكن صحت تسميتها بذات النطاقين لأنها شقت نطاقها في تحضير الرحل.

تلك الخطة المعدة بإتقان، التي رسمت الطريق إلى الهجرة... هل كانت من ضمن هداية السبل؟

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت (٦٩)

آخر آية في سورة العنكبوت.

السورة التي نزلت بالتسلسل ٨٥ في مكة..

قبل آخر سورة في مكة بالضبط..

وهي السورة الوحيدة التي وصف فيها نبي بأنه مهاجر...

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العنكبوت (٢٦)

نزلت في نفس الفترة التي «أذن له بالهجرة»..

عليه الصلاة والسلام...

* * *

لكن فريق مشركي قريش لم يكن ساذجًا، ومن المنطقي أن من وضع خطة ينام فيها علي مكان النبي، يكون قد وضع خدعًا أخرى في الخطة.. ورغم كل الاحتياطات فقد شك المشركون بأن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر قد سلكا الطريق المعاكس لطريق يثرب، وربما راقب أحدهم عبد الله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة فوجدا اتجاههما واحدًا..

المهم أن الكفار وصلوا لمنطقة الغار، على مقربة منه، حتى إن أبا بكر قال كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قَالَ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[1]

كان المشركون على بعد «نظرة» حرفيًا.

ولكنهم لم ينظروا إلى الأسفل، ولم يروهما، كانوا فوق الغار... نظروا هناك وهناك، يمينًا وشمالًا.. بينما كان قلبا محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه فارغين مثل فؤاد أم موسى، معلقين برحمته عز وجل..

لكن المشركين لم ينظروا إلى الأسفل... هكذا... يمينًا وشمالًا... ومن ثَمَّ ذهبوا يبحثون عن مكان آخر..

* * *

(١) صحيح البخاري ٤٦٦٣.

تخيلوا تلك الدقائق..

عندما كان المشركون على مرمى نظرة إلى أقدامهم...

تلك الدقائق، لعلها كانت قليلة، لم تتجاوز الثلاث أو الأربع..

تخيلوا قلب الرسول عليه الصلاة والسلام..

لعل كل دقة فيه كانت تدعو الله...

تراه كان يدعوه كما دعاه لاحقًا يوم بدر بصوت سمعه الجميع..

اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ. [١]

تراه دعاه باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب..

تراه كان يقول يا حي.. يا قيوم برحمتك نستغيث[٢]...

تراه كان يقول اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم[٣]..

تراه كان يقول أيًا من تلك الأدعية التي تقال عند البلاء والكرب في كتيبات الأذكار..

ربما قالها جميعًا.. بحرقة.. من القلب..

لكن فلنتذكر أيضًا..

لقد فعل الكثير قبلها.. لم يكتف بالدعاء في مواجهة الكرب..

ما الذي حدث في تلك الليالي الثلاثة في الغار...

لا تفاصيل..

لكن ثمة حدثًا كبيرًا مهمًا جدًا طغى على كل شيء.. نقلته لنا الآية الكريمة..

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة (٤٩)

---

(١) صحيح مسلم ٥٨.

(٢) السلسلة الصحيحة ٣١٨٢.

(٣) أبو داوود ١٥٣٧.

كان الله معهما..

ذلك الترقب، وتلك العزلة، وذلك العيش للبيالِ على حافة كل شيء، حيث جهد ثلاثة عشر عامًا على المحك، ذلك الخطر الكامن من المشركين الذي وصلوا الآن إلى أقصى ما يمكن من عداء..

كان الله معهما...

الغار كان صغيرًا ضيقًا.. لكنه لم يكن ضيقًا على أن يكون الله معهما...

* * *

يخيل لي هنا أن «لا تحزن إن الله معنا»، عندما همسها عليه الصلاة والسلام في الغار لأبي بكر، كانت مختلفة عن الطريقة التي نفهمها اليوم...

نتخيل دومًا أن أبا بكر كان جزعًا، خائفًا وأنه عليه الصلاة والسلام كان يطمئنه..

لكن الحزن غير الجزع..

ربما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام الحزن في عيني أبي بكر، الحزن على الدين على الدعوة على المؤمنين، فيما لو حدث أن وجدهما المشركون وظفروا بهما..

الحزن، لا الجزع..

فكان تطمينه له عليه الصلاة والسلام من هذا الباب..

ليس من باب أنهم لن يظفروا بنا، بل أن الله معنا في قضيتنا الأساس.. حتى لو تعثرنا هذه المرة...

بالنسبة لهما، كانا قد فعلا كل ما بوسعهما لإنجاح المهمة، ولو أنهما مثلًا خرجا للهجرة أمام قريش جهارًا نهارًا ودون أي إجراءات وقائية، ولو أن قريش طاردتهما وكادت أن تظفر بهما بسهولة، فهل كان عليه الصلاة والسلام سيقول لأبي بكر: لا تحزن إن الله معنا؟

لكي يكون الله معك، عليك على الأقل أن تؤدي بعض ما وضعه الله من سنن وقوانين..

لا أن تترك الأمور على ما نسميه -للأسف- «البركة»، وتعني غالبًا الإهمال..

وتتوقع أن يكون الله معك..

* * *

في الكثير من مقدمات مصائبنا وكوارثنا اليوم نقول ما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر في الغار..

لا تحزن.. إن الله معنا...

عليه الصلاة والسلام وأبو بكر تجنبا الوقوع في الكارثة.. عملا كل ما يمكن.. فكرا بكل شيء عكن لعدم وقوعها... بعدها قال لا تحزن، إن الله معنا...

أحيانًا، لا نكون قد أهملنا تجنب الكوارث، بل نكون قد فعلنا كل ما يؤدي إليها..

ثم نقول، لبثّ الطمأنينة.. لا تحزن إن الله معنا..

ثم تأتي الكارثة... ويقول من يقول: أين الله؟

بالتأكيد لم يكن معنا.. لأننا لم نكن معه..

* * *

ثم انتهت الليالي الثلاثة، وجاء الرجل الأجير بالراحلتين.. وخرجا من غار ثور يقصدان المدينة.. ولا بد أن عامر بن فهيرة كان جزءًا من خطة بديلة فيما لو لم يظهر الرجل الأجير بالراحلتين في صباح الليلة الثالثة... الرحل المتجه إلى يثرب كان مكونًا من أربعة، الرسول عليه الصلاة والسلام، أبي بكر، عامر بن فهيرة، والدليل.

عنكبوت ما... حمامة ما...
وأوان الرحيل عنهما..

خرجا إذن-الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر- من الغار بعد ثلاث ليالٍ وذهبا مع عامر بن فهيرة والدليل..

هكذا؟!

أين العنكبوت والحمامة إذن؟!

أليس هذا المقطع هو ذروة حبكة الأحداث؟

أليس هذا هو الموقف الذي تدق فيه قلوبنا جميعًا بينما المشركون على وشك أن يكتشفوا أين التجأ الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه..

ثم يحدث التدخل الإلهي الحاسم عبر وضع بيت للعنكبوت على مدخل الغار، ويكتمل المشهد بحمامة في عشها على مدخل الغار أيضًا تثبت للمشركين أن محمدًا عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون قد مر من هنا ليدخل في الغار.

أليس هذا ما رسخ في ذاكرتنا وأذهاننا عن الغار وعن الهجرة؟

هذا ما رسخ بالفعل. ولكن الحقيقة لا تسكن بالضرورة فيما رسخ في أذهاننا.

* * *

فلنتحدث أولًا عن سند القصة.

أقوى ما جاء في قصة العنكبوت (وليس فيها حمامة من قريب أو بعيد) رواه الإمام أحمد في مسنده.. **«فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصَعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نَسْج العنكبوتِ، فقالوا: لو دخَل ها هنا لم يكن نسْجُ العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليالٍ»**[1]

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٢٥١.

أغلب علماء الحديث أجمعوا على تضعيف سند هذا الحديث[1].

الحديث الآخر الذي ورد في طبقات ابن سعد[2] وفي مسند البزار[3] ومعجم الطبراني الكبير[4] وفيه حكاية الحمامتين اللتين وقفتا بفم الغار وليس هذا فقط، بل دعا لهما النبي وذهبتا إلى الحرم وكل الحمام في الحرم المكي من ذريتهما!

قال الألباني[5]: منكر، وهو يستخدم هذا اللفظ لوصف الحديث الباطل أو الموضوع، وفي سنده شخص مجهول وآخر منكر الحديث.

ثم قال: لا يصح حديث في عنكبوت الغار والحمامتين[6]، رغم شهرة الأمر.

* * *

لكن ضعف السند ليس المشكلة هنا، فقد مرت بعض الروايات الضعيفة وأخذنا بها.

فلم الأمر هنا يختلف؟

أولًا- لأن ما سبق وقبل من وقائع ضعيفة السند كان يغطي ما لم يوجد فيه روايات صحيحة توضح ما حصل أو تلقي الضوء عليه، لذا فالضعيف هو كل ما لدينا في وقائع معينة؛لذا يجب تفحصه ورؤية إن كان متسقًا مع بقية الأحداث، وقد وضحت هذا في مقدمة الكتاب.

ثانيًا- في موضوع الغار لدينا أسانيد صحيحة ومتفق عليها تروي ما حدث. لا حاجة للضعيف ما دام قد حضر الصحيح.

ثالثًا- الصحيح هنا ليس متوفرًا فقط، بل هو يقدم ما يتعارض مع الضعيف، فكيف يمكن الأخذ بالضعيف؟

أين التعارض؟

---

(١) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، فيه عثمان الجزري، ويقال له: عثمان المشاهد، قال عنه أحمد: روى أحاديث مناكير زعموا أنه ذهب كتابه(أي أن الإمام أحمد نفسه قد ضعفه، ولا مشكلة في رواية حديث ضعيف السند طالما لم يذكر أن كل ما في مسنده صحيح).

وقال المحقق أحمد شاكر: في إسناده نظر، من أجل عثمان الجزري، فهذا عثمان الجزري، إن كان ابن ساج، فهو مجهول الحال عندنا، لم نتبين أمره، وإن كان ابن عمرو بن ساج فهو إلى الضعف أقرب. وضعفه الألباني لنفس العلل السابقة. وهذا لا يمنع أن هناك من قبله، مثل ابن كثير الذي قال: «وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة العنكبوت على فم الغار».

(٢) الجزء الأول صفحة ١٧٧.

(٣) مسند البزار ٤٣٤٤.

(٤) معجم الطبراني الكبير ١٠٨٢.

(٥) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١١٢٨.

(٦) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١١٨٩.

في الصحيح يقول أبو بكر عند اقتراب المشركين على بعد نظرة منهما: **لوْ أن أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا..**

أبو بكر يقول هذا، وهو في الغار، لحظة اقتراب المشركين من الغار..

لو كان هناك بيت للعنكبوت على فم الغار، وأبو بكر في داخل الغار، لرآه، ولعرف أنها نجدة إلهية على شكل عنكبوت.

لا شيء في الصحيح يدل على أن الرسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر عرفا بوجود العنكبوت أو شاهداه، ولو كان رآه أي منهما لقال للآخر..

هل يعقل أن حدثًا كهذا أصلًا يسقط سهوًا من ذاكرة أبي بكر الصديق أو من ذاكرة أنس بن مالك «راوي الحديث لاحقًا» بحيث لا يذكر في النسخة صحيحة السند من الواقعة الموجودة في صحيح البخاري؟

رابعًا- الأهم من كل هذا.

قصة العنكبوت والحمامة تعارض الآية القرآنية.

كيف؟

تقول الآية القرآنية:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة (٤٠)

الآية تقول أيده بجنود لم تروها...

والعنكبوت والحمامة شيئان مرئيان.. والأحاديث الضعيفة تتحدث عن عنكبوت هناك من رآه وروى عنه... وإلا كيف عرف بوجوده أصلًا ما لم يره..

لكن الآية واضحة وصريحة...

أن التأييد لم يأت عن طريق أي شيء رأيتموه.

علمًا أن هذا الوصف استخدم في القرآن مرتين غير هذه:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ(٤٠)﴾ التوبة(٢٦) وهذا في غزوة حنين.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ الأحزاب(٩) في غزوة الأحزاب.

وفي الحالتين كان الوصف لما هو غير مرئي (اعتبر أنه الملائكة في الحالتين، ملائكة دعم في غزوة حنين، وملائكة تخذيل في الأحزاب)..

الأمر في الآية التي تخص الغار مطابق للآية الأخرى في سورة التوبة وآية سورة الأحزاب... كما حدث التخذيل للمشركين في الأحزاب، حصل تشتيت الانتباه في الغار..

المهم... جنود لم تروها..

وهذا وصف لا ينطبق على عنكبوت وحمامة...

خامسًا: قصة العنكبوت والحمامة غير متسقة تمامًا مع عموم أحداث الهجرة التي كان التنسيق والتنظيم هو عمادها الأول.. بل هي غير متسقة مع الخطوط العامة للإسلام التي لا تجعل «الحدث الخارق» مركزيًا وأساسيًا حتى لو كانت تتقبل وجود وإمكانية حدوث «أحداث خارقة».

وحادثة مثل العنكبوت والحمامة -لو حدثت- فهي مركزية بالنسبة لأحداث الهجرة. الذروة تحدث عندها.

أغلب الخطباء والوعاظ يذكرون قصة العنكبوت والحمامة وهم يعرفون ضعفها.. لكن ما الضرر؟ هكذا يبررون.

لعلهم لا يدركون أن القصة عندما تذكر «تخطف» مشهد الهجرة كله، ولا يبقى في الأذهان من كل ذلك الإعداد الدقيق والتنسيق والتخطيط المتقن غير حدث خارق لا يمكن الاستفادة منه عمليًا لأنه ببساطة غير قابل للتكرار، بينما مع الإعداد والدقة والإتقان والتخطيط هناك دروس يمكن استحضارها دومًا والاستفادة منها كل يوم...

* * *

إذن لا عنكبوت ولا حمامة في الغار؟

نعم للأسف.

القصة ستكون أكثر جاذبية وجماهيرية لو كان هناك عنكبوت وحمامة... والدليل انتشار هذا الجزء بالذات وتحوله إلى رمز وأيقونة للهجرة في أذهاننا..

لكن...

لا عنكبوت ولا حمامة، على مدخل الغار.

يا للخيبة!

* * *

لكن ثمة عنكبوت وحمامة في مكان آخر.

في الحقيقة، ثمة بيوت لجيش من العناكب، وأعشاش لأسراب من الحمام.

أين؟

في كل مكان في السيرة تقريبًا.

ثمة عنكبوت وحمامة في أذهاننا نحن على مدخل كل مفصل من مفاصل سيرته عليه الصلاة والسلام، تمنعنا من الدخول والتعمق والتفحص.. تمنعنا من إعادة النظر وإعادة الفهم والربط والتحليل.

ثمة عنكبوت وحمامة في أذهاننا، ومعهما إشارة تقول أحيانًا: هذه منطقة لم يدخلها أحد من قبل، لا تدخلها...

وتقول لنا في أحيان أخرى: هذه منطقة دخلوها من قبل وقالوا فيها كل ما يمكن أن يقال... لا داعي للدخول مجددًا..

وقد آن أوان أن نزيحهما.

لم يكن هناك عنكبوت وحمامة في مدخل الغار...

ولا يجب أن يكون عنكبوت وحمامة.. على مدخل عقولنا، بينما هي تتفاعل مع السيرة...

* * *

في الطريق، وفي حر الظهيرة، وجدا صخرة لها ظل[1]..

فاستراحا في ظلها، ونام عليه الصلاة والسلام.. وبينما هو نائم جاء راعي غنم.. يريد من الصخرة ما يريدان...

فطلب منه أبو بكر أن يحلب لهما لبنًا من الشاة.. فحلب، وانتظر أبو بكر أن يستيقظ الرسول من النوم، فاستيقظ، وشرب من اللبن، حتى رضي أبو بكر!

ثم سأل الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر، عندما مالت الشمس: «أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ؟»[2]

فقال أبو بكر: بلى!

(١) صحيح البخاري ٣٦١٥.

(٢) صحيح البخاري ٣٦١٥.

مطلوب حيًا أو ميتًا

جن جنون قريش.

بالنسبة لها، كانت خطة صقورها على وشك أن تنفذ أخيرًا، أن تقتله عليه الصلاة والسلام، أن تنهي القضية التي أرقتها لأكثر من عشر سنوات.

ولكنه عليه الصلاة والسلام أحبط ذلك بينما كانت هي تحبس أنفاسها لتنفذ ما اتفقت عليه.

في الأيام الثلاثة الأولى، كانت قريش تعتقد على ما يبدو أنها قادرة على الإمساك به، لذلك فقد أرسلت تبحث عنه في كل مكان، في دائرة أوسع وأبعد بكثير من المكان الذي اختار عليه الصلاة والسلام أن يلتجئ له.

غار ثور كان على بعد أربعة كيلومترات فقط من المسجد الحرام، أي أن المسافة بين الغار ومنزله عليه الصلاة والسلام يمكن أن تقطع في أقل من ساعة.

عندما أصبحت قريش على نبأ خروجه عليه الصلاة والسلام، كان المتوقع أن يكون قد أصبح أبعد بكثير من مسافة ساعة.

المتوقع ممن يخرج وهو مهدد بالقتل أن يسرع في الابتعاد قدر الإمكان عن مصدر الخطر.

لكن ذلك كان المتوقع الذي عملت الخطة النبوية على تجاوزه والبناء على عكسه.

عمليًا: الرسول عليه الصلاة والسلام اختبأ في ضواحي مكة، وترك قريشًا تبحث عنه في دائرة أوسع بكثير.

الخدعة لم تكن فقط في كون الغار جنوب مكة، عكس طريق يثرب.

لكن كانت أيضًا في قربه من مكة.

وهذا قد يفسر جزئيًا عدم التدقيق الذي حصل على الغار رغم الاقتراب منه.

من وصل إلى هناك، كان يعتقد أن لا جدوى من البحث في هذه المنطقة، بعد يومين من خروجه عليه الصلاة والسلام، وفي اتجاه معاكس للطريق المتوقع!

بعد أيام، أيقنت قريش أنه قد خرج من يدها، من دائرة نفوذها المباشرة.

وهكذا أرسلت رسلها على الطريق إلى يثرب لتعلن بين العرب عن دية في كل من الرسول عليه الصلاة والسلام وأبي بكر لكل من يقتلهما أو يأسرهما[١].. أي مائة ناقة لكل منهما... ومائة ناقة كانت مبلغًا يضرب به المثل في الكثرة[٢].

وكان سراقة بن مالك بن جعشم يجالس قومه بني مدلج، فقال أحدهم أنه لمح رجالًا في ركب يسيرون بالساحل وهو يظن أنه محمد وأصحابه، فعرف سراقة أنهم هم فعلًا، لكنه طمع في الجائزة فقال للرجل أنهم ليسوا هم، وأنهم فلان وفلان انطلقوا آنفا[٣]..

ثم انطلق سراقة على فرسه حتى اقترب منهم فعثرت فرسه، وهي علامة شؤم عند الجاهليين، فنزل عن فرسه واستقسم بالأزلام: هل يضرهم أم لا؟ فخرجت القسمة أن لا يفعل، ولكنه لا يزال طامعًا في الجائزة فعصى الأزلام وما قالته وركب الفرس من جديد حتى لحقهم وصار يسمع صوت الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ، ويرى أبا بكر يلتفت إليه[٤].. فغرست يدا فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين فنزل يخرجها واستقسم بالأزلام مجددًا فخرجت أن لا يضرهم مرة أخرى، فنادى عليهم بالأمان فوقفوا..

وفي الطريق إليهم فكر سراقة أنه ربما سيظهر الرسول عليه الصلاة والسلام على قريش، فذهب إليهم وأخبرهم بأمر الدية التي وضعتها قريش عليهم وأخبار ما يريد الناس بهم، وعرض عليهم الزاد والمتاع، فسمعوا كل ما قال ولم يأخذوا شيئًا منه، فقط قال له عليه الصلاة والسلام (اخف عنا).. أي لا تخبر أحدًا..

لا بد أن هدوء الرسول عليه الصلاة والسلام في الأمر كله كان له كل الأثر في سراقة.. لم يكن يلتفت وكان يقرأ بهدوء.. ثم سمع الأخبار بهدوء بالغ.. ولم يطلب شيئًا سوى (اخف عنا)، وقالها حتمًا بثقة الآمر لا بلهفة الخائف..

فكان أن طلب سراقة منه كتاب أمان!

سراقة يطلب من الرجل المطارد، والذي عليه جائزة بمقدار مائة ناقة حيًا أو ميتًا، كتاب أمان.

وأعطاه!

طلب الرسول عليه الصلاة والسلام من عامر بن فهيرة أن يكتب كتاب أمان لسراقة[٥]..

---

(١) صحيح البخاري ٣٩٠٦.
(٢) مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٢٠٢١.
(٣) صحيح البخاري ٣٩٠٦.
(٤) صحيح البخاري ٣٩٠٦.
(٥) صحيح البخاري ٣٩٠٦.

وقال للرسول عليه الصلاة والسلام أنه سيمر في طريقه على منطقة له فيها إبل وغنم وعرض عليه أن يأخذ منها ما شاء. لكن عليه الصلاة والسلام قال له: **«لا حاجة لي فيها»**[1]. ما كان يمكن أن يكشف طريقه على هذا النحو.

فأخذ سراقة كتاب أمانه ومضى[2]...

فلنتنبه هنا أن سراقة الذي نتصوره عادة كما لو كان مجرد أعرابي طامع في الجائزة، كان أكثر من مجرد ذلك، فقد كان سيدًا في قومه بني مدلج، وكانوا يسكنون وادي قديد في منتصف الطريق تقريبًا بين مكة ويثرب، جنوب غرب المدينة على طريق الساحل... ولعله فكر أن تسليم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما لو تمكن من أسره لن يجعله في مأمن من انتقام يثرب.

ولعل اقتراب سراقة منه عليه الصلاة والسلام في ذلك الظرف، وملاحظته لرباطة جأشه وتماسكه، جعلته يدرك أن هذا الرجل غير عادي، وأن لديه فرصة في الظهور على قريش...

لذلك طلب كتاب أمان!

أكثر من هذا: لقد طلب من الرسول أن يدعو له.

وقد فعل عليه الصلاة والسلام[3].

* * *

ولم يثبت أن وعده عليه الصلاة والسلام بسواري كسرى إن أخفى عنهم...

ما ورد في ذلك كان ضعيفًا[4] والذي ثبت في البخاري أن الرسول عليه الصلاة والسلام دعا عليه أولًا، فتعطلت راحلته، ثم دعا له، عندما طلب هو ذلك.

وحتى لو صح أن عمر بن الخطاب قد منح سراقة سواري كسرى فهذا لا يعني أنه كان ثمة وعد من الرسول عليه الصلاة والسلام له بذلك.

والنص الثابت الصحيح الذي يروي ما حدث وعلى لسان سراقة ونقلًا عن ابن أخيه لم يتطرق لذلك مطلقًا.

ومن الصعب تصور أن ينسى أو يهمل أمرًا كهذا.

سوارا كسرى عصيان على النسيان!

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣.

(٢) صحيح البخاري ٣٩٠٦.

(٣) صحيح البخاري ٣٦١٥.

(٤) وابن حجر في الإصابة -ترجمة سراقة ٣١٢٢ ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ٩١٦- الجزء الثاني صفحة ٥٨١.

البداية

آخر سورة نزلت في مكة كانت سورة المطففين، وكان الخطاب فيها مختلفًا كما لو أنه يفتتح صفحة جديدة من التعامل...

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ المطففين (١:٣)

فهم الأمر على أنه يخص أهل المدينة[1] الذين كانوا معروفين بتطفيفهم في الميزان، وربما كانت الآية تخصهم وتخص أي عملية تطفيف حتى لو كانت لا تستعمل «ميزانًا» ماديًا بشكل مجسم، بل تلك الموازين النفسية التي نستخدمها لتقييم ما حولنا... ونطفف فيها بالضبط كما يفعل أي بائع غشاش...

وربما كانت الآية تريد أن توجه رسالة واضحة لأهل المدينة، وقبل أن يصلهم الرسول عليه الصلاة والسلام: لا مجاملة لعاداتكم وأرباحكم.. البيعة التي قدمتموها تشمل هذا وأكثر.

ولكن ربما الأهم، أن هذه السورة، وهي تتحدث عن «الميزان» تقول وعلى نحو صريح، أن كل ما سبق قد كان في الجزء الفكري، النظري، وقد كان مهمًا جدًا، وضروريًا جدًا، ولكن القادم سيكون في التطبيق، في الجزء العملي.

سيكون الميزان -والمكاييل- رمزًا عمليًا لكل ما سبق.

كل ما نزل من القرآن حتى اللحظة، عن الإيمان، عن الأخلاق، عن قصص الأنبياء، كان مقدمة لا بد منها لما سيأتي لاحقًا...

كل ما سبق كان في الخطة، الآن سيأتي دور التنفيذ..

* * *

ماذا لو قرأنا الآن آخر آيات سورة المطففين، آخر ما أنزل من القرآن في مكة...

هل سنقرأها دون أن نربط بين كل ما مر به الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة وبين هذه الآيات...

---

(١) سنن ابن ماجة ٢٢٢٣ وحسنه الألباني.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ المطففين (٢٩: ٣٦)

هذا كان يحدث فعلًا...

ليس فقط في الحياة الأخرى...

ولكن هذا أيضًا هو ملخص ما حدث في مكة...

ضحكوا منه ساخرين، ثم كذبوه، ثم حاربوه..

لكن ها هي الأمور تسير باتجاه مختلف عما أرادوه..

كذلك في الآيات خاتمة المطففين...

اليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون... على الأرائك ينظرون...

هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون؟

* * *

كان الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه يتجنبون طريق القوافل المعتاد بين مكة ويثرب، لأسباب لا تخفى..

الطريق البديل كان يمر موازيًا تقريبًا لطريق القوافل... يبتعد حينًا ويقترب حينًا، غالبًا كان الدليل يختار طرقًا غير مسلوكة لتفادي عيون قريش أو الطامعين بجائزتها..

في اليوم الثالث بعد الخروج من الغار.. بات الجميع في منطقة وادي لقف[1].

وهي منطقة توازي «الأبواء».. التي يمر بها طريق القوافل.

الأبواء!

(١) التتبع الزماني والمكاني لمعالم طريق الهجرة النبوية في روايات العلماء للفترة ١٥١ -١٣٩٣ هـ باستخدام أساليب التحليل الكمي والبياني/ د. عبد الله بن حسين القاضي/ بحث منشور في مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد ٢٣، ربيع الثاني - جمادي الآخر ١٤٣١ / إبريل - يونيو ٢٠١٠.

http: //www. abdullah-alkadi. net/quest1/Hijrah. pdf

كان قد مر بها عليه الصلاة والسلام قبل ذلك.

قبل ذلك بكثير، قرابة الخمسين عامًا.

كان طفلًا في السادسة، لكن من الصعب على أي طفل أن ينسى ما حدث يومها.

ذكرى كهذه ستبدو دومًا كما لو أنها حدثت للتو.

يومها كان مع أمه عائدين إلى مكة بعد زيارة لأخوال جده بني النجار في يثرب.

وفي منتصف الطريق تقريبًا ماتت!

ثم دفنت في الأبواء. وعاد ابن السادسة إلى مكة وحيدًا مع بقية القافلة. حدث كل شيء سريعًا مثل طعنة لا تنسى في الذاكرة.

لعل الدليل يومها أشار إلى الأبواء، غربي وادي قلف، حيث باتوا ليلتها.

ولعله عليه الصلاة والسلام نظر إلى الأفق بالاتجاه الذي يضم رفات أمه... كم تغير كل شيء خلال هذه العقود التي تفصل بين الرحلتين، ها هو يعود إلى يثرب في رحلة مختلفة عن كل ما عرفه العرب...

تراه تذكر المنام الذي رأته أمه يوم أنجبته؟

النور الذي خرج منها ليضيء قصور الشام!

كان النور قد سار ووصل الآن إلى يثرب... وستبقى مسيرة النور مستمرة إلى أن تضيء مناطق لم تسمع آمنة بوجودها...

لا أتحدث عن قارات ومدن لم تسمع بها، بل عن النور يتوغل في مجاهل النفس البشرية، يضيء حياة آخرين ولدوا بعد قرون مما رأته السيدة آمنة.. يجدون أنفسهم في حياته عليه الصلاة والسلام، في كلمة قالها، في موقف له، في دعاء دعاه ذات شدة، في تسبيحة ذكر قالها وقت رخاء...

مهما كان فهمها لدور ابنها عميقًا... فلا يمكن أن تكون استوعبت «كل هذا النور»...

بطريقة ما، ما رأته السيدة آمنة لا يمكن له أن يتوقف...

الأحداث تنتهي، تصبح فعلًا ماضيًا لا سبيل لتغيير صيغته...

لكن النور الخارج من تلك الأحداث، سيبقى يسير..

وستبقى سيرة هذا النور مستمرة...

عليه الصلاة والسلام...

بدأ العمل ١٦/ ٣ / ٢٠١٦

أعيد النظر في ١٤/ ١١/ ٢٠١٧

انتهى في ٨ / ١ / ٢٠١٨

ترتيب نزول القرآن المكي بالتسلسل بالتوازي مع أحداث في السيرة

ترتيب نزول القرآن المكي بالتسلسل بالتوازي مع أحداث في السيرة

(!) يرجى الانتباه إلى أن الترتيب ليس قطعيا في تمامه وأن العلاقة بين السنوات تقريبية في معظمه

(↑) الأسهم تشير إلى وجود ما يدل على وجود خطأ في ترتيب النزول، اتجاه الأسهم يشير إلى كون الترتيب البديل سابق أو لاحق لترتيب النزول المستخدم

(0) تشير الارقام إلى ترتيب النزول

السنة الأولى للبعثة (٦١٠ ميلادي)

1. العلق
2. القلم
3. المزمل
4. المدثر[2]
5. الفاتحة
6. المسد
7. التكوير
8. الأعلى
9. الليل
10. الفجر

نزول الوحي
إسلام المقربين
السخرية من جانب قريش
"قريش تستنفر من ذكر لفظ "الرحمن
عداء أبي لهب
طلاق رقية من عتبة بن أبي لهب؟[1]
وفاة ورقة بن نوفل

فتور الوحي لمدة قد تتجاوز السنة / غير محدد

السنة ٣ - ٤ للبعثة

11. الضحى
12. الشرح
13. العصر
14. العاديات
15. الكوثر
16. التكاثر
17. الماعون
18. الكافرون
19. الفيل
20. الفلق
21. الناس
22. التوحيد
23. النجم[3] (↓)
24. عبس
25. القدر
26. الشمس
27. البروج
28. التين
29. قريش
30. القارعة
31. القيامة
32. الهمزة
33. المرسلات

عودة الوحي
وفاة الطاهر ابن الرسول
دخول المسلمين دار الأرقم
قريش تعرض التناوب في العبادة
عدد المسلمين يتجاوز الأربعين
اضطهاد شديد للمسلمين
الرسول يحاور كبار قريش لإقناعهم بالإسلام أو لحماية المسلمين
شراء أبي بكر لمن أسلم من العبيد
مقتل سمية

السنة ٥-٦ للبعثة

34. ق
35. البلد
36. الطارق
37. القمر
38. ص
39. الأعراف
40. الجن[4] (↓)

هجرة الحبشة الأولى
قريش تشتكي إلى أبي طالب
تعرض الرسول للأذى
(حادثة سلا الجزور)
بدء طوال السور
إسلام حمزة وعمر بن الخطاب
عدد المسلمين يتجاوز المائة

السنة ٧ للبعثة

41. يس
42. الفرقان
43. فاطر
44. مريم[5] (↑)
45. طه[6] (↑)

هجرة الحبشة الثانية
فشل قريش في إرجاع مهاجري الحبشة
اللقاء الأول مع وفد الأوس وإسلام إياس بن معاذ
إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي من قبيلة دوس

١- ربما يكون الطلاق قد حدث لاحقا وليس فور نزول السورة، لكن العداء كان موجودا بالتأكيد
٢- هناك أحاديث تفهم بأن سورة المدثر هي ثاني ما أنزل من القرآن، لكن سياق السورة والدعوة إلى الإنذار لا ينسجم مع ذلك
٣- بعض الآيات في سورة النجم ترتبط مع حادثة وجود المسلمين في الحبشة بينما الهجرة لم تكن قد حدثت بعد، لذا فمن الممكن أن تكون السورة قد نزلت في هذه الفترة لكن الآيات الخاصة بتلك الحادثة نزلت لاحقا، ومن الممكن أيضا أن يكون هناك خطأ في الترتيب
٤- ترتبط السورة مع عودة الرسول عليه الصلاة والسلام من الطائف لذا فربما ترتيبها هنا خطأ
٥- السورة استخدمت من قبل المسلمين في رد فريق قريش عند النجاشي لذا فالغالب أنها أنزلت قبل الهجرة الثانية للحبشة
٦- قصة إسلام عمر ارتبطت بسورة طه، لم يصح سند القصة، فإذا صح، فترتيب سورة طه يجب أن يكون قبل هذا بكثير

السنة ١٠-٩-٨ للبعثة[7]

	السورة	الأحداث
46	الواقعة	يوم بعاث بين الأوس والخزرج
47	الشعراء	مطالبة قريش لأبي طالب بتسليم الرسول
48	النمل	حصار شعب أبي طالب
49	القصص	نقض صحيفة المقاطعة
		وفاة أبي طالب / وفاة السيدة خديجة / 10 للبعثة

السنة ١١ للبعثة[9]

	السورة	الأحداث
50	الإسراء[8]	الإسراء والمعراج
51	يونس	رحلة الطائف
52	هود	الدخول في جوار مطعم بن عدي
53	يوسف	لقاء الرسول مع وفد الأوس والخزرج في موسم الحج
54	الحجر	لقاء مع وفد همدان
55	الأنعام	
56	الصافات	
57	لقمان	

السنة ١٢ للبعثة

	السورة		السورة		السورة
78	الحاقة	68	الغاشية	58	سبأ
79	المعارج	69	الكهف	59	الزمر
80	النبأ	70	النحل	60	غافر
81	النازعات	71	نوح	61	فصّلت
82	الانفطار	72	إبراهيم	62	الشورى
83	الانشقاق	73	الأنبياء	63	الزخرف
84	الروم	74	المؤمنون	64	الدخان
		75	السجدة	65	الجاثية
		76	الطور	66	الأحقاف
		77	الملك	67	الذاريات

- إنذار الرسول عليه الصلاة والسلام لقريش وبدء تصاعد اللهجة
- قريش تعرض المال والنساء لقاء التنازل عن الدعوة
- سنة قحط على مكة
- بيعة العقبة الأولى في رجب
- إرسال مصعب بن عمير إلى يثرب
- انتشار الإسلام في يثرب
- بيعة العقبة الثانية في ذي الحجة
- احتلال انقرة وسقوط جزيرة رودس وتهديد القسطنطينية من قبل الفرس 622 م

السنة ١٣ للبعثة

	السورة	الأحداث
85	العنكبوت	وفاة مطعم بن عدي
86	المطففين	قريش تجتمع في " يوم الزحمة" وتقرر قتل الرسول
		الهجرة في ربيع الأول/ الشهر الثالث من السنة 623 م

7- يلاحظ قلة عدد السور في هذه الفترة وربما يعود ذلك للحصار وصعوبة نقل السور النازلة إلى المسلمين خارج الحصار فأبطأ الوحي لهذا

8- ربما نزل مطلع السورة في هذه الفترة، بينما باقي السورة كان قد نزل في فترة الحصار

9- يلاحظ كثرة السور التي نزلت بعد الاسراء في عامي 11 و 12 للبعثة وربما يعود ذلك لأن المعراج قد زاد من طاقته عليه الصلاة والسلام على استلام الوحي



عن الكاتب

أحمد خيري العمري، ولد في بغداد عام 1970م، طبيب أسنان وكاتب، له أكثر من أربعة عشر كتابا وعشرات المقالات بين الفكر والأدب، عرف بمنحاه التجديدي في الفكر الإسلامي وتأثيره على الشباب، اختير من مركز أبحاث Global Influence السويسري كواحد من ضمن مائة اسم مؤثر في تشكيل الرأي العام في العالم العربي لعام 2017.

عن الكتاب

ينقلك الكتاب إلى سيرته عليه الصلاة والسلام حتى نهاية المرحلة المكية لكن على نحو مختلف تماما عن كل ما عرفته عن السيرة سابقا...

أن تعرف **"عن"** أحداث السيرة شيء مختلف تماما عن أن **"تعيشها"** وتدخل **"فيها"**

أن تنظر إلى السيرة من زماننا شيء مختلف تماما عن أن تنظر إليها من داخلها.

الكتاب ينقلك من **"سطح الأحداث"** إلى عمقها وتضاريسها الداخلية.

وينقلك من دور **"المشاهد"** إلى المتفاعل **"المشارك"** في الأحداث.

ويجعلك بطريقة ما، تستشعر أنك أقرب إلى **"حضوره"** الشريف، عليه أفضل الصلاة والسلام، على نحو مختلف تماما عن أي تجربة سابقة.

